

كُنْزُ الْفَوَائِدِ
لِلْإِمَامِ أَبِي الْفَتْحِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عُمَرَ
الْكَرَاجِيِّ الطَّرَابُلسِيِّ الْمَوْتَرِيَّةِ

كنز الفوائد

لِلإمام أبي الفتح الشيخ محمد بن علي بن عثمان
الكراجكي الطرابلسي المتوفى ٤٤٩هـ

حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ
العلامة الشيخ عبد الله نعمة

الجزء الأول

دار الأضواء

بيروت • لبنان

جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار الأضواء

بيروت - النجيرة - مشارف عبد الله الحاج - بناية النهضة
ص.ب. ٢٥/٤٠ - ربيع النجيرة - حيدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلواته وتحياته على أكرم رسله، سيدنا محمد وآله
المصطفين الأبرار، وصحبه الأخيار.

وبعد فأنا أمام كتاب « كنز الفوائد » الذي يعتبر - بحق - من الآثار
القيمة الحية، التي تركها لنا سلفنا العلماء الخالدون، قد ضم بين دفتيه مجموعة
كبيرة من أبحاث علمية، متعددة الألوان، مختلفة المواضيع، قد تبوأ مكانةً
كرمية لدى العلماء والباحثين، وأولوه إهتمامهم وعنايتهم، فكان من المصادر التي
اعتمدوها واخذوا عنها.

وهذا الكتاب من آثار العلامة الفقيه المتكلم الشيخ أبي الفتح محمد بن علي
الكراجكي الطرابلسي، من ألع العلماء الإسلاميين في القرن الخامس الهجري،
وأكثرهم إحاطة بمعارف عصره، وأوفرهم إنتاجاً ونشاطاً في سبيل العقيدة
الإسلامية، ونعرف ذلك من ثبت مؤلفاته كما يأتي إن شاء الله.

وقد طبع هذا الكتاب في إيران منذ أكثر من ثمانين سنة على المطابع
الحجرية ونفدت نسخة وأصبحت نادرة الوجود، رغم رداءة طباعته وكثرة
أغلاطه. لذلك أصبح مجهولاً لا يعرفه إلا قليل.

وقد عنيت منذ مدة طويلة بنسخه عن النسخة المطبوعة، وبترتيبه
والتعليق عليه، رغبةً في نشره بين القراء، وتعميماً للفائدة، وإبرازاً لآثار
علمائنا الأبرار وجهودهم في مجالات العلم والثقافة الإسلامية.

وكان من حق هذا الكتاب أن يصدر بجلته الجديدة، منذ زمن، إلا أن الظروف القاسية التي مرت بها البلاد حالت دون ذلك.

وأخيراً قيَّض الله سبحانه الصديق البر الحاج جعفر الدجيلي صاحب دار الأضواء، فتولى طبعه وإخراجه، فله شكري ودعائي له بالتوفيق. والله سبحانه يتولى الصالحين العاملين.

٤ ربيع الاول سنة ١٤٠٥ هـ

٢٧ / ١١ / ١٩٨٤ م

عبد الله نعمة

بسم الله الرحمن الرحيم وله الحمد

مقدمة

عاش أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي مؤلف هذا الكتاب « كنز الفوائد » الشطر الكبير من حياته ما بين النصف الأخير من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس للهجرة .

وكانت هذه الفترة التي عاشها الكراجكي بالذات حافلة إلى حد كبير بضروب من الانقسامات السياسية الهائلة ، وقيام دول صغيرة ، منيت بها المملكة الإسلامية (الأم) ، وانفصلت عنها .

فقد استقل بنو بويه بفارس والري وأصبهان والجل .

وأصبحت كرمان في يد محمد بن الياس ، والموصل وديار بكر وزبيعة ومضر في أيدي الحمدانيين ، والمغرب وأفريقيا في أيدي الفاطميين ، والأندلس في أيدي الأمويين ، وخراسان في يد السامانيين ، والأهواز وواسط والبصرة في أيدي البريديين ، واليامة والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي ، وجرجان وطبرستان في أيدي الديلم .

ولم يبق في يد العباسيين سوى بغداد وأعماها ، محتفظين بسيادة معنوية على هذه الدويلات المنفصلة عنها ، التي كانت تقدم للخليفة العباسي في بغداد الدعاء والخطب في المساجد أيام الجمع والأعياد وفي المناسبات الدينية ، وتشترى منه الألقاب^(١) .

(١) أنظر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لآدم متز ، ج ١ ص ١ وما بعدها .

كما حفلت هذه الفترة أيضاً بضروب عديدة من المذاهب والنحل، وبانقسام كبير في الآراء والنزعات، في مجادلات ومناظرات عنيفة وحادة، بصراحة وحرية، حفظتها لنا تلك المؤلفات التي وضعت في هذه الفترة، والتي تبرز لنا تلك الألوان المذهبية بوضوح وعنف، حول القدم والحدوث، وحول الخالق وصفاته، وحول أفعال الإنسان في الجبر والإختيار، وحول الخلافة والإمامة وما إليها من العصمة والنص والإختيار، وحول ما يراه المعتزلة من نظرية الأحوال، ونظرية الأشاعرة حول نظرية الكسب، وحول ما يراه الإسماعيلية والقرامطة من الباطن والظاهر، وحول جميع هذه المواضيع الكلامية وغيرها، التي كانت محور المناظرات العلمية والفكرية آنذاك.

فقد برز في هذه الفترة من شيوخ الأشاعرة أمثال أبي بكر محمد بن الطيب البصري المعروف بالقاضي الباقلاني المتوفي سنة (٤٠٣هـ).
ومن المعتزلة القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني شيخ المعتزلة في عصره المتوفي سنة (٤١٥هـ).

وأبو الحسن البصري محمد بن علي بن الطيب المتوفي سنة (٤٣٠هـ).
ومن الشيعة الإمامية الشيخ محمد بن محمد بن النعمان التلعكبري المعروف بالشيخ المفيد المتوفي سنة (٤١٣هـ) وهو عالم الشيعة في عصره.
والشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي المتوفي سنة ٤٣٦هـ. وتلميذه أبو الفتح الكراجكي المتوفي سنة (٤٤٩هـ).

وفي هذه الفترة بالذات تنفس الشيعة الإمامية الصعداء حين أخذ ينحسر عنهم الكثير من الحرمان والكبت والملاحقة، التي عاشوها طيلة أكثر العهود الماضية، وتنسموا شيئاً من حريتهم، واستطاعوا الإعلان عن آرائهم واتجاهاتهم، مما لم يحظوا به في عصور سابقة. ذلك حين عطف بنو بويه على الشيعة، وسيطروا على الخليفة في بغداد، الذي كان مصدر ذلك الكبت والحرمان، وتحكموا بمقدرات الدولة وبمصيرها، وأصبح الخليفة العباسي دمية بين أيديهم يحركونها كيفما شاؤوا

وفي هذه الفترة بالذات أيضاً، استطاع الشيخ المفيد وتلميذه الشريف المرتضى وتلامذهما، أن ينشطوا للقيام بواجبهم الديني والعلمي دون خوف أو تقية، وأن يتغلغلوا في دفع الفكرة الشيعية إلى المناطق التي كانت موصدة أمامهم من قبل، كإيران وأكثر جهات العراق وسوريا، وأن يبرزوا التشيع في حقيقته النقية الصافية الممدودة بالمنطق والأدلة العلمية، وقد أخذوا على عاتقهم مهمة الدعوة الإسلامية، وصد هجمات الملاحدة من القرامطة والغلاة وغيرهما.

وكان أبو الفتح الكراجكي من أبرز من تحملوا المسؤولية في هذا السبيل. وكان الدور الذي قام بأعبائه مهماً وخطيراً. فقد قدر له أن يعيش في هذا الشجر الشامي وفي الساحل اللبناني، ليقوم بترسيخ العقيدة الإسلامية، والحد من النزعة الإسماعيلية، يوم كانت فلسطين ولبنان واقعة تحت نفوذ الدولة الفاطمية، وحين كانت الفكرة الإسماعيلية الفاطمية تعيش في أكثر بقاعها. وقد إختار الكراجكي مدينة طرابلس اللبنانية قاعدة لإنطلاقه وعمله، حين كان أمراء بني عمار الشيعة يتولون حكمها، ويسيطرون عليها.

ومن هذه القاعدة - طرابلس - انطلق الشيخ الكراجكي يناظر ويجادل ويعلم، بكل ما يملك من طاقة علمية وفكرية، وصمد في وجه الموجة الإسماعيلية العارمة، واستطاع أن يحد من نشاطها، حتى انحسرت عن أكثر هذه المنطقة، وحلت مكانها الفكرة الشيعية الأمامية، وأصبحت مذهب الأكثرية لسكان المناطق الساحلية في ذلك العهد.

وشمل في نشاطه مقاومة سائر المخالفين، كالمعتزلة والأشاعرة، وأهل الديانات الأخرى، كاليهود والنصارى والبراهمة وسواهم، كما يبدو ذلك من كتبه والفصول التي أدرجها في كتابه (كنز الفوائد).

كل ذلك بفضل جهوده المتواصلة، وبما كان يملكه من شدة المعارضة وروح الجدل، ووفور العلم، وعمق الملاحظة، وتنوع الثقافة، وقوة الحجة، وبما كان يتمتع به من وعي وإدراك، ومن حيوية وحركة وصبر وعملٍ دائم.

مؤلف الكتاب

هو أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان المعروف بالكراجكي، نسبةً إما إلى (كراجك) وهي قرية تقع على باب مدينة (واسط) العراقية التي بناها الحجاج الثقفي والي الأمويين سنة ٨٣/٨٤هـ^(١)، وكان بينها وبين كل من البصرة والكوفة والأهواز وبغداد مقدار واحد، وهو خمسون فرسخاً^(٢).

وهذا ما قاله كثير من مترجميه.

وإما نسبةً إلى عمل الكراجك وهي الخيم كما في لسان الميزان^(٣).

وقد وصفه غير واحد بالخيمي نسبةً إلى (الخيم) قرية أو محلة في مصر، كان أبو الفتح قد نزلها.

والأرجح أن نسبته بالكراجكي إنما هي إلى عمل الخيم، التي هي الكراجك كما قاله في لسان الميزان، إما لأنه هو كان يعملها أو أن الذي يعملها أحد آبائه فنسب إليها. بدليل ما قاله العماد الحنبلي: «وفيها توفي أبو الفتح الكراجكي أي الخيمي» الذي يفسر الكراجكي بالخيمي.

كما ينسب الكراجكي إلى طرابلس الشام، فيوصف بالطرابلسي، لإقامته فيها مدة طويلة أيام حكامها بني عمار، وقد عده المجلسي في كتاب البحار في فقهاء طرابلس، كما يفهم من عبارته التالية:

«ومن أجلاء علمائنا وفقهائنا ورؤسائهم فقهاء حلب، وهم جمع كثير، ومنهم

(١) و(٢) أنظر: التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٣١١.

(٣) ج ٥ ص ٣٠٠

فقهاء طرابلس، ومنهم الشيخ الأجل السعيد أبو الفتح الكراجكي نزيل الرملة البيضاء» (١).

ويعزز هذه النسبة وإقامته الطويلة في طرابلس، أنه ألف أثناء إقامته فيها عدة مؤلفات، ومنها:

- ١- عدة المصير في حجج يوم الغدير، ألفه في طرابلس للشيخ أبي الكتائب ابن عمار.
 - ٢- التلقين لأولاد المؤمنين.
 - ٣- التهذيب متصل بالتلقين.
 - ٤- نهج البيان في مناسك النسوان، أمره بعمله الشيخ الجليل أبو الكتائب أحمد بن محمد بن عمار بطرابلس.
 - ٥- معونة الفارض على استخراج سهام الفرائض، ألفه بطرابلس لبعض الإخوان.
 - ٦- ردع الحاصل وتنبية الغافل، وهو نقض كتاب أبي المحاسن المعري الذي رد به على الشريف المرتضى في المسح على الرجلين، ألفه في طرابلس.
 - ٧- مختصر طبقات الوراث، عمل للمبتدئين بطرابلس.
- كما ينسب إلى (صور) المدينة الساحلية اللبنانية، فقد وصفه الطهراني في الطبقات بالصوري، إذ أقام فيها، وفيها توفي ودفن، وقد وضع فيها بعض مؤلفاته، منها: الأصول إلى مذهب آل الرسول سنة ٤١٨هـ.

★ ★ ★

وقد اتفقت كلمة مؤرخيه على أنه توفي سنة (٤٤٩هـ) (٢) في الثاني من ربيع الآخر (٣).

(١) البحار ج ١٠٥ ص ٧٦.

(٢) أنظر: شذرات الذهب للعماد الحنبلي ج ٣ ص ٢٨٣، ولسان الميزان للعسقلاني ج ٥ ص ٣٠٠ ومروءة الزمان لليافعي ج ٣ ص ٧٠ والقمي في الكنى والألقاب ج ٣ ص ٩٤ ومعجم رجال الحديث م ١٦ ص ٣٧٦.

(٣) أنظر: لسان الميزان ج ٥ ص ٣٠٠.

أما تاريخ ولادته فقد أهملته كتب التراجم، لكن وجدنا الكراجكي في كتابه (كنز الفوائد) يروي عن أبي الحسن علي بن أحمد اللغوي المعروف بركاز (بما فارقين) في سنة ٣٩٩ هـ.

وهذا يعني أن الكراجكي كان إذ ذاك في سن تمكنه من تلقي الرواية والأخذ عن الرواة، وهذا عادة لا يكون إلا في سن الخامسة والعشرين من عمره، على أدنى الإقتراضات، وعلى هذا فتكون ولادته سنة ٣٧٤ هـ. أي أنه عاش خمساً وسبعين سنة تقريباً.

والكراجكي من أئمة عصره في الفقه والكلام والفلسفة والطب والفلك والرياضيات وغيرها، وقد وصفه أصحاب التراجم بما يدل على مكانته العلمية وشخصيته البارزة في أكثر معارف عصره. قال العباد الحنبلي في شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٨٣ في حوادث سنة ٤٩٩ هـ.

« وفيها توفي أبو الفتح الكراجكي أي الخيمي رأس الشيعة وصاحب التصانيف محمد بن علي، مات بصور في ربيع الآخر، وكان نحوياً لغوياً، منجماً، طبيباً، متكلماً متقناً، من كبار أصحاب الشريف المرتضى، وهو مؤلف كتاب «تلقين أولاد المؤمنين».

وقريب منه ما قال الياضي في مرآة الزمان (ج ٣ ص ٧٠).

وقال العسقلاني في لسان الميزان ج ٥ ص ٣٠٠ «محمد بن علي الكراجكي، بفتح الكاف وتخفيف الراء وكسر الجيم ثم الكاف، نسبة إلى عمل الخيم وهي الكراجك، بالغ ابن طي^(١) في الشناء عليه في (ذكر الإمامية)، وذكر أن له

(١) هو يحيى بن حميد بن ظافر بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن الحسن بن صالح بن علي بن سعيد بن أبي الخير الطائي أبو الفضل البخاري الحلبي المعروف بابن أبي طي (٥٨٥ - ٦٥٠ هـ) أنظر: طبقات الشيعة القرن السابع ص ٢٠٥. وله ترجمة في لسان الميزان ج ٦ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ وقال: أنه ولد بحلب سنة ٥٧٥ هـ وله تصانيف عدة منها (معادن الذهب في تاريخ حلب) و(شرح نهج البلاغة) في ست مجلدات و(فضائل الأئمة) و(خلاصة الخلاص في آداب الخواص) في عشر مجلدات و(الحادي في رجال الإمامية) و(سلك النظام في أخبار الشام)، أخذ الفقه عن ابن شهر آشوب وكان بارعاً في الفقه على مذهب الإمامية، وله مشاركة في الأصول والقراءات.

تصانيف في ذلك، وذكر أنه أخذ عن أبي الصلاح،^(١) واجتمع بالعين زربي، ومات في ثاني ربيع الآخر سنة ٤٤٩ هـ.

وقال الحر العاملي في الأمل:

عالم فاضل متكلم فقيه محدث ثقة جليل القدر. ثم ذكر بعض مؤلفاته.

وقد أطراه عدد من مترجميه، فوصفوه بالشيخ المحدث الفقيه المتكلم المتبحر الرفيع الشأن من أكابر تلامذة المرتضى والشيخ (أي المفيد)، والديلمى، والواسطي، وسلار وأبي الحسن ابن شاذان القمي، وهو من أجلة العلماء والفقهاء والمتكلمين، وأسند إليه جميع الإجازات^(٢). ويعبر عنه الشهيد الأول العاملي كثيراً، في كتبه بالعلامة، مع تعبيره عن العلامة الحلبي بالفاضل^(٣).

وقد وصفه ابن شهر آشوب في كتاب معالم العلماء ص ٧٨٨ بالقاضي، وتابعه على ذلك السيد الكبير مهدي الطبطبائي في رجاله فقال: أبو الفتح القاضي شيخ فقيه متكلم من تلامذة الشيخ المفيد.

وربما جاءت كنيته بأبي القاسم، وإنه من ديار مصر ويحتمل أنه من ديار الشام. ويؤيد هذا الإحتمال الأخير ما ذكره صاحب لسان الميزان من أن الكراجكي نسبة إلى عمل الكراجك وهي الخيم، وعلى هذا فهو ليس مصرياً كما احتمله بعضهم من أنه نسبة إلى الخيم قرية في مصر، كما أنه ليس لدينا ما

(١) هو تقي الدين بن النجم الحلبي من تلاميذ الشريف المرتضى، له عدة مؤلفات، منها. (تقريب المعارف) و(البداية)، و(البرهان على ثبوت الإيمان) و(الكافي في الفقه). وصفه الشهيد الثاني، بالشيخ الفقيه السعيد خليفة المرتضى في البلاد الحلبية.

أنظر: (الكنى والألقاب ج ١ ص ٩٧). وفي لسان الميزان ج ٢ ص ٧١: تقي بن عمر بن عبيد الله ابن محمد الحلبي أبو الصلاح، مشهور بكنيته من علماء الإمامية ولد سنة ٣٧٤ ومات بحلب سنة ٤٤٧، أخذ عن أبي جعفر الطوسي وغيره، ورحل إلى العراق فحمل عن الشريف المرتضى.

(٢) يراجع في ذلك بحار الأنوار ج ١٠ ص ٢٦٣ هامش للمعلق، والكنى والألقاب ج ٣ ص ٩٤. وأنظر: معجم رجال الحديث ج ١٦ ص ٣٧٦ ومقدمة الطبعة القديمة لكنز الفوائد.

(٣) أنظر الكنى والألقاب ج ٣ ص ٩٤.

يدل على أنه عراقي نسبةً إلى كراجك وهي قرية على باب واسط كما تقدم، بل المحتمل قريباً أنه من بلاد الشام.

وقد وصف المؤلف كما سبق بالقاضي، ولا نعرف البلد الذي كان فيه قاضياً، ولا الجهة التي أسندت إليه هذا المنصب، وإن كان المظنون أن أمراء بني عمار حكام طرابلس هم الذين أسندوا إليه القضاء وفي مدينة طرابلس الشام بالذات.

وكان المؤلف الكراجكي جياًشاً بكل فن، يطلب المعرفة أينما كانت، وفي حركة دائبة بدون ملل، يفيد ويستفيد، فقد كان صاحب رسالة إسلامية وعلمية، يعيشها ويدعو إليها، ويتجول في سبيلها في كثير من العواصم الإسلامية، وبخاصة الشامية منها، ويجول فيها عرضاً وطولاً، إشباعاً لرغبته في نشر رسالته، فلم يقر له قرار، فكان في مصر سنة ٤٠٧ و ٤٢٦، وفي الرملة من فلسطين سنة ٤١٠ و ٤١٢^(١) و ٤١٦، وفي مكة المكرمة سنة ٤١٢، وفي بلبس سنة ٤١٨، وفي ميفارقين سنة ٣٩٩.

كما كان يتجول بين دمشق وبغداد، وحلب وطبرية، وبين صيدا، وصور وطرابلس، ويقيم في كل منها مدة طويلة، يؤلف فيها ويصنف، كما يظهر من ثبت مؤلفاته، ومن لقاءاته مع أهل العلم، مما ذكره في كتابه (الكنز).

وحيث يستقر في بلد يعكف على التأليف في مواضيع الساعة آنذاك. ومن هنا وجدنا شطراً من مؤلفاته وضعها بالقاهرة، وبعضها في الرملة، وآخر في دمشق وطبرية وصيدا وصور وطرابلس وغيرها.

كما كان يؤلف لبعض شخصيات عصره من أمراء وقواد وعلماء وقضاة، وثبت مؤلفاته يشير إلى هذا.

وكان على إلمام تام بمعارف عصره، كما يظهر ذلك من مؤلفاته المتعددة المواضيع، وذا ثقافة واسعة.

(١) يقول الكراجكي ص ٢٤٧ من طبعة الكنز القديمة: ورأيت بالرملة في جمادى الآخرة من سنة ٤١٢ شريفاً من أهل السند يعرف بأبي القاسم عيسى بن علي العمري من ولد عمر بن أمير المؤمنين (ع).

فقد كتب في الفقه والأصول، والحساب، والرياضيات والفلك، والآدب والحديث، والفلسفة والكلام، والنحو، والأخلاق والتاريخ والرجال، والتفسير، وغير ذلك مما تشير إليه عناوين كتبه التي وضعها. ومن هنا نجد مترجيه يصفونه بأنه نحوي لغوي منجم طبيب متكلم، محدث فقيه متفنن على ما سبق.

« شيوخ المؤلف وأساتذته »

أخذ أبو الفتح الكراجكي العلم عن جماعة كثيرة من أعلام عصره، كما أخذ الحديث من عدد كبير من الرواة والعلماء من شيعة وسنة، وروى عن أكثرهم في كتابه (الكنز).

ومنهم:

- ١- الشيخ المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي العكبري البغدادي المعروف بابن المعلم (٣٣٦/٣٣٨ - ٤١٣ هـ).
- ٢- الشريف المرتضى علي بن أبي أحمد الحسيني بن موسى الموسوي المعروف بذي المجدين وبعلم الهدى، والمكنى بأبي القاسم ٣٥٧ - ٤٣٦ هـ.
- ٣- أبو يعلى حمزة بن عبد العزيز الديلمي الطبرستاني المعروف بسالار ومعناه الرئيس أو المقدم من تلاميذ المفيد والمرتضى، توفي سنة ٤٤٨ هـ وقيل سنة ٤٦٣ هـ.
- ٤- أبو عبدالله الحسين بن عبدالله بن علي المعروف بابن الواسطي المعاصر للشريف المرتضى.
- ٥- أبو المرجا (أبو الرجاء) محمد بن علي بن طالب البلدي وهو من روى عنه بالقاهرة.
- ٦- الشريف أبو عبدالله محمد بن عبيدالله بن الحسين بن طاهر الحسيني.
- ٧- القاضي أبو الحسن محمد بن علي بن محمد بن صخر الأزدي البصري، روى عنه بمصر سنة ٤٢٦ هـ قراءة عليه.
- ٨- أبو محمد عبدالله بن عثمان بن حماس، روى عنه بمدينة الرملة.
- ٩- أبو القاسم هبة الله بن ابراهيم بن عمر الصواف، روى عنه بمصر.

- ١٠- القاضي أبو الحسن أسد بن إبراهيم بن كليب السلمي الحراي نزيل بغداد، روى عنه في مدينة الرملة سنة ٤١٠هـ، وقد أكثر الراوية عنه في كنز الفوائد، وقال ابن عساكر عنه: كان من أشد الشيعة وكان متكلماً. مات بعد الأربعائة (١).
- ١١- أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان القمي، روى عنه الكراجكي بمكة المكرمة سنة ٤١٢هـ (٢) وأورد في الكنز كثيراً من رواياته عنه، وهو ابن أخت أبي القاسم جعفر بن محمد بن قولديه القمي الشهير المتوفى سنة ٣٦٧/٣٦٨هـ.
- ١٢- الحسين بن محمد بن علي الصيرفي البغدادي، قال الكراجكي عنه: وكان مشتهراً بالعناد لآل محمد والمخالفة لهم. وسمعت من هذا الراوي المخالف عدة فضائل لآل محمد (ص) سخره الله لنقلها فرواها راعماً حجة عليه بها (٣).
- ١٣- الشريف أبو منصور أحمد بن حمزة الحسيني العريضي، روى عنه في الرملة.
- ١٤- أبو العباس أحمد بن إسماعيل بن عنان، روى عنه مجلب (٤).
- ١٥- أبو الحسن علي بن أحمد اللغوي المعروف بابن ركاز، روى عنه في ميفارقين سنة ٣٩٩.
- ١٦- القاضي أبو الحسن علي بن محمد السباط البغدادي.
- ١٧- أبو الحسن طاهر بن موسى بن جعفر الحسيني، روى عنه بمصر سنة ٤٠٧هـ.
- ١٨- أبو سعيد أحمد بن محمد بن أحمد الماليني الهروي، روى عنه في الرملة سنة ٤١٠هـ في شوال.

(١) أنظر: لسان الميزان ج ١ ص ٣٨٢.

(٢) ورد في الكنى والألقاب ج ١ ص ٣١٨ تاريخ قراءة الكراجكي سنة ٣١٢ وهو اشتباه دون ريب.

(٣) أنظر كنز الفوائد ص ١٥٤ من الطبعة القديمة.

(٤) أبو العباس هذا يروي عن أبي الفضل محمد بن عبد الله الشيباني شيخ عدة من مشايخ الطوسي (الطبقات ج ٢ ص ٧٣).

- ١٩- أبو العباس أحمد بن نوح بن محمد الحنبلي الشافعي ، روى عنه بالرملة سنة ٤١١هـ حديثاً عن المعمر الشرقي .
- ٢٠- أبو الحسن علي بن الحسن بن مندة ، روى عنه الكراجكي حديث الطائر المشوي في طرابلس سنة ٤٣٦هـ ، وأورد هذا الحديث في كتابه (تفضيل علي على غيره) .
- ٢١- أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي ، شيخ الطائفة وصاحب كتابي التهذيب والإستبصار (٣٨٥ - ٤٦٠هـ) ذكره كما حكى عن منتجب الدين صاحب الفهرست في مشايخ الكراجكي .
- ومن الملاحظ أن الكراجكي لم يرو حديثاً واحداً عنه في كتابه (كنز الفوائد) . ومن هنا شك بعضهم في صحة ذلك .

« تلاميذ المؤلف »

عرفنا من تلاميذه الذين أخذوا عنه جماعة وهم:

- ١- الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن الحسين الخزاعي المعروف بالمفيد النيسابوري ، وهو من شيوخ العلماء ، صاحب التصانيف ، وعم والد الشيخ أبي الفتوح الرازي جعفر بن علي بن محمد بن أحمد .^(١)
- ٢- أبو محمد ريجان بن عبدالله الحبشي .^(٢)
- ٣- السيد أبو الفضل ظفر بن الداعي بن مهدي العلوي المصري العمري الإسترابادي ، كان فقيهاً صالحاً ، يروي عن عبدالله بن عمر الطرابلسي .

(١) هو تلميذ الرضي والمرتضى والطوسي وسالار وابن البراج والكراجكي (الذريعة ج ٢ ص ٣١١) .

(٢) في لسان الميزان ج ٢ ص ٤٦٩: ريجان الحبش أبو محمد السبيعي الإمامي المصري ، تفقه على علي ابن عبد الله بن كامل ، روى عنه شاذان بن جبريل ، قال: ابن أبي طي قال لي أبي: كان الفقيه ريجان من أحفظ الناس ، وقيل كان يصوم كثيراً ولا يأكل إلا من طعام يعلم أصله ، وكان ابن رزيك (أي الوزير الفاطمي) يعظمه ويحترمه ، كان بعد الخمسين وخمسة .

- ٤- عبد العزيز بن أبي كامل القاضي عز الدين الطرابلسي .
- ٥- الفقيه أبو عبد الله الحسين بن هبة الله الطرابلسي^(١)، روى عن الكراجكي كتاب معدن الجواهر، وكتاب روضة العابدين الذين ألفه الكراجكي لولده موسى ..
- ٦- الشيخ شمس الدين أبو محمد الحسن الملقب بحسكا الرازي ابن الحسين بن الحسن بن الحسين بن علي بن بابويه القمي من تلاميذ الطوسي وسالار الديلمي وابن البراج، وحسكا مخفف (حسن كيا) ومعنى كيا الرئيس ونحوه من كلمات التعظيم، وهو فقيه عصره، روى عن الكراجكي، وهو جد منتجب الدين ابن بابويه صاحب الفهرست^(٢)

« مؤلفاته »

وقد وضع الكراجكي عدداً ضخماً من مؤلفاته في مواضيع مختلفة، كما أشرنا من قبل .

وقد ذكرها العلامة النوري في كتابه (المستدرک) ص ٤٩٧ - ٤٩٩ .
وفيا يلي شطر من هذه المؤلفات .

- ١- روضة العابدين ونزهة الزاهدين، ثلاثة أجزاء في الصلاة، ألفه لولده موسى . ينقل عنه الشيخ شمس الدين محمد وأخوه تقي ابراهيم الكفعمي^(٣) ويرويه عنه الحسين بن هبة الله الطرابلسي^(٤) .
- ٢- الرسالة الناصرية في عمل ليلة الجمعة ويومها، عملها للأمير ناصر الدولة بدمشق .
- ٣- التلقين لأولاد المؤمنين، ألفه بطرابلس .

(١) في الذريعة ج ١٩/ ص ١٥٦ ذكر له كتاب (الفرج في الغيبة) وورد اسمه هكذا أبو عبدالله محمد ابن هبة الله بن جعفر الوراق الطرابلسي تلميذ الطوسي .

(٢) أنظر: البحار ج ١٠٢ ص ٢٤٤ وص ٢٦٤ هامش وأنظر: الكنى والألقاب ج ٣ ص ١٨١ -

١٨٢

(٣) أنظر: طبقات الشيعة ج ٥ ص ١٧٩

(٤) المصدر ص ٦٩ .

- ٤- التهذيب متصل بالتلقين، ألفه بطرابلس.
- ٥- معونة الفارض على استخراج سهام الفرائض، ألفه بطرابلس لبعض الإخوان.
- ٦- المنهاج إلى معرفة مناسك الحاج، ألفه للأمير صارم الدولة ذي الرياستين.
- ٧- المقنع للحج والزائر، سألته لتأليفه القائد أبو البقاء غرز بن براك.
- ٨- المنسك العضوي أمره بعمله صارم الدولة بطبرية.
- ٩- منسك لطيف في مناسك السنوات أمره بعمله صارم الدولة.
- ١٠- نهج البيان في مناسك السنوات أمره بعمله الشيخ الجليل أبو الكتائب أحمد بن محمد بن عمار بطرابلس.
- ١١- الاستطراف فيما ورد في الفقه من الانصاف، صنفه المقاضي أبي الفتح عبد الحاكم.
- ١٢- مختصر دعائم الإسلام للقاضي النعمان، قاضي الفاطميين.
- ١٣- الإختيار من الأخبار، وهو اختصار كتاب الأخبار للقاضي النعمان.
- ١٤- ردع الجاهل وتنبيه الغافل، وهو نقض كلام أبي المحاسن المعري الذي نقض به على الشريف المرتضى في المسح على الرجلين، عمله بطرابلس.
- ١٥- البستان في الفقه، صنفه للقاضي أبي طالب عبد الله بن محمد بن عمار.^(١)
- ١٦- الكافي بصحة القول برؤية الهلال، عمله بمصر.
- ١٧- نقض رسالة فردان المروزي في الجزء.
- ١٨- غاية الانصاف في مسائل الخلاف، وهو نقض على أبي الصلاح الحلبي في مسائل خلافية بينه وبين الشريف المرتضى، نصر فيها رأي المرتضى.
- ١٩- حجة العالم في هيئة العالم، ذكر فضلاً منه في كتاب كنز الفوائد.
- ٢٠- كتاب ذكر الأسباب الصارقة عن معرفة الصواب.
- ٢١- دامغة النصارى، وهي نقض كلام أبي الهيثم النصراي فيما رآه من تثبيت الثالوث والإتحاد.

(١) ويقع في نيف وثلاثين شجرة طبقات ٥ ص ١٠٩ وربما كان هو كتابه الشجر الآتي.

- ٢٢- الغاية في الأصول في حدوث العالم وإثبات محدثه .
- ٢٣- رياضة العقول في مقدمات الأصول .
- ٢٤- الراشد أو (الرائد) المنتخب من غرر الفوائد وهو كتاب الأمالي للشريف المرتضى .
- ٢٥- جواب رسالة الأخوين ، يتضمن الرد على الاشعرية وفساد أقوالهم وطعنهم على الشيعة .
- ٢٦- عدة البصير أو (المصير) في حجج يوم الغدير^(١) ، عمله بطرابلس للشيخ أبي الكتائب ابن عمار .
- ٢٧- التعجب في الامانة من أغلاط العامة ، وهو مطبوع في آخر كنز الفوائد في ربيع الأول سنة ١٣٢٢ هـ وعدد صفحاته ٦٩ صفحة .
- ٢٨- الاستنصار في النص على الائمة الاطهار ، وهو مطبوع مع كتاب مقتضب الأثر للعباشي أحمد بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن عياش المتوفي سنة ٤٠١ هـ ، وقد طبع سنة ١٣٤٦ هـ في النجف في المطبعة العلوية عن نسخة كانت في مكتبة المرجع مبرزاً محمد حسن الشيرازي المتوفي سنة ١٣١٢ وكانت كتابتها قبل سبعة قرون سابقة على طباعتها .
- ٢٩- معارضة الأضداد باتفاق الأعداد .
- ٣٠- المسألة القيسرانية في تزويج النبي (ص) عائشة وحفصة .
- ٣١- المسألة التبانة في فضل أمير المؤمنين (ع) على جميع البرية سوى سيدنا رسول الله (ص) .
- ٣٢- مختصر تنزيه الأنبياء ، والأصل للشريف المرتضى .
- ٣٣- الإنتقام من عدل أمير المؤمنين (ع) وهو النقض على ابن شاذان الأشعري فيما أورده في آية النار .
- ٣٤- القاضح في ذكر معاصي المتغلبين على مقام أمير المؤمنين لم يتم .

(١) قال النوري في المستدرک ج ٣ ص ٤٩٨ : هذا كتاب مفيد يختص باثبات امامة أمير المؤمنين (ع) في يوم الغدير ، جزء واحد مائتا ورقة ، بلغ الغاية فيه (الغدير ج ١ ص ١٥٥) .

- ٣٥- مزيل اللبس ومكمل الانس .
- ٣٦- نظم الدرر في مبنى الكواكب والصور، يتضمن ذكر أسماء الكواكب المسماة على ما نطقت به العرب وأهل الرصد .
- ٣٧- إيضاح السيل إلى علم أوقات الليل .
- ٣٨- كتاب في الحساب الهندي وأبوابه وعمل الجذور والمكعبات .
- ٣٩- معدن الجواهر ورياضة النواظر، في الآداب والحكم وما روي عن رسول الله (ص) (١) .
- ٤٠- رياضة الحكم، عارض فيه ابن المقفع (٢) .
- ٤١- موعظة العقل، عملها لنفسه .
- ٤٢- التعريف بوجوب حق الوالدين، عملها لولده موسى .
- ٤٣- إذكارة الاخوان بوجوب حق الأيمان، أنقذها إلى الشيخ الأجل أبي الفرج الباطني (٣) .
- ٤٤- نصيحة الأخوان، أنقذها إلى الشيخ أبي اليقظان .
- ٤٥- التحفة في الخواتيم .
- ٤٦- الرسالة العلوية في تفضيل أمير المؤمنين (ع) على سائر البرية سوى الرسول (ص) عملها للشریف أبي طالب . وهو على الظاهر نفس كتاب التفضيل المذكور سابقاً، وفيه يروي عن ابن مندة (٤) حديث الطائر

(١) رواه عنه تلميذه الفقيه أبو عبد الله الحسين بن هبة الله الطرابلسي، أنظر الطبقات ٥ ص ١٧٩ وترجمه إلى الفارسية الشيخ عباس القمي المحدث المعروف .

(٢) هو عبدالله بن المقفع البليغ المشهور مترجم كتاب كليله ودمنة .

(٣) يحمل أن يكون الباطني هذا نسبة إلى قرية البابلية العاملة أو القرية المذكورة نسبة إليه وهي تقع جنوبي مدينة صيداء قريبة من بلدة الصرند .

(٤) هو أبو الحسن علي بن الحسن بن مندة، روى عنه الكراجكي سنة ٤٣٦هـ في طرابلس حديث الطائر المشوي في كتابه تفضيل علي على غيره، وقال أنه روى ابن مندة رواية الطير المشوي عن شيخه الحسين بن يعقوب البزاز سنة ٣٧٠هـ . عن (الطبقات ج ٢ ص ١١٩) أنظر: الحياة الثقافية في طرابلس ص ٢٨١ .

المشوي، توجد فيه نسخة ضمن مجموعة في مكتبة مجد الدين صدر الأفاضل في طهران. كما يبدو انه عملها للشيخ أبي طالب ابن عمار، لا للشريف ابن طالب.

- ٤٧- المجلس شبيه الكشكول في خمسة أجزاء في خمسمية ورقة.
- ٤٨- انتفاع المؤمنين بما في أيدي السلاطين، عملها للأخوان حرسهم الله بصيذاء.
- ٤٩- الأنيس، يقع في ألفي ورقة، وهو محبوب في كل فن، مات ولم يتمه.
- ٥٠- مختصر ابن جذاع في ذكر المعقبين من ولد الحسن والحسين (ع) في الأنساب
- ٥١- الزاهد في آداب الملوك، عمله للأمير صارم الدولة ذي الفضيلتين.
- ٥٢- كنز الفوائد، وهو مطبوع سنة ١٣٢٢هـ^(١).
- ٥٣- تسليية الرؤساء عملها للأمير ناصر الدولة.
- ٥٤- التأديب عمله لولده.
- ٥٥- المجالس في مقدمات صناعة الكلام، أمر بعملها الأمير صارم الدولة ولم يتم.
- ٥٦- الاقناع عند تعذر الإجماع في مقدمات الكلام ولم يتم.
- ٥٧- الكفاية في الهداية في مقدمات أصول الكلام ولم يتم.
- ٥٨- الأصول إلى مذهب آل الرسول، يتضمن الأخبار بالمذهب من غير أدلة، عملها للأخوان بصور سنة ٤١٨هـ أو سنة ٤١٦.
- ٥٩- البيان عن دلالة شهر رمضان، يتضمن نظرة القول بالعدد في معرفة أوائل الشهور، عمله بالرملة لقاضي القضاة.

(١) عمله لابن عمه، صرح بذلك الطهراني في الذريعة ج ١٨ ص ١٦١ من دون ذكر اسمه. وقال: انه كبير في خمسة أجزاء. لكن الموجود منه حسب النسخة المطبوعة جزءان فقط، وهذا يعود إما لسقوط طائفة كبيرة منه، وإما للاختلاف بين المطبوع والأصل في الترتيب والتقسيم.

- ٦٠- جواب الرسالة الحازمية في إبطال العدد وتثبيت الرؤية ، وهي رد على أبي الحسن بن أبي حازم المعري .
- ٦١- الرسالة العامرية في الجواب عن مسألة سألت عنها الغلاة ، أمر بعملها الأمير قوام الدولة وأنفذها . إلى العامري ، عملت بالقاهرة .
- ٦٢- مختصر القول في معرفة النبي (ص) بالكتابة وسائر اللغات ، عمله بالقاهرة لأبي اليقظان .
- ٦٣- مختصر طبقات الوراث ، عمله للمبتدئين بطرابلس .
- ٦٤- الدهش سأله في عمله سائل ، ولا نعرف موضوعه .
- ٦٥- الرسالة الصوفية ، سأله عملها بعض الاخوان .
- ٦٦- الإيضاح عن أحكام النكاح ، أمر بعمله الأمير ذخر الدولة بصيدا ، في سنة ٤٤١ هـ في جزء واحد يحرق فيه الخلاف بين الامامية والاسماعيلية .
- ٦٧- التنبيه على أغلاط أبي الحسن البصري في فصل ذكره في الأمامة .
- ٦٨- الباهر في الاخبار .
- ٦٩- نصيحة الشيعة لم يتم .
- ٧٠- مسألة العدل في المحاكمة إلى العقل لم يتم .
- ٧١- هداية المسترشد لم يتم .
- ٧٢- الفهرست . وينقل عنه السيد ابن طاووس في آخر كتاب (الدروع الواقية) عند ذكره جعفر بن أحمد القمي قال ما لفظه : ذكر الكراجكي في كتاب الفهرست أنه صنف ٢٢٠ كتاباً بقم والري^(١) كما ينقل عنه في لسان الميزان في أكثر من مورد .
- ٧٣- رسالة في الخلاء والملاء ، وهي مما احتوى عليه كنز الفوائد .
- ٧٤- رسالة في الرد على الغلاة ، وهي مما تتضمنه كنز الفوائد .

(١) الطبقات ٥ ص ١٧٩ .

- ٧٥- رسالة في الرد على المنجمين، وهي مما احتواه كنز الفوائد، ولكنها من النصوص المفقودة لم تطبع في الكنز، إلا أن السيد ابن طاووس في كتابه النجوم نقل عن كنز الفوائد قطعة كبيرة يحتمل أن تكون من هذه الرسالة.
- ٧٦- الرحلة، أشار إليها ابن أبي طي في فهرسته في ترجمة القاضي الحسين بن بشر بن علي الطرابلسي، له مناظرة مع الخطيب البغدادي ذكرها الكراجكي في رحلته، وقال: حكم له على الخطيب بالتقدم في العلم، وأشار إلى هذا في لسان الميزان ج ٢ ص ٢٧٥ نقلاً عن ابن أبي طي.
- ٧٧- الاعلام بحقيقة إسلام أمير المؤمنين عليه السلام، وهي مما تضمنه كنز الفوائد.
- ٧٨- رسالة كتبها إلى بعض الاخوان تتضمن كلاماً في وجوب الامامة.
- ٧٩- رسالة في جوابه عن سؤال ورد إليه عن الحج، وهي مما تضمنه كنز الفوائد.
- ٨٠- كتاب البرهان على صحة طول عمر الإمام صاحب الزمان ألفها سنة ٤٢٧، وهي مما تضمنه كنز الفوائد.
- ٨١- كتاب النوادر.
- ٨٢- كتاب الأمانة عن المائلة في الاستدلال بين طريق النبوة والامامة.
- ٨٣- المزار وهو مختصر في زيارة إبراهيم الخليل (ع).
- ٨٤- شرح جمل العلم للشريف المرتضى.
- ٨٥- كتاب النصوص، ولعله كتاب الاستبصار في النص على الأئمة الأطهار الذي مر ذكره.
- ٨٦- الأخبار في الآحاد.
- ٨٧- الوزيري.
- ٨٨- المشجر.

هذا الكتاب

إذا كان هناك كتاب يطابق اسمه مسماه، ويعبر عنوانه عن حقيقته تعبيراً صادقاً عن واقع محتواه، فهو هذا الكتاب (كنز الفوائد) ودون مبالغة وتحوز.

وما على القارئ ليذكر صحة هذا القول، إلا أن يقلب صفحاته، ويمعن في قراءته ودراسته، فإنه سيخرج - بعد هذا - دون ريب بهذه الحقيقة التي اشرنا إليها، وسيجد بين يديه ثروة متنوعة دسمة من المعرفة، من أنواع الفكر والثقافة والتاريخ والأدب، مما لم يجده في سواه، تتفق مع مستويات القراء الثقافية المختلفة.

فهو ينبوع معين، تأخذ منه وتستفيد مختلف الطبقات، وعلى مختلف اتجاهاتهم العلمية والثقافية.

ويمتاز بالإضافة إلى ذلك في تناوله أمهات مسائل إسلامية وفلسفية بالبحث والدراسة العميقة، ويسهب في عرضها ومناقشتها، وتقنيد ما حولها من آراء أخرى، ويدلي بالأدلة والبراهين العقلية والعلمية على صحة ما يذهب إليه.

كما يمتاز بأسلوبه الواضح الخلو من التعقيد، حتى في أدق المسائل الفكرية التي عرضها في كتابه وناقشها، كمسألة حدوث العالم، ومسألة الحال التي يقول بها المعتزلة، ومسألة الكسب الأشعرية، والمسائل الخلافية بين الشيعة والسنة، كالإمامة والعصمة وسواها. يناقش كل ذلك بدقة وعمق ووضوح.

ويمتاز أيضاً أنه قد ضم بين دفتيه موضوعات فلسفية وكلامية وأدبية

وفقهية، وتاريخية وتفسيرية، وغير ذلك من حكم ومواعظ وتعاليم. أتى عليها بروح عالم يقدر المسؤولية، وذو طبيعة ثقافية جياشة، وباحساس المفكر العالم الذي يريد للمعرفة أن تشمل، وللحقيقة أن تبرز، وللباطل أن يزهد.

انه مجموعة من مواضيع شتى علمية وفلسفية وغيرها، لا يكتفي بعرضها عرضاً عابراً، بل يحرص على تقريرها ونقدها، وعلى بيان ما فيها من صحة وفساد.

وقد كان هناك مفكرون وضعوا مجاميع سبقت عصر الكراجكي أو تأخرت عنه، كتلك المؤلفات التي تعرف بالأمالي، أو التي تعرف (بالكشكول) في العصور المتأخرة عن الكراجكي، لكنها لم ترتفع إلى مستوى هذا الكتاب (كنز الفوائد) لأن غالبها ذو لون واحد، وذو اتجاهات معينة، فبعضها كان الغالب عليه التاريخ، وبعضها كان فقهيّاً، وبعضها كان أدبياً، وبعضها الآخر جمع بين هذا وهذا، إلا أنه كان الغالب فيها السرد والغرض دون مناقشة علمية أو بحث موضوعي.

وميزة أسلوب الكراجكي في هذا الكتاب أسلوب تعليمي، ومن هنا تجده يسهب أحياناً كثيرة في بيان ما يريد وفي مقام النقد والمناقشة.

وإن كثيراً من آرائه هي آراء شخصية خاصة به، لا تمثل الوجهة الشيعية بصورة واضحة وبخاصة تلك المواضع الكثيرة التي تختلف فيها وجهات النظر والاجتهاد، كما في كثير من تفسير الآيات والأحاديث.

كما أن كثيراً مما يرويّه لا يمكن الإعتماد عليه وبخاصة فيما يتعلق بالخوارق، ولكن الرجل ناقل عن غيره (وناقل الكفر ليس بكافر) كما يقال.

وهذا الكتاب يعكس الاهتمامات العلماء والمفكرين في المسائل المطروحة في عصرهم، والتي أخذت كثيراً من جوانب تفكيرهم، وكانت محور نزاعاتهم ومناظراتهم.

وقد ضمن المؤلف كتابه (كنز الفوائد) بعض رسائله، فأدرجها فيه، من ذلك:

- ١- مختصر من الكلام في أن للحوادث أولاً.
- ٢- القول المبين عن وجوب المسح على الرجلين، وهي رسالة كتبها إلى أحد الأخوان.
- ٣- البيان عن جل اعتقاد أهل الإيخان، وهي رسالة كتبها إلى أحد الاخوان.
- ٤- كتاب الإعلام بحقيقة إسلام أمير المؤمنين عليه السلام، كتبه لبعض الإيخوان.
- ٥- المقدمات في صناعة الكلام.
- ٦- رسالة في وجوب الإمامة، كتبها لبعض الاخوان.
- ٧- مختصر التذكرة بأصول الفقه، استخرجها لبعض الاخوان من كتاب استأذه الشيخ المفيد.
- ٨- البرهان على صحة طول عمر صاحب الزمان، كتبها سنة ٤٢٧.
- ٩- الرد على الغلاة.
- ١٠- رسالة في جوابه عن سؤال ورد إليه عن الحج.

★ ★ ★ ★

لقد كانت النسخة المطبوعة سنة ١٣٢٢ سقيمة جداً، وكثير من الكلمات فيها غير واضح، لكن حافظت على نص كلام المؤلف كما هو بقدر الإمكان، إلا في المواضع غير الواضحة، فصحتها ووضعها بين قوسين، وإلا في المواضع التي لم يتضح المراد منها، فوضعت مكانها ثلاث نقاط.

ونجد شطراً كبيراً من مؤلفاته قد وضعه بطلب من بعض شخصيات عصره، من علماء وأمرأ وقضاة وغيرهم في مواضيع فقهية وغيرها.

فقد ألف للأمير ناصر الدولة بدمشق، الرسالة الناصرية في عمل ليلة الجمعة ويومها، وكتاب تسلية الرؤساء.

وألف للأمير صارم الدولة ذي الرئاستين بطبرية (المنسك العضوي) و (المنسك اللطيف في مناسك النسوان)، و (المنهاج إلى معرفة مناسك الحاج) و

(الزاهد في آداب الملوك)، و (المجالس في مقدمات صناعة الكلام) لم يتم.

وألف للشيخ الجليل ابي الكتائب أحمد بن محمد بن عمار بطرابلس، نهج البيان في مناسك النسوان، بطلب منه، وعدة البصير (أو المصير) في حجج يوم القدير.

وألف للشيخ الأجل أبي الفرج البجلي، كتاب (إذكار الأخوان بوجوب حق الإيمان).

وألف للقاضي أبي طالب عبد الله بن محمد بن عمار، كتاب (البستان في الفقه) والرسالة العلوية في تفصيل أمير المؤمنين على سائر البرية سوى الرسول (ص).

وألف للقاضي أبي الفتح عبد الحاكم، كتاب (الاستطراف فيا ورد في الفقه من الأنصاف).

وألف بالقاهرة للشيخ أبي اليقظان، كتاب (نصيحة الإخوان)، ومختصر القول في معرفة النبي (ص) بالكتابة وسائر اللغات.

وألف بالقاهرة أيضاً للعامري، الرسالة العامرية في الجواب عن مسألة سألت عنها الغلاة. وأمره بعملها الأمير قوام الدولة.

وألف بصيذاء سنة ٤٤١ هـ بأمر الأمير ذخر الدولة، (كتاب الإيضاح عن أحكام النكاح) في جزء واحد، يحرر فيه الخلاف بين الإمامية والإسماعيلية.

وألف للقائد أبي البقاء فرز بن براك بسؤال منه كتاب المقنع للحاج والزائر.

ونجد إلى جانب ذلك أن فهرست مؤلفاته قد اشتمل على مؤلفات وضعها في الرد على المخالفين، من ذلك:

- ١ - ردع الجاهل وتنبيه الغافل، وهو نقض كلام أبي المحاسن المعري الذي نقض به على الشريف المرتضى في المسح على الرجلين في مسألة الوضوء، ألفه بطرابلس.
- ٢ - نقض رسالة فردان المروزي في الجزء، وهي المسألة الفلسفية في قضية الجزء الذي لا يتجزأ.

- ٣ - غاية الانصاف في مسائل الخلاف ، وهو نقض على أبي الصلاح الحلبي من فقهاء الشيعة في مسائل خلافية بينه وبين الشريف المرتضى ، نصر فيها رأي المرتضى .
- ٤ - دامغة النصاري ، وهي رد كلام أبي الهيثم النصراي فيما رآه من تثبيت الثالوث والاتحاد .
- ٥ - جواب رسالة الأخوين ، في الرد على الأشعرية وفساد أقوالهم وطعنهم على الشيعة .
- ٦ - الإنتقام من عدل أمير المؤمنين (ع) ، وهو النقض على ابن شاذان الأشعري فيما أورده في آية الغار .
- ٧ - جواب الرسالة الحازمية في إبطال العدد وتثبيت الرؤية ، وهي رد على أبي الحسن بن أبي حازم المصري .
- ٨ - التنبيه على أغلاط أبي الحسن البصري في فصل ذكره في الامامة .
- ٩ - رسالة في الرد على الغلاة .
- ١٠ - رسالة في الرد على المنجمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين فإنه خير معين

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد رسوله خاتم النبيين وآله الطاهرين.

« مختصر من الكلام في أن للحوادث أولاً »

إعلم - أيدك الله - أن من الملحة فريضة يشبتون الحوادث ومحدثها، ويقولون إنه لا أول لوجودها، ولا ابتداء لها.

ويزعمون أن الله سبحانه لم يزل يفعل ولا يزال كذلك، وأن أفعاله لا أول لها ولا آخر. فقد خالفونا في قولهم أن الأفعال لا أول لها. إذ كنا نعتقد أن الله تعالى ابتدأها، وأنه موجود قبلها. ووافقونا بقولهم: لا آخر لها، لأنهم وإن ذهبوا إلى بقاء الدنيا على ما هي عليه، واستمرار الأفعال فيها، وأنه لا آخر لها، فإننا نذهب في دوام الأفعال إلى وجه آخر، وهو تقضي أمر الدنيا، وانتقال الحكم إلى الآخرة، واستمرار الأفعال فيها، من نعم الجنة الذي لا ينقطع عن أهلها، وعذاب النار الذي لا ينقضي عن المخلدين فيها^(١). فأفعال الله عز وجل من هذا الوجه لا آخر لها.

(١) وذهب الجهم بن صفوان المقتول في تستر في أواخر حكم بني أمية قتله سالم بن أحوز المازني، ذهب إلى القول بأن حركات أهل الخلد (الجنة والنار) تنقطع، والجنة والنار تقنيان بعد دخول أهلها فيها، وتلذذ أهل الجنة بنعيمها وتألم أهل النار بجحيمها، متعللاً بأنه لا يتصور حركات لا تنهاى آخرها كما لا تتصور حركات لا تنهاى أولاً، وحمل ما دل على التخليد في كلام الله على المبالغة والتأكيد دون الحقيقة، ومستشهداً بقوله تعالى (خالدين فيها ما دامت =

وهؤلاء - أيّدك الله - هم الدهرية القائلون: بأن الدهر سرمدية لا أول له ولا آخر. وأن كل حركة تحرك بها الفلك فقد تحرك قبلها بحركة من غير نهاية، وسيتحرك بعد بحركة بعدها حركة لا إلى غاية. وأنه لا يوم إلا وقد كان قبله ليلة، ولا ليلة إلا وقد كان قبلها يوم، ولا إنسان إلا أن يكون من نقطة، ولا نقطة تكونت إلا من إنسان، ولا طائر إلا من بيضة، ولا بيضة إلا من طائر، ولا شجرة إلا من حبة، ولا حبة إلا من شجرة.

وأن هذه الحوادث لم تزل تتعاقب ولا تزال كذلك، ليس للماضي فيها بداية، ولا للمستقبل فيها نهاية. وهي مع ذلك صنعة لصانع، لم يتقدمها، وحكمة من لم يوجد قبلها، وأن الصنعة والصانع قديان لم يزالا^(١). تعالى الله الذي لا قديم سواه، وله الحمد على ما أسداه، من معرفة الحق وأولاه. وأنا بعون الله أورد لك طرفاً من الأدلة على بطلان ما ادعاه الملحدون، وفساد ما تحيّل الدهريون.

= السموات والأرض إلا ما شاء ربك) ووافقه على انقطاع حركات أهل الخلدن كل من أبي الهذيل العلاف وإبراهيم النظام من المعتزلة.

وقد فات هؤلاء أن حركات أهل الخلدن ليست لذاتها ولنفسها، وإنما بقاؤها بالعرض تابع لوجود المبتقي وهو الله الحي الباقي.

وزاد أبو الهذيل والنظام على ذلك أن أهل الخلدن بصيرون إلى سكون دائم جوداً وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة، وتجتمع الآلام في ذلك السكون لأهل النار. كل ذلك فراراً من وجود حوادث لا آخر لها كوجود حوادث لا أول لها، إذ كل منها لا يتناهي.

وقد فاتها أن السكون كالحركة يلزم منه ما فرا بما يلزمها في الحركة، وبخاصة أنه أحد الأكوان الأربعة.

ولهشام بن الحكم مناظرة طريفة مع أبي اسحاق النظام حول هذه المسألة، لم يجر النظام معه جواباً. ذكرناها في كتابنا (هشام بن الحكم) أنظر ص ٢١٥ - ٢١٦.

(١) وهذا الرأي منسوب إلى كثير من الفلاسفة الإسلاميين كأبي بكر محمد بن زكريا الرازي الفيلسوف والطبيب المشهور المولود عام (٣١١هـ).

وخلاصة هذا الرأي أن الصانع متقدم على الصنعة رتبة لا زماناً، كتقدم العلة على المعلول الذي لا يتخلف عن علته الموجبة وقد ترجعنا له في كتابنا (فلاسفة الشيعة)، وعرضنا فيه لراييه في هذا الموضوع بدراسة وافية.

دليل

مما يدل على أن الحوادث الماضية لا بد لها من أول، أننا في كل وقتٍ من أوقات زماننا، بين آخر ما فيها، وأول مستقبلها. فقد علمنا - لا محالة - آخر ما مضى، وهو أحد طرفيه.

ثم نحن نعلم علماً لا نشك فيه أن ما يأتي من مستقبل الحوادث إلى مائة سنة، يكثر عدد الماضي، ويزيد فيه.

فمعلوم أنه قبل الزيادة أقل عدداً منه إذا انضمت (أي الزيادة) إليه. وهذا يدل على تناهي عدد ما مضى، وحصر طرفيه. لأنه لو كان لا نهاية له، لم تتصور العقول دخول التكرار فيه.

وقد صح بما بيناه أن الحوادث الماضية تصير إلى مائة سنة أكثر عدداً مما هي اليوم عليه^(١).

فبان بهذا تناهيها، وصح أولها كما صح آخرها، ويبطل مقال الدهرية فيها.

معارضة

وقد قال الملحدون إن جميع ما ذكرتموه في الماضي عائد عليكم في المستقبل، لأنكم تقولون: أن أفعال الله تعالى المستقبلية لا آخر لها، ومع هذا فقد علمتم أولها، وهو أحد طرفيها، فيجب أن يكون ما يوجد إلى مائة سنة ينقص منها. وإذا دخل النقصان فيها دلّ على تناهيها وإنحصار طرفيها.

انفصال

فيقال لهم: بين الماضي والمستقبل في ذلك فرق وهو أن الحوادث الماضية ليس منها إلا ما كان موجوداً قبل مضيه، فقد شمل جميعها حكم الوجود، فوجب أن يزيد فيها كل ما يخرج إلى الوجود.

وليس المستقبل كذلك، لأنها لم توجد، وإنما هي في إمكان الفاعل. فلا يصح فيها النقص، ولا سبيل إلى القول فيها بالتناهي.

(١) يعني به اليوم الذي افترضه.

دليل آخر على تناهي ما مضى

وهو أنه قد مضت أيام وليالٍ، ووقفنا اليوم عند آخرها، فلا يخلوا: أن تكون الأيام أكثر عدداً من الليالي، أو يكون الليالي أكثر من الأيام، أو يكونا في العدد سواء.

فإن كانت الأيام أكثر من الليالي تناهت الليالي، لأنها أقل منها، واقتضى ذلك تناهي الأيام أيضاً. لبطلان إتصالها قبل الليالي بغير ليالٍ بينها. فوجب على هذا الوجه تناهيهما معاً.

وإن كانت الليالي أكثر من الأيام كان الحكم فيها نظير ما قدمنا من تناهي الأول، فتناهي الأيام لزيادة الليالي عليها. ويقتضي ذلك تناهي الليالي أيضاً، لفساد اتصالها قبل الأيام بغير أيامٍ بينها. فوجب على هذا الوجه الآخر تناهيهما معاً.

وإن كانت الأيام والليالي في العدد سواءً، كان مجموعها أكثر عدداً من أحدهما بانفراده.

وهذا يشهد بتنايهيهما. إذ لو كان كل واحدٍ منهما في نفسه غير متناهٍ ما تصورت العقول عدداً أكثر منه.

وقد علمنا أن الليالي مع الأيام جميعاً أكثر عدداً من أحدهما، وهذا موضح عن تناهيهما.

وهذا الدليل نعلم أيضاً تناهي جميع ما مضى من الحركات والسكنات، ومن الاجتماعات والإفتراقات، ومن الطيور والبيض، والشجر والحب، وما يجري مجرى ذلك.

معارضة

قال الملحدون هذا الكلام عائد عليكم في نعيم المؤمنين في الجنة، وعذاب الكافرين في النار. وقد زعمتم (أن) كل واحدٍ منهما لا نهاية له، ولستم تذهبون إلى أن أحدهما أكثر من الآخر، فنخاطبكم بما ذكرتم ولكن نقول لكم: أنها مجموعها أكثر عدداً من أحدهما. وهذا يوجب تناهيهما جميعاً وحصرهما.

إنفصال

يقال لهم: هذا الذي ذكرتموه لا يصح في المستقبلات، وهو لازم لكم في الماضيات. لأن الأعداد إذا يضم بعضها إلى بعض بعد وجودها وحصرها، وعدد الليل والنهار الماضيات فقد وجدا وانحصرا بالفراغ منها، والوقوف عند آخرهما. فصح ضم بعضها إلى بعض، وأمكن ما ذكرنا فيها.

والمستقبلات من نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار، فأمر متوقعة لم توجد، وليس لها آخر، لأنها تكون دائماً بغير انقضاء. وما لم يوجد من العدد فلا يصح فيه ضم بعض إلى بعض. وما يتوقع حدوثه أبداً بغير نهاية لا يكون مثل ما قد حدث وكان وتناهى، بادراك آخره في كل حال.

دليل آخر

وما يدل على أن للأفعال الماضية أولاً، كونها ووجودها، ولو لم يكن لها أول، ما صح وجودها، لأنها كالعدد الذي لا يصح أن يتوالى إلا أن يكون له أول. إما واحداً، أو جملةً يبتدىء بها، تقوم مقام الواحد.

إنفصال^(١)

قليل لهم لا يجب ذلك من قبل أن المستقبل منوط بقدرة القادر، والعاذ يصح منه أن يعد ما دام حياً، فإذا كان ليس لوجوده آخر صح أن ليس لعدده آخر. ومع ذلك فلا بد من أن يكون لعدده أول.

دليل آخر

وما يدل على أن الأفعال لا يصح وجودها إلا بعد أن يبتدىء بأولها، أنه لو قيل لرجل: لا تدخلن داراً حتى تدخل قبلها غيرها، لم يصح منه دخول شيء من الدور أبداً، ولم يمكن ذلك إلا بأن يبتدىء بواحدة منها.

(١) ورد هذا الإنفصال أو الجواب من دون أن يذكر الإعتراض، وهو على الأرجح سقط من قلم الناسخ.

سؤال

فإن قالوا: هذا يستحيل كما ذكرتم في المستقبل من الأفعال، لأنه لا بد للمستقبلات من أول، فمن أين لكم أن هذا حكم الماضيات؟

جواب

قيل لهم: علمنا ذلك من قبل أن الماضيات قد كانت مستقبلية قبل وجودها ومضيتها، فلو لم يكن لها أول ما صح وجودها.

وبعد فلو رأينا هذا الرجل الذي مثلنا به وهو يدخل داراً بعد دار، فقلنا له: هل كان بعد دخولك هذه الدور ابتداء، حتى يقول لنا لم ابتداءً بدار منها، ولا دخلت داراً حتى دخلت قبلها دوراً لا تنهاى، فعلمنا أنه كاذب فيما ادّعى.

دليل آخر

ومما يدل على تناهي الأفعال الماضية وانحصارها وصحة طرفيها، خروجها إلى الوجود على كمالها وفراغ فاعلها منها، وكل شيء فعله الفاعل فقد يتوهم منه أن يفعل أمثاله. وهذا وجه صحيح يدل على تناهيها وانحصار طرفيها، لجواز وجود أكثر منها.

معارضة

وقد قال الملحدة: هذا راجع عليكم في نعم أهل الجنة، لأن الله تعالى يقدر على أمثاله، فيتناهى بوجود أكثر منه.

إنفصال

فيقال لهم: ومتى صحت المماثلة بين الموضعين؟ والأفعال الماضية قد خرج جميعها إلى الوجود.

ونعم أهل الجنة ليس له جميع يخرج إلى الوجود، وإنما يوجد شيء من غير أن يوقف له على وجه آخر من الوجوه.

فإن قالوا: فقد لزمكم على هذا أن يكون الله تعالى وعد أهل الجنة بنعيم لا يصلون إلى جميعه، ولا ينالون سائره.

قيل لهم: قد أعلمناكم أنه لا جميع له في الحقيقة ولا سائرُه إذ ليس له (آخر)^(١). والذي وعدهم الله به هو نعيم متصل غير منقطع، فلو وجد حتى لا يبقى منه شيء يُنتظر، لكان في الحقيقة لم يَفِ لهم بما وعده. فإن قالوا: إن الأفعال الماضية أيضاً لا كُلُّها في الحقيقة، لاستحالة حصرها.

قيل لهم: ولمَ زعمتم ذلك؟ وقد سلمتم لنا أنها قد دخلت في باب الوجود عن آخرها، واشتمل الحدوث عليها.

مسألة على الملحدة

يقال لهم: أخبرونا عن الشمس، أليس لم تتحرك بحركةٍ حتى تحركت قبلها بحركات لا نهاية لها؟

فإن قالوا: بلى. قيل لهم: فإذا جاز أن تفرغ الحركات التي لا نهاية لها، وتحركت الشمس بها كلها حتى تنتهي إلى آخرها. فالأمر جاز أن تتحرك بالحركات المستقبلية كلها حتى تفرغ منها، وتقف عند آخرها، ولا يبقى مستقبل بعدها.

فإن قالوا: إن المستقبلات لا كُلُّها في الحقيقة لها. أجبوا بمثل قولنا. ثم لم ينفعهم ذلك فيما سألنا، لأن الفراغ مما لا نهاية له قد صح عندهم، وهو غير صحيح عندنا، إذ يلزمهم تقضي المستقبلات حتى توقف عند آخرها.

فإن قالوا: إن الشمس تتحرك بحركةٍ واحدةٍ باقية دائمة. قيل لهم: إنه ليس يلزمنا قبول ما لا طريق إلى فهمه، ولا سبيل لمدعيه إلى إثبات علمه. وهذا الذي زعمتموه دعوى عارية من برهان.

وبعد فإننا إذا لم ننازعكم في ذلك نسألكم: فنقول: أَلستم معترفين بأن الشمس قد دارت الفلك قبل هذه الدورة التي هي فيها دورات لا نهاية لها؟

(١) في الأصل (أخرى).

فلا بد لهم من الأقرار بذلك ، فيقال لهم : فقد عاد الأمر إلى الفراغ مما لا نهاية له . فما أنكرتم أن تنقضي دوراتها المستقبلية التي تقولون أنها لا نهاية لها ، ويفرغ منها حتى يقف عند آخرها كما فرغت فيما مضى ، وهي الآن في آخره ؟ فإن قالوا : هذا مستحيل في المستقبل ، وهو صحيح في الماضي .

قيل لهم : بنظير الكلام المتقدم ، وهو أن الماضي قد كان مستقبلاً ، فلو استحال أن يصير المستقبل ماضياً ، لاستحال في الماضي ، لأنه قد كان مستقبلاً .

مسألة أخرى عليهم

يقال لهم : أيجوز أن تدور الشمس في المستقبل دورات بعد الدورات الماضية أم لا يجوز ذلك ؟

فإن قالوا : غير جائز ، قيل لهم : لم زعمتم ذلك ؟ وعندكم أنها تدور في المستقبل دورات لا نهاية لعددتها ، أفليس في ذلك ما يفي بما قد مضى ؟ فإن قالوا : لا يفي به ، جعلوا الماضي أكثر من المستقبل ، وأوجبوا تناهي المستقبل .

وإن قالوا : إن الشمس ستدور دورات يفي عددها بما مضى ، أوجبوا تناهي ما مضى . وقيل لهم : أفيبقى من المستقبل بعد ذلك بقية ؟ فإن قالوا : لا ، أقروا بوجود الأول والآخر ، وأوجبوا تناهي الزمان من طرفيه ، وجعلوا له لدورات الشمس بداية ونهاية ، وهو خلاف ما ذهبوا إليه . وإن قالوا إنه ستدور دورات يفي بما مضى ، ويبقى من المستقبل ما لا نهاية له أيضاً . لم يبق شبهة في تناهي الماضي ، وصح أوله ، وبطل مذهبهم في قدمه والحمد لله .

دليل آخر على أن للأفعال الماضية أولاً^(١)

مما يدل على ذلك أنه قد ثبت أن كل واحدٍ منها محدث كائن بعد أن لم يكن ، ولها محدث متقدم عليها ، فوجب أن تكون جميعها محدثة كائنة بعد أن لم

(١) وهذا الدليل من أوضح الأدلة وأرسخها في الموضوع .

تكن، ولها محدث متقدم عليها، لأن جميعها هو مجتمع آحادها، ولا يصح أن يختلف في الجمع والتفريق هذا الحكم فيها.

كما أن كل واحد من الزنج بانفراده أسود فالجميع باجتماعهم سود. والحكم في ذلك واحد في الجمع والتفريق.

وقد اجتمع معنا على أن جميعها أفعال الفاعل، وصنعة الصانع، والعقول تشهد بوجوب تقدم الفاعل على أفعاله، وسبق الصانع لصنعه وليس يخالف في ذلك إلا مكابر لعقله.

واعلم أن الملحدة لما لم تجد حيلة تدفع بها تقدم الصانع على الصنعة. قالت انه متقدم عليها تقدم رتبة لا تقدم زمان، فيجب أن نطالبهم بمعنى تقدم الرتبة ليوضحوه، فيكون الكلام بحسبه.

وقد سمعنا قوماً منهم يقولون: إن معنى ذلك أنه الفاعل فيها، والمدبر لها.

فسألناهم. هل ذلك يدافع عنها حقيقة الحدوث، فعادوا إلى الكلام الأول، من أن كل واحد من أجزاء الصنعة محدث.

فأعدنا عليهم ما سلف، حتى لزمهم الأقرار بحدوث الكل. وطالبناهم بحقيقة المحدث والقديم، فلم يجدوا مهرباً من أن التقدم والقديم في الوجود على المحدث، هو التقدم المفهوم المعلوم، الذي يكون أحدهما موجوداً والآخر معدوماً.

وليس أيضاً من شرط التقدم والتأخر في الوجود أن يكون ذلك في زمان. والله تعالى متقدم على جميع الأفعال.

وليس أيضاً من شرط التقدم والتأخر في الوجود أن يكون ذلك في زمان، لأن الزمان نفسه قد يتقدم بعضه على بعض، ولا يقال إن ذلك مقتضٍ لزمان آخر.

والكلام في هذا الموضع جليل، ومن الحق^(١) فيه سقطت عنه شبه كثيرة.

(١) كذا في النسخة.

وقد كنت اجتمعت في الرملة برجل عجمي، يعرف (بأبي سعيد البرذعي)^(١)، وكان يحفظ شُبهاً في هذا الباب. وكنت كثيراً ما أكلمه، واستظهر باثبات الحجة عليه. فأورد عليَّ شبهةً، كانت أكبر مما في يديه، وتكلمت عليها بكلام لم أقنع به فأحكيه.

ثم إني كتبت كتاباً إلى بغداد، إلى حضرة سيدنا الشريف المرتضى ذي المجدنين رضي الله عنه.^(٢) وذكرت الشبهة فيه، فورد إليَّ جوابه عنها. فأنا أذكر الشبهة والجواب وما وجدته بعد ذلك من الكلام في هذا الباب.

الشبهة

قال الملحد مستدلاً على أن الصانع لم يتقدم الصنعة: إني وجدت ظاهرهما لا يخلو من ثلاث خصال: إما أن تتقدم الصنعة عليه، أو أن تتأخر عنه، أو أن يكونا في الوجود سواءً. وقد فسد باتفاق تقدمها عليه.

(١) ورد ذكر البرذعي في بعض رسائل حمزة بن علي الزوزني الذي يعتبر مؤسس المذهب الدرزي به يبدأ تاريخ الدروز سنة ٤٠٨ هـ أقول ورد ذكر البرذعي في رسالة حمزة السادسة عشرة سنة ٤٠٨ هـ والرسالة التاسعة عشرة وغيرها بإسم أبي منصور البرذعي لا أبي سعيد كما ذكره المصنف وقد يكون أبو سعيد البرذعي الذي لقبه الكراچكي هو نفس أبي منصور البرذعي الوارد ذكره في رسائل حمزة بن علي.

(٢) هو أبو القاسم علي بن أبي أحمد الحسين بن موسى الموسوي المعروف بعلم الهدى، أكبر شخصية شيعية في القرن الرابع الهجري، بالعلم والفقه والآثار والكلام والأدب والشعر وغيرها. كان فقيهاً انتهت إليه زعامة الإمامية في عصره، كما كان أحد أعمدة علم الكلام والفلسفة الإسلامية، والأدب والشعر واشتهر بعلم النجوم، وبرز في غير ذلك من جوانب المعرفة والفكر.

وكان حادقاً في المناظرة والجدل، حاجَّ النظراء والمتكلمين، وناظر العلماء والمخالفين، وقد عده ابن الأثير من مجددي مذهب الإمامية في رأس المئة الرابعة. وتعتبر آراء الشريف المرتضى وآثاره سجلاً كاملاً لآراء الشيعة الإمامية وأقوالهم، وفي كتبه حفظت عقائدهم وآراؤهم الإسلامية. وله مؤلفات عديدة أبرزها من المطبوع: الشافي والإمامي وتزيه الأنبياء، وهو من تلاميذ الشيخ المفيد. ولد في رجب سنة ٣٥٥ هـ وتوفي ربيع الأول سنة ٤٣٦ هـ وله في كتابنا (فلاسفة الشيعة) ترجمة بدراسة وإسهاب.

قال: ويفسد أيضاً تقدمه عليها. إذ كان لا يخلو من أن يكون تقدمه بمدة محصورة وتقدير أوقات متناهية، أو بمدة غير محدودة وتقدير أوقات غير محصورة.

قال: وإن [كان] تقدمها بمدة لا تحد، وتقدير أوقات لا تتناهي وتحصر، فلا آخر متناهٍ، وله أول وآخر. فكما أن آخره حدوث الصنعة، فكذلك أوله حدوث الصانع. ونعوذ بالله من القول بذلك.

قال: وإن [كان] تقدمها بمدة لا تحد، وتقدير أوقات لا تتناهي وتحصر، فلا آخر لهذه المدة، كما لا أول لها. وإذا لم يكن لها آخر فقد بطل حدوث الصنعة^(١). وإن نفيت الأوقات والأزمان التي يصح هذا فيها فإنه لا يمكنكم إنكار تقديرها. وفي التقدير يلزم هذا هنا.

قال: فهذا دليل على أن الصنعة والصانع قديمان لم يزالا.

و«الجواب» قاله الشريف المرتضى رحمه الله

أما الصانع من حيث كان صانعاً فلا بد من تقدمه على صنعته، سواء أكان قديماً أو محدثاً. لأن تقدم الفاعل على فعله حكم، يجب له من حيث كان فاعلاً. ويستوى في هذا الحكم الفاعل القديم والفاعل المحدث. غير أن الصانع القديم يجب أن يتقدم صنعته بما إذا قدرناه أوقاتاً وأزماناً كانت غير متناهية ولا محصورة.

ولا يجب هذا في الصانع المحدث، بل يتقدم الصانع من المحدثين صنعته بالزمان الواحد والأزمان المتناهية المحصورة.

والذي يدل على أن الصانع لا بد من أن يتقدم صنعته ويستوى في هذا الحكم القديم والمحدث. أنه لو لم يتقدم عليها لم تكن فعلاً له وحادثاً به، لأن من

(١) لأنه ان كان الصانع متقدماً على الصنعة بمدة غير متناهية، فلا يمكن والحال هذه أن يكون لها آخر، كما لا يمكن حدوث الصنعة، لأن حدوثها يعني تنامي المدة التي فرض عدم تناميها، وهذا خلف.

شأن الفاعل أن يكون قادراً، ولا يقدر على الوجود، لأن وجوده يُغني عن تعلق القدرة به. فهذا يدل على استحالة مصاحبة الفاعل لفعله.

فأما تقدم الفعل على فاعله فأظهر فساداً، لأن المؤثر في وجود الفعل وحدوثه كون فاعله قادراً. فكيف يتقدم المؤثر فيه على المؤثر.

وأما تقدم الصانع القديم تعالى على صنعته فيجب أن يكون غير محصور الأوقات. وإنما وجب ذلك فيه ولم يجب في الصانع المحدث، لكونه قديماً. لأنه لو كان بين القديم والمحدث أوقات متناهية لخرج من أن يكون قديماً ودخل في أن يكون محدثاً. لأن من شأن القديم أن لا يكون بوجوده ابتداءً. وتناهي ما بينه وبين الأوقات وبين المحدث يقتضي أن يكون بوجوده أول وابتداءً.

فأما ما تضمنه السؤال من التقسيم والتعديل في إفساد تقدم الصنعة على الصانع على الاتفاق على ذلك، فغير صحيح، لأن مثل هذا لا يعول فيه على الاتفاق، بل لا بد أن يعين طريق العلم: إما من ضرورة، أو استدلال. وقد بينا ما يدل على أن الصنعة لا تتقدم الصانع.

فأما ما مضى من السؤال من إلزام نفي التناهي والآخر عن المدة التي تكون بين الصانع والصنعة كما نفى عنها الابتداء والتناهي من قبل أولها، فغير صحيح ولا لازم. لأننا قد بينا أننا متى جعلنا بين الصانع القديم وصنعه مدة متناهية الابتداء محصورة، لحق القديم بالمحدث، وخرج من أن يكون قديماً. وإذا جعلناها^(١) محصورة الإنهاء لم يجب ذلك فيها، ولا أدى إلى ما قد علمنا فساداً من كون القديم محدثاً، ولا إلى غيره من ضروب الفساد. فلم يلزم نفي الآخر عن المدة قياساً على نفي الأول.

وقد بين شيوخ أهل العدل^(٢) في كتبهم الفرق بين هذين الأمرين، وقالوا:

(١) الظاهر سقوط كلمة (غير) هنا، إذ لا يتم المعنى بدونها فتكون الجملة هكذا: وإذا جعلناها غير محصورة الإنهاء لم يجب ذلك فيها..

(٢) المراد بأهل العدل هم المعتزلة والإمامية الذين يقولون باستحالة صدور الظلم والمنافي منه سبحانه، إما لعدم قدرته عليه كما يقوله المعتزلة أو أكثرهم، وإما لقبح صدره عنه عقلاً مع قدرته عليه كما يقوله الإمامية.

من المستحيل إثبات فاعل لم^(١) يزل فاعلاً، وليس بمنكر ولا مستحيل إثبات فاعل لا يزال فاعلاً، وبينوا أن نفي التناهي والإبتداء عن الأفعال من قبل أولها يخرجها من أن تكون أفعالاً. وليس نفي التناهي عنها من قبل آخرها يخرجها من أن تكون أفعالاً.

وذكروا أن نعيم أهل الجنة وعقاب أهل النار دائمان، لا إنقطاع لهما ولا آخر، ولم يؤد ذلك إلى الحال والفساد ما أدّى إليه نفي التناهي عن الأفعال من قبل أولها.

وقالوا: ليس بمنكر أن يدخل داخل داراً بعد دارٍ أبداً بغير انقطاع. ومن المستحيل المنكر أن يدخل داراً قبل دارٍ أبداً بلا أول. وقد استقصينا نحن هذا الكلام في مواضع كثيرة من كتبنا، وذكرناه في «الملخص»^(٢) وغيره من أجوبة المسائل والنقوض على المخالفين.

وأما ما تضمنه السؤال من أن هذا يدل على أن الصنعة والصانع قديمان لم يزالا، فمناقضة ظاهرة، لأن وصف المتصف بالقدم ينقض كونه صفة، كما أن وصف القديم بأنه مصنوع ينقض كونه قديماً.

وهل هذا إلا تصريح بأن المحدث قديم، والقديم محدث. ولا إخفاء بفساد ذلك.

وهل آخر الجواب الوارد إلّٰي من حضرة السيد الشريف المرتضى رضي الله عنه عن هذه الشبهة.

وجميع ما تضمنه من إطلاق القول بأن بين القديم وأول المحدثات أوقات لا

(١) ويفهم من هذه العبارة أن كون الفاعل مرتبطاً بما يصدر عنه من أفعال، فإذا كان الفاعل فاعلاً منذ الأزل كانت أفعاله منذ الإبتداء قديمة معه وتخرج عن كونها أفعالاً محدثة، لذلك يستحيل كونها قديمة وبالتالي استحالة أن يكون الفاعل لم يزل فاعلاً. على خلاف إثبات فاعل لا يزال فاعلاً من حيث الآخر إلى غير نهاية فلا استحالة إذ لا يخرجها ذلك عن كونها أفعالاً. وهذا يتضح من قوله: وبينوا أن نفي التناهي (الخ).

(٢) هو كتاب للشريف المرتضى في الأصول، ذكره الشيخ أبو جعفر الطوسي، والنجاشي، وابن شهر آشوب.

أول لها، فإنما المراد به تقدير أوقات، دون أن يكون القصد أوقاتاً في الحقيقة، لأن الأوقات أفعال.

فقد ثبت أن للأفعال أولاً، فلو قلنا أن بين القديم وأول الأفعال أوقاتاً في الحقيقة لنناقضناه ودخلنا في مذهب خصمنا. نعوذ بالله من القول بهذا.

جواب آخر عن هذه الشبهة

وقد قال بعض أهل العلم: أنه لا ينبغي أن نقول بين القديم وبين الحدث، لأن هذه اللفظة إنما تقع بين شيئين محدودين، والقديم لا أول له. والواجب أن نقول: إن وجود القديم لم يكن عن عدم.

ونقول: إنه لو أمكن وجود حوادث بلا نهاية ولم يتناقض ذلك، لأمكن أن يفعلها حادثاً قبل حادث لا إلى أول، فيكون قد وجدت حوادث بلا نهاية. ولسنا نريد بذلك أنه كان قبل أن فعل مدة، يزيد امتدادها، لأن هذا هو الحدوث والتجدد، وهو معنى الزمان والحركة.

فإن قال قائل: إنه لا يثبت في الأوهام إلا هذا الإمتداد.

قيل له: ليس يجب إذا ثبت في الوهم أن يكون صحيحاً.

أليس عندكم أنه ليس خارج العالم خلاء؟ وذلك غير متوهم.

ثم يقال لهم: أثبت في الوهم ذلك؟ مع فرضكم نفي الحركات والتغيرات، أم مع فرضكم إثبات ذلك.

فإن قالوا: مع فرضنا إثبات ذلك قيل لهم: فيجب مع نفي ذلك أن لا يثبت هذا التوهم.

وإن قالوا: يثبت هذا التوهم مع فرضنا نفي ذلك.

قيل لهم: فقد ثبت في التوهم النقيضان، لأن هذا التوهم هو أن ينتقل ويمتد.

قال: ثم يقال أرايتم لو قال لكم قائل: ليس يثبت في ذهني موجود ليس في

جهة، فيجب أن يكون الباري عز وجل في جهة، أليس يكون يمكن أن يقال: إنما يثبت ذلك في الوهم متى فرضتموه جسماً وأما متى فرضتموه غير جسم ولا متحيز فإنه لا يثبت ذلك في الوهم، فهكذا يكون جوابنا لكم.

ثم قال هذا المتكلم:

فإن قالوا: فإذا لم تثبتوا مدةً مديدةً قبل الفعل فقد قلتم ان الباري سبحانه لم يتقدم فعله.

قيل: بل نقول إنه يتقدم على معنى أن وجوده قارن عدم فعله ثم قارن وجود فعله. وقولنا (ثم) يترتب^(١) على عدم الفعل لا غير.

قال: ونقول إذا فعل الله سبحانه شيئاً، إنه يجوز أن يتقدم، على معنى أنه يفعله، فيكون بينه وبين يومنا من الحوادث أكثر مما هو الآن، وليس الكثرة والتقدم والتأخر راجعاً إلا إلى الحوادث دون مدةٍ يقع فيها.

ثم تكلم في نفي المدة فقال:

والذي يُبين أن تقدم الحركات وتأخرها يثبت من دون مدةٍ يقع فيها، أنه لا يخلو هذه المدة من أن يكون شيئاً واحداً، لا إمتداد فيه ولا ينقل من حال إلى حال. أو يكون فيه تنقّل وإمتداد.

والأول يقتضي إثبات الزمان على غير الوجه المعقول، ويقتضي أن تكون الأشياء غير متقدم بعضها على بعض، إذا كان بالأجل تقدمه وتأخره تتقدم الأشياء وتتأخر ليس فيه تقدم وتأخر.

فليت شعري أثبت التقدم والتأخر بنفسه أم بغيره؟

إن كان يثبت فيه بغيره أدّى إلى ما لا نهاية له. وإن كان ذلك الزمان متقدماً ومتأخراً بنفسه من غير أن يكون في شيء متقدم ومتأخر، فهلا قيل ذلك في الحركات واستغنى عن معنى غيرها.

(١) لأن كلمة (ثم) من أدوات العطف مع ترتب مدخولها على ما قبلها ولا يلزم أن يكون ما قبلها أمراً وجودياً بل يكفي في صحة الترتب مقارنة مدخولها لما قبله وإن كان عدماً.

فصل وبيان

وهذه الطريقة التي حكيته هي عندي قاطعة لمادة الشبهة، كافية في إثبات الحجة على المستدل وهي مطابقة لإختيار أبي القاسم البلخي^(١). لأنه لا يطلق^(٢) القول بأن بين القديم وأول المحدثات مدة.

ويقول: إنه (أي الصانع تعالى) قبلها، بمعنى أنه كان موجوداً ثم وُجِدَتْ. وهو معنى ما ذكر هذا المتكلم في قوله: إن وجوده قارن عدم فعله ثم قارن وجود فعله، فهو على هذا الوجه قبل أفعاله.

واعلم - أيدك الله - أن العبارات في هذه المواضع تضيق عن المعاني، وتدعو الضرورة إلى النطق بما عُهد ووُجِدَ في الشاهد، وإن لم يكن المراد حقيقة في المعارف، ويجوز ذلك إذا كان مؤدياً لحقيقة المعنى إلى النفس، كقولنا: قبل، وبعد، وكان، وثم. فليس المعهود في الشاهد استعمال هذه الألفاظ إلا في الأوقات والمدد.

فإذا قلنا ان الله تعالى كان قبل خلقه ثم أوجد خلقه، فلبس هذا التقديم والتأخير مفيداً لأوقات ومددٍ وقد يتقدم بعضها على بعض بأنفسها، من غير أن يكون لها أوقات أخر.

وكذلك ما يطلق به اللفظ من قولنا: إن وجود الله قبل وجود خلقه. فليس الوجود في الحقيقة معنى غير الموجود. وإنما هو إتساع في القول، والمعنى مفهوم معقول.

وقد سأل أبو القاسم البلخي نفسه، فقال:

إن قال قائل أخبرونا عن أول فعلٍ فعله الله تعالى، أكان من الجائز أن يفعل قبل غيره؟

(١) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكمي البلخي توفي سنة (٣١٧هـ) وسو من زعماء المعتزلة وشيوخهم ورأس طائفة منهم يقال لها الكمية، وهو أستاذ أبي جعفر محمد بن عبد الرحمن المتكلم الشيعي المعروف (بأين قبة). وللبلخي مؤلفات عديدة منها كتاب (عيون المسائل والجوابات) ذكره المسعودي في مروج الذهب ج ١ ص ١٥١. ولأبي القاسم البلخي آراء كلامية تنقل عنه في كتب الكلام والفرق.

(٢) في الأصل (والقول) ويبدو أن الواو فيها زائدة.

وأجاب عن ذلك فقال: هو جائزٌ، بمعنى أن يكون لم يفعله وفعل غيره
بدله، وفعله هو. فأما غير ذلك فلا يجوز، لأنه يؤدي إلى الحال.
وفي هذا القدر كفاية في الكلام على الملحدة الدهرية والحمد لله.

مسألة في تأويل خبر

إن سأل سائل فقال: ما معنى قول النبي صلى الله عليه وآله في الخبر المروي
عنه:

« لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر »

الجواب

قيل له: الوجه في ذلك. أن الملحدين ومن نفى الصانع من العرب كانوا^(١)
ينسبون ما ينزل به من أفعال الله تعالى كالمرض والعافية والجذب، والخصب
والفناء، إلى الدهر. جهلاً منهم بالصانع جلت عظمتهم، ويذمونهم في كثير من
الأحوال، من حيث اعتقدوا أنه الفاعل بهم هذه الأفعال، فنهاهم النبي (ص)
عن ذلك، وقال لهم: لا تسبوا من فعل بكم هذه الأفعال، ممن يعتقدون أنه هو
الدهر، فإن الله تعالى هو الفاعل لهذه الأفعال. وإنما قال إن الله هو الدهر من
حيث نسبوا إلى الدهر أفعال الله تعالى.

وقد حكى الله تعالى عنهم قولهم:

« ما هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر ». سورة

الجاثية: ٢٤

وقال لبيد: (٢)

(١) في الأصل (كما) واتساق الكلام يقتضي أن يكون كما ذكرنا.

(٢) هو لبيد بن ربيعة الشاعر الجاهلي المشهور الذي أدرك الإسلام وأسلم توفي سنة (٤٠هـ)

و(٦٦٠م) وهو صاحب إحدى المعلقات السبع التي أولها

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

وله أمثال شعرية سائرة.

في قرومٍ سادةٍ من قومــــه نظر الدهر إليهم وابتهل
 أي دعا عليهم. (١)
 «قصيدة في الآداب والأمثال لابن دريد» (٢)
 ما طاب فرع لا يطيب أصله حمى مؤاخاة اللئيم فعله
 وكل من آخى لئيماً مثله
 من يشتكي الدهر يطل في الشكوى فالدهر ما ليس عليه عدوى
 مستشعر الحرص عظيم البلوى
 من أين الدهر أقي من مأمنه لا تستثر ذا لبيد (٣) من مكمنه
 وكل شيء يُبتغى من معدنه
 لكل ناعٍ ذات يوم ناعي وإنما السعي يقدر الساعي
 قد يهلك المرعي عنف الراعي
 من يترك القصد تضق مذاهبه دل على فعل امرى مصاحبه
 لا تركب الأمر وأنت عائبه
 من لزم التقوى استبان عدله من ملك الصبر عليه عقله
 نجا من العار وبان فضله

- (١) تجد الكلام على ذلك في أمالي المرتضى ج (١) ص ٤٥.
 (٢) في الأصل (لابن دريده) وهو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٢٢٣ - ٣٢١ هـ) من مشاهير علماء الأدب واللغة والشعر، وهو شاعر، له ديوان شعر، وعده ابن شهر آشوب من شعراء أهل البيت، وذكر من شعره قوله.
 أهوى النبي محمداً ووصيه وابنيه وابنته البتول الطاهرة
 أهل الولاء فأنني بولائهم أرجو السلامة والنجا في الآخرة
 وله مؤلفات عديدة منها كتاب الجمهرة في اللغة، وله مقاطيع محبوبكة الطرفين، وقصيدة في المقصور والمدود، والمقصورة المشهورة التي تبلغ حوالي مائتي بيت، وهو أستاذ لجماعة من العلماء منهم أبو سعيد السيرافي وأبو عبدالله المرزباني، وقد مات هو وأبو هاشم الجبائي في يوم واحد، فقال الناس يموت ابن دريد وأبو هاشم. أنظر الفهرست ص ٩١ - ٩٢ والأمل قسم (٢) ص ٦٢.
 (٣) صفة للأسد.

يجلو اليقين كدرَ الظنون والمرء في تقلب الشئون
 حتى توفاه يد المنون
 يا رب حلّو سيعود سما ورب حمدي تحوز ذمما
 ورب روح^(١) سيصيرهما
 من لم تصل فارض إذ حباكاً وأوله حمداً إذا قلاكاً
 أو أوله منك الذي أولاكاً
 مالك إلا عليك مثله لا تحمدن المرء ما لم تبله
 والمرء كالصورة لولا فعله
 يا ربما أدرئت اللجاجة ما ليس للمرء إليه حاجه
 وضيق أمرٍ يتغي انفراجه
 ليس بقي- من لم يق الله- الحذر وليس يقدر امرؤ على القدر
 والقلب يعمى مثلاً يعمى البصر
 كم من وعيدٍ يخرق الأذانا كأنما يُعنى به سوانا
 أصمنا الاهال بل أعمانا
 ما أفسد الخرق وساء الرفق وخير ما أنبا عنك الصدق
 كم صعقة دل عليها البرق
 لكل ما يؤذي وإن قلّ ألم ما أطول الليل على من لم ينم
 وسقم عقل المرء من شر السقم
 أعداء غيب إخوة التلاقي يا سواتا لهذه الأخلاق
 كأنما اشتقت من النفاق
 أنف الفتى وهو صريم أجدع^(٢) من وجهه وهو قبيح اشنع
 هل يستوى المحظوظ والمضيع

(١) الراحة والراحة

(٢) الصريم والأجدع بمعنى واحد وهو الأقطع.

ما منك من لم يقبل المعاتبة وشر أخلاق الفتى المؤاربة
ينجيك مما نكره المجانبة
مضى تصيب صاحب المهدبا هيهات ما أعسر هذا المطلبا
وشر ما طالبتة ما استصعبا
أف لعقل الاشط النصاب رب معيب فعله عياب
ذم الكلام حذر الجواب
لكل ما يجري جواد كبوة مالك إلا ان قبلت عفوه
من ذا الذي يسقيك عفواً صفوه
لا يسلك الشر سبيل الخير والله يقضي ليس زجر الطير
كم قمر عاد إلى قمير
[لم] يجتمع جمع لغير بين لفرقة كل اجتماع اثنين
يعمى الفتى وهو البصير العين
الصمت إن ضاق الكلام أوسع لكل جنب ذات يوم مصرع
كم جامع لغيره ما يجمع
مالك إلا ما بذلت مال في طرفة العين يحول الحال
ودون آمال الفتى الآجال
كم قد بكت عين وليس تضحك وضاق من بعد اتساع مسلك
لا تبر من أمراً عليك يملك
خير الأمور ما حمدت غيبه لا يرهب المذنب إلا ذنبه
والمرء مقرون بمن أحبه
كل مقام فله مقال كل زمان فله رجال
وللعقول تضرب الأمثال
دع كل أمر منه يوماً تعتذر عفا كل ورد غير محمود الصذر
لا تنفع الحيلة في ماضي القدر

نومُ أمرئٍ خير له من يَقْظَه لم يرضه فيه الكرام الحفظه
وفي صروف الدهر للمرء عِظَه
مسألة الناس لباس ذل من عَفَا لم يُسَمِّ ولم يُمَلِّ
فارضَ من الأكثر بالأقل
جواب سوء المنطق السكوت قد أفلح المبتدئ الصموت
ما حُمَّ (١) من رزقك لا يفوت
في كل شيء عِبرة لمن عقل قد يسعد المرء إذا المرء اعتدل
ترجو غداً ودون ما ترجو الأجل
من لك بالحض وليس محض يخبث بعض ويطيب بعض
ورب أمرٍ قد نهاه النقض
كم زاد في ذنب جهولٍ عذره ذا مرض يعنى عليك أمره
يخشى امرء شيئاً ولا يضره
يا رب إحسان يعود ذنباً ورب سلمٍ سيعود حرباً
وذو الحجى يحمل إن أحبا
قد يدرك المعسر في إعساره ما لم يبلغ الموسر في إيساره
وينتهي الهاوي إلى قراره
الشيء في نقصٍ إذا تناها والنفس تنقاد إلى رداها
مدعنةً يَحْتُ سائقها
الناس في فطرتهم سواء وإن تساوت بهم الأهواء
كل بقاء بعده فناء
لم يغفلُ شيء وهو موجود الثمن مال الفقى ما قصه لا ما احتجن
إذا حوى جثثانه ثرى الجبن (كذا)

(١) حُمَّ: قُدِّر

المال يحكي الغي في أثقاله وإنما المنفق من أمواله
ما غمر الحلة من سؤاله
من لاح في عارضه القتير^(١) فقد أتاه بالبلى النذير
ثم إلى ذي العزة المصير
رأيت غب الصبر مما يحمد وإنما النفس كما تُعدّد
وشر ما يطلب ما لا يوجد
إن اتباع المرء كل شهوة ليلبس القلب لباس قسوة
وكبوة العجب أشد كبوة
من يزرع المعروف يحصد ما رضي لكل شيء غايّة ستنقضي
والشر موقوف لدى التعرض
لا يأكل الإنسان إلا ما رزق ما كل أخلاق الرجال تتفق
هان على النائم ما يلقي الأرق
من يلذع الناس يجد من يلذعه لسان ذى الجهل وشيكاً يوقعه
لا يعدم الباطل حقاً يدمغه
كل زمانٍ فله نوابغ والحق للباطل ضد دامغ
لا يفصك المشرب وهو سائغ
رب رجاءٍ قص من مخافه ورب أمنٍ سيعود آفة
ذو النجح لا يستعبد المسافة
كم من عزيز قد رأيت ذلاً وكم سرورٍ مقبّلٍ تولى
وكم وضع شال فاستقلا
لا خير في صحبة من لا ينصف والدهر يحفو أمره ويلطف
والموت يفني كل عين تطرف

(١) القتير هو الغبار وأراد به هنا الشيب مجازاً.

رب صباح لأمرى لا يُمسِه حُف الفقى موكل بنفسه
حتى يجل في ضريح رسمه
إني أرى كل جديد بالي وكل شيء فإلى زوال
فاستشف من جهلك بالسؤال
آن رحيلاً فأعدّ الزادا آن معاداً فاحذر المعادا
لا يملك العمر وإن تبادى
إنك مربوب مدين تُسأل والدهر عن ذي غفلة لا يغفل
وكلما قدمته محصل حتى يجيء يومك المؤجل

(فصل)

رُوي عن أحد الأئمة عليهم السلام، أنه قال رسول الله (ص):
إن الله عز وجل كتم ثلاثة في ثلاثة: رضاه في طاعته، وكتم سخطه في
معصيته، وكتم وليه في خلقه، ولا يستخف أحدكم شيئاً من الطاعات، فإنه لا
يدري في أيها رضا الله تعالى، ولا يستقلن أحدكم شيئاً من المعاصي، فإنه لا
يدري في أيها سخط الله، ولا يزرين أحدكم بأحد من خلقه، فإنه لا يدري أيهم
ولي الله.

ومن كلامه (ص):

من سرته حسنته، وساءته معصيته فهو مؤمن.
لا خير في العيش إلا لرجلين: عالم مطاع، ومستمتع واع.
كفى بالنفس غنى، وبالعبادة شغلاً.
لا تنظروا إلى صغير الذنب، ولكن انظروا إلى من اجتراًتم.
وقال عليه وآله السلام:

آفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان، وآفة العبادة الفترة، وآفة
الطرف الصلف.

لا حسب إلا بتواضع، ولا كرم إلا بتقوى، ولا عمل إلا بنية، ولا عبادة
إلا بيقين.

إن العاقل من أطاع الله وإن كان ذمى المنظر، حقير الخطر، وإن الجاهل من عصى الله وإن كان جليل المنظر عظيم الخطر. أفضل الناس أَعقل الناس.

إن الله تعالى قَسَمَ العقل ثلاثة أجزاء، فمن كانت فيه كمل عقله، ومن لم تك فيه فلا عقل له: المعرفة بالله تعالى، وحسن الطاعة، وحسن الصبر. إن لكل شيء آلة وعدة، وآلة المؤمن وعدته العقل، ولكل تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل، ولكل سفر^(١) فسطاط يلجئون إليه، وفسطاط المسلمين العقل.

(فصل)

رُوي عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه أنه قال:

العقل ولادة، والعلم إفادة، ومجالسة العلماء زيادة.

وروي عنه عليه السلام أنه قال:

هبط جبرئيل (ع) على آدم (ع) فقال:

يا آدم أمرت أن أُخَيِّرَكَ في ثلاث، فاختر منهن واحدة ودع اثنتين، فقال آدم وما الثلاث؟ قال: العقل والحياء والدين. فقال آدم فإني قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين انصرفا، فقالا يا جبرئيل إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال فشأنكما وعرج.

(مسألة): إن سأل سائل فقال: كيف يحسن مخاطبة الحياء والدين؟ وكيف يصح منها النطق؟ وهما داخلان في باب الأعراض، التي لا تقوم بأنفسها، ولا تصح الحياة والنطق منها.

(الجواب): قيل له: هذا مجاز من القول، وتوسع في الكلام، والمعنى فيه: أنها لو كانا حينئذ قائمين بأنفسهما، تصح مخاطبة لهما، والنطق. لكان هذا حكمهما، والمحكي عنهما جوابهما.

(١) سفر: القوم المسافرون.

وقد يستعمل العرب ذلك في كلامها، وهو نوع من أنواع فصاحتها، قال الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قطني^(١) مهلاً رويداً قد ملأت بطني
ونحن نعلم أن الحوض لا يصح منه النطق، ولكنه استعار النطق، لأنه عنده لو كان في صورة ما ينطق لكان هذا قوله.

(خبر آخر): في هذا المعنى، وهو المشتهر بين الخاصة والعامة، من أن أول شيء خلق الله تعالى العقل، فقال له: أقبل، فأقبل. ثم قال له أدبر، فأدبر. فقال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك. بك أعطيت، وبك أُمِن، وبك أُثيب، وبك أعاقب. وعزتي وجلالي، لا أكملتك إلا فيمن أُحِببت. (٢)

فالمعنى فيه نظير ما تقدم، هو أن العقل لو كان قائماً بنفسه حتى يوجد مفرداً، لكان أول شيء خلقه الله تعالى لفضله، ولأن المنازل العالية لا تستحق إلا به، ولو كان حياً قادراً، لصح منه امتثال أمر الشارع إلى ما يؤمر به، ولم يقع خلاف للمراد منه.

وهذا كله بينة على شرف العقل وجلالته، وحث على وجوب الرجوع إليه، والتمسك بحججه، وفي القرآن لذلك نظائر.

(فصل مما ورد في القرآن في هذا المعنى)

فمن ذلك قول الله عز وجل:

«إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون» النحل: ٤٠.
فدليل شاهد بأن المراد بذلك ليس هو القول، ولا يصح فيه حقيقة الأمر.
لأنه لو كان يأمر الشيء في الحقيقة بالكون، كان لا يخلو من حالين:

(١) معناه حسي

(٢) تجد أكثر هذا الحديث في كتاب مشكاة الأنوار ص ٢٢٧ وفي كتاب الأربعين للمجلسي وهو الحديث الثاني من أحاديثه ص ٥ رواه بأسانيده.

إما أن يأمره بذلك، والشيء في حال عدمه، أو في حال وجوده.
ومحال أن يأمره وهو في حال عدمه، لأن المعدوم في الحقيقة ليس بشيء،
فيتوجه إليه الأمر.

والذين يشبّتون أنه شيء في حال عدمه من المتكلمين^(١) لا يخالفون في أنه لا
يصح أن يؤمر.

ومحال أيضاً أن يأمره وهو في حال وجوده، لأن الموجود هو الكائن.
ولا يقال للكائن (كن)، كما لا يقال للساكن (اسكن).
وأيضاً فلو كان يأمره في الحقيقة (بالكون) لكان الشيء المأمور هو الذي
يفعل نفسه ويكوّنّها.

ولا يصح من شيء أن يفعل إلا أن يكون حياً قادراً، ولا يصح منه أن
يفعل الحكم المتقن إلا بعد كونه عالماً.

وهذا كله^(٢) على أن المعدوم لا يؤمر ولا يفعل نفسه.

ولم يبق إلا أن يكون ذلك مجازاً في القول.

والمراد به الإخبار عن تيسر الفعل على الله سبحانه، أنه إذا أَرَادَهُ، وأنه
غير متعذر منه، ومتى أَرَادَ كونه كان بغير حائل ولا مانع، حتى كأن الذي
يريدّه لو كان حياً قادراً، يصح أن يكوّن نفسه، ثم أمره الله تعالى بذلك،
ليبادر إليه، ولم يتأخر عنه.

(١) اختلف المتكلمون في المعدوم هل هو شيء أم لا، فذهب بعضهم إلى أن المعدوم في حال عدمه
شيء، واستدلوا بآيات منها: قوله تعالى (ولا تقولن شيء إني فاعل ذلك غداً) إذ سمّاه شيئاً في
حال عدمه، وقوله تعالى: (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) عبر عنها بكلمة شيء وهي معدومة
وقبل أن تكون. وأنكر بعضهم أن يكون المعدوم شيئاً واستدلوا بآيات منها:
قوله تعالى: (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً)

وقوله تعالى: (ألم ير الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقوله أيضاً: (لم يكن شيئاً
مذكوراً) فقد نفى عن الذي لم يكن وكان معدوماً أن يكون شيئاً وحلوا تلك الآيات التي
استدل بها مثبتوا الشيئية للمعدوم كما فعل المؤلف على المجاز.

(٢) لعله قد سقطت كلمة (يدل) ووضعناها ليستقيم الكلام.

ومثل ذلك قول الله عز وجل:
(ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض أأتينا طوعاً أو كرهاً،
قالتا (أتينا طائعين) سورة فصلت: ٥٠.
وليس المراد أن السماء والأرض وهما جاد، [نطقتا]، وإنما المعنى تيسر
فعلهما، وما أراده فيهما.
فكأنهما لو كانتا في حكم الأحياء القادرين الذين يصح منهم النطق
والإتيان، لقاتلتا إذا أمرتا بالإتيان (أتينا طائعين).

ونظير هذا في الكلام كثير.
والناس يجعلون من تيسر منه الفعل، كأن فعله قد أطاعه، ويقولون
للساغر الحاضر الخاطر: إن القوافي لتسمع [له] وتطيع، وإنك لتراها رأي
العين، وإنها لمحصورة بين يديك.
ومراد هم أنها لا تتعذر عليه متى رامها، ولا يتوقف شيء منها إذا
قصدها.

فكأنها لو كانت في حيّزها ترى، لرآها، أو في حكم من يطيع لأطاعت أمره
إذا أمرها.
فأما الإخبار عن السماء والأرض بأنها (قالتا أأتينا طائعين) بلفظ التذكير.
فيحتمل أن يكون المعنى أأتينا بمن فينا، ومن يصح فيه التذكير.
ومن ذلك قول الله عز وجل:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ، وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ سورة ق: ٣٠.
وجهنم في الحقيقة لا يصح أن تخاطب، ولا يقع منها القول.
فالمعنى أنها لو كانت في حكم من يخاطب ويصح منها القول، لقاتلت (هل من
مزيد).

وقيل في الآية بوجه آخر.
وهو أن الذكر لها، والخطاب في الحقيقة متوجه لخزنتها، وهم القائلون (هل
من مزيد).

وإنما أضيف ذلك إليها ، كما يقال :
قالت البلدة الفلانية ، أي قال أهلها .

وقال الله تعالى :

(واسئَلْ القرية التي كُنَّا فيها) يوسف : ٨٢ والمراد أهلها .

ومن ذلك قول الله عز وجل :

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) . النور : ٢٤

وقوله جل اسمه :

(وقالوا لجلودهم لمَّ شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ،

وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون) فصلت : ٢١

فالقول عندنا في ذلك كله أنه على الإستعارة ومجاز اللغة ، دون الحقيقة .

والمعنى فيه أن الجوارح لو كانت مما تنطق لنطقت على أصحابها بالشهادة ،

وقالت انطقنا الله .

وقد يجوز في أبعاض الإنسان ما تقام الشهادة بفعله ، وإن لم يكن نطق .

والعرب تقول :

(رب عين أنطق من لسان) ويقولون :

(عينك تشهد بسحرك ، ونظرك يدل على خبرك) .

والشواهد على هذا كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية .

مسألة من عويص النسب :

أنا ابن أخ ابن أختك غير وهم

ألا قل لابن أم حمة أُمِّي

فأولدها غلاماً كان عمي

فلو زوجت أختك من أخ لي

وكان أخي لذاك العم عمًا

فمن أنا منك أو من أنت مني

أجب إن كنت ذا لب وفهم

الجواب :

القائل ابن ابن المقول له ، هو خال أبي القائل ، وأخت المقول له هي أم أبي

القائل .

فإذا تزوجها أخوا القائل لأمه، وهو جائز، لأنه لا قرابة بينها، فأولدها غلاماً. فالغلام عم القائل، لأنه يصير أخاً لأبيه، ويكون القائل أيضاً عمّاً للغلام من الأم، وكانت إخوة القائل من أبيه وأمه أعماماً للغلام.

فصل في ذكر الدنيا:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

« من أحب دنياه أضرب بآخرته ».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

الدنيا دول، فاطلب حظك منها بإجمال الطلب.

وقال عليه السلام:

من آمن الزمان خانه، ومن غلبه هانه.

وقال:

الدهر يومان: يوم لك، ويوم عليك، فإن كان لك فلا تبطر، وإن كان

عليك فاصبر، فكلاهما عنك يضي.

قال بعض الشعراء:

وإن امرءاً دنياه أكثر همه لمستمك منها بجبل غرور

وقال بعضهم:

إياك الإغترار بالدنيا، والركون إليها، فإن أمانتها كاذبة، وآمالها خائبة،

وعيشها نكد، وصفوها كدر، وأنت منها على خطر، إما نعمة زائلة، وإما بلية

نازلة، وإما مصيبة موجهة، وإما منية مفاجئة.

وقال آخر:

صاحب الدنيا في حرب، يكابد الأهواء لتقدح، والجهالة لتقمح،

والأرواع لتندفع، والآمال لتنال، والمكروه ليزال، وبعض ذلك عن بعض

شاغل، والمشغل عنه ضائع، فلما رأى الحكماء أنه لا سبيل إلى إحكام ذلك تركوا ما يفني ليحفظوا ما يبقى.

فصل في ذكر الأمل.

روى أن الله تعالى قال:

يا ابن آدم يأتي رزقك وأنت تحزن، وينقص من عمرك وأنت لا تحزن، تطلب ما يطغيك، وعندك ما يكفيك.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:
من كان يأمل أن يعيش غداً، فإنه يأمل أن يعيش أبداً.
وقال بعضهم:

الآمال لا تنتهي، والحي لا يكتفي.
وقيل: ما أطاع عبد أمله، إلا قصر عمله.
وقال آخر:

لا يلهك الأمل الطويل عن الأجل القصير.
وقال آخر:

من جرى في عِنان أمله^(١) عشر بأجله.

وقال آخر:

إنك إذا أدركت أملكَ قَرَبَكَ من أجلك، وإذا أدركك أجلك لم تبلغ أملكَ.

لابن الرومي^(٢)

(١) في الأصل (عمله) وهذه الكلمة للإمام علي (ع) انظر: نهج البلاغة ص ٥٦٧ رقم ١٨.

(٢) ابن الرومي هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريح وقيل جرجيس ولد سنة (٢٢١هـ) وتوفي سنة (٢٨٣ أو ٢٨٤هـ) وقيل بل في سنة (٢٧٦هـ). وهو من الشعراء الموهوبين المبدعين وكان يتشيع وقصيدته الجمية في رثاء يحيى العلوي شاهد على ذلك.

والأبيات التي ذكرها المؤلف هي من قصيدته التي جرى فيها مجرى لزوم ما لا يلزم التي = يقول فيها:

خسون عاماً كنت آملها كانت أُمّامي ثم خلفتها
كنز حياة لي أنفقته على تصاريّف تطرّفها
لو كان عمري مائة هدي تذكري أني تسوفتها

فصل في ذكر الموت.

رُوي أنه كان في التوراة مكتوباً:
يا بن آدم. لا تشتهي حتى تموت حتى تتوب، وأنت لا تتوب حتى تموت.
وقال أمير المؤمنين عليه السلام:
من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير.

وقال بعضهم:
لو رأيتم الأجل ومسيره، ولأبغضتم الأمل وغروره.
وأنشد:

نُراع لذكر الموت ساعة ذكره
فتعترض الدنيا فنلهو ونلعب

وقيل:

إن امرءاً آخره الموت لحقيق أن يخاف ما بعده.
وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام، سمع إنساناً يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال:
قولنا (أنا لله) إقرار منا له بالملك، وقولنا (إنا إليه راجعون) إقرار على أنفسنا بالهلك^(١).

= لهفى على الدنيا وهل لهفة تنصف منها إن تلهفتها
كم آهية لي قد تأوّهتها فيها ومن أف فأفقتها
أغدو ولا حال تسنمتها فيها ولا حال تردفتها

(١) هذه الكلمة من كلمات الإمام علي (ع) المروية في نهج البلاغة من باب المختار من حكمه رقم (٩٩) ص ٥٨٢ وأنظر: تحف العقول ص ١٤٥.

وقيل:

إن من عجائب الدنيا، أنك تبكي على من تدفنه، وتطرح التراب على وجه من تكرمه.

[قال] أبو نؤاس: (١)

غَرَّ جهولاً أَمَلُوه يموت من جا أَجَلُوه
ومن دنا من يومه لم تغن عنه حيله
وكيف يبقي آخر قد مات عنه أوله
لا يصحب الإنسان من دنياه إلا عمله

[قال] أبو ذؤيب: (٢)

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها
ألفيت كل قيمة لا تنفع

غيره:

تنافس في الدنيا ونحن نعيبها
وقد حذرتناها لعمري خطوبها
وما نحسب الساعات نقطع مدةً
على أنها فينا سريع ديبها
كأني برهطي يحملون جنازتي إلى حفرة يُحشى علي كتيبها
وباكية حرى تنوح وأني على غفلة من صوتها لا أُجيبها

(١) هو أبو علي الحسن بن هاني بن عبد الأول بن الصباح الحكمي، كان جده مولى الجراح بن عبدالله الحكمي والي خراسان، ونسبه إلى مولاه المذكور، ولد أبو نؤاس سنة ١٤١هـ وتوفي سنة ١٩٥ أو ١٩٧ أو ١٩٨هـ، وهو من مشاهير الشعراء المجيدين وخاصة في الحمريات والغزل. وهو معدود في شعراء الشيعة وله مدائح في أهل البيت عليهم السلام.

(٢) أبو ذؤيب هو خويلد بن خالد بن محرث بن مخزوم ينتهي نسبه إلى نزار، وقد أدرك الجاهلية والإسلام، وعاش إلى أيام عثمان بن عفان وخرج غازياً لأفريقية مع عبدالله بن أبي سرح ومات في مصر والبيت هو من قصيدة قالها في رثاء أولاده الخمسة الذين هلكوا في عام واحد، وهي قصيدة جيدة طويلة أولها:

أمن المنون وربها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

أيا هادم اللذات ما منك مهرب
يحاذر نفسي منك ما سيصيبها
رأيت المنايا قسمت بين أنفس
ونفسي سيأتي بعد ذاك نصيبها
لأبي إسحاق الصابي^(١) من قطعة كتبها إلى الشريف الرضي أبي الحسن
الموسوي، وهو هذا:

وإني على عيب الردى في جوانبي
وما كفّ من خطوي وبطش بناني
وإن لم يدع إلا فؤاداً مروّعاً
به غير باق من الخفقان
تلوّم تحت الحجب تنقب حكمة
إلى أذن تصني لنطـق لساني
لأعلم أي ميت عاق دفته
دماء قليل في غدٍ هو فان
وإن فما للأرض غرثان حائماً
يراصد من أكلي حضور أوان
به فترة عم الورى لفجائع
تركنَ فلاناً ثاكلاً لفلان
غداً فاغراً يشكو الطوى فهو راتع
وما تلتقي يوماً له شفتان
وكيف وحدّ القوت منه فناونا
وما دون ذاك الحدّ ردّ عيان

(١) هو إبراهيم بن هلال بن هارون الحراي الصابئي، من ألع الأدباء المشاهير في العصر العباسي،
ومن الكتاب المهرة البلغاء وقد أطراه كل من عرض لترجمته ونعته بصفات عالية. وتوفي عام
(٣٨٤هـ) وكان صديقاً حميماً للشريف الرضي، حتى أن الشريف رثاه بعد موته بقصيدة دالية
معروفة أولها:

أعلمت من حملوا على الأعواد رأيـت كيف خبا ضياء النادي

إذا عاصياً بالنسك من يعوليه
فلا أولاً منه بهلك ثان؟
إلى ذات يوم لا ترى الأرض وارثاً
سوى الله من إنسٍ تراه وجان
لغيره:

فكم من صحيح بات للموت آمناً
أنته المنايا رقدة بعدما هجع
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتةً
فراراً ولا منه بجيلة انتفع
فأصبح تبكيه النساء مكفناً
ولا يسمع الداعي إذا صوته رفع
وقرب من لحيدٍ فصار مقلبه
وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع

(فصل في ذكر الموت والقتل وما بينهما)

أعلم أن الموت غير القتل ، والذي يدل على أنها غيران ، قول الله عز وجل
(فإن مات أو قتل) آل عمران: (١٤٤)
وقوله تعالى:
(ولئن متم أو قُتِلتم) آل عمران: (١٥٨)
وقوله سبحانه:
(ما ماتوا وما قتلوا) آل عمران: (١٥٦)
وليس يجوز أن يكون التأكيد والتكرير في اللفظين يرجعان إلى معنى واحد.
ويدل على ذلك أيضاً، العلم بأن الله سبحانه ليس بقاتل لمن مات حتف أنفه.

ولو قال قائل في ميت أن الله قتله لأعاب العقلاء عليه .

والموت والقتل عرضان ، وليس بجسمين .

وقد قال شيخنا المفيد رضي الله عنه^(١) :

إن القتل متولد عن الأسباب ، ومحله محل حياة الأجسام ، والموت معنى يضاد حياة الفاعل المخلوق ، ولا يصح حلوله في الأجسام .

قال :

وهذا مذهب يختص بي .

والقتل عند جميع أهل العدل من مقدورات العباد ، والموت لا يقدر عليه أحد إلا الله .

(تأويل آية)

إن سأل سائل عن قول الله سبحانه :

(وإذا المؤودة سئلت ، بأي ذنب قتلت)^(٢) التكوير : ٨ - ٩ .

فقال : كيف يصح أن يُسأل من لا عقل له ؟ وأي فائدة في سؤالها عن ذلك ولا ذنب لها ؟ وما المؤودة ؟ ومن أي اشتقاق هذه اللفظة ؟

جواب^١

قلنا في قوله تعالى (سئلت) وجهان :

(١) هو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي العكبري البغدادي ، ولد عام (٣٣٦ أو ٣٣٨ هـ وتوفي ٤١٣ هـ) . وهو من أعمدة الشيعة في العلم والكلام والفقه والآثار ، وأكبر شخصية شيعية علمية في القرن الرابع الهجري في الكلام والمناظرة . وشيعه يوم وفاته ثمانون ألفاً . وقال عنه ابن حجر العسقلاني : « برع في العلوم حتى كان يقال : له على كل إمام منة » .

ومؤلفاته قد تجاوزت المأتي كتاب في مختلف المواضيع العلمية ، ولا يزال بعضها حياً إلى اليوم ، وقد طبع شيء منها .

وقد كتبنا عنه دراسة مسهبة في كتابنا « فلاسفة الشيعة » ص (٤٥٤ - ٤٦٩) فراجع

(٢) أنظر الكلام على هذه الآية في أمالي المرتضى م ٢ ص ٢٧٩ - ٢٨٢ .

أحدهما: أن يكون المراد أن قاتلها طوّل بالحجة في قتلها، وسئل عن سبب قتله لها، وبأي ذنب قتلها، وذلك على سبيل التوبيخ والتعنيف، وإقامة الحجة.

فالمقتلة ههنا هم المسؤولون على الحقيقة، لا المقتولة مسؤول عنها.

ومثله قوله تعالى:

وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسؤولاً الأسراء ٣٤

أي مطالباً به ومسؤولاً عنه.

والوجه الآخر: أن يكون السؤال توجه إلى المؤودة على الحقيقة، توبيخاً لقاتلها، وتقريعاً له، على أنه لا حجة له في قتلها.

ويجري هذا مجرى قوله تعالى لعيسى عليه السلام:

(أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي آلهين من دون الله) المائدة ١١٩ على

طريق التوبيخ لقومه، وإقامة الحجة عليهم.

فإن قيل: على هذا الوجه كيف يخاطب ويسأل من لا عقل له ولا فهم؟

فالجواب: إن في الناس من زعم أن الغرض بهذا القول إذا كان تبكيت القاتل وتهجينه وإدخال الغم عليه في ذلك الموقف على طريق العقاب، لم يمتنع أن يقع، وإن لم يكن من المؤودة فهم. لأن الخطاب وإن توجه إليها، فالغرض في الحقيقة به غيرها.

وهذا يجري مجرى رجلٍ ضرب ضارب طفلاً له من ولده، فأقبل الرجل على ولده يقول له: لم ضربت؟ وما ذنبك؟ وبأي شيء استحل هذا منك؟ وغرضه تبكيت الظالم لا خطاب الطفل.

وفي الناس من قال:

إن توجه السؤال إلى المؤودة وإن كان الغرض فيه تبكيت القاتل، فإنه لا يكون إلا والمؤودة قد أكملت لها العقل وجُعِلت على أفضل الهيئات، لأنها في القيامة تعوض عما نالها بالنعيم الدائم، فلا بد من إكمال عقولها، لتعرف عدل الله

تعالى، ويحسن التذاذها بما وصل إليها. فليس يتوجه السؤال إليها إلا وهذه حالها.

وقد روي عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعن ابن عباس رضي الله عنه، عنهما وعن غيرهما، أنهم قرأوا:

(إذا المؤودة سألت) بفتح السين والهمزة وإسكان التاء (بأي ذنب قُتِلَتْ) باسكان اللام وضم التاء الثانية، فكانت المؤودة والقائلة.

وإما المؤودة فهي المقتولة صغيرة.

وكانت العرب في الجاهلية تدفن البنات أحياء، وهو قوله:

(أَيْسَكُهُ عَلَى هَوْنٍ، أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) النحل: ٥٩

وهو قوله عز وجل:

(قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم) الأنعام: ١٤٠

ويقال: أنهم كانوا يفعلون ذلك لأمرين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات بالله، فهو أحق بالبنات.

والأمر الآخر:

أنهم كانوا يقتلونهم خشية الإِمْلاق، قال الله عز وجل:

(لا تقتلوا أولادكم خشية إِملاق، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطأ

كبيراً) الإسراء: ٣١

(فصل في معرفة الإِسم والصفة)

اعلم أن الإِسم غير المُسَمَّى، والصفة غير الموصوف.

والإِسم والصفة جميعاً لا يكونان إلا قولاً^(١) من المسمى والوصف، أو كتابة يدل على ما يدل عليه القول.

(١) يعني أن الإِسم والصفة هما لفظان مأخوذان اشتقاقاً من المسمى والوصف.

والإسم في الحقيقة ما دل على المسمى، والصفة ما دل على معنى في المسمى.
وفي هذا اللفظ تجوز، لأنها تعطي الظرفية والحلول. وربما كان الموصوف
غير ظرف ولا محل. (١)

وأقرب من هذا أن يقال:

إن الصفة ما أفادت أمراً يكون في الموصوف عليه.

وإنما افتقر المتكلم إلى استعمال هذه الألفاظ لضيق العبارات عن استيفاء
المعاني، فإذا فهم من اللفظ الغرض جاز استعماله.

فالإسم قولنا: زيد وعمرو ونحو ذلك، مما وسمت به الأشخاص، وحصل لها
ألقاباً تتخصص بها عند الإشارات، وليست دالة على معنى في الموصوف، ولا
مفيدة أمراً هو عليه.

والصفة قولنا: قادر وعالم ونحو ذلك، مما يدل على أمور يكون الموصوف
عليها.

فقولنا: قادر يفيد جواز وقوع الفعل منه، وقولنا عالم يفيد صحة وقوع
الفعل المحكم منه.

فإن انكشف لنا الاعتبار عن خروج الموصوف عن هاتين الصفتين إلى
ضدهما، حتى يتعذر وقوع الفعل منه، ويستحيل حصول الفعل المحكم المتقن
منه، فما ذاك إلا لأن فيه معنيين حالين، وهما القدرة، والعلم، وبوجودهما صح
منه فعل المحكم المتقن، وهما عرضان متغايران، وضداهما العجز والجهل، ولا
يكون هذا إلا والموصوف محدث، وليس القدرة والعلم صفتين للقادر والعالم،
وإنما الصفة قول الواصف: هذا قادر وهذا عالم، أو كتابته الدالة على ذلك.
وكذلك ليس السواد بصفة للأسود، وإنما صفته قولنا: هذا أسود، ومن
خالف في هذا فقد غلط.

(١) كما إذا كانت الصفة صادرة عن الموصوف لا قائمة فيه كالقتل والضرب وسائر الأفعال
الصادرة عنه، ولم يكن محلاً لها.

إلا أن يقال: إن العلم للعالم، والسواد للأسود على وجه التوسع في الكلام،
فذلك جائز.

وإن كشف لنا الإعتبار عن استحالة خروج الموصوف عما وُصِفَ به،
وبطلان وصفه بضده فما ذاك إلا لأنها صفات نفسية. ولهذا قلنا: إن الله قادر
وعالم لنفسه، وأنه لا علم ولا قدرة في الحقيقة له، لاستحالة خروجه من جواز
وقوع الفعل المحكم المتقن منه.

فالمعاني التي دلت الصفات عليها هي ما استفدناه من حال الموصوف.
وقد ظنت المجبرة أن الصفة غير الوصف، وقالوا: إن الصفة معنى قائم
بالموصوف، والوصف هو قول الواصف. وهذا فاسد، والصفة هي الوصف،
وهما مصدران لفعل واحد.

تقول: وَصَفَ يَصِفُ صفة ووصفاً، وهذا كالوَهَب والوَاهِب والهبة، والوعد
والعِدَّة. تقول: هَب يَهَب هبةً ووهباً، ووَعَدَ يَعِدُ عِدَّةً ووَعْدًا.

أسماء الله وحقيقتها

فصل في معرفة أسماء الله تعالى وحقيقتها.
فأما أسماء الله تعالى كلها فعائدة إلى الصفات، لأنها دالة على معاني،
ومتضمنة لفوائد، وليس فيها إسم يخلو من ذلك. ويجري مجرى اللقب، إنما
وضع على شخص تقع الإشارة إليه، ليفرق بينه وبين ما شاركه في جنسه من
الأشخاص المتماثلة.

ولما كان الله تعالى يجلُّ عن المجانسة ويرتفع عن المماثلة، استحال أن يكون
في أسمائه لقب، ووجب أن يكون جميعها مفيداً للمعاني، كما تفيد الصفات.
فأما التسمية له تعالى (بالله) فإنه يفيد من المعنى وكَلَّه العباد إليه، وتعلق
نفوسهم به، ورغبتهم عند الشدائد في إزالة المكروه إليه.

وقد روي عن الصادق عليه السلام في هذا المعنى مثل ما ذكرناه في
الحقيقة، وإن خالفه في بعض اللفظ.

فروي عنه أنه قال:

الإله يقتضي والهاً، والواله لابد له من مألوه. والإسم غير المسمى (١).
والأصل في قولنا: الله. إلاه، ثم دخلت الألف واللام للتعريف، فصار
الإله، فاسقطت الهمزة الثانية تخفيفاً، وجعلت اللامان لاماً واحدةً مشددةً،
فقليل: الله.

فأما التسمية له بالرحمن الرحيم فهو أن الرحمن مشتق من فعل الرحمة على
سبيل المبالغة في الوصف، لوقوعها في الفعل على حد لا يصح وقوعها عليه من
أحد من الخلق.

وقد روي عن الباقر (٢) عليه السلام صحة ذلك، فقال:

الرحمن لسائر الخلق، الرحيم بالمؤمنين.

فكان أحد الإسمين مشتق من عموم الرحمة، وهو الرحمن. والآخر من
خصوصها وهو الرحيم.

فأما تسميته باللطيف فيفيد اجتماع الحكمة والرحمة، ونفوذ مراده إذا شاء
وقوعه على الختم بلطائفه التي يلطف بها خلقه، على العلم بمصالحهم.

وهذا معروف في اللسان. تقول العرب! فلانٌ لطيف في أمره، وفلانٌ
لطيف في صنعه، إذا أرادوا وصفه بالحكمة في تدبيره.

وأما الخبير فيفيد علمه بالأشياء على حقائقها، وتبيينه لها على أوصافها.

وأما الكريم فهو مشتق من فعل الكرم، وهو التفضل بالنعم، والصفح عن
الذنوب، والتطول بالمتن.

(١) الحديث المروي عن الصادق عليه السلام هكذا بعد أن سأله هشام بن الحكم عن أسماء الله
واشتقاقاتها قال:

الله مشتق من إله، وإله يقتضي مألوهاً، والإسم غير المسمى، فمن عبد الإسم والمعنى فقد
اشرك وعبد الإثنين، ومن عبد المعنى دون الإسم فذاك التوحيد. أنظر توحيد الصدوق
ص ٢١٩.

(٢) هو الإمام محمد بن علي الباقر خامس الأئمة من أهل البيت عليهم السلام ولد عام (٥٧هـ) وتوفي
عام (١١٤هـ).

وأما الجواد فهو مشتق من الجود، وهو التفضل كما ذكرناه في معنى الكرم، غير أن لفظه أبلغ في الوصف في معنى الكرم من لفظ كريم.

وأما الغني فيفيد القدرة على ما يريد من غير معين عليه، وليس تستحق هذه السمة مع الله عز وجل على الحقيقة غيره، ومن وُصِفَ بها من المخلوقين فعلى سبيل الاتساع.

وأما السخي فمعناه عند من حَقَّقَ إطلاقه على الله سبحانه، بذل النعم والتفضل بها.

وقد أبت جماعة من أهل التوحيد إطلاق السخاء على الله تعالى، لأنه لم ينقطع عذري^(١) بكتاب منزل، ولا سنة متواترة، ولا إجماع، ولا أثر مستفيض جاء عن الصادقين عليهم السلام في تسمية الله تعالى بالسخاء، وليس له معنى تدل عليه العقول.

وقد ذكر بعض أهل التوحيد العارفين باللغة: أنه مأخوذ من السخاوة، وهي الأرض الرخوة.

وقد ثبت أن الأسماء لا تؤخذ إلا سماعاً، فلهذا وقفت ولم أقدم.

وأما قولنا: رب مأخوذ من التربية، ثم نقل إلى الملك.

وقولنا مالك مشتق من الملك

وجميع ما سوى هذا، مما سمي الله تعالى به نفسه فصفات مفيدة لمعانٍ، يفهم ذلك من تأمله.

(فصل في تمييز صفات الله تعالى)

اعلم أن جميع ما يوصف به على حقيقة، والمراد به معنى الوصف.

وقسم يوصف به مجازاً واتساعاً، والمراد به غير حقيقة ذلك الوصف.

وصفات الحقائق تنقسم أيضاً قسمين:

(١) هكذا وردت في الأصل، ولعل الأصوب (عذرهم)

فقسم صفات ذاتية، وهي التي لم يزل عليها، ولا يزول عن استحقاقها.
وقسم صفات أفعال، وهي التي تجددت عند فعله الأفعال، ولا يصح أن
يقال أنه عليها فيما لم يزل.

بيان صفات الذات، والدليل عليها:

وهي قولنا:

حي، باق، وقادر، وعالم، وكذلك موجود، وقديم.

فهذه الصفات استحقها لنفسه لا لمعنى آخر.

والدليل على ذلك: أنه لو كان حياً ب حياة، وباقياً ببقاء، وقادراً بقدره،
وعالماً بعلم، كان حياته، وبقاؤه، وقدرته، وعلمه، لا يخلو عن حالين:

إما أن تكون معاني قديمة معه، وإما أن تكون حادثة.

فلو كانت قديمة لشاركته في أخص صفاته، ومائلته، فيبطل التوحيد.

وقد تقدمت الأدلة على صحته.

وأيضاً فلو ماثلت الصفة الموصوف لم تكن صفة له بأولى من أن يكون هو
صفة لها.

وإن كانت هذه المعاني الموصوف بها، أعني الحياة والبقاء والقدره، والعلم،
حادثة، وجب أن يكون قبل حدوثها غير مستحق للوصف بها.

وقد ثبت الأدلة^(١) على أنه سبحانه لم يزل حياً، باقياً، قادراً، عالماً.

ولو كانت أيضاً حادثة، لم يكن لها غناء عن محدث أحدثها.

ولا يصح أن يكون محدثاً غيره تعالى، لأنه الفاعل الأول، والقديم الذي لم
يزل، فكيف يفعل الحياة لنفسه من ليس بحى؟ أو يحدث القدرة من ليس
بقادر.

والعاقل يعلم أن هذا مستحيل باطل.

(١) الأولى ثبت بالأدلة بزيادة الباء

فعلم أنه حي وبارق وقادر وعالم لنفسه لا لمعانٍ غيره .
وربما أُطلق اللفظ إتساعاً بأن له قدرة وعلماً ، قال (١) الله سبحانه كذا ،
والمعنى أنزله وهو عالم به ، ويقول المتكلمون: قدرة الله عظيمة ، والمعنى
التعظيم لمقدوره ، وأنه لا يعجزه شيء أرادته .

فأما عند التحقيق فهو قادر عالم لنفسه .
وقد رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في كلام له :
وجد الله تعالى وليس بينه وبين معلومه علمٌ غيره ، به كان عالماً بمعلومه .
وهذا القول عنه عليه السلام (٢) أنه تعالى عالم لنفسه وذاته ، وأنه لا علم في
الحقيقة له ، تعالى الله الذي ليس كمثله شيء .

وقد ذهب المجبرة إلى أن الله تعالى موصوف بصفاتٍ قديمةٍ معه ، وأنها ليست
غيره ، ولا بعضها غير بعض .

وهذا خروج عما يعقل ويفهم ، لأن العقول شاهدة بأن الأشياء التي يقع
عليها العدد ، ويشملها الوجود ، ويحتص كل منها بدليل ، لا تكون إلا
غياراً ، (٣) بعضها سوى بعض .

وقد قال لهم أهل العدل !

إذا كانت لله تعالى صفات قديمة ، وليست غيره ، بقولها : إنها ، أو هي هو ،
فأن العقل يقضي بأنه لا بد لكم في إثباتكم من أحد هذه الثلاثة الأقسام .

قالت المجبرة :

كل واحدٍ من هذه الثلاثة الأقسام قد ثبت الدليل على بطلانه ، فلا سبيل
إلى قوله .

ولكننا نقول : ليست الصفات عين الموصوف ، ولا غيره ، ولا بعضه .

(١) ربما سقطت من النسخ كلمة وقيل : فيصح الكلام هكذا وقيل قال الله ...

(٢) في الأصل تكرير أنه ويحتمل سقوط كلمة (يعني) أو ما يماثلها .

(٣) يعني بها المغايرة .

فقال لهم أهل العدل:

وقد هربتم من أن تقولوا بأحد هذه الأقسام لبطلانه، وصرتم إلى إدعاء ما لا تتصور العقول صحته، بل يشهد بفساده وبطلانه، فأخبرونا ما الفرق بينكم في قولكم إن صفاته لا هي هو، ولا غيره، ولا بعضه.

قالت المجبرة: هذا القول مناقضة.

قالت العدلية:

وقولكم في التناقض مثله، وأي شيء أردتموه في إبطال ما عارضناكم به، فقولكم يبطل بمثله.

وقد قالت المجبرة أيضاً في نصرة مذهبها:

إننا لم نرَ عالماً إلا وله علم، ولا قادراً إلا وله قدرة، فلما كان الله عالماً فادراً، وجب أن يكون له علم وقدرة.

قال لها أهل العدل:

إنكم إنما عولتم في ذلك على الشاهد، فقولوا إن علم الله تعالى غيره، وكذلك قدرته غيره. لأنكم لم تروا في الشاهد عالماً وقادراً إلا وهذا حكمه، وقولوا أيضاً إن علم الله تعالى محدث، وكذلك قدرته وجميع صفاته، لأنكم لم تروا ذات صفاتٍ إلا وصفاته محدثة، فاحتالوا في الخلاص مما لزمكم على سنن قياسكم.

بيان صفات الأفعال

اعلم أن صفة الفعل هي كل صفة داخلية في باب المضاف، ومعنى ذلك أن يكون يقتضي وجود غير الموصوف، كقولنا آله، ورب، ومالك، وفاعل، وجواد، ورزاق، وراحم، ومتكلم، وصادق، ونحو ذلك.

لأننا قد بينا أن الإله والله، والواله لا يكون إلا موجوداً، والرب يقتضي مربوباً، وكذلك مالك يقتضي وجود المملوك، لانه لا يقال قد ملك المعدوم، وفاعل صفة، لا شبهة في أنها لا تصح إلا إذا وجد المفعول. نعوذ بالله من القول

بان القديم لم يزل فاعلاً، لأن ذلك يقتضي انه لم يتقدم أفعاله، فيصير الفاعل قديماً، وجميع صفات الأفعال جارية هذا المجرى لمن تأملها.

ألا ترى: لو قلنا إنه جواد فيما لم يزل، اقتضى ذلك فعله للجود فيما لم يزل، ووجود من يجود عليه أيضاً فيما لم يزل.

وكذلك قولنا: متكلم يقتضي وجود كلام إذا تكلم، فكلام الله تعالى أحد أفعاله، كما أن رزقه أحد أفعاله، وهو موجود قبل كلامه.

فأما صادق فلا يصح إلا بعد صحة التكلم، والجميع صفات أفعال على ما تبين.

(فصل في فروق صفة الذات وصفة الفعل)

الفروق بينها كثيرة:

فمنها ان تنظر الصفة التي تصف الله تعالى بها، فإن كانت داخلة في باب المضاف، فهي نفسية، كقولنا موجود، وقديم، وبارئ وحى.

وكذلك إن كانت تقتضي إضافته إلى أمر غير موجود، كقولنا: قادر، فالقادر لا يكون إلا على مقدور، ولكن المقدور غير موجود.

ويجري مجرى ذلك قولك: عالم، لأنه لا يكون عالماً إلا بعلوم، وقد يصح أن يكون المعلوم معدوماً غير موجود.

فأما ما سوى ذلك من الصفات الداخلة في باب المضاف المقتضية إثبات غير الموصوف مما يكون موجوداً غير معدوم، فكلها صفات أفعال.

فرق آخر:

ومنها أن كل صفة تصف الله تعالى بها، ولا يجوز أن يدخلها التخصيص، فتثبتها له في حال، وتنفيها منه في أخرى فهي صفة نفسية، كقولك: موجود، وحى، وقادر، وعالم، فإنه لا يجوز أن ينتفي عنه ولا يتخصص شيء من ذلك. وكل صفة تصفه بها، ويجوز التخصيص فيها، فتثبتها في حال، وتنفيها عنه

في غيرها فهي صفة فعلٍ. كقولك: فاعل، وراحم، ورازق، ومتكلم، فإنك تقول: إنه سبحانه يفعل الخير ولا يفعل الشر، ويرحم المؤمن ولا يُرحم الكافر، ويرزق زيداً ولا يرزق عمرأ، وكلم الله موسى، ولم يكلم فرعون. فيكون فيها صفات أفعال، صح فيها التخصيص، وهذا واضح.

فرق آخر:

وهو أن كل ما استحال أن يوصف بالقدرة عليه وعلى ضده فهو من صفات ذاته.

ألا ترى أنه يستحيل قولك: يقدر أن يحيي ويقدر على الإحياء، ويقدر على أن لا يقدر.

ويقدر على أن يعلم، ويقدر على أن لا يعلم، فهذه صفات ذاته.

فأما إن كان ما يوصف به يصح أن يوصف بالقدرة عليه وعلى ضده فهو من صفات الأفعال.

ألا ترى أنك تقول: يقدر أن يفعل، ويقدر أن لا يفعل، ويقدر أن يرحم ويرزق، ويقدر أن لا يرحم ولا يرزق، ويقدر أن يتكلم، ويقدر أن لا يتكلم، فهذه كلها صفات أفعال، فافهم ذلك.

بيان صفات المجاز:

فأما الذي يوصف الله تعالى به ومرادنا به غير حقيقة الوصف في نفسه، فهو كثير، فمنه مريد وكاره وغضبان وراضٍ ومحِب ومبغض وسميع وبصير ورائٍ ومدرِك، فهذه صفات لا تدل على وجوب صفة يتصف بها، وإنما نحن متبعون للسمع الوارد بها، ولم يرد السمع إلا على مجاز اللغة واتساعاتها، والمراد بكل صفةٍ منها غير حقيقتها.

القول في المريد

أعلم أن المريد في الحقيقة والمعقولة هو القاصد إلى أحد الضدين اللذين خطرا بباله الموجب له بقصده وإيثاره دون غيره.

وهذا من صفات المخلوقين التي تستحيل أن يوصف في الحقيقة بها رب العالمين. إذ كان سبحانه لا يعترضه الخواطر، ولا يفتقر إلى أدنى روية وفكر، إذ كان هذا على ما بيناه، فإنما معنى قولنا: إن الله تعالى مريد لأفعاله، أنها وقفت وهو عالم بها غير شاغلة، ولا هو موجوداً لمسبب وجب من غيره مريداً له. فصح إذا أردنا أن نخبر بأن الله تعالى يفعل لا من سهو ولا غفلة ولا بإيجاب من غيره، أن تقول هو مريد لفعله، ويكون هذا الوصف استعارة، لأن حقيقته كما ذكرناه لا يكون إلا في المحدث.

دليل

والذي يدل على صحة قولنا في وصف الله تعالى بالأرادة، أنه سبحانه لو كان مريداً في الحقيقة لم تخل الأمر من حالين: إما أن يكون مريداً لنفسه، لوجب أن يكون مريداً للحسن والقبح، كما أنه لو كان عالماً لنفسه كان عالماً بالحسن والقبح. وإرادة القبح لا تجوز على الله سبحانه.

والكلام في هذا يأتي محرراً على المجبرة في خلق الأفعال. فإذا ثبت أن الله عز وجل لا يجوز أن يريد المقبحات علم أنه غير مريد لنفسه.

وإن كان مريداً بإرادة، لم تخل الإرادة من حالين: إما أن تكون قديمة، أو حادثة. ويستحيل أن تكون قديمة، بما بيناه من أنه لا قديم سواء عز وجل. والكلام على المجبرة في هذا داخل في باب نفي الصفات التي أدعت المجبرة أنها قديمة مع الله تعالى.

وأيضاً فلو كان الله سبحانه مريداً فيما لم يزل، إما لنفسه وإما بإرادة قديمة معه، لوجب أن يكون مراده فيما لم يزل، لأنه لا مانع له مما أراده، ولا حائل بينه وبينه، ولكان ما يوجده من الأفعال لا تختلف أوقاته، [ولا] يتأخر بعضه عن بعض، لأن الإرادة حاصله موحدة في كل وقت، وهذا كله موضح أنه عز وجل ليس بمريد فيما لم يزل، لا لنفسه ولا لإرادة قديمة معه.

وإذا بطل هذا لم يبق إلا أن يكون مريداً بعد أن لم يكن مريداً بإرادة محدثة، وهذا أيضاً يستحيل، لأن الإرادة لا تكون إلا عرضاً، والعرض يفتقر إلى محل، والله تعالى غير محل للأعراض، ولا يجوز أن تكون إرادته حالة في غيره، كما لا يجوز أن يكون عالماً بعلم محل في غيره، وقادراً بقدرة محل في غيره. ولا يجوز أيضاً أن تكون لا فيه ولا في غيره،^(١) لأنه عرض، والعرض يفتقر إلى محل يحملها، ويصح بوجوده وجودها.

ولو جاز أن توجد إرادة لا في مريد بها، ولا في غيره، لجاز أن توجد حركة لا في متحرك بها ولا [في] غيره. فإن قيل أن الحركة هيئة للجسم، وليس يجوز أن تكون هيئة غير حالة فيه.

قلنا: ولم لا يجوز ذلك؟
فإن قيل: لأن تغيير هيئة الجسم مدرك بالحاسة، فوجب أن يكون المعنى الذي يتغير به حالاً فيه.
قلنا: وكذلك المريد للشيء بعد أن لم يكن مريداً له، قد يتغير عليه حس نفسه، فوجب أن تكون إرادته تحله.

فإن قيل: أي شيء من الحواس تحس الإرادة؟
قلنا: وبأي شيء يحس الصداع؟
فإن قيل: إن الإنسان يدرك ألم الصداع في موضعه ضرورة.
قلنا: فلم نركم أشرتم إلى حاسة بعينها أدركه بها؟
ولنا أن نقول: وكذلك المريد في الحقيقة، يعلم بتغير حسه، ويدرك ذلك من نفسه ضرورة.

(١) وقد ذهب هشام بن الحكم إلى أن صفات الله ليست هي هو ولا غيره تبعاً للجهم بن صفوان، واستدل لهذا الرأي بأن حدوث الصفة في ذاته يلزم منه التغير في ذاته وإن يكون محلاً للحوادث، وإن حدثت الصفة في محل فيكون الموصوف بالعلم مثلاً هو ذلك المحل لا الباري تعالى وقد شرحنا ذلك في كتابنا «هشام بن الحكم» فراجع.

(فصل) من كلام شيخنا المفيد رضي الله تعالى عنه في الإرادة.
قال: الإرادة من الله جل اسمه نفس الفعل، ومن الخلق الضمير وأشباهه،
مما لا يجوز إلا على ذوي الحاجة والنقص.

وذاك أن العقول شاهدة بأن القصد لا يكون إلا بقلب، كما لا تكون
الشهوة والمحبة إلا لذي قلب، ولا تصح النية والضمير والعزم إلا على ذي
خاطر، يصور معها في الفعل الذي تغلب عليه الإرادة له، والنية فيه والعزم.
ولما كان الله تعالى يجلب عن الحاجات، ويستحيل عليه الوصف بالجوارح
والآلات، ولا يجوز عليه الدواعي والخطرات، بطل أن يكون محتاجاً في
الأفعال إلى التصور والعزمات، وثبت أن وصفه بالإرادة مخالف في معناه
لوصف العباد، وأنها^(١) نفس فعله الأشياء، وإطلاق الوصف بها عليه مأخوذ
من جهة الإتيان^(٢) دون القياس، وبذلك جاء الخبر عن أئمة الهدى عليهم
السلام.

قال شيخنا المفيد رحمه الله:
أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه^(٣) عن محمد بن يعقوب الكليني
عن أحمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى قال:
قلت لأبي الحسن عليه السلام^(٤):
«أخبرني عن الإرادة من الله تعالى ومن الخلق.

فقال: الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم من الفعل، والإرادة من الله
تعالى إحداثه الفعل لا غير ذلك، لأنه جل اسمه لا يهم ولا يتفكر». ^(٥)

-
- (١) في الأصل وإن بها نفس فعله، وصوبناه لما ذكرناه اعتداءً على ما سيأتي.
 - (٢) يعني به السماع.
 - (٣) من علماء الأمامية المحدثين الثقات وهو استاذ الشيخ المفيد، له مؤلفات منها (كامل الزيارات)
توفي عام ٣٦٨ أو ٣٦٧ هـ.
 - (٤) هو الإمام موسى بن جعفر عليه السلام المتوفي سنة ١٨٣ هـ وقيل بل ١٨٦ هـ.
 - (٥) روى الصدوق المتوفي عام ٣٨١ هـ هذا الحديث في كتابه «التوحيد» مع تغيير في بعض
ألفاظه لا تؤثر في روح الحديث.

قال شيخنا المفيد رحمه الله:

وهذا نص من مولانا عليه السلام على اختياري في وصف الله تعالى بالإرادة، وفيه نص على مذهب لي آخر منها، وهو: أن إرادة العبد تكون قبل فعله، وإلى هذا ذهب البلخي^(١).

والقول في تقدم الإرادة للمراد كالقول في تقدم القدرة للفعل، وقول الإمام عليه السلام في الخبر المتقدم أن الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم من الفعل صريح في وجوب تقدمها للفعل، إذ كان الفعل يبدو من العبد بعدها، ولو كان الأمر فيها على مذهب الجبائي لكان الفعل بادياً في حالها، ولم يتأخر بدوه إلى الحال التي هي بعدها لها.

فصل: اعلم أنا نذهب إلى أن الإرادة تتقدم المراد كتقدم القدرة للمقدور، غير أن الإرادة موجبة للمراد، والقدرة غير موجبة للمقدور، والإرادة بما لا يصح أن يفعل الشيء فضده بدلاً منه، والجميع^(٢) أعراض لا يصح بقاؤها.

«فصل من القول في أن الإرادة موجبة»:

هو أن الحي متى فعل الإرادة لشيء، وجب وجود ذلك الشيء، إلا أن ينعه منه غيره، فأما أن يمتنع هو^(٣) من مراده فلا يصح ذلك.

ومن الدليل على صحة ما ذكرناه أنه قد ثبت تقدم الإرادة على المراد، لاستحالة أن يريد الإنسان ما هو فاعل له في حال فعله، فيكون مريداً للموجود، كما يستحيل أن يقدر على الموجود. وإذا ثبت أن الإرادة متقدمة للمراد لم يخل أمر المرید لحركة يده من أن يكون واجباً وجودها عقيب الإرادة بلا فصل، أو كان يجوز عدم الحركة، فلو جاز ذلك لم يعدم إلا بوجود السكون منه بدلاً منها.

ولو فعل السكون في الثاني من حال إرادته للحركة لم يخل من أن يكون

(١) هو أبو القاسم البلخي وتقدمت ترجمته.

(٢) في النسخة والجمع.

(٣) في النسخة كلمة (لا) بعد (هو) وهو غير واضح ولعلها زائدة

فعله بإرادته له أو سهو عنه ، ومحال أن يفعله بإرادة ، لأن ذلك موجب للإجتماع إرادتي الحركة والسكون لشيء واحد في حالة واحدة ، ومحال وجود السكون في حال إرادته الحركة ، فيبطل جواز امتناع الإنسان مما قد فعل الإرادة له على ما شرحناه .

مسألة إن قال قائل : إذا كنتم تقولون أن إرادة الله تعالى لفعله هي نفس ذلك الفعل ، ولا تثبتون له إرادة غير المراد ، فما معنى قولكم أراد الله بهذا الخير كذا ، ولم يرد كذا ، وأراد العموم ولم يرد الخصوص ، وأراد الخصوص ولم يرد العموم ؟

جواب قيل له معنى ذلك أن في المقدور أخباراً كثيرة عن أشياء مختلفة ، فقولنا أراد كذا ولم يرد كذا ، فهو أنه فعل الخير الذي هو عن كذا ، ولم يفعل الخير الذي هو عن كذا ، وفعل القول الذي يفهم منه كذا ، ولم يفعل^(١) القول الذي يفهم منه كذا .

وهذا كقولنا : إنا إذا قلنا : الحمد لله رب العالمين وأردنا القول كان ذلك قرآناً ، وإذا أردنا أن يكون منا شكر الله تعالى كان كذلك .

فانا لسنا نريد أن قولاً واحداً ينقلب بإرادتنا قرآناً إن جعلناه قرآناً ، ويكون كلامنا إن جعلناه لنا كلاماً ، وإنما معناه أن في مقدورنا كلامين نفعل هذا مرة وهذا مرة .

فإن قال : فكان من قولكم أن (الحمد لله رب العالمين) إذا أردتم به القرآن يكون مقدوراً لكم .

قلنا : هذا كلام في الحكاية والمحكي ، وله باب يختص به ، وسنورد إن شاء الله تعالى طرفاً منه .

فصل : فأما إرادة الله تعالى لأفعال خلقه فهي أمره لهم بالأفعال ، ووصفنا له بأنه يريد منهم كذا إنما هو استعارة ومجاز ، وكذلك كل من وصف بأنه يريد

(١) في النسخة (ولم يفهم) وهي خطأ من الناسخ والصواب ما ذكرناه .

لما ليس من فعله تعالى بطريق الإستعارة والمجاز. وقول القائل: يريد مني فلان المصير إليه إنما معناه أنه يأمرني بذلك ويأخذني به، وأرادني فلان على كذا أي أمرني به، فقولنا: إن الله يريد من عباده الطاعة إنما معناه أنه يأمرهم بها. وقد تعبر بالإرادة عن التمني والشهوة مجازاً وإتساعاً، فيقول الإنسان أنا أريد أن يكون كذا أي أتمناه، وهذا الذي كنت أريد أن يكون كذا أي أتمناه، وهذا الذي كنت أريده أي اشتهيته وتميل نفسي إليه. والإستعارات في الإرادات كثيرة، فأما كراهة الله تعالى للشيء فهو نهيه عنه، وذلك مجاز كالإرادة فاعلمه.

القول في الغضب والرضا

وهاتان صفتان لا تصح حقيقتها إلا في المخلوق، لأن الغضب هو نفور الطباع، والرضا ميلها وسكون النفس، ووصف الله تعالى بالغضب والرضا إنما هو مجاز، والمراد بذلك ثوابه وعقابه،^(١) فرضاه وجود ثوابه، وغضبه وجود عقابه، فإذا قلنا رضي الله عنه فإنما نعني أثابه الله تعالى، وإذا قلنا غضب الله عليه فإنما نريد عاقبه الله، فإذا علّق الغضب والرضا بأفعال العبد فالمراد بهما الأمر والنهي، نقول إن الله يرضى الطاعة بمعنى يأمر بها، ويعضب من المعصية بمعنى ينهي عنها.

القول في الحب والبغض

وهاتان الصفتان إنما يوصف الله تعالى بها مجازاً، لأن المحبة في الحقيقة ارتياح النفس إلى المحبوب، والبغض ضد ذلك من الأوزاع والتنفر الذي لا يجوز على القديم، فإذا قلنا إن الله عز وجل يحب المؤمن ويبغض الكافر فإنما نريد بذلك أنه ينعم على المؤمن ويعذب الكافر، وإذا قلنا إنه يحب من عباده

(١) وهذا المعنى وردت عدة أحاديث منها ما في حديث هشام بن الحكم عن الصادق (ع): قال (ع) من حديثه: فرضاه ثوابه، وسخطه عقابه من غير شيء يتدخله فيهجه وينقله من حال إلى حال، التوحيد للصدوق ص ١٦٠.

الطاعة، ويبغض منهم المعصية جرى ذلك مجرى الأمر والنهي أيضاً على المعنى الذي قدمنا في الغضب والرضا.

القول في سميع وبصير

أعلم أن السميع في الحقيقة هو مدرك الأصوات بحاسة سمعه، والبصير هو مدرك المبصرات بحاسة بصره، وهاتان صفتان لا يقال حقيقتهما في الله تعالى، لأنه يدرك جميع المدركات بغير حواس ولا آلات، فقولنا: إنه سميع إنما معناه لا تخفي عليه المسموعات، وقولنا: بصير معناه أنه لا يغيب عنه شيء من المبصرات، وأنه يعلم الأشياء على حقائقها بنفسه لا بسمع وبصر، ولا بمعان زائدة على معنى العلم:

وقد جاءت الآثار عن الأئمة عليهم السلام بما يؤكد ما ذكرناه.

قال المفيد رضوان الله عليه:

أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه عن محمد بن يعقوب الكليني عن علي بن ابراهيم بن هاشم عن محمد بن عيسى عن حماد بن حريز عن محمد بن مسلم الشقي قال: قالت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: إن قوماً من أهل العراق يزعمون أن الله تعالى سميع بصير كما يعقلونه، قال: فقال: الله تعالى إنما يعقل ذلك فيما كان بصفة الخلق، وليس الله تعالى كذلك.

وبإسناده عن محمد بن يعقوب عن علي بن محمد مرسلًا عن الرضا عليه السلام: أنه قال في كلام له في التوحيد، وصفة الله تعالى كذلك: بأنه سميع إخبار بأنه تعالى لا يخفي عليه شيء من الأصوات، وليس على معنى تسميتنا بذلك، وكذلك قولنا بصير، فقد جمعنا الاسم، واختلف فينا المعنى، وقولنا أيضاً مدرك وراء لا يتعدى به معنى عالم، فقولنا راء معناه عالم بجميع المرئيات، وقولنا مدرك معناه عالم بجميع المدركات، فهذه صفات المجازات والحمد لله.

القول في الخالق

اعلم أن حقيقة الخالق في لغة العرب هو المقدر للشيء قبل فعل المروى

المفكر فيه ، قال زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان (١).
ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري
وقال الحجاج بن يوسف (٢):
«إني لا أعد إلا وفيت ، ولا أخلق إلا فريت» .
والشواهد في هذا كثيرة .
وإذا كان هذا حقيقة الخالق ، أعلم إن وصف الله تعالى به اتساع وتجوّز ،
والمراد به فاعل ، لأن الله تعالى لا يصح أن يقدر بروي وتفكر .

(فصل في صفة أهل الإيمان)

في كتاب الحاسن للبرقي (٣) قال مرّ أمير المؤمنين (ع) بمجلس من مجالس
قرش ، فإذا هو يقوم بيض ثيابهم ، صافية ألوانهم ، كثير ضحكهم ، يشيرون
بأصابعهم إلى من مر بهم . ثم مرّ بمجلس للأوس والخزرج ، فإذا هو يقوم بليت
منهم الأبدان ، ورقت منهم الرقاب ، واصفرت منهم الألوان ، قد تواضعوا
بالكلام ، فتعجب أمير المؤمنين عليه السلام من ذلك ، ودخل على رسول الله

(١) زهير بن أبي سلمى من الشعراء الجاهليين المتقدمين ومن أصحاب المعلقة المعروفة ، وهو
صاحب المعلقة التي أولها :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالتثلم
وهو من كان يتأله في شعره من الجاهليين ، ويكاد يكون مدحه وفقاً على هرم بن سنان المري ،
والبيت الذي استشهد به المؤلف هو من قصيدة أولها :

لمن الديار بقية الحجر أقوين من حجج ومن شهر
وتوفي عام ١٤ قبل الهجرة وعام ٦٠٨ م

(٢) هو من أعظم رجال الأمويين وقوادهم ، ومن جبابرة القواد وطعائهم ولولاه لانهار ملك بني
مروان ، ولما قامت لهم قائمة ، توفي بواسط المدينة التي بناها سنة ٨٣ هـ وكانت وفاته سنة
(٩٥ هـ) و٧١٣ م .

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي القمي توفي سنة (٢٧٤ هـ) أو (٢٨٠ هـ) من أعلام
الإمامية في الآثار والأحاديث ، وكتابه الحاسن يحتوي على ثمانين كتاباً وله سواه كتب
عديدة .

صلى الله عليه وآله فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله مررت بمجلس لآل فلان ثم وصفهم، ثم قال: وجميع مؤمنون، فأخبرني يا رسول الله بصفة المؤمن فنكس رسول الله (ص) رأسه، ثم رفعه، فقال:

«عشرون خصلة في المؤمن، من لم تكن فيه لم يكمل إيمانه، إن من أخلاق المؤمن يا علي، الحاضرون الصلاة، والساارعون إلى الزكاة، والمطمعون المساكين، والماسحون رأس اليتيم، والمطهرون أظفارهم، والمتزرون على أوساطهم، الذين إن حدثوا لم يكذبوا، وإن وعدوا لم يخلفوا، وإن تمنوا لم يخونوا، وإن تكلموا صدقوا، رهبان بالليل، أسد بالنهار، صائمون النهار، قائمون الليل، لا يؤذون جاراً، ولا يتأذى بهم جار، الذين مشيهم على الأرض هوناً، وخطاهم إلى المساجد وإلى بيوت الأراامل وعلى أثر المقابر، جعلنا الله وإياكم المتقين».

أخبرني أبو الرجا محمد بن علي بن طالب البلدي، قال أخبرني أبو الفضل محمد بن عبدالله بن محمد بن المطلب الشيباني الكوفي^(١) قال حدثنا عبدالله بن جعفر بن حجاب الأزدي بالكوفة، قال حدثني خالد بن يزيد بن محمد الشقي، قال حدثني أبي خالد، قال حدثني حنان بن سدير عن أبيه عن محمد بن علي عن أبيه عن جده قال قال علي عليه السلام لمولاه نوف الشامي، وهو معه في السطح^(٢):

(١) ينتهي نسبه إلى ذهل بن شيباني أصله من الكوفة، قضى عمره في طلب الحديث توفي سنة ٣٨٧ هـ قال النجاشي عنه: كان في أول أمره ثباتاً ثم خلط ورأيت جل أصحابنا يغمزونه ويضعفونه، ويكثر محمد بن علي الحزاز في كتابه كفاية الأثر في النصوص على الأئمة الإثني عشر، الرواية عنه، وكذا الصدوق وخاصة في كتابه كمال الدين وقام النعمة. وللشيباني مؤلفات منها مزار أمير المؤمنين (ع) وكتاب مزار الحسين (ع) وكتاب من روى حديث غدير خم.

(٢) لعله السطح لكن في النهج قال: وقد خرج ذات ليلة وهو ينظر إلى النجوم وهذا الحديث مروي في النهج وفي أمالي المفيد ص ٧٨ وفي تاريخ بغداد للخطيب م ٧ ص ١٦٢ وفي مروج =

« يا نون أرامق أم نبهان؟ قال: نبهان أرمقك يا أمير المؤمنين، قال هل تدري من شيعتي؟ قال: لا والله، قال: شيعتي الذبل الشفاء، الخمص البطون، الذين تعرف الرهبانية والربانية في وجوههم، رهبان بالليل، أسد بالنهار، الذين إذا جنهم الليل اتزروا على أوساطهم، وارتدوا على أطرافهم، وصفوا أقدامهم، واقترشوا جباههم، تجري دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى الله في فكاك رقابهم، وأما النهار فحلما علماء كرام نجباء أبرار أتقياء، يا نون، شيعتي الذين اتخذوا الأرض بساطاً، والماء طيباً، والقرآن شعاراً، إن شهدوا لم يعرفوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، شيعتي من لم يهر هيرير الكلب، ولا يطمع طمع الغراب، ولم يسأل الناس ولو مات جوعاً، إن رأى مؤمناً أكرمه، وإن رأى فاسقاً هجره. هؤلاء والله يا نون شيعتي، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، وحوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، اختلفت بهم الأبدان ولم تختلف قلوبهم.

قال: قلت يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك، أين أطلب هؤلاء، فقال لي في أطراف الأرض. يا نون، يجيئ النبي (ص) يوم القيامة آخذاً بحجرة ربه جلت أسأؤه، يعني يحمل الدين وحجرة الدين، وأنا آخذ بحجزته، وأهل بيتي آخذون بحجزتي، وشيعتنا آخذون بحجزتنا، فإلى أين؟ إلى الجنة ورب الكعبة، قالها ثلاثاً.

وأخبرني أيضاً أبو الرجا محمد بن علي بن طالب الرازي، قال أخبرني أبو الفضل محمد بن عبد الله بن محمد بن المطلب الشيباني، قال حدثني أبو عبد الله جعفر بن محمد بن جعفر العلوي الحسني، قال حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى الوابشي، قال حدثني عاصم بن حميد الحياط.

قال أبو الفضل الشيباني: وحدثنا محمد بن علي بن أحمد بن عامر البندار

= الذهب ج ٤ ص ١٩٣ وفي حلية الأدلياء ج ١ ص ٧٩، وفي الخصال للصدوق القمي ج ١ ص ٢٩٩. ونون هو نون البكالي والراوي عنه هو أبو عبد الله الشامي كما في معجم رجال الحديث ج ١٩ ص ٢٢٧.

بالكوفة من أصل كتابه ، وهذا الحديث بلفظه وهو أتم سياقة ، قال حدثنا الحسن بن علي بن بزيع ، قال حدثنا مالك بن إبراهيم بن عاصم بن حميد عن أبي حمزة الثمالي عن رجل من قومه ، يعني يحيى بن أم الطويل ، أنه أخبره عن نوف البكالي قال: عرضت لي إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حاجة ، فاستبعت إليه جندب بن زهير والربيع بن خيثم وابن أخيه همام بن عباد بن خيثم ، وكان من أصحاب البرانس ، فأقبلنا معتمدين لقاء أمير المؤمنين (ع) ، فألفيناه حين خرج يؤم المسجد ، فأفضى ونحن معه إلى نفرٍ متدينين قد أفاضوا في الأحداث تفكها ، وبعضهم يلهي بعضاً ، فلما أشرف لهم أمير المؤمنين (ع) أسرعوا إليه قياماً ، فسلموا ورد التحية . ثم قال : من القوم ؟ فقالوا : أناس من شيعتك يا أمير المؤمنين ، فقال لهم : حباً .

ثم قال : يا هؤلاء ما لي لا أرى فيكم شيمة شيعتنا وحلية أحببتنا أهل البيت ؟

فأمسك القوم حياءً . قال نوف : فأقبل عليه جندب والربيع فقالا : ما سمة شيعتكم وصفتهم يا أمير المؤمنين ؟ فتناقل عن جوابها ، فقال : اتقيا الله أيها الرجال وأحسن ، « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » النحل : ١١٨

فقال همام بن عباد وكان عابداً مجتهداً :

أسألك بالذي أكرمكم أهل البيت وخصكم وحباكم وفضلكم تفضيلاً ، إلا أنبأتنا بصفة شيعتكم ، فقال : لا تقسم ، فسأنبئكم جميعاً .

وأخذ بيد همام فدخل المسجد فسبح ركعتين وأجزها وأكملها ، ثم جلس وأقبل علينا ، وحف القوم به ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أما بعد فإن الله جل شأنه وتقدس أسماؤه خلق خلقه ، فالزمهم عبادته ، وكلفهم طاعته ، وقسم بينهم معائشهم ، ووضعهم في الدنيا بحيث وضعهم ، ووصفهم في الدين بحيث وصفهم . وهو في ذلك غني عنهم ، لا تنفعه طاعة من أطاعه ، ولا تضره معصية من عصاه منهم ، لكنه تعالى علم قصورهم عما يصلح

عليه شؤونهم، ويستقيم به أودهم وهم في عاجلهم، وآجلهم، فأدبهم بإذنه في أمره ونهيه، فأمرهم تخييراً وكلفهم يسيراً، وأماز سبحانه بعدل حكمه، وحكمته بين الموجف من انامه إلى مرضاته ومحبته، وبين المبطيء عنها، والمستظهر على نعمته منهم، بمعصيته فذلك قول الله عز وجل (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم، ومماتهم ساء ما يحكمون).

ثم وضع أمير المؤمنين (صلى الله عليه) يده على منكب همام بن عباد، فقال: ألا من سأل من شيعة أهل البيت، الذين اذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم في كتابه مع نبيه تطهيراً، فهم العارفون بالله، العاملون بأمر الله، أهل الفضائل والفواضل، منطبقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيمهم التواضع، ونجعوا الله بطاعته، وخضعوا له بعبادته، فمضوا غاضين أبصارهم عما حرم الله عليهم، واقفين اسماعهم على العلم بدينهم، نزلت أنفسهم منهم في البلاء، كالذين نزلت منهم في الرخاء رضى عن الله بالقضاء، فلولاً الأجل التي كتب الله لهم، لم تستقر أرواحهم في أجسادهم، طرفة عين، شوقاً إلى لقاء الله، والثواب، خوفاً من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم، وصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة، كمن رآها، فهم على آرائكها متكئون، وهم والنار، كمن دخلها، فهم فيها يعذبون قلوبهم محزونة وشروهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، ومعرفتهم في الإسلام عظيمة، صبروا أياماً قليلة، فأعقبتهم راحة طويلة، وتجارة مريجة، يسرها لهم رب كريم، أناس أكياس، ارادتهم الدنيا، فلم يريدوها، وطلبتهم فأعجزوها.

أما الليل فصافون أقدامهم، تالون لأجزاء القرآن، يرتلون ترتيلاً، يعظون أنفسهم، بأمثاله، ويستشفون لدائهم بدوائه تارة وتارة، يفتشون جباههم وأكفهم، وركبهم، وأطراف أقدامهم، تجري دموعهم على خدودهم، ويجدون جباراً عظيماً، ويجأرون إليه، جل جلاله، في فاك رقابهم هذا ليلهم، فأما نهارهم، فحلما علماء بررة أتقياء، براهم خوف بارئهم فهم أمثال القداح يحسبهم الناظر إليهم مرضى، وما بالقوم من مرض، أو خولطوا وقد خالط القوم من عظمة ربهم

وشدة سلطانه، أمر عظيم، طاشت له قلوبهم، وذهلت منه عقولهم، فإذا
 استفاقوا من ذلك بادروا إلى الله تعالى، بالأعمال الزاكية لا يرضون بالقليل،
 ولا يستكثرون له الجزيل فهم منهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون إن
 ذكر أحدهم خاف مما يقولون، وقال انا أعلم بنفسى من غيرى، وربي أعلم بي،
 اللهم لا تؤاخذني، بما يقولون، واجعلي خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا
 يعلمون، فإنك علام الغيوب، وسائر العيوب. هذا، ومن علامة أحدهم، أن
 ترى له قوة في دين وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً على علم،
 وفهماً في فقه، وعلماً في حلم، وكيساً في رفق، وقصداً في غنى، وتحملاً في فاقة،
 وصبراً في شدة، وخشوعاً في عبادة، ورحمة للمجهود، وإعطاءً في حق، ورفقاً في
 كسب، وطلباً في حلال، وتعففاً في طمع، وطمعاً في غير طبع أي دنس، ونشاطاً
 في هدى، واعتصاماً في شهوة، وبراً في استقامة، لا يغيره ما جهله، ولا يدع
 أحصاء ما عمله، يستبطنه نفسه في العمل، وهو من صالح عمله على وجل،
 يصبح، وشغله الذكر، ويمسي وهمه الشكر، يبيت حذراً من سنة الغفلة،
 ويصبح فرحاً لما أصاب من الفضل والرحمة، أن استعصبت عليه نفسه فيما
 تكره، لم يعطها سؤلها، فيما إليه تشره، رغبة فيما يبقى، وزهادة فيما يفنى، قد
 قرن العمل بالعلم، والعلم بالحلم، يظل دائماً نشاطه بعيداً كسله، قريباً أمله،
 قليلاً زلله، متوقفاً أجله، خاشعاً قلبه، ذاكراً ربه، قانعة نفسه، عازباً جهله،
 محرزاً دينه، ميتاً دأؤه، كاظماً غيظه، صافياً خلقه، آمناً من جاره، سهلاً أمره،
 معدوماً كبره، ثباتاً صبره، كثيراً ذكره، لا يعمل شيئاً من الخير رياء، وما
 يتركه حياءً، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان بين الغافلين، كتب
 في الذاكرين، وإن كان مع الذاكرين لم يكتب من الغافلين، يعفو عمن ظلمه،
 ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه؛ قريب معروفه، صادق قوله، حسن فعله،
 مقبل خيره، مدبر شره، غائب مكروه، في الزلازل وقور، وفي المكاراة صبور،
 وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، ولا يدعي ما
 ليس له، ولا يجحد ما عليه، يعترف بالحق، قبل أن يشهد به عليه، لا يضيع ما
 استحفظه، ولا ينايز بالألقاب، ولا يبغي على أحد، ولا يغلبه الحسد. ولا
 يضار بالجار، ولا يشمت بالمصاب، مؤدٍ للأمانات، عامل بالطاعات سريع إلى

الخيرات، بطيء عن المنكرات، يأمر بالمعروف، ويفعله، وينهي عن المنكر ويجتنبه، لا يدخل في الأمور. بجهل، ولا يخرج من الحق بعجز، إن صمت لم يعيه الصمت، وإن نطق لم يعبه اللفظ، وإن ضحك لم يعل به صوته، قانع بالذي قدر له، لا يجمع به الغيظ، ولا يغلبه الهوى، ولا يقهره الشح، يخالط الناس بعلم، ويفارقهم بسلم، يتكلم ليغتم، ويسأل ليفهم، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أراح الناس من نفسه، وأتعبها لإخوته أن بُغي [عليه] صبر ليكون الله تعالى هو المنتصر، يقتدي بمن سلف، من أهل الخير قبله، فهو قدوة لمن خلف من طالب البر بعده، أولئك، عمال الله، ومطايا أمره وطاعته، وسرج أرضه وبريته، أولئك شيعتنا وأحبتنا، ومنا ومعنا آهاً شوقاً إليهم. فصاح همام بن عباد صيحة وقع مغشياً عليه، فحركوه فإذن هو قد فارق الدنيا، رحمة الله عليه، فاستعبر الربيع باكياً، وقال، لا سرع ما أودت موعظتك يا أمير المؤمنين يا ابن أخي ولوددت أني بمكانه فقال أمير المؤمنين عليه السلام: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها، أما والله لقد كنت أخافها عليه فقال له قائل: فما بالك أنت يا أمير المؤمنين، فقال ويحك أن لكل واحد أجلاً لا يعدوه، وسبباً لن يتجاوزوه، فلا تعد بها، فإنما ينفشها على لسانك الشيطان، قال فضلى عليه أمير المؤمنين عليه السلام عشية ذلك اليوم، وشهد جنازته ونحن معه.

قال الراوي عن نوف، فصرت إلى الربيع بن خيثم فذكرت له ما حدثني نوف، فبكى الربيع حتى كادت نفسه أن تقبض، وقال صدق أخي ان موعظة أمير المؤمنين عليه السلام وكلامه ذلك مني بمرىء، ومسمع ما ذكرت ما كان من همام بن عباد، يومئذٍ وأتاني هنيئة الا كدّها ولا شدة إلا فرّجها^(١).

(١) هذه الخطبة رواها ابن شعبة الحراني في تحف العقول ص ١٠٧ - ١٠٩ وسليم بن قيس الهلالي في كتابه ص ١٦٠ - ١٦٤، وأبو جعفر الكليني في أصول الكافي م ٢ ص ٢٢٦ - ٢٣٠ وسبط ابن الجوزي في التذكرة ص ١٣٨ - ١٣٩ وفي نهج البلاغة، وغيرهم، انظر كتابنا مصادر نهج البلاغة ص ٢١٢.

فصل:

من كلام أمير المؤمنين صلوات الله عليه في الأخوان وآداب الإخوة.
في الإيمان الناس إخوان، فمن كانت إخوانه في غير ذات الله فهي عداوة،
وذلك قوله عز وجل:

«الاخلأ يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين». الزخرف: ٦٧

من قلب الأخوان عرف جواهر الرجال.
إمحض أخاك بالنصيحة حسنة كانت أم قبيحة. ساعده على كل حال، وزل
معه حيث زال. لا تطلبن منه المجازاة فإنها من شيم الدناة. إبدل لصديقك كل
المودة، ولا تبذل له كل الطمانينة.

واعطه كل المواساة، ولا تفض إليه بكل الأسرار، توفى الحكمة حقها،
والصديق واجبه. لا يكون أخوك أقوى منك على مودته.

البشاشة فخر المودة، والمودة قرابة مستفادة. لا يفسدك الظن على صديق،
أصلحه لك اليقين. كفى بك أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك. لأخيك عليك مثل
الذي لك عليه. لا تُضَيِّعَنَّ حق أخيك إتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس
لك بأخ من ضيَّعت حقه.

ولا يكن أهلك أشقى الناس بك. اقبل عذر أخيك، وإن لم يكن له عذر
فالتمس له عذراً.

لا يكلف أحدكم أخاه الطلب إذا عرف حاجته. لا ترغبن فيمن زهد
فيك، ولا ترهدين فيمن رغب فيك، إذا كان للمخالطة موضع.

لا تكثرن العتاب فإنه يورث الضغينة، ويحجرك إلى البغيضة، وكثرته من
سوء الأدب. إرحم أخاك وإن عصاك، وصله وإن جفاك.

احتمل زلة وليك لوقت وثبة عدوك. من وعظ أخاه سراً فقد زانه، ومن
وعظه علانية فقد شأنه.

من كرم المرء بكاه على ما مضى من زمانه، وحنينه إلى أوطانه، وحفظه
قديم إخوانه.

(فصل مما جاء نظماً في الإخوان)

روى أن الصادق جعفر بن محمد الصادق عليها السلام كان يتمثل كثيراً
بهذين البيتين:

أخوك الذي لو جئت بالسيف عامداً لتضربه لم يستغشك في الود
ولو جئته تدعوه للموت لم يكن يردك إبقاء عليك من الود
وقال مسلم بن وابصة: (١)

أحب الفتي ينفي الفواحش سمعه كأن به من كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطاً أذى ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هجراً
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلته عذرا
غنى النفس ما يكفيك من سد خلة فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا
لغيره:

إذا جمع الفتي حسباً ودينياً فلا تعدل به أبداً قريناً
ولا تسمح بحظك منه بل كن بحظك من مودته ظنينا
لآخر:

وكنت إذا الصديق أراد غيظي وأشرقني على حقي بريقي
غفرت ذنوبه وصفحت عنه مخافة أن أعيش بلا صديق (٢)
ولآخر:

ومن لا يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه، ميت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهداً كل عثرة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب (٣)

(١) هو سالم بن وابصة الأسدي لا مسلم بن وابصة، وهو شاعر إسلامي تابعي، وأبوه وابصة بن سعيد صحابي جليل، وسالم بن وابصة مقطعات شعرية في جماسة أي تمام.

(٢) رواها ابن قتيبة في عيون الأخبار ج ٧ ص ١٦ باختلاف كبير.

(٣) في النسخة نقصان وتشويش، وقد صححنا البيتين عن الموشى للوشاء، وعن محاضرات الأدباء للأصفهاني وفي عيون الأخبار ج ٧ ص ١٦ وهما لكثير.

وقال إياس ابن الفائق: (١)

وترمي النوى بالمقترين المراميا
كفى بالمهات فرقة وتنائيا
فقدت صديقي والبلاد كما هيا

يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم
فأكرم أخاك الدهر ما دمتا معاً
إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها
وقال حاتم بن عبد الله: (٢)

لتشرب ما في الحوض قبل الركائب
لأبعثها حقاً وأترك صاحبي

وما أنا بالساعي بفضل زمامها
وما أنا [بالطاوي] حقيقة (٣) رحلها
لبعضهم:

ففتكّ عنهم شياه العدم
فبادر قبل انتقال النعم

بدا حين أثرى بإخوانه
وذكرهم الحزم غيباً الأمور
لغيره:

وصار له من بين إخوانه مال
فساواهم حتى استوت بهم الحال

ألا إن عبد الله لما حوى الغنى
رأى خلةً منهم يسد بماله

لموسى بن يقطين:

فأغنى القل عن المكث

تتبع إخوانه في البلاد
ولسليمان بن فلاح:

مذ وقعت عينه على عدم
ونلت عن حاجتي ولم ينم
يقبل كف له ولا قدم

لي صديق ما مسني عدم
قام بعذري لما قعدت به
أغنى وأقنى ولم يسم كرمأ

(١) هذه الأبيات من شعر حماسة أبي تمام ولم أجد لإياس هذا ترجمة.

(٢) هو حاتم بن عبدالله الطائي من أجواد العرب وقد أصبح بجوده مضرب المثل والبيتان من قصيدة أولها

أقلب طرفي في فضاء السباب

ومرعبة دون السماء علوتها

(٣) في ديوان حاتم (حقيبة) وهو الأرجح.

لبشار بن برد، ويكنى أبا معاذ، ويلقب بالمرعث الداعمي. (١)

إذا كنت في كل الأمور معاتباً
فغش واحداً أو صل أخاك فإنه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
لزياد الأعجم: (٢)

أخ لك لا تراه الدهر إلا
أخ لك ليس خلت به بذق
[وله] (٣)

إذا كان ذواقاً أخوك من الهوى
فخل له وجه الطريق ولا تكن
تخاف المنايا أن ترحل صاحبي
ولبشار أيضاً:

خير إخوانك المشارك في المر
الذي إن شهدت شرك في النا
مثل سر العقيان إن مسه النا
وأين الشريك في المر أيننا
س وإن غبت كان أذنأ وعينا
ر جلاه البلا فازداد زينا

(١) هو بشار بن برد مولى بني عقيل وقيل بل لبني سدوس ويكنى أبا معاذ، ويلقب بالمرعث، والمرعث هو الذي جعل في أذنيه الرعاث وهي الأقراط، ولا أعرف سبب نسبته إلى الداعمي، وهو من فحول الشعراء الإسلاميين، ومن أشعر المحدثين طبعاً واسترسالاً وعمقاً، أتهم بالزندقة، وقتل على ذلك سنة ١٦٧/١٦٨ هـ ويشك في صحة هذه التهمة الموجهة، والأرجح أنها سياسية لا عقائدية وخاصة بعد قوله.

إن في البعث والحساب لشغلاً عن وقوف برسم دار محيـل
تجد أخباره في كتب الأدب والتاريخ كالأغاني ومعاهد التنصيص وسواهما.

(٢) هو زياد بن جابر بن عمرو مولى عبد القيس، كان ينزل اصطخر فغلبت العجمة على لسانه فقل الأعجم، أصله ومولد ومنشأه أصبهان، ومات بخراسان، أحد الشعراء المجيدين في عهد بني أمية، وله مدائح جواد في المهلب بن أبي صفرة، أخباره موجودة في الأغاني ج ١٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة.

(٣) كذا في النسخة وهنا سقوط كلمة (وأيضاً) أو كلمة لغيره).

وأنشدت لابن نعمه الخطيب مما قاله في مجلس ابن خالويه: (١)

أيها العالم الذي ملأ الأرض علمه
قلت لما جرحت قلبي بحالِ تغمه
لا يفر الحوار إن يتوطأه أمه
ولعمري لضمه كان أحلى وشمه
لا تهجم (٢) على الصديق بشيء يغمه
فإذا أحوج (٣) الشجاع (٤) بدامنه سمه

قال وأنشد لغيره:

[لا] (٥) تورّدن على الصديق من الدعاية ما يغمه
واحد بواذر طيشه يوماً إذا ما طال حلمه
فالعجل تنطحه على إدمان مس الضرع أمه

(١) هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالدية من شيوخ العربية البارزين، دخل بغداد وأخذ من علمائها كابن الأنباري وابن عمر والزاهد وابن دريد والسيرافي وانتقل إلى حلب ولزم سيف الدولة الحمداني، وهو من علماء الشيعة ومؤلفاته كثيرة منها: (كتاب ليس) وهو مبني على أنه ليس في كلام العرب كذا و(كتاب الآل) وعرض فيه للأئمة الاثني عشر ومواليدهم ووفياتهم، وكتاب في إمامة علي (ع) و(شرح مقصودة ابن دريد)، وأورد السيد ابن طاووس في كتاب الإقبال دعاءً عن ابن خالدية في أعمال شهر شعبان عن علي (ع) قال: كان أمير المؤمنين والأئمة (ع) يدعون به في شهر شعبان. وتوفي في حلب سنة (٣٧٠هـ)

وله شعر منه قوله:

إذا لم يكن صدر المجالس سيد
فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم قائل مالى رأيتك راجلاً
فقلت له من أجل أنك فارس

(٢) هكذا في النسخة والوزن معها غير مستقيم ولعله (لا تهجم).

(٣) هكذا في النسخة والمعنى معها قلقت ولعله في الأصل (أخرج) بدل أحوج.

(٤) الشجاع هو ذكر الحية.

(٥) ليس في الأصل كلمة (لا) وقد وضعناها ليستقيم الوزن والمعنى.

(فصل آخر في ذكر الأخوة والأخوان)

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا آخى أحدكم رجلاً فليسأله عن اسمه واسم أبيه وقبيلته ومنزله، فإنه من واجب الحق، وصافي الأئمة، وإلا فهو مودة حمقاء».

وروي أن داود قال لابنه سليمان عليها السلام: يا بني لا تستدلّ بأخ أخاً مستفاداً إما استقام لك، ولا تستقلن أن يكون لك عدو واحد، ولا تستكثرن أن يكون لك ألف صديق.

وأنشد لأمير المؤمنين عليه السلام:
وليس كثيراً ألف خلٍ وصاحبٍ وإن عدواً واحداً لكثير
وروي أن سليمان عليه السلام قال:
لا تحكموا على رجل بشيء حتى تنظروا من يصاحب، فإنما يعرف الرجل بأشكاله وأقرانه، وينسب إلى أصحابه وأخوانه.

وروي أنه كانت بين الحسن والحسين صلوات الله عليهما وحشة، ف قيل للحسين عليه السلام: لِمَ لا تدخل على أخيك وهو أسن منك؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أيما اثنان جرى بينهما كلام، فطلب أحدهما رضاء صاحبه كان سابقاً له إلى الجنة، فأكره أن^(١) أسبق أبا محمد إلى الجنة، فبلغ ذلك^(٢) الحسن عليه السلام فقام يجر رداءه حتى دخل على الحسين صلوات الله عليهما فاسترضاه.

حدثني الشريف أبو عبد الله محمد بن عبيد الله بن الحسين بن طاهر الحسيني رحمه الله وكتب لي بخطه قال حدثنا عبد الواحد بن عبد الله بن يونس الموصلي، قال أخبرنا أحمد بن محمد بن رباح، قال حدثنا محمد بن العباس الحسيني عن الحسن بن علي بن أبي حمزة البطائني عن صفوان الجمال قال: وقع بين أبي عبد

(١) في النسخة إذا فصولها (أن).

(٢) في النسخة زيادة (إلى) والأصوب حذفها.

الله جعفر بن محمد عليهما السلام وبين عبد الله بن الحسن بن الحسين كلام، حتى ارتفع الضوضاء، واجتمع الناس عليهما، فتفرقا عشيتهما تلك، ثم غدوت في حاجة لي، فإذا أنا بأبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام على باب عبد الله بن الحسن، وهو يقول: يا جارية قولي لأبي محمد، هذا جعفر بالباب، قال فخرج عبد الله، فقال يا أبا عبد الله ما بَكَرَ بك؟ فقال: أبو عبد الله عليه السلام: إني ذكرت آية من كتاب الله البارحة، فأقلقتني، قال وما هي؟ فقال: قول الله عز وجل:

«والذي يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب» الرعد: ٢١.

فقال عبد الله: صدقت والله يا أبا عبد الله، كأني لم أقرأ هذه الآية قط. وروي في الكامل أن عبد الله بن علي بن جعفر بن أبي طالب، افتقد صديقاً له من مجلسه، ثم جاءه فقال اين كانت غيبتك؟ قال: خرجت إلى عرض من أعراض المدينة مع صديق لي، فقال له: إن لم تجد من صحبة الرجال بدأ فعليك بصحبة من إن صحبته زانك، وإن خفقت له صانك، وإن احتجت إليه [أعانك]^(١)، وإن رأى منك خلّة سدها، أو حسنة عدها، أو وعدك لم يجرضك، وإن كثرت عليه لم يرفضك، وإن سألته أعطاك، وإن أمسكت عنه ابتداك.

وقال بعضهم:

قارب إخوانك في لقاءهم تسلم من بوائقهم.

وفي كتب الهند:

ثق بذی العقل والكرم، واطمئن إليه، وواصل غير ذی الكرم واحترس من سيء أخلاقه، وانتفع بعقله، وواصل الكريم غير العاقل وانتفع بكرمه، وانفعه بعقلك، واهرب من اللئيم الأحمق.

وقال آخر:

(١) في النسخة مكان كلمة أعانك (مانك).

دع مصارعة أخيك وإن حثَّ التراب في فيك .

وقيل :

إياك وطاعة الأسفال فإنه يهجم بصاحبه على مكروهه ، وإذا صفا لك أخ
فكن به أشد ضناً منك بنفائس أموالك . ثم لا يزهدنك فيه أن ترى منه خلقاً
تكرهه ، فإن نفسك التي هي أخص الأنفس بك لا تطيعك كالمقادة في كل ما
تهوى ، فكيف تلتمس ذلك من غيرك ، وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره ،
فقد قالت العرب : من لك يوماً بأخيك كله .

ووصف إعرابي رجلاً فقال :

كان والله يتحسَّى مرارة الأخوان ، ويسقيهم عذبه .

وقيل لخالد بن صفوان^(١) أي الأخوان أحب إليك ؟ فقال : الذي يغفر

زلي ، ويقبل علي ، ويسد خللي .

وسئل رجل عن صديقين له فقال :

أما أحدهما فعلق^(٢) مصيبة لا تباع ، وأما الآخر فعلق مصيبة لا تبتاع .

وكان آخر يقول :

اللهم احفظني من الصديق ، فليل له ولم ؟ قال لأني من العدو متحرز ، ومن
الصديق آمن وأنشد :

احذر مودة ماذق^(٣) شاب المرارة بالـ_____لاوة

يحصي العيوب عليك أيام الصداقة للعداوة

وقيل لبعضهم : كم لك من صديق ؟ فقال : لا أدري ، لأن الدنيا علي
مقبلة ، فكل من يلقاني يظهر لي الصداقة ، وإنما احصيهما إذا ولّت عني .

(١) هو خالد بن صفوان بن عبدالله بن الأهم من الخطباء البلغاء وهو معدود في البخلاء توفي في

عهد السفاح سنة ١٣٢هـ - ٧٥٠م .

(٢) هو النفيس من كل شيء ، وهو القطعة أيضاً .

(٣) هو من كان وده غير خالص .

وقيل ليحيى بن خالد^(١) وهو في الحبس وقد احتاج: لو كتبت إلى فلان فإنه صديقك، فقال: دعوه يكون صديقاً.

لبعضهم:

قد أخلق الدهر ثوب المكرمات فلا
ولا يَغَرَّنْكَ إخوان تعدُّهم

لغيره:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها
مساعدوه على الدنيا فإن وثبت

لغيره:

هي توبتي من أن أظن جيلاً
كشفت لي الأيام كل خبيئة
الناس سلمك ما رأوك مسلماً
فإذا امتحنت بمحنة ألفتهم

للشريف الرضي أبي الحسن محمد بن الحسين الموسوي رحمه الله.

وقد كنت مذلاح المشيب بعارضي
فما إذ عرفت الناس إلا ذمتهم

ولإبراهيم بن هلال الصابي:

أيا رب كل الناس أبناء علة^(٣)
وجوه بها من مضمحل الغل شاهد
إذا اعترضوا عند اللقاء فإنهم
وإن عرضوا^(٥) برد الوداد وظله

أما تغلظ الدنيا لنا بصديق
ذوات أديم في النفاق صفيق^(٤)
قذى لعيون أو شجاً لحلق
أسروا من الشحاء حر صديق

(١) هو يحيى بن خالد البرمكي كان رجل الدولة العباسية عقلاً ورأياً وسياسة وكان إلى هذا من

الخطباء البلغاء الأجواد، حبسه الرشيد بعد فتكه بالبرامكة ومات في الحبس سنة ١٩٠ هـ.

(٢) في النسخة (انقر) بدل انقر

(٣) أي أبناء ضرة.

(٤) الصفيق السميك.

(٥) في النسخة أعرضوا والأوجه ما ذكرناه.

بأقصى محل في البلاد سحيق
بها نازل في معشري وفريقي
بمغبية من صاحب ورفيق

ألا ليتني حيث انتوت أفرخ القطا
أخو وجدة قد آتستني كأنشى
فذلك خير للفتى من ثوابه
لغيره:

وقد اختبرت فما وجدت فتي يفي
مشهورة^(١) وشخصها لم تعرف

اسم الصديق على كثير واقع
كعجائب البحر التي اسمؤها
لأحمد بن إسماعيل:

بعناه فما استفدنا صديقاً
نحن لا نهدي إليه طريقاً
لا نرى تحت لفظه تحقيقاً

مذ سمعنا باسم الصديق فطالبنا
أتراه في الأرض يوجد لكن
أم ترى قولهم صديق مجازاً
لعبد الملك بن مروان^(٢):

ومالك عند فقرك من صديق
لهى عنك الزيارة وقت ضيق

صديقك حين تستغني كثير
فلا تأسف على أحد إذا ما
لبعضهم:

لعن الله ولكن
تحمي في أماكن

هو خـ ل ولكن
لفظة في ضمنها سوء
«مسألة فقهية»

رجل صحيح دخل على مريض، فقال له: أوصني فقال: بما أوصى. وإنما
يرثي زوجتك واختاك وعمتك وخالتك وجدتك، وفي ذلك يقول الشاعر:

أتيت الوليد ضحىً عائداً وقد خامر القلب منه السقاما
فقلت له أوص فيما تركت فقال ألا قد كفيت الكلاما
ففي عميتك وفي جدتيك وفي خالتيك تركت السواما

(١) في النسخة معروفة مشهورة.

(٢) هو أحد ملوك بني أمية، وهو الذي وطد حكمهم وقضى على عبدالله بن الزبير وعبد الرحمن بن الأشعث وعلى عمرو بن سعيد الأشدق، كان معروفاً بالحزم والحنكة ولد سنة ٢٦ هـ وتوفي سنة ٨٦ هـ.

وزوجاك حقها ثابت واختاك منه تحوز التاماً
هنالك يا بن أبي خالد ظفرت بعشر حوييت السهاما

الجواب

هذا المريض تزوج جدتي الصحيح أم أمه وأم أبيه، فأولد كل واحدة منها ابنتين، فابتناه من جدته أم أمه خالتا الصحيح^(١)، وتزوج الصحيح جدتي المريض أم أبيه وأم أمه، وتزوج أبو المريض أم الصحيح، فأولدها ابنتين، فقد ترك المريض أربع بنات، وهما عمتا الصحيح وخالتاه، وترك جدتيه وهما زوجتا الصحيح، وترك امرأتيه وهما جدتا الصحيح، وترك أختيه لأبيه، وهما اختا الصحيح لأمه. فلبناته الثلثان، ولزوجته الثمن، ولجدتيه السدس، ولاختيه لأبيه ما بقي.

وهذه القسمة على مذهب العامة دون الخاصة^(٢).

شبهة المجبرة

استدل المجبرة على أن الإيمان فعل الله تعالى، أن قالت: قد قال الله تعالى: (اهدنا الصراط المستقيم)^(٣)، ولا شك انه أراد بذلك تعليمنا سؤاله، فلا تخلو هذه الهداية التي تسأل فيها من حالتي: إما أن [تكون] الدلالة على ما يقولون، وإما أن يكون الإيمان على نقول.

وزعموا أنها لا تصح أن تكون الدلالة لأن الله عز وجل قد فعلها. قالوا: ولا يجوز أن تسأله في فعل ما قد فعله، وإذا لم يصح أن يكون السؤال في الدلالة، فما هو إلا في أن يفعل لنا الإيمان فنكون بفعله مهتدين.

(١) هنا كما يبدو قد سقط بيان نسبة البنيتين المولودتين من أم أبيه، وهما يكونان عمتي الصحيح.

(٢) لأنه لا يرث في مذهب الإمامية في مثل هذه المسألة إلا بنات الميت وزوجته أما جدته وأختاه فلا ارث لها هنا.

(٣) سورة الفاتحة آية ٦.

نقض عليهم

أما قولهم ان هذه الهداية المسئول فيها لا تخلو في حالتين إما أن تكون الدلالة وإما ان يكون الإيـمان فخطأً، لأنها قد تحتـمل غير ذلك، ويجوز أن يكون المراد بها فعل الألفـاف التي إذا فعلها الله تعالى ازداد بها الصدر إنشراحاً للإيمان، ولا تكون هذه الألفاف إلا لمن آمن واهتدى، وقد تكون الألفاف هداية، قال الله تعالى:

(والذين اهتدوا زادهم هدى) محمد: ١٧

وأما قولهم إنها لا تجوز أن تكون الدلالة فخطأً، لأن الدلالة وإن كان الله قد فعلها وأزاح علل المكلفين بإقامتها، فإنه قد يصح أن تسأله في الزيادة فيها، وأن يقوي خواطرنـا بالتيسير لنا إدراك أدلة أخرى بعدها. ولا شبهة في أن ترادف الأدلة زيادة في الهدى.

وأما قولهم إنه لا يجوز سؤال الله تعالى في فعل ما قد فعله فخطأً أيضاً. وقد يصح أن نسأل الله سبحانه في فعل ما فعله، وفي أن لا يفعل ما يجوز أن فعله.

وقد علمنا ذلك في كتابه وندبنا إلى ما فعله عبادة تعبدنا بها ومصلحة هـدانا إليها فقال سبحانه حاكياً عن ملائـكته (اغفر للذين تابوا وتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) غافر: ٧

ولا شك أنه قد فعل ذلك بهم قبل المسألة منهم.

وكقوله: (رب احكم بالحق)

ونحن نعلم أنه لا يحكم إلا به

وكذلك ما تعبدنا به منى من سؤاله أن تصلي على أنبيائه ورسله مع علمنا أنه قد صلى عليهم ورفع أقدارهم.

وحكى لنا سؤال إبراهيم خليله (ﷺ) في قوله: (ولا تحزني في يوم يبعثون) الشعراء: ٨٧، وهو يعلم أنه لا يحزيه.

وعلمنا سبحانه كيف تقول: (ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به)، ونحن نعلم أنه لا يكلف عباده ما لا يطيقون.

وقد شهد بذلك قوله عز وجل:

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) البقرة: ٢٨٦.

وإنما جازت العبادة بذلك ونحوه لما فيه من التذلل والخضوع والاستكانة والخشوع، فيجوز على هذا الوجه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم، بمعنى يدلنا عليه، وإن كان قد دل وهدى جميع المكلفين، قال الله تعالى:

(وأما ثود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى). فصلت: ١٧.

مسألة لهم

قالت المجبرة ما معنى قول الله تعالى:

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) وكيف يجوز أن يتعبدنا بالدعاء، وعندكم أن النسيان من فعله سبحانه، ولا تكليف على الناس في حال نسيانه.

جواب

يقال للمجبرة: لسنأ نحيل أن يكون المراد من النسيان المذكور في هذه الآية السهو وفقد العلم، ويكون وجه الدعاء إلى الله تعالى بترك المؤاخذة عليه جارياً مجرى ما تقدم ذكره من الإنقطاع إليه، وإظهار الفقر إلى مسألته والاستعانة به، وإن كان مأموناً منه في المؤاخذة بمثله، على المعنى الذي أوضحنا قبل هذه المسألة، ويجوز أيضاً أن نحمل النسيان المذكور فيها على أن المراد به الترك كما قال سبحانه: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فَنَسِيَ) طه: ١١٥.

أي فترك، ولولا ذلك لم يكن فعله معصية كقوله تعالى: (نسوا الله فَنَسِيَهُمْ) أي تركوا طاعته فتركهم من ثوابه ورحمته، وقد يقول الرجل لصاحبه: لا تنسني من عطيتك أي لا تتركني منها.

وأنشد أبو عرفة:

ولم أك عند الجود للجود قالياً ولا كنت يوم الروع للطعن ناسياً
يعني تاركاً:

ويشهد بصحة ذلك قول الله عز وجل:
(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم). البقرة: ٤٤ بمعنى وتتركون
أنفسكم.

فصل:

من الفرق بين مذهبنا ومذهب المجبرة في الأفعال. التي نعتقد بها (١).
أن الله تعالى لا يكلف عباده ما لا يطيقون، ولا يشيبههم ولا يعاقبهم إلا
على ما يفعلون.

وأن الإيمان فعل المؤمن. وأن الكفر فعل الكافر.
وتزعم المجبرة: أن الله تعالى يكلف العبد ما لا يطيقه، ويأمره بما لا يقدر
عليه ولا يتأتى منه، ويشيبه ويعاقبه على ما لم يفعله والإيمان والكفر فعلا لله
تعالى.

ونعتقد أن القدرة التي أعطاها الله تعالى للعبد هي قدرة على الإيمان
والكفر وأنه يفعل بهما أيها شاء باختياره، ولا يصح أن يفعلها معاً في حال
واحدة لتضادهما. فحصل من هذا أن الذي أمره الله بالإيمان ونهاه عن الكفر
قادر على ما أمره به ونهاه عنه، وصح أنه سبحانه لا يكلف العبد إلا بما
يستطيعه.

وتزعم المجبرة أن القدرة التي اعطاها الله عز وجل للعبد لا تصلح إلا لشيء
واحد، إما للإيمان وإما للكفر.

وأن قدرة الإيمان تضاد قدرة الكفر، ولا يصح اجتماعهما معاً.
فالذي معه قدرة الإيمان قد كلف ترك الكفر وهو غير قادر عليه، والذي
معه قدرة الكفر قد كلف فعل الإيمان ولا قدرة معه عليه. فحصل من هذا
تكليف ما لا يطاق، وإلزام ما لا يستطيع. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.
ونعتقد أن القدرة على الفعل توجد قبله، وأن الفعل يوجد بعدها،

(١) في الأصل نعتقد.

فالأمر بالإيمان قادر عليه غير فاعلٍ له، وإنما أمر بمعدوم ليوجده وهو يقع ويحصل ثاني وقت القدرة كما قدمناه.

وكذلك المنهي عن الكفر إنما نهى وهو قادر على أن يفعل كفرًا يقع منه في ثاني حال قدرته، فإذا كان كافرًا وقت قدرته، فكفره ذلك إنما صح منه بقدرة أخرى تقدمته.

وتزعم المجبرة أن القدرة على الفعل توجد هي والفعل معاً، ولا يتأخر الفعل عنها.

فالأمر بالإيمان ومعه قدرة عليه إنما أمر بوجود، والمنهي عن الكفر ومعه قدرة عليه إنما نهى عن موجود، فكأنه قيل للمؤمن افعل ما قد فعلت، والموجود المفعول لا يفعل، وقيل للكافر: لا تفعل ما قد فعلت، وما قد فعل ووجد لا يصلح الإمتناع منه. وهذا تخييط محكم.

ونعتقد أن القدرة غير موجبة للمقدور ولا حاملة عليه، وأن القادر مُخَيَّر بين أن يفعل الشيء أو ضده بدلاً منه.

وتزعم المجبرة أن القدرة موجبة للمقدور حاملة عليه، ولا يصح وجودها إلا والمقدور معها.

ونعتقد أن المقدور الكائن بالقدرة هو فعل العبد في الحقيقة، سواء كان طاعة أو معصية أو مباحاً، وأن العبد يحدث الفعل وموجده.

وتزعم المجبرة أن جميع المقدورات فعل الله تعالى، وهو المحدث لسائر الأفعال في الحقيقة، ولا يحدث سواه، ويقولون أن معنى قولنا إن العبد فعل إنما هو اكتسب، فإذا سئلوا عن حقيقة الكسب لم يتحصل منهم فيه فائدة تعقل.

ونعتقد أن الله تعالى لا يريد من العباد إلا الطاعة، وأنه يريد لما أمر به، كاره لما نهى عنه.

وتزعم المجبرة أن الله تعالى يريد من قوم الطاعة ويريد من آخرين معصيته، وأنه قد أمر الكافر بالإيمان ولا يريد منه، فقد أمره بما لا يريد ونهى عما أراد.

ونعتقد أن الله تعالى إذا أراد شيئاً فهو كان يحبه ويرضاه، وإذا كره شيئاً فإنه لا يحبه ولا يرضاه.

وتزعم المجبرة أن الله عز وجل قد يريد شيئاً ويشأؤه ولا يحبه ولا يرضاه، وأنه قد يكره شيئاً ويحبه ويرضاه.

وهذه مناقضة لا تخفي على عاقل.

وكل ما ذهبنا إليه في الأفعال بما وصفناه وعددناه فالمعتزلة توافقتنا عليه، وتحالفنا المجبرة فيه. وكل من قال: الله لا يكلف عباده ما لا يطيقون ولا يعذبهم على ما لم يفعلوا فهو من أهل العدل، ومن خالف في ذلك فهو من أهل الجور والجبر.

قبح التكليف بما لا يطاق

فصل: من القول في أن الله تعالى لا يكلف عباده ما لا يطيقون.

الذي يدل على أن الله تعالى لا يفعل ذلك، أنا وجدنا قد قَبَّحَهُ في عقولنا، لا لعلّة من نبي أو غيره، بل جعل العقول شاهدة بأنه قبيح لنفسه. وما كان قبيحاً لنفسه لا للنهي عنه، فلن يجوز أن يفعله فاعل إلا وقد خرج من كونه حكيماً، ولو جاز أن يكلفنا سبحانه وتعالى ما لا نطيع، لجاز أن يكلف الأعمى النظر، والأخرس النطق، والزمن^(١) العدو، ولجاز أن يكلف السيد منا عبده ذلك، ويعاقبه على ما لا يقدر عليه. وهذا واضح البطلان، فَعَلِمَ أنه لا يكلف أحداً من عباده إلا ما يطيقه ويستطيعه.

فإن قالوا: إن تكليف ما لا يطاق قبيح، وهو حسنٌ من خالقنا، لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

قيل لهم: فأجيزوا عليه الإخبار بالكذب، وقولنا إن ذلك قبيح بيننا، حسن من خالقنا، لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

(١) الزمن هو المقعد الذي لا يستطيع المشي.

فإن اعتقدوا ذلك وجب أن لا يشقوا بشيء مما تضمنه القرآن من الأخبار، وإن امتنعوا طولبوا بعلّة الإمتناع.

فمهما قالوه في قبح الإخبار بالكذب من قول، قيل لهم: قد قبح تكليف ما لا يطاق مثله.

فأما ما يشهد من القرآن بأن الله تعالى لا يكلف ما لا يطاق، فقوله سبحانه:

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) البقرة: ٢٨٦.

وقوله عز وجل:

(لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) الطلاق: ٧

فصل: من القول في أن القدرة على الايمان هي قدرة على الكفر

مما يدل على ذلك أن الكافر مأمور بالإيمان، فلو كانت قدرة الإيمان ليست معه، كان قد كُلفَ ما لا يطيقه، وقد تقدم القول في فساد هذا.

وإذا كانت معه فلا يجوز أن تكون غير قدرة الكفر الحاصلة له، لما في ذلك من اجتماع الضدين. فعلم أنها قدرة واحدة تصلح للضدين على أن يفعل بها ما يتعلق به اختيار المكلف منها.

فإن قالوا: إذا كانت قدرة على الضدين، فيجب أن يفعلها معاً.

قيل لهم: لا يجب ذلك، لأن القدرة غير موجبة للفعل، والقادر بها مُخَيَّر غير مجبر.

فإن قالوا: فجوزوا أن يختارهما فيفعلها.

قيل لهم: هذا غير صحيح ولا جائز، لأن الإختيار هو أن يختار أحدهما على الآخر فيفعله بدلاً منه، ولا يصح ذلك فيها معاً.

وبعد فهما ضدان، وكل واحدٍ منهما تَرَكُ لصاحبه، فلا يصح أن يوجد في حالٍ واحدٍ معاً. وقد أجمع المسلمون على أن الله تعالى يقدر على أن يبتلي العبد

على حاله، ويغنيه ويحييه، ويميته، ولا يجوز أن يفعل ذلك أجمع في وقت واحد.

فإن قيل: فإذا كان الله تعالى قد أعطى العبد قدرة، تصلح للكفر، فقد أراد الكفر منه.

قلنا: ليس الأمر كذلك، لأن الله سبحانه إنما أعطاه القدرة ليطيع بها مختاراً، فلو كانت لا تصلح إلا للطاعة، لكان في فعلها مضطراً. ومثل القدرة كمثّل السيف الذي يعطيه السيد لعبده ليقّتل به أعدائه، وهو يصلح أن يقتل به أولياءه، وكالدراهم التي تصلح أن تنفق في الطاعة والمعصية، ويدفع إلى من ينفقها في الطاعة، وينفقها في المعصية. والقدرة معنى تحل^(١) القادر، يصح به الفعل، وهي القوة، وهي أيضاً الإستطاعة.

فصل من القول في أن القدرة على الفعل توجد قبله

الدليل على أن القدرة متقدمة في الوجود للفعل أنها يحتاج إليها ليحدث بها الفعل، ويخرج بها من العدم إلى الوجود. فمتى وجدت والفعل موجود، فقد وجدت في الإستغناء عنه.^(٢)

وما يدل على تقدمها، أنها لو كانت مع الفعل، كان الكافر غير قادرٍ على الإيمان، لأنه لو قدر عليه لكان موجوداً منه على هذا المذهب، فكأن يكون مؤمناً في حال كفره، وهذا فاسد.

ولو لم يكن قادراً على الإيمان لما حسن أن يؤمر به ويعاقب على تركه، لما قدمناه من قبح تكليف ما لا يطاق وبطلانه.

وقد قال أصحابنا مؤكدين القول بتقدم القدرة على الفعل فيمن كان في يده شيء فألقاه، إن استطاعة الإلقاء لا تخلو من حالتين: إما أن تأتیه والشئ في يده، أو تأتیه وهو خارج عن يده، فإن كانت تأتیه والشئ في يده، فقد صح

(١) هكذا في النسخة

(٢) هذا بيان لعدم صحة القول بمقارنة القدرة للمقدور.

تقدم القدرة على الإلقاء، وهو الذي قلنا، وإن كانت تأتيه والشيء خارج عن يده، ملقى عنها، فقد أتت في حال الغنى عنها.

وفي ذلك أيضاً أنه قد قدر على أن يلقي ما ليس في يده، وهذا محال. وليس بين كون الشيء في يده، وكونه خارجاً عنها واسطة ومنزلة ثالثة. وقد قال أهل العلم أيضاً:

لو كانت القدرة والفعل يوجدان معاً، ولا يصح غير هذا، لم تكن القدرة المؤثرة فيه بأولى من أن يكون هو المؤثر فيها.

وقالوا: ولو كان لا يصح وجود القدرة حتى يوجد الفعل، كما لا يصح وجود الفعل حتى توجد القدرة، لكان لا يصح أن يوجد^(١). حدثني شيعي رحمه الله^(٢):

إن متكلمي أحدهما عدلي، والآخر جبري، كانا كثيراً ما يتكلمان في هذه المسألة، وإن الجبري أتى منزل العدلي، فدقَّ عليه الباب، فقال العدل من ذا؟ قال: أنا فلان، قال له العدلي: أدخل، قال له الجبري: افتح لي حتى أدخل، قال العدلي: ادخل حتى أفتح، فأنكر هذا عليه وقال له: لا يصح دخولي حتى يتقدم الفتح. فوافق على قوله في القدرة والفعل، وأعلمه بذلك وجوب تقدمها عليه، فانتقل الجبري عن مذهبه وصار إلى الحق.

فصل: من القول في أن القدرة غير موجبة للفعل

الدليل على أنها غير موجبة ما قدمناه، من أنها قدرة على الضدين، فلو كانت موجبة لأوجبتها فأدَّى ذلك إلى المحال، وكون المكلف حاضراً ومسافراً في حال، ومتحركاً ساكناً في حال.

(١) وذلك لأن كل واحد من الفعل والقدرة يتوقف وجوده على وجود الآخر المتوقف على نفسه وهو من الدور المحال، وما ترتب على المحال محال.

(٢) المراد به هو الشيخ المفيد.

ولو كانت القدرة أيضاً موجبة، لكان القادر بها مضطراً، ويخرج من كونه مختاراً. والمضطر لا معنى لتوجه الأمر والنهي إليه، ولا يحسن ثوابه وعقابه على أمرٍ هو مضطر فيه

[أفعال الإنسان]

فصل: من القول في أن الله تعالى لم يخلق أفعال العباد وأنها فعلٌ لهم على سبيل الإحداث والإيجاد.

الدليل على أنه سبحانه لم يفعلها أن فيها قبايح، من كفرٍ وفسقٍ، وظلم، وكذب، وليس بحكيم من فعل القبائح. ولا يجوز من الحكيم أيضاً سب نفسه وسوء الشئاء عليه.

ثم نحن نعلم أن من فعل شيئاً اشتق له إسم من فعله، كما يقال فمن فعل الحركة أنه متحرك، ومن فعل السكون أنه ساكن، ومن فعل الضرب ضارب، ومن فعل القتل قاتل. فلو كان الله تعالى هو الفاعل لأفعالنا والخالق لها دوننا، لوجب أن يسمى بها الله عز وجل عن ذلك وتعالى.

والذي يدل على أنها فعل لنا دون غيرنا، وقوعها بحسب تصورنا وإرادتنا، وانتفاء المنفي منها بحسب كراهتنا، وانتظام ما ينتظم منها بحسب مبلغ علومنا، واختلاها بقدر اختلافاتنا.

فلو كانت فعلاً لغيرنا لم يكن الأمر مقصوداً على ما ذكرنا. ونحن قد نفرق - ضرورة - بين حركةٍ نحدثها في بعض جوارحنا، وبين الرعدة إذا حدثت في عضوٍ منا، ونرى وقوع إحدى الحركتين عن قصد، ووقوع الأخر بخلاف ذلك، فلسنا نشك في أن إحداها حادثة منا، وفعل في الحقيقة لنا، وهي الكائنة عن قصدنا.

وشيء آخر: وهو أن الله تعالى خلق فينا الشيب والهرم، والصحة والسقم، ولم يأمرنا بشيء من ذلك، ولا نهانا عنه، ولا مدح الشاب على شبيبته، ولا ذم الشيخ لشيخوخته، عدلاً منه سبحانه في حكمه. فلو كانت الطاعات والمعاصي

أيضاً من فعله وخلقه، لجرت مجرى ذلك، وقبح أن يأمرنا بطاعة، أو ينهانا عن معصية، ولم يصح على شيء من ذلك مدح ولا ذم، ولا ثواب ولا عقاب، وهذا واضح لمن عقل.

فصل: من القول أن الله تعالى لا يريد من خلقه إلا الطاعة، وأنه كاره للمعاصي كلها.

وأما الذي يدل على أنه سبحانه لا يريد المعاصي والقبائح، ولا يجوز أن يشاء شيئاً منها، وأنه كاره لها، ساخط لجميعها. فهو أنه تعالى نهى عنها، والنهي إنما يكون نهياً بكرهه النهائي للفعل المنهي عنه.

ألا ترى أن لا يجوز أن ينهي إلا عما يكرهه، فلو كان النهي في كونه نهياً غير مفتقرة^(١) إلى الكراهية لم يجب ما ذكرناه. لأنه لا فرق بين قول أحدنا لغيره: لا تفعل كذا وكذا ناهياً له، وبين قوله: أنا كاره له، كما لا فرق بين قوله: افعل، أمراً له، وبين قوله: أنا مرید منك أن تفعل.

وإذا كان سبحانه كارهاً لجميع المعاصي والقبائح من حيث كونه ناهياً عنها، استحال أن يكون مریداً لها، لاستحالة أن يكون مریداً، كارهاً لأمر واحد على وجه واحد.

ويدل على ذلك أيضاً أنه لو كان مریداً للقبیح لوجب أن يكون على صفة نقص ودم إن كان مریداً له بلا إرادة، وإن كان مریداً بإرادة وجب أن يكون فاعلاً للقبیح، لأن إرادة القبیح قبيحة، ولا يكون كذلك، كما في الشاهد، كما لا خلاف في قبح الظلم من أحدنا.

وقد دل السمع من ذلك على مثل ما دل عليه العقل، قال الله عز وجل:

(وما الله يريد ظلماً للعباد) غافر: ٣١

وفي موضع آخر:

(١) والأولى مفتقر بدل (مفتقرة).

(وما الله يريد ظلماً للعالمين) آل عمران: ١٠٨

وقال الله تعالى:

(كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) الإسراء: ٣٨

وقال تعالى:

(يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر) البقرة: ١٨٥.

ونعلم أن الكفر أعظم العسر، وقال تعالى:

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الذاريات: ٥٦.

فإذا كان خلَقَهُم للعبادة فلا يجوز أن يريد منهم غيرها، وقال:

(ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يرضه لكم) الزمر: ٧

إيراد على أهل الجبر

فصل:

وقد سأل أهل العدل المجبرة عن مسألة، ألزموهم بها ما لم يجدوا فيه حيلة.

وذلك أنهم قالوا لهم:

أخبرونا عن رجل نكح إحدى المحرمات عليه بأحد المساجد المعظمة، في
نهار شهر رمضان، وهو عالم غير جاهل، أتقولون إن الله تعالى أراد منه هذا
الفعل على هذه الصفة؟

قالت المجبرة: بل الله أراده.

قال لهم أهل العدل: أخبرونا عن إبليس اللعين، هل أراد ذلك أم كرهه؟

قالت المجبرة: بلى، هذا إنما يريد إبليس ويؤثره.

قال لهم أهل العدل: فأخبرونا: لو حضر النبي (ص)، وعلم بذلك أكان

يريده أم يكرهه؟

قالت المجبرة: بل يكرهه ولا يريده.

قال لهم أهل العدل: فقد لزمكم على هذا أن تشنوا على إبليس اللعين، وتقولوا: إنه محمود لموافقة إرادته لإرادة الله عز وجل. وهذا ما ليس فيه حيلة لكم مع تمسككم بمذهبكم.

[حكاية للمؤلف في مجلس بعض الرؤساء]

وقد كنت أوردت هذه المسألة في مجلس بعض الرؤساء مستظرفاً له بها، وعنده جمع من الناس، فقال رجل ممن كان في المجلس يميل إلى الجبر: إن كان هذه المسألة لا حيلة للمجبرة فيها، فعليكم أنتم أيضاً مسألة لهم أخرى، لا خلاص لكم مما يلزمكم منها.

فقلت: وما هي؟ قال: يقال لكم إذا كان الله تعالى لا يشاء المعصية، وإبليس يشاؤها، ثم وقعت معصية من المعاصي، فقد لزم من هذا أن تكون مشيئة إبليس غلبت مشيئة رب العالمين.

فقلت: إنما تصح الغلبة عند الضعف وعدم القدرة، ولو كنا نقول إن الله تعالى لا يقدر أن يجبر العبد على الطاعة، ويضطره إليها، ويحيل بينه وبين المعصية بالقسر والإجاء إلى غيرها، لزمنا ما ذكرت، وإلا بخلاف ذلك. وعندنا أن الله تعالى يقدر أن يجبر عباده، ويضطرهم، ويحيل بينهم وبين ما اختاروه، فليس يلزمنا ما ذكرتم من الغلبة.

وقد أبان الله تعالى فقال:

(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) هود: ١١٨

وقال تعالى:

ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) السجدة: ١٣

وإنما لم يفعل ذلك، لما فيه من الخروج عن سنن التكليف، وبطلان استحقاق العباد للمدح والذم. فتأمل ما ذكرت تجده صحيحاً، فلم يأت بحرفٍ بعد هذا.

جناية المجبرة على الإسلام

فصل: اعلم - أيديك الله تعالى - أن جناية المجبرة على الإسلام كثيرة، وبليتها عظيمة، بحملها المعاصي على الله تعالى، وقولها أنه لا يكون إلا ما أَراده الله تعالى، وأنه لا قدرة للكافر على الخلاص من كفره، ولا سبيل للفاسق إلى ترك فسقه، وأن الله تعالى قضى بالمعاصي على قوم، وخلقها لهم، وفعلها فيهم، ليعاقبهم عليها. وقضى بالطاعات على قوم، وخلقهم لها، وفعلها فيهم، ليشي بهم عليها.

وهذا الإعتقاد القبيح يسقط عن المكلف الحرص على فعل الطاعة، والإجتهاد والإحتساب عن المعصية، لأنه يرى أن اجتهداه لا ينفع، وحرصه لا يغني، بل لا إجتهاد في الحقيقة ولا حرص، لأنه مفعول فيه غير فاعل، وموجد فيه غير موجد، ومخلوق لشيء لا محيد له عنه، ومسبق لأمر لا انفصال له منه، فأى خوفٍ مع هذا يقع؟ وأي وعيدٍ معه ينفع. نعوذ بالله مما يقولون، ونبرأ إليه مما يعتقدون. وأنشدت لبعض أهل العدل شعراً:

سألت الخنث عن فعله
علامَ تَخَنَّثُ يا ماذق
فقال ابتلائي بدائي العضال
وأسلمني القدر السابق
وُلِمت الزناة على فعلهم
فقالوا: بهذا قضى الخالق
وقلت لآكل مال اليتيم
[ألوماً]^(١) وأننت امرؤ فاسق
فقال وُلجج في قوله
أكلت وأطعمني الرازق

(١) أضفنا هذه الكلمة لإستقامة الوزن، وهي في النسخة غير موجودة.

وكلُّ يحيل على ربه
وما فيهم أحدٌ صادق

التجوز في التعبير بالإستطاعة عن الفعل، وبنفيها عن نفيه

فصل : أعلم أيدك الله تعالى ، [أنه] قد يعبر عن نفي الفعل بنفي الإستطاعة توسعاً ومجازاً ، فيقال لمن يعلم أنه لا يفعل شيئاً ، لثقله على قلبه ، ونفور طبعه منه ، إنك لا تستطيعه ، وإن كان في الحقيقة مستطيعاً له ، ويقول أحدنا لمن يعلم أنه ييغضه : إنك لا تستطيع أن تنظر إلي ، والمعنى أن ذلك يثقل عليك ، ويقال للمريض الذي يجهد الصوم : إنك لا تستطيع الصيام ، وهو في الحقيقة يستطيعه ، ولكن بمشقة تدخل عليه ، وثقل يناله منه .

وعلى هذا المعنى يتأول قول الله جل اسمه فيما حكاه عن العالم الذي تبعه موسى عليه السلام ، حيث قال له موسى :

(هل اتبعك على أن تعلمني مما علّمت منه رشداً ، قال إنك لن تستطيع معي صبراً) . الكهف : ٦٦ - ٦٧

المعنى فيه أنك لا تصبر ولا يخف عليك ، وأنه يثقل على طبيعتك ، فعبر عن نفي الصبر بنفي الإستطاعة ، وإلا فهو قادر مستطيع ، فيدل على ذلك قول موسى عليه السلام في جوابه له :

(ستجدني إن شاء الله صابراً) الكهف : ٦٩ .

ولم يقل : إن شاء الله مستطيعاً ، ومن حق الجواب أن يطابق السؤال ، فدل جوابه على أن الإستطاعة المذكورة في الإبتداء هي عبارة عن الفعل نفسه مجازاً كما ذكرنا .

وقد يستعمل الناس هذا كثيراً ، وأنشده شعراً

أرى شهوات لست أسطيع تركها

وأحذر إن وقعتها ضرر الإثم

فلا النفس تنهائي وتبصر رشدها

وأكره إتيان العقاب على علم

ولسنا نشك في أن الشاعر عنى بقوله لست أستطيع تركها، أن تركها يثقل عليه، ولا يلاءم طبعه، وأنه لم ينف الإستطاعة في الحقيقة عن نفسه، ولو كان أراد نفيها لم يكن معنى لقوله (واحذر أن واقعته ضرر الإثم)، وقوله (وأكره إتيان العقاب على علم).

وعلى هذا المعنى يتأول قول الله عز وجل (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) هود: ٢٠

وهو أنهم لاستثقالهم استماع آيات الله تعالى، وكراحتهم تأملها وتدبرها، جروا مجرى من لا يستطيع السمع. كما يقال لمن عهد منه العناد واستثقال استماع الحجج والبيانات، ما يستطيع استماع الحق، وما يطيق أن يذكر له. قال الأعشى: (١)

ودع هريرة إن الركب مرتحل

وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

ونحن نعلم أنه قادر على الوداع، وإنما نفى قدرته عليه من حيث الكراهية والإستثقال، ومعنى قوله: (وما كانوا يبصرون) أن أبصارهم لم تكن نافعة لهم، ولا مجدية عليهم نفعاً، لإعراضهم عن تأمل آيات الله عز وجل وتفهمها، فلما انتفت عنهم منفعة الإبصار جاز أن ينفي عنهم الإبصار نفسه، كما يقال عن المعرض عن الحق، العادل عن تأمله (٢) مالك لا تسمع ولا تعقل.

وقد تأول الشريف المرتضى رحمه الله هذه الآية على وجه آخر (٣)، وهو أن يكون (ما) في قوله (ما كانوا يستطيعون السمع) ليست للنفي، بل تجري مجرى

(١) هذا البيت مطلع معلقة الأعشى المشهورة وهو من شعراء الجاهلية المشهورين أدرك الإسلام ولم يسلم توفي سنة (٧) للهجرة و(٦٢٩م) وهو الأعشى ميمون بن قيس ينتهي إلى نزار، ويقال له صناجة العرب لجودة شعره.

(٢) في الأصل تأملها.

(٣) أنظر كلامه على هذه الآية في الآمال م ٢ ص ١٦٣ - ١٦٧.

قولهم: لاواصلتك ما لاح نجم، (لا أقيم على مودتك ما طلعت شمس).
قال الله تعالى:

(يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون).
هود: ٢٠.

ويكون المعنى اتصال عذابهم ودوامه ما كانوا أحياءً.
مسألة:

وقد سألت المجبرة عن معنى قول الله تعالى (صم بكم عمي فهم لا يرجعون)
البقرة: ١٨ وظنوا أن لهم في هذه الآية حجة يتشبثون بها.

والجواب: إن ظاهر هذه الآية يقتضي أن المنافقين كانوا بهذه الصفات،
ومعلوم من حالهم أنهم كانوا بخلافها، ولا شيء أدل على فساد التعلق بظواهرها
من أن يعلم أن العيان بخلافه، فوجب - ضرورة - صرف الآية عن ظواهرها إلى
ما يقتضيه الصواب من تأويلها.

والمراد بها أنهم لما لم ينتفعوا بهذه الحواس والآلات فيما خلقت له، وأنعم
عليهم بها لأجله، صاروا كأنهم قد سلبوها وحرموها. وهذا مستعمل في الشاهد،
يقول أحدهما لغيره وقد بين له الشيء وبالغ في إيضاحه، وهو غير متأمل بوروده:
إنك أصم وأعمى فلا تستطيع كذا تسمع [قد ختم] (١) على قلبك.

وربما تجاوز ذلك فقال له: إنك ميت لا تفهم ولا تعقل، قال الله تعالى:
(إنك لا تسمع الموتى) النمل: ٨٠.

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

لقد أسمعت لونا ديت حياً

ولكن لا حياة لمن تنادي (٢)

(١) قد أضفنا ما بين القوسين تصحيحاً للتعبير.

(٢) هذا البيت على ما أحفظه لأي تمام الطائي الشاعر المشهور توفي سنة ٢٣١، وبعد البيت قوله:
وناراً إن نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

شبهة للمجبرة

وقد احتجت في تصحيح قولها أن الله تعالى خلق طائفة من خلقه ليعذبهم،
بقوله سبحانه:

(ولقد ذرأنا كثيراً من الجن والإنس) الإعراف: ١٧٩.
قالت: فبين أنه خلقهم لمجرد العذاب في النار، لا في غيره.

نقض عليهم

يقال لهم: حمل هذه الآية على ظاهرها منافي للعدل والحكمة، ومباين لما
وصف نفسه به من الرأفة والرحمة، ومناقض لقوله عز وجل:
(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الذاريات: ٥٦.
ولقوله تعالى:

(إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه
وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً). الفتح: ٤٥ - ٤٦.
من ص ٧٧ الى ص ١٨٤

ولقوله سبحانه:

(ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) الفرقان: ٥٠

ولقوله جل اسمه:

(أنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) الحديد: ٢٥

ولقوله تبارك وتعالى:

(وهو الذي أنزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور)

الحديد: ٩

فالواجب ردها إلى ما يلائم هذه الآيات المحكمات، ويوافق الحجج العقلية
والبيانات.

والوجه في ذلك أن يكون المراد بقوله (ولقد ذرأنا لجهنم) العاقبة، فكأنه قال:

ولقد ذرأناهم، والمعلوم عندنا أن مصيرهم ومآل أمرهم، وعاقبة حالهم، دخول جهنم بسوء اختيارهم، قال الله عز وجل:

(فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) القصص: ٨ والمراد أن ذلك يكون أمرهم، لأنهم ما التقطوه إلا ليسروا به، وكقوله سبحانه:

(وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرمين ليمكروا فيها) الأنعام: ١٢٣^(١) والمراد أن أمرهم يؤول إلى هذه، وعاقبتهم إليه، لا لأن الله عز وجل جعلهم فيها ليعصوا ويمكروا.

وقوله (إنما نلي لهم ليزدادوا إثماً) وإنما أخبر بذلك عن قاقبتهم.

وهذا ظاهر في اللغة، مستعمل بين أهلها قال الشاعر:

أمَّ سماءٍ فــــــلا تجزعي فللموت ما تلد الوالدة.
وقال آخر:

فللموت تغذوا الوالدات سخالها

كما لخراب الدور تبني المساكن

وهي لا تغذو أولادها للموت، ولا تبني المساكن لخرابها، وإنما تبني لعمارتها وسكنائها، وتغذى السخال لمنفعتيها ونفوها، ولكن لما كانت العاقبة تؤول إلى الموت والخراب جاز أن يقال ذلك.

ومثله قول الآخر:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها

ودورنا لخراب الدهر نبنيها

والمعنى في هذا كله واحد، والمقصود به العاقبة، وفيما ذكرناه كفاية.

(١) وتسمى هذه اللام في مثل هاتين الآيتين في عرف النحاة لام العاقبة.

مسألة لهم أخرى

وقد احتجوا لمذهبهم بقول الله تعالى:

(لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون). هود: ٢٤

وقالوا: ظاهر هذه الآية يدل على أن نصح النبي (ص) لا ينفع الكفار الذين أراد الله بهم الكفر والغواية، وهذا خلاف مذهبكم.

نقض عليهم

يقال لهم:

إن الغواية هي الحيلة وحرمان الثواب.

قال الشاعر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره

ومن يغو لا يعدم على الغي لائمة

فكأنه قال: ولا ينفعكم نصحي إن كنتم مصرين على الكفر الذي يريد الله معه أن يحرمكم الثواب ويخيبكم منه.

وأيضاً: قد سمي الله تعالى العقاب غياً، قال: (فسوف يلقون غياً) مريم: ٥٩

فيكون المعنى على هذا الوجه: إن كان الله يريد أن يعاقبكم بسوء أعمالكم وكفركم، فليس ينفعكم نصحي إلا بأن تفعلوا وتوبوا.

وما قبل الآية يشهد بصحة هذا، وإن القوم استعجلوا عقاب الله تعالى، فقالوا: يا نوح قد جادلنا فأكثر جدالنا فأنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، قال إنا يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين، ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون.

سورة هود: ٣٣ - ٣٤

ووجه آخر في الآية

وهو أنه قد كان في قوم نوح طائفة [تقول] بالجبر، فنبههم بهذا القول على فساد مذاهبهم، وقال لهم على طريق الإنكار عليهم، والتعجب من قولهم: إن كان القول كما تقولون من أن الله يفعل فيكم الكفر والفساد فما ينفعكم نصحي، فلا تطلبوا مني نصحاً وأنتم على قولكم لا تنتفعون به.

من هم القدرية؟

(فصل: في معرفة القدرية)

أعلم أنا وجدنا كل فرقة تعرف باسم أو تنعت بنعتٍ فهي ترتضيه ولا تنكره، سواء كان مشتقاً من فعلٍ فعلته، أو قولٍ قالته، أو من اسمٍ مُقَدَّم لها تبعته، ولم نجد في أسماء الفرق كلها اسماً ينكره أصحابه، ويتبرأ منه أهله، ولا يعترف أحد به إلا القدرية. فأهل العدل يقولون لأهل الجبر: أنتم القدرية، وأهل الجبر يقولون لأهل العدل: أنتم القدرية.

وإنما تبرأ الجميع من هذا الاسم لأن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن القدرية، وأخبر أنهم مجوس الأمة، والأخبار بذلك مشتهرة.

فمنها: ما حدثني به أبو القاسم هبة الله بن إبراهيم بن عمر الصواف بمصر، قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن مروان المالكي، قال: حدثنا عباس بن محمد الدوسي، قال: حدثنا عثمان بن زفر، قال: حدثنا أبو معشر عن سعيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة القدرية، فإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم، وإن لقيتموهم في طريق فالجأوهم إلى ضيقه».

وهذا القول من رسول الله (ص) دلالة لنا على المعرفة بالقدرية، وتمييز لهم من بين الأمة، لأنهم لم ينعتهم بالمجوسية إلا لموضع المشابهة بينهم وبين المجوس في المقال والإعتقاد. وقد علمنا - بغير شك ولا ارتياب - أن من قول المجوس أن الله تعالى فاعل لجميع ما سر ولدَّ وأبج، ومالت إليه الأنفس، واشتهته الطباع،

كائناً ما كان، حتى أنه فاعل الملاهي والأغاني، وكلما دخل في هذا الباب، وهذا مذهب المجبرة بغير خلاف.

ويقول المجوس إن الله تعالى محمود على فعل الخير، وهو لا يقدر على ضده، وإن إبليس مذموم على فعل الشر ولا يقدر على ضده. وهذا بعينه يضاها قول المجبرة: إن المؤمن محمود على الإيثار وهو لا يقدر على ضده، وإن الكافر مذموم على الكفر ولا يقدر على ضده.

وتذهب المجوس إلى القول بتكليف ما لا يطاق، وهو رأيها الذي تدين به في الإعتقاد. ولهم في السنة يوم، يأخذون فيه بقرة، قد زينوها، فيربطون يديها ورجليها أوثق رباط. ثم يقربونها إلى سفح الجبل ويضربونها لتصعد، فإذا رأوا أن قد تعذر عليها ذلك قتلوها، ويسمون هذا اليوم- عيد الباقور-.

وهذا هو مذهب المجبرة في القول بتكليف ما لا يستطاع، فهم مجوس هذه الأمة وقدريتها بما اقتضاه هذا البيان.

وقد قالت العدلية للمجبرة: إن من أدل دليل على أنكم القدرية قولكم: إن جميع أفعال العباد بقدر من الله عز وجل، وإنه الذي قَدَّرَ على المؤمن أن يكون مؤمناً، وعلى الكافر أن يكون كافراً، وإنه لا يكون شيء إلا أن يُقَدَّرَ الله تعالى.

قالت المجبرة: بل أنتم أحق بهذا لأنكم نفيتم القدر وجحدتموه، وأنكرتم أن يكون الله سبحانه قَدَّرَ لعباده ما اكتسبوه.

قالت العدلية: قد غلطتم فيما ذكرتموه، وجرتم فيما قضيتموه، لأن الشيء يجب أن ينسب إلى من أثبتته وأوجبه، لا إلى من نفاه وسلبه، ويضاف إلى من أقر به واعتقده، لا إلى من أنكره وجحدته، فتأملوا قولنا تعلموا أنكم القدرية دوننا.

تهمة المعتزلة للشيعة بالإرجاء

فصل: وقد ظنت المعتزلة أن الشيعة هم المرجئة، لقولهم: إنا نرجو من الله تعالى العفو عن المؤمن إذا ارتكب معصية ومات قبل أن تقع منه التوبة.

وهذا غلط منهم في التسمية ، لأن المرجئة إسم مشتق من الإرجاء ، وهو التأخير ، يقال لمن أخر أمراً: أَرَجأت الأمر يا رجل فأنت مرجئٌ ، قال الله: (أرجه وأخاه) الإعراف: ١١١ أي أخره ، وقال تعالى:

(وآخرون مرجون لأمر الله). التوبة: ١٠٦ يعني مؤخرون إلى مشيئته.

وأما الرجاء فإنما يقال منه: رجوت فأنا راجٍ ، فيجب أن تكون الشيعة راجية لا مرجئة.

والمرجئة هم الذين أخرجوا الأعمال ولم يعتقدوها من فرائض الإيمان ، وقد لعنهم النبي عليه السلام فيما وردت به الأخبار.

حدثنا القاضي أبو الحسن محمد بن علي بن محمد بن صخر الأزدي البصري بمصر سنة ست وعشرين وأربعماية ، قراءة منه علينا ، قال: أخبرنا أبو القاسم عمر بن محمد بن يوسف ، قال: حدثنا علي بن محمد بن مهرويه القزويني ببغداد سنة ثلاث عشرة وثلاثماية ، قال: حدثنا داود بن سليمان العادي ، قال: حدثنا علي بن موسى الرضا ، قال: (١) حدثنا أبي الحسين بن علي ، قال حدثني أبي علي بن أبي طالب عليه السلام ، قال: قال رسول الله (ص): صنفان من أمتي ليس لهم في الآخرة نصيب: المرجئة والقدرية.

أغلاط للمعتزلة

فصل: وأعلم أن المعتزلة لها من الأغلاط القبيحة ، والزلات الفضيحة ما يكثر تعداده. وقد صنف ابن الراوندي (٢) كتاب فضائحهم ، فأورد فيه جملاً

(١) يبدو أن هنا سقطاً في سلسلة السند ، وهي: حدثنا أبي موسى بن جعفر قال حدثنا أبي ، جعفر بن محمد ، قال حدثني أبي محمد بن علي قال: حدثني أبي الخير إلخ.

(٢) هو أحمد بن الحسين بن اسحاق البغدادي مات سنة ٢٤٥ هـ له كتب كثيرة منها: كتاب فضيحة المعتزلة الذي رد عليه ابن الحياط المعتزلي بكتابه الإلتصار وهو يرمي بالزندقة.

من اعتقاداتهم وآراء شيوخهم، مما ينافر العقول، ويضاد شريعة الرسول (ص).
وقد وردت الأخبار بدمهم من أهل البيت، ولعنهم جعفر بن محمد الصادق
عليه السلام، فقال:

(لعن الله المعتزلة، أرادت أن توحّد فألحدت، ورامت أن ترفع التشبيه
فأثبتت).

فمن أقبح ما تعتقده المعتزلة، وتضاهي فيه قول الملحدة، قولهم: إن
الأشياء كلها كانت قبل حدوثها أشياء، ثم لم يقنعهم ذلك حتى قالوا: إن
الجواهر في حال عدمها جواهر، وإن الأعراض قبل أن توجد كانت أعراضاً،
حتى أن السواد عندهم قد كان في عدمه سواداً. وكذلك الحركة قد كانت قبل
وجودها حركة. وسائر الأعراض يقولون فيها هذا المقال.

ويزعمون أن جميع ذلك في العدم ذوات، كما هو في الوجود ذوات.
وهذا إنكار لفعل الفاعل، ومضاهاة لمقال الملحدين. وقد أطلقوا هذا
القول إطلاقاً، فقالوا: إن الجواهر والأعراض ليست بفاعله. وفسروا ذلك،
فقالوا: أردنا أن الجوهر لم يكن جوهرأ بفاعله، ولا كان العرض أيضاً بفاعله،
وإنها على ما هما عليه من ذلك لنفوسهما قبل وجودهما، ولا بجاعلٍ جعلها. وهذا
تصريح غير تلويح.

وقال لهم شيوخنا وعلماؤنا: فإذا كانت الذوات في عدمها ذواتاً، والجواهر
والأعراض قبل وجودها جواهر وأعراضاً، فما الذي صنع الصانع؟
قالت المعتزلة: أوجد هذه الذوات.

قال أهل الحق لهم: ما معنى قولكم: أوجدناها؟ وأنتم ترون أنها لم تكن أشياء
به، ولا ذواتاً بفعله، ولا جواهر ولا أعراضاً أيضاً بصنعتة.
قالت المعتزلة: معنى قولنا أنه أوجدناها، أنه فعل لها صفة الوجود.

قال أصحابنا: فإذا ما فعلها، ولا تعلقت قدرته بها، وإنما المفعول المقدور
هو الصفة دونها، فأخبرونا الآن ما هذه الصفة لنفهمها؟ وهل هي نفس الجوهر

ونفس العرض، فهما اللذان فُعِلَا فكانا جوهرًا وعرضًا بفاعلها؟ وإن قلتم: إنها شيء آخر غيرها، فهل هي شيء أم ليست بشيء؟

وأعلموا أنكم إن قلتم أنها شيء لزمكم أن تكون في عدمها أيضاً شيئاً، وإن قلتم أنها ليست بشيء، نفيتم أن يكون الله تعالى فعل شيئاً.

قالت المعتزلة: هي أمر معقول ولم تزد على ذلك، وأتت فيه بنظير ما أتى أصحاب الكسب المخلوق^(١).

وجميع المعتزلة على هذا القول إلا أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي، فإنه يرى أن الأشياء قد كانت كلها في عدمها أشياء، ولم تكن جواهر ولا أعراضاً ولا ذواتاً، وإنما جعلت كذلك بفاعلها، ولم تكن أشياء بفاعلها. فقد تبين لك رأي المعتزلة في هذا.

[نظرية الأصلح]

فصل: من الكلام في الأصلح. وقد اشتهر عن المعتزلة أنها من أهل العدل، وذلك لقولها أن الله تعالى لا يكلف العبد إلا ما يستطيع.

ولها مع ذلك قول تنسب الله عز وجل فيه إلى الأمر القبيح، وتضاد به ما أوجبه الدليل من وصفه بالحسن الجميل، وهو ما ذهب إليه الجبائي وابنه عبد السلام ومن وافقها، وهم اليوم أكثر المعتزلة، من أن الله تعالى وإن كان عدلاً كريماً، فإنه لا يفعل بخلقه الأصلح، ولا يتفضل عليهم بالأنفع، وإنه يقتصر بهم من النفع والصلاح على نهاية غيرها أفضل منها وأصلح، مع حاجتهم إلى ما ينفعهم إياه من الصلاح، أو فقرهم إلى المنافع، التي حرّمهم إياها، من الإنعام والإحسان، وهو قادر على ما يحتاجون إليه، ومع ذلك هو غني عن منعه، عالم بحسن بذله وفعله. والعباد يتضرعون إليه في التفضل عليهم به، فلا يرحم

(١) هم القائلون بأن للعبد إرادة مقارنة لإرادة الله تعالى التي هي الفاعلة فقط دون إرادة العبد، غاية ما هناك أن إرادة العبد المفترضة هي المصححة للشواب والعقاب وإن لم يكن لها أي أثر في وجود الأفعال وتسمى هذه الإرادة أو هذه القدرة بالكاسبة أي التي بها يكتسب العبد التكليف والشواب والعقاب.

تضرعهم، ويسألونه المنّة بفعله فلا يجيبهم، ويرجونه فيخيب رجاءهم، ويتمنونه من فعله فلا يهب لهم مناهم. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. والذي نذهب في ذلك إليه مما وافقنا البلخي^(١) فيه:

هو أن الله سبحانه متفضل على جميع خلقه بنهاية مصالحهم، متطول عليهم بغاية منافعهم، لا يسألونه صلاحاً إلا أعطاهم، ولا يلتمسون منه ما يعلم أنه لهم أنفع إلا فعله بهم، ولا يمنعهم إلا مما يضرهم، ولا يصدّهم إلا عما يفسدهم، ولا يحول بينهم وبين شيء يصلحهم، وأنه لا يقضي عليهم شيء، يسرهم أو يسوؤهم إلا وهو خير لهم، وأصلح مما صرفه عنهم.

والذي يدل على ذلك هو ما ثبت من أن الله تعالى عالم بقبح القبيح، وغني عن فعله، لا يُجبر على الحسن، ولا يحتاج إلى منعه، وأنه مستحق للوصف بغاية الجود، ومنفي عنه البخل والتقصير، خلق الخلق لمنافعهم، واخترعهم لمصالحهم. فلو منعهم صلاحاً لناقض ذلك الغرض في خلقهم، ولم يكن مانعاً نفعاً، هو قادر عليه، عالم بحسنه إلا لحاجة إليه، أو للبخل به، أو للإفتقار في صنعه. وذلك كله منفي عن الله سبحانه.

ومما يدل على صحة ما ذهبنا إليه: أنا وجدنا الحكيم إذا كان آمراً بطاعته، فلن يجوز أن يمنع المأمور ما به يصل إليها إذا كان قادراً على أن يعطيه إياه، وكان بذله له لا يضره، ولا يخرج منه من استحقاق الوصف بالحكمة، ومنعه لا ينفعه.

وكذلك إذا كان له عدو، يدعوه إلى موالاته، ويجب رجوعه إلى طاعته، فلن يجوز أن يعامله من الغلظة أو اللين إلا بما يعلم أنه أنجع فيما يريد منه، وأدعى له إلى ترك ما هو فيه من عداوته، والرجوع إلى ولايته. فإن عرض له أمران من الشدة والغلظة، أو الملاطفة والملاينة، يعلم أن أحدهما أدعى لعدوه إلى المراجعة والإنابة، والآخر دون ذلك، ففعل الدون، وترك أن يفعل

(١) هو أبو القاسم البلخي تقدمت ترجمته.

الأصلح إلا الأدعى، وكلاهما في قدرته سواء، ولا يضره بذلها، ولا ينفعه منعها، كان عند الحكماء جميعاً مذموماً، خارجاً عن استحقاق الوصف بالجوود والحكمة.

فلما كان هذا فيما بيننا على ما وصفنا، وكان الله تعالى قادراً حكماً جواداً، عالماً بمواضع حاجة عباده، آمراً لهم بطاعته، وترك عداوته، والرجوع إلى ولايته، لا يضره الإعطاء، ولا يلحق به صفة الذم، ولا ينفعه المنع، ولا يزيد في ملكه، علمنا أنه لا يفعل بعباده إلا ما كان أصلح بحالهم، وأدعاها إلى طاعته، صحة كان أو سقماً، لذة كان أو ألماً، آمنوا أو كفروا، أطاعوا أم عصوا، قال الله تعالى لرسوله عليه السلام:

(قولا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى) طه: ٤٤

هذا حين علم أن الدعاء على جهة اللين أصلح له، ثم قال في موضع آخر: (ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك، وأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) الأنعام: ٤٢

حين كانت الشدة والغلظة أصلح في دعائهم إلى التضرع والخشوع لديهم. وأعلم أن الأصلح إذا فُعل بالعبد لا يضطره إلى إيجاد الفعل، وإنما هو تيسر في إيجاد، ومعونة عليه، كما أن القدرة لا تضطر العبد إلى إيجاد الفعل، وإنما هي تمكين منه وإزاحة للعلة فيه.

فمن نسب الله تعالى إلى أنه تعالى لا يفعل بن كلفه^(١) الأصلح فقد جعله بخيلاً ومقتصدًا. ومن نسبه إلى أن لا يعطي من كلفه الطاعة القدرة عليها، فقد جعله ظالماً جائراً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

[نقوض على هذه النظرية مع دفعها]

فإن قال قائل: إذا كان قد فعل بجميع خلقه الأصلح، فقد ساوى بين وليه وعدوه، ومن ساوى بينهما فغير حكيم في فعله.

(١) في النسخة زيادة كلمة (لا) فحذفناها لئلا ينقلب المعنى المقصود.

قلنا: إنما التسوية بينهما أن يشيها جميعاً، أو يمدحهما، أو يفعل بهما جميعاً ما يشتهيهانه ويلذهما، وليس التسوية بينهما أن يفعل لهما ما يكون أدعى إلى طاعته، وأزجر عن معصيته.

ألا ترى أن رجلاً لو كان له عبدان، قد أطاعه أحدهما، وعصاه الآخر، فقصد إلى الذي أطاعه فمدحه، وأعطاه لتزداد بذلك رغبته في طاعته، ويُرغب عبيده في فعلها، وقصد إلى الآخر فشتمه وعاقبه على ذنبه الذي ارتكبه، ليزجره عن معصيته، ويصير إلى طاعته، وينزجر غيره أيضاً عن مثل فعله، لكان قد فعل بكل واحدٍ منها ما هو أصلح له. ولم يجوز أن يقال - مع ذلك - أنه قد ساوى بينهما، وقد أمر الله تعالى عبديه المؤمن والكافر بالطاعة، ونهاهما جميعاً عن المعصية، وأقدرهما على ما كلفهما، وأزاح علفهما. ولا يقال مع ذلك أنه قد ساوى بينهما، إلا أن يراد بالمساواة، أنه قد عدل فيهما، ولم يظلم أحدهما، فذلك صحيح.

فإن قال: إذا أوجبتم أن يفعل بعباده كل ما فيه صلاحهم في دينهم، وفي أداء ما كلفهم، فقد أوجبتم أن لهما عنده مما فيه صلاحهم غايةً ونهايةً.

قلنا: لسنا نقول ذلك، بل نقول: لا غاية لما عند الله تعالى مما فيه صلاح العباد ولا نهاية له، ولا نفاذ، وأن في سلطانه وقدرته أمثالاً لما فعله بهم مما فيه صلاحهم. ولكنه إنما يأتيهم من ذلك في كل وقتٍ بقدر حاجتهم، وما يعلم أنه الأصلح لهم.

فإن قال: فإذا كان الذي فعل بهم مما تقولون أنه الأصلح لهم، أمثال، فقد وجب إذا جمعت لهم تلك الأمثال أن تكون أصلح لهم من الواحد. قلنا لهم: ليس يجب ذلك.

ومما يدل على أن القول ما قلنا، أنه يكون صلاح المريض مقداراً من الدواء، ولذلك المقدار من الدواء أمثال، لو جمعت كلها له لصار تضرراً عليه، ولقتلته.

وكذلك الجائع قد يكون مقدار من الطعام فيه صلاحه، ولذلك المقدار

أمثلة، لو ضمت فأكلها لعادت عليه ضرراً ولأمرضته.

وكذلك قد يكون معنى، هو صلاح العبد في دينه، وله أمثال، لو جمعت له لم يكن فيها صلاحه، بل كان فيها ضرره وفساده.

وقد جاءت الأخبار عن آل محمد صلوات الله عليهم: بأن الله لا يفعل بعبده إلا أصلاح الأشياء له.

أخبرني شيخنا المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان رضي الله عنه، قال: أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمد عن محمد بن يعقوب، عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبيه عن يحيى بن ابراهيم عن عاصم بن عبيد عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين أنه قال: «الصبر والرضا عن الله رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله بما قضى عليه فيما أحب أو كره هو خير له».

وقد ظن من لا معرفة له أنا لما قلنا إن الله تعالى يفعل بعباده الأصلاح لهم، أنه يلزمنا على ذلك، أن يكون ما يفعله بأهل النار من العذاب أصلاح لهم. وقد رأيت من أصحابنا من يلتزم ذلك، ويقول: قد أخبر الله تعالى عن أهل النار، أنهم (لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه)، قال: ولو ردوا وعادوا لاستحقوا من العذاب أكثر مما يفعل بهم في النار، فلاقتصار بهم على ما هم فيه أصلاح لهم.

وهذا غير صحيح، والأصلاح إنما هو التيسير إلى فعل الطاعة، وتسهيل الطريق التي هي تناوؤها. وهذا لا يكون إلا في حال التكليف دون غيرها. فأما الآية فإنما تضمنت تكذيب أهل النار فيما قالوه، لأن الله تعالى أخبر عنهم فقال: (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) الأنعام: ٢٧.

فقال الله تعالى مكذباً لهم:

(بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون). الأنعام: ٢٨.

[رأي الجبائي ومن تبعه من المعتزلة في الترك، ومناقشة المصنف له]

فصل من الكلام في الترك

وقد اختار عبد السلام الجبائي لنفسه قولاً قبيحاً، ضاهى فيه قول المجبرة، إن الله تعالى يعذب العبد على ما لم يحدثه، وزاد عليهم بأنه قال: إنه يعذب العبد من غير فعل فعله، ولا شيء اكتسبه.

وذلك لأنه يقول إن ترك الطاعة التي افترضها الله تعالى وأوجبها، يجوز أن لا يكون فعلاً، ثم يعذب الله تعالى العبد لأنه ترك، وإن لم يكن ترك شيئاً، لا فعلاً ولا كسباً.

وهذا قول انفرد به، ورأي استحدثه، ثم تبعه معظم المعتزلة عليه من

بعده.

والذي يدل على أن الله تعالى لا يعذب العبد إلا على فعل فعله، أنا رأينا العذاب إنما يستحقه من يستحق الذم واللوم، ورأينا في الشاهد أنا لا نستحسن ذم أحد إلا وقد استقبحنا حالاً حصل المذموم عليها، متى ارتفعت من أوهامنا ارتفع استحساننا لذهمه، ومتى حصلت حسن ذمه، حتى إنه متى خفي أمره فلم يُعلم على أي حال هو لم يستحسن حمده ولا ذمه، إلا بتعليقه بحال ما حصل عليها، نستحسنها في عقولنا أو نستقبحها، فنقول إن كان على كذا حسن حمده وقبح ذمه، وإن كان على كذا حسن ذمه وقبح حمده.

وكذلك من انتهى إلى آخر أوقات الظهر حتى يتيقن أنه لم يبق من وقته إلا مقدار أربع ركعات من أخف ما يجزي، وهو قادر، ممكن، ذاكر للواجب عليه من الصلاة، فلم يصل، فإن العقول لا تمتنع من استقباح حال هذا الإنسان على أي هيئة حصل عليها، من اضطجاع أو قعود أو قيام أو مشي، أو غير ذلك من الهيئات التي لا تصح معها الصلاة.

وقد علمنا أن الاستقباح يتعلق بمستقبح، فقد وجب أن يكون هناك

قبيح. وإذا كان هذا الاستقباح إنما يوجد عند وجود إحدى تلك الهيئات،
ويعدم بعدمها، لأنها متى عدمت كان مصلياً، وجب أن تكون هي القبيح الذي
تعلق به الاستقباح.

ولذلك ثبت حسن ذمه في عقولنا عند حصول هذا الاستقباح ووجود هذه
الهيئة، وإلا لم يحسن، وإذا ثبت أن لهذه الهيئة حسن ذمه. ثم استدللنا بدلائل
حدوث الهيئات أن هذه الهيئة حادثة من فعله، صح بذلك أنه لا يحسن ذم
الإنسان [إلا] على فعله.

وكذلك سبيل سائر المستحقين للذم، إنهم لا يستحقون إلا وقد جروا مجرى
هذا التارك للصلاة.

وإذا كان الذم لا يحسن إلا لما قلنا، وجب أن يكون العقاب لا يحسن إلا
له. وذلك بين لمن تأمله.

فإن اعترضه معترض في هذا وقال: ما تنكرون أن يكون الإنسان^(١)
يستحق الذم، لأنه لم يفعل ما وجب عليه، إذا كان قد يحسن من العقلاء فيما
بيننا إذا لاموا إنساناً، فقليل لهم لِمَ لمتموه؟ أن يقولوا لأنه لم يفعل ما وجب
عليه، ويقتصروا على هذا القدر في استحقاقه الذم.

قلنا: إنا لسنا نمنع من أن يكون الإنسان يعبر عن الشيء ويريد غيره، مما
يتعلق به مجازاً واستعارة أو لعادة جارية، أو لدلالة قائمة، فيعبر في حال بعبارة
نفي، والمراد بها إثبات ضد المنفي، ألا ترى أننا نقول للإنسان: أنت قادر على
أن لا تمضي مع فلان، وعلى أن لا تقوم معه، وأنا أريد منك أن لا تصحبه ولا
تمشي معه.

والقدرة عندنا وعند مخالفينا إنما هي قدرة على أن يفعل الشيء، ليس على
أن لا يفعل.

(١) في النسخة زيادة كلمة أن المصدرية.

فقولنا: أنت قادر على أن لا تمشي معه، إنما نريد أنه قادر على أن يفعل ضد الشيء وما لا يقع المشي معه. وكذلك في الإرادة.

وإذا كان هذا كما وصفنا لم يجوز لعقل أن يقتصر في هذا الباب على ما يطلقه الناس من عباراتهم، ويدع التأمل للمعنى الذي تعلق به الذم في العقول. وأيضاً: فإننا نعلم أنهم كما يقولون لمن لم يصل أسأت إن لم تصل، فكذلك يقولون له أسأت في تركك الصلاة وتشاغلك عنها بما لا يجدي عليك في دين ولا دنيا، وفرطت وضيعت، وظلمت زيدا إذ منعتة حقه الذي له عليك، وفعلت ما لا يحل ولا يحمد. فيعلقون الذم في ظاهر القول بأفعال. وقد علمنا أنهم لم يقصدوا من الذم بأحد القولين إلا إلى ما يقصدونه بالآخر، وفي أحد القولين الإفصاح عن فعل عقلوه، فوجب أن يكون هو المقصود بالقول الآخر، وهو الفعل المعقول الذي هو الترك.

فصل

وأعلم أن الفاعل المحدث لا يخلو من أخذ أو ترك، وهما فعلاان متضادان، فهو لا [يعرو] من الأفعال في تعاقب الأضداد.

ولا يقال أن الله سبحانه لا يخلو من أخذ أو ترك، لأنه يصح أن يخلو من الأفعال، وليس هو بمحل للأعراض ولا لتعاقب الأضداد.

والترك في الحقيقة يختص بالمحدثين، ولا يوصف الله تعالى به إلا على المجاز والإتساع، ولا يصح أن يقال: إنه لم يزل تاركاً في الحقيقة، لأن ذلك يوجب أنه لم يزل خالياً من الأفعال، والقول الصحيح أنه كان قبل خلقه ليس بفاعل ولا تارك، متقدماً لجميع الأفعال فافهم ما ذكرناه.

[مواظظ وكلمات في النهي عن الظلم]

(فصل مما ورد في ذكر الظلم)

روى عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

أوحى الله تعالى إلى نبي من أنبيائه: ابن آدم أذكرني عند غضبك أذكرك عند غضبي، فلا أحقك فيمن أحق، فإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك، فإن انتصاري خير من انتصارك لنفسك، وأعلم أن الخلق الحسن يذيب السيئة كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل.

وروي عن رسول الله (ص) قال:

« من ولي شيئاً من أمور أمتي، فحسنت سريرته لهم رزقه الله تعالى الهيبة في قلوبهم، ومن بسط كفه لهم بالمعروف رزق المحبة منهم، ومن كف يده عن أموالهم وقى الله عز وجل ماله، ومن أخذ للمظلوم من الظالم كان معي في الجنة مصاحباً، ومن كثر عفوهُ مُدٌّ في عمره، ومن عمَّ عدله نصر على عدوه، ومن خرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة آتاه الله عز وجل بغير أنيس، وأعانه بغير مال »

وروي أن في التوراة مكتوباً:

« من يظلم يخرّب بيته »

ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل:

(فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) النمل: ٥٢

وقيل:

إذا ظلمت من دونك عاقبك من فوقك.

وقال رسول الله (ص):

« إن الله تعالى يمهّل الظالم حتى يقول أهملني، ثم إذا أخذه أخذه أخذه رابية ».

وقال رسول الله (ص):

إن الله تعالى حمد نفسه عند هلاك الظالمين، فقال:

(فقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) الأنعام: ٤٥

ومن كلام أمير المؤمنين (ع) في ذلك:

لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك، فإنما يسعى في مضرته ونفعك، وليس
جزاء من شرك أن تسوء [ه].

ومن سل سيف البغي قتل به .
ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها .
ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بيته .
بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد .
أسد حطوم خير من سلطان ظلوم .
وسلطان ظلوم خير من فتن تدوم .
أذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك .
[قال] المتنبي:

وأظلم خلق الله من بات جاسداً
لمن بات في نعمائه يتقلب

[كلمات لأمير المؤمنين (ع) وغيره في ذم الحسد]

فصل: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد، نفس دائم، وقلب هائم، وحزن
لازم.

وقال (ع)

الحاسد مغتاز على من لا ذنب له إليه، بخيل بما لا يملكه.

وقال (ع):

الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وقال (ع):

الحسد آفة الدين، وحسب الحاسد ما يلقي.

وقال (ع):

لا مروءة لكذوب، ولا راحة لحاسد، ويكفيك من الحاسد أنه يغم وقت سرورك.

وقال (ع): الحسد لا يجلب إلا مضرة وغيظاً، يوهن قلبك، ويعرض جسمك، وشر ما استشعر قلب المرء الحسد. تغم^(١) وتقي قلبك من الغل تسلم. وقال (ع): الحسود سريع الوثبة، بطيء العطفة، مغموم، واللئيم مذموم. وقال (ع): لا غنى مع فجور، ولا راحة لحسود، ولا مودة لملول. وقال لقمان لابنه: إياك والحسد، فإنه يتبين فيك، ولا يتبين فيمن تحسده. وقال آخر: ليس في خلال الشرخلة هي أعدل من الحسد، لأنه يقتل الحاسد قبل أن يصير إلى المحسود.

وقال آخر: إذا مطر التحاسد نبت التفاسد.

وقال آخر: كل الناس أقدر أن أرضيهم إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتي.

أنشدت للشريف الرضي أبي الحسن محمد الموسوي:

لو كنت أحسد ما تجاوز خاطري

حسد النجوم على بقاء السرم

لا تغبطن على ترادف نعمة

شخصاً تبيت له المنون برصد

إذ ليس بعد بلوغه آماله

أفضى إلى عدم كأن لم يوجد

فصل:

لا تخضعن لـتـرفٍ متـكـبرٍ

إن كان ذا مالٍ وأنت عدياً^(٢)

(١) كذا وردت

(٢) كذا وردت ولعل الصحيح: وكنت عدياً.

وأصبر على مضمض الزمان وعييه
حتى يساعد أو تموت كريما
فلأن يموت المرء غير مذموم
خير له من أن يعيش ذميا.

غيره:

في اليأس عز واتباع مطامع الآمال ذل وطلاب ما لم يُقضى صعب وهو في
المقدور سهل.

غيره وهو صخرة التميمي:

وللموت خير للفتى من علاقة
من العار يرميه بها كل قائل.
وأنشدني أبو الحسن علي بن عبدالله بن حمزة قال أنشدني أبو طاهر
الخوارزمي للقاضي الجرجاني^(١):

يقولون لي فيك انقباض وإنما
رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
إذا قيل: هذا مورد قلت قد أرى
ولكن نفس الحر تحتمل الظما
وما كل برق لاح لي يستفزني
ولا كل من لا قيت أرضاه منعا
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكنهم قد دنسوه وعرضوا
محياه للأطماع حتى تجها

(١) هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الشافعي المتوفى بالري سنة ٣٤٢/٣٦٦هـ)، أطراه الثعالي في اليتيمة، وذكر كثيراً من شعره، ومنه الأبيات المذكورة بزيادة ونقصان وتجده ترجمته في الكنى والألقاب للقمي، وفي وفيات الأعيان وشذرات الذهب ومعجم الأدباء وطبقات المفسرين.

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
لأخدم من لاقيت إلا لأخدما
أأغرسه عزاً وأجنيه ذلّة
إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
وأُنشدت لعبد المحسن السوري: (١)
كُدَّ كَدَّ العبد إن أُحِبَّت أن تحسب حراً
واقطع الآمال من جود بني آدم طرا
لا تقـل: ذا مكسب يُزري
ففضل الناس أزري

فصل

« أقوال وكلمات في الصبر »
روى عن رسول الله (ص) أنه قال:
« الصبر ستر من الكروب، وعون على الخطوب »
وقال صلى الله عليه وآله:
بالصبر يتوقع الفرج، ومن يدمن قرع الباب يلج.
وقال عليه وآله السلام:
الصبر صبران، صبر عند البلاء، وأفضل منه الصبر عند المحارم.
ومن كلام أمير المؤمنين (ع):
الصبر مطية لا تكبو، والقناعة سيف لا ينبو.

(١) هو عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون السوري العاملي أحد الشعراء المحسنين والأدباء المجيدين أورد الثعالبي في اليتيمة طائفة كبيرة من شعره، وتجدر ترجمته في أمل الآمل للحر العاملي وفي وفيات الأعيان. ومن شعره:
وكم أمر بالصبر لم ير لوعتي وما صنعت نار الرأس بين أحشائي
ومن أين لي صبر وفي كل ساعة أرى حسناقي في موازين أعدائي.
وله مرثاة جيدة في الشيخ المفيد شيخ الشيعة الإمامية في عصره المتوفى سنة (٤١٣هـ) وقد توفي السوري سنة (٤٨٩هـ).

من كنوز الإيمان الصبر على المصائب .
الصبر جنة من الفاقة .

أطرح عنك الهموم بعزائم الصبر ، وحسن اليقين .
من صبر ساعة حمد ساعات .

وقال آخر :
أفضل العدة الصبر على الشدة .

وقال آخر :
بالصبر على مرارة العاجل تُرجى حلاوة الآجل .

وقال آخر :
الصبر كإسمه ، وثمرته ثمرته .

لبعض :

أصبر لدهرٍ نال منك فهكذا مضت الدهور
فرح وحزن مرةً لا الحزن دام ولا السرور
كتب رجل إلى أخيه :

الصبر مجنة المؤمن ، وسرور الموقن ، وعزيمة المتوكل ، وسبب درك الحاجة ،
وإنما يوقى الصابرون أجرهم بغير حساب .

[قال] ديك الجن :^(١)

من كان يبغى الذل في دهره
فليطلع الناس على فقره
ما للفتى إن عضه دهره
معول أكرم من صبره

(١) هو عبد السلام بن رغبان الحمصي شاعر معروف مجيد ، وكان يتشيع وله مرث كثيرة في الحسين (ع) توفي سنة (٢٣٥هـ) وقد نسب إلى الإلحاد لتشييعه ، وهي الطريقة التي كانت متبعة في أمثاله من الشيعة كيداً واضطهاداً وتجد أخباره في الأغاني وابن خلكان وحياة الحيوان وسواها .

وكان يقال:
العافية عشرة أجزاء، فتسعة منها في الصبر، والعاشر في التفرد عن
الناس.

لبعضهم:

ألم تر^(١) أن الصبر أجل للفتى
إذا ضاق عنه أمر لم يجد عنه مخرجاً
فما صفت الدنيا لصاحب نعمة
ولا اشتد أمر قط إلا تفرجاً

وقيل:

إن الأدب هو الصبر على الغصة، حتى تدرك الفرصة.

لآخر:

ولما امتطيت صروف الزمان
وأسلمت للدهر طوعاً قيادي
تزودت صبراً لو عثائه
وزاد أخي الصبر من خير زاد
ولم يضع الصبر قدر أمري
وهل يضع الترب إثر النجاد

[قصة ذريب بن ثلث^(٢) وصي عيسى بن مريم (ع)]

فصل:

أخبرني أبو الحسن محمد بن علي بن صخر، قال حدثنا أبو شجاع فارس بن
موسى العرضي بالبصرة، قال حدثنا أحمد بن محمد، قال حدثنا أحمد بن محمد بن

(١) في النسخة (أما ترى) فأبدلناه بـ (ألم تر) فواراً من الزحاف.

(٢) أشار إلى هذه القصة صاحب لسان الميزان ج ٣ ص ٤٠٢ إشارة موجزة واعتبرها غير صحيحة.

شعبة الكوفي ببغداد، قال حدثنا أبو نعيم محمد بن يحيى الطوسي السراج، قال حدثنا محمد بن خالد الدمشقي، قال حدثنا سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن خارجة الرقي، قال: قال معاوية بن العصلة:

كنت في الوفد الذين وجههم عمر بن الخطاب، وفتحنا مدينة حلوان، وطلبنا المشركين في الشعب، فلم نقدر عليهم، فحضرت الصلاة، فانتهيت إلى ماء، فنزلت عن فرسي وأخذت بعنانه، ثم توضأت، وأذنت فقلت: الله أكبر الله أكبر، فأجابني شيء من الجبل وهو يقول: كبرت كبيراً، ففرغت لذلك فرعاً شديداً، ونظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً.

فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، فأجابني وهو يقول: الآن حين أخلصت.

فقلت: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال: نبي بعث.

فقلت: حي على الصلاة، فقال: فريضة افترضت.

فقلت: حي على الفلاح، فقال: قد أفلح من أجابها واستجاب لها.

فقلت: قد قامت الصلاة، فقال: البقاء، لأمة محمد (ص)، وعلى رأسها تقوم الساعة.

فلما فرغت من أذاني ناديت بأعلى صوتي حتى أسمعت ما بين لابتي الجبل، فقلت: أنسي أم جني؟ قال فاطلع رأسه من كهف الجبل، فقال: ما أنا بجني ولكني أنسي، فقلت له: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا ذريب بن ثملا من حوارى عيسى بن مريم (ع)، أشهد أن صاحبكم نبي، وهو الذي بشر به عيسى بن مريم (ع)، ولقد أردت الوصول إليه، فحالت بيني وبينه فارس وكسرى وأصحابه، ثم أدخل رأسه في كهف الجبل فركبت دابتي ولحقت بالناس، وسعد بن أبي وقاص أميرنا، فأخبرته بالخبر، فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، فجاء كتاب عمر يقول: الحق الرجل، فركب سعد وركبت معه حتى انتهينا إلى الجبل، فلم نترك كهفاً ولا شعباً ولا وادياً إلا التمسناه فلم نقدر عليه، وحضرت الصلاة، فلما فرغت من صلاتي ناديت بأعلى صوتي:

يا صاحب الصوت الحسن والوجه الجميل، أنا قد سمعنا منك كلاماً حسناً، فأخبرنا من أنت، يرحمك الله، أقررت بالله تعالى ووحدانيته، قال: فأطلع رأسه من كهف الجبل، فإذا^(١) شيخ أبيض الرأس واللحية، له هامة كأنها رحي، فقال:

السلام عليكم ورحمة الله، قلت: وعليك السلام ورحمة الله، من أنت يرحمك الله؟

قال: أنا ذريب بن ثلثا، وصي العبد الصالح عيسى بن مريم (ع)، كان قد سأل ربه لي البقاء إلى نزوله من السماء، وقراري في هذا الجبل. وأنا موصيكم، سدّدوا، وقاربوا، وإياكم وخصالاً تظهر في أمة محمد (ص)، فإن ظهرت فالهرب الهرب، ليقوم أحدكم على نار جهنم حتى تطفأ عنه خير له من البقاء في ذلك الزمان.

قال معاوية بن الفضلة: قلت له: يرحمك الله، أخبرنا بهذه الخصال لنعرف ذهاب دنيانا وإقبال آخرتنا، قال: نعم: إذا استغنى رجالكم برجالكم، واستغنت نساؤكم بنسائكم، وانتسبتم إلى غير مناسبتكم، وتوليتم إلى غير مواليتكم، ولم يرحم كبيركم صغيركم، ولم يوقر صغيركم كبيركم، وكثرت طعامكم، فلم تروه إلا غلاء أسعاركم، وصارت خلافتكم في صبيانكم، وركن علماءكم إلى ولايتكم، فأحلوا الحرام، وحرّموا الحلال، وأفتوهم بما يشتهون، واتخذوا القرآن ألحاناً ومزامير في أصواتهم. ومنعتم حقوق الله من أموالكم، ولعن آخر أمتكم أولها، وزوqتم المساجد، وطولتم المنابر، وحليتم المصاحف بالذهب والفضة، وركب نساؤكم السروج، وصار مستشار أموركم نساءكم وخصيانكم، وأطاع الرجل امرأته، وعق والديه، وضرب شاب والدته، وقطع كل ذي رحم رحمه، وبخلتم بما في أيديكم، وصارت أموالكم عند شراركم، وكنتم الذهب والفضة، وشربتم الخمر، ولعبتم بالميسر، وضربتم بالكبر^(٢)، ومنعتم الزكاة ورأيتموها مغرماً، والخيانة مغنماً

(١) في النسخة: فإذا.

(٢) الكبر بفتح الحاء هو الطبل له وجه واحد وجمعه كبار كجبل وجبال (مجمع البحرين).

وقتل البريء لتتعظ العامة بقتله، واختلست قلوبكم فلم يقدر أحد منكم يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر، وقحط المطر فصار قيصاً، والولد غيظاً، وأخذتم العطاء فصار في السقاط، وكثر أولاد الخبيثة يعني الزنا، وطففت المكيال، وكلب عليكم عدوكم، وضربتم بالذلة وصرتم أشقياء، وقلت الصدقة حتى يطوف الرجل من الحول إلى الحول ما يعطى عشرة دراهم، وكثر الفجور، وغارت العيون، فعندها نادوا فلا جواب، يعني دعوا فلم يستجب لهم.
شرح قوله: (ولعن آخر أمتكم أولها).

فصل: أعلم - أيدك الله تعالى - أن قوله في هذا الخبر: (ولعن آخر أمتكم أولها) مما يظن الناصبي أن فيه طعناً علينا، وذلك ظن فاسد... (١) وقد لعن الله تعالى الظالمين، فقال: (ألا لعنة الله على الظالمين)

وأخبر النبي (ص) بأن من أصحابه من يغير بعده ويبدل ويغوي ويفتن، ويضل ويظلم، ويستحق العقاب الأليم والخلود في الجحيم.
فما رووا عنه في ذلك قوله (ع) لأصحابه:

لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا في حجر ضب لاتبعتموهم. فقالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن إذن. (٢)

وقوله (ص) وقد ذكرت فتنة الدجال:
لا، فإني لفتنة بعضكم أخوف مني لفتنة الدجال (٣).
وقوله (ص) لأصحابه:

«إنكم محشورون إلى الله يوم القيامة، حفاة عراة، وإنه سي جاء برجالٍ من

(١) كذلك كلمات مطموسة.

(٢) تجد هذا الحديث في صحيح البخاري ج ٩ ص ٨٣ بسنده عن أبي سعيد الخدري ورواه الطبري الإمامي في المسترشد ص ٢٨ - ٢٩. باختلاف يسير.

(٣) أنظر: ص ٩٦ من صحيح البخاري ج ٤ من طبعة مصر سنة ١٣٠٦.

أمتي، فيؤخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال، فأقول: يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لا يزالون مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم». (١)

وقوله (ص) في حجة الوداع لأصحابه:
«ألا أخبرنكم ترتدون بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا إني قد شهدت وغبتكم».

وقوله (ص) في مرضه الذي توفي فيه:
«أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى». (٢)

وقوله (ص):
«تكون لأصحابي بعدي زلة، يعمل بها قوم يكبهم الله عز وجل في النار على مناخرهم».

وحدثني من طريق العامة أبو محمد عبدالله بن عثمان بن حماس بمدينة الرملة، قال: حدثنا أبو الحسن أحمد بن محبوب، قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن الحسن ابن قتيبة العسقلاني، قال: حدثنا كثير بن عبيد أبو الحسن الحذاء، قال: حدثنا محمد بن حمير، عن مسلمة بن علي، عن عمر بن ذرة، عن قلابة الحرمي، عن أبي مسلم الخولاني، عن أبي عبيدة الجراح، عن عمر بن الخطاب، قال:

«أخذ رسول الله (ص) بلحيتي، وأنا أعرف الحزن في وجهه، فقال: يا عمر، أنا لله وإنا إليه راجعون، أتاني جبرائيل آنفاً، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقلت: أجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، فمم ذاك يا جبرئيل؟ قال:

(١) تجد بعضه مروياً في صحيح البخاري ج ٩ ص ٣٩ كتابه الفتن ورواه الطبري في المسترشد ص ٢٩ باختلاف في بعض ألفاظه ومختصراً.

(٢) عن طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٩.

إن أمتك مفتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، فقلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل سيكون، فقلت: فمن أين ذلك، وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل أمرائهم وقرائهم، يمنع الأمراء الحقوق، فيسأل الناس حقوقهم فلا يعطونها، فيقتنوا ويقتلوا، يتبع القراء هؤلاء الأمراء، فيمدونهم في الفي ثم لا يقصرون. فقلت: يا جبرئيل، فيم يسلم من يسلم منهم؟ قال: بالكف والصبر، إن اعطوا الذي لهم أخذوه، وإن منعوهم تركوه.»

فهذا بعض ما ورد من الأخبار في أنه قد كان بعد رسول الله (ص) من ضل وأضل، وظلم وغشم، ووجب بغيه والبراءة منه متى فعله.

فأما الوجه في اللعن الذي يجب أن يحمل عليه ما تضمنه الخبر الذي أوردناه من قوله (ص) (ولعن آخر أمتكم أولها)، فهو ما استحله الظالمون المبغضون لأمر المؤمنين (ع) من لعنة والمجاهرة بسبه وذمه، فلسنا نشك في أنه قد تبرأت منه الخوارج، ولعنه معاوية ومن بعده من بني أمية على المنابر، وتقرب الناس إلى ولاية الجور بذمه، ونشأ أولادهم على سماع البراءة منه وسبه.

حدثني القاضي أبو الحسن أسد بن إبراهيم بن كليب السلمي الحراي رحمة الله عليه بمدينة الرملة من نقل العامة، قال: أخبرني أبو حفص حمر بن علي العتكي الخطيب، قال: حدثني أحمد بن محمد بن سليمان الجوهري، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا محمد بن السبري، قال: حدثنا هشام بن محمد بن السائب، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن السائب، عن أبيه، قال:

جمعنا زياد^(١) في الرحبة، فملأ منا الرحبة والقصر، وحملنا على شتم علي بن أبي طالب، والبراءة منه، والناس في أمر عظيم، قال: فَهَوِّمْتُ برأسي تهوية، فإذا شيء أهدب أهدل، ذو مشفر، طويل، مد إلي من السماء إلى الأرض، ففرعت، وقلت: من أنت؟ قال: أنا النقاد ذو الرقبة، أرسلني ربي إلى صاحب

(١) هو زياد بن أبيه عامل الأمويين على العراق.

هذا القصر، فانتبهت، فحدثت أصحابي، فقالوا: أنت مجنون، فما برحنا أن
خرج الآذن فقال: انصرفوا فإن الأمير قد شغل، وإذا الفالج قد ضربه، قال:
فأنشأ عبد الرحمن يقول:

ما كان منتهياً عما أراد بنا
حتى تناوله النقاد ذو الرقبة،
فأسقط الشق منه حربة ثبتت

كما تناول ظمأ صاحب الرحبة^(١)

وحدثني السلمي، قال أخبرني العتكي، قال أخبرنا محمد بن الحسين
الخزاعي الهمداني فيما قرأت عليه: أن محمود بن مثنوية الواسطي حدثهم: قال
حدثنا القاسم بن عيسى، قال حدثنا رحمة بن مصعب بن الباهلي، قال حدثنا
قرة بن خالد عن أبي رجاء العطاردي، قال: لا تسبوا هذا الرجل يعني علياً
عليه السلام، فإن رجلاً سبه فرماه الله بكوكبين في عينيه .

وحدثني السلمي أيضاً قال أخبرني العتكي، قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن
صالح الرازي ورّاق أبي ذرعة الرازي بمكة سنة ست وثلاثمائة، قال: حدثنا أبو
ذرعة الرازي، قال حدثني عبد الرحمن بن عبد الملك، قال حدثني ابن أبي
فديك، قال حدثني عبد الرحمن بن عبدالله بن أبي نعيم، عن عبدالله بن الفضل
الهاشمي، قال:

« كنت مستنداً إلى المقصورة، وخالد بن عبد الملك^(٢) على المنبر يخطب،
وهو يؤذي علياً (ع) في خطبته، فذهب بي النعاس فرأيت القبر قد انفرج،
فاطلع مطلع فقال: آذيت رسول الله لعنك الله »

وحدثني أيضاً السلمي، قال أخبرني العتكي، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن
ابراهيم بن عبدالله بن يعقوب البغدادي ويعرف بابن نساوران بانطاكية، قال

(١) رواه البيهقي في المحاسن والمساوي ج (١) ص ٨٧ عن عبدالله بن السائب، ورواه السعدي
في مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥ - ٣٦، وصاحب الرحبة هو علي (ع) لأنه قتل في رحبة المسجد.

(٢) هكذا في النسخة ولعله: خالد بن عبدالله أي القسري.

الدَّراهم بين يديه فيراها^(١) فيجدها ناقصة فيغتم بذلك، فيجدها سواء فيكون ذلك خطأ لبعض ذنوبه.

يا يونس: ملعون ملعون من آذى جاره، ملعون ملعون رجل يبدأه أخوه بالصلح فلم يصلحه، ملعون ملعون حامل القرآن، مصر على شرب الخمر، ملعون ملعون عالم يؤم سلطاناً جائراً، معيماً له على جوره، ملعون ملعون مبغض علي بن أبي طالب (ع)، فإنه ما أبغضه حتى أبغض رسول الله (ص)، ومن أبغض رسول الله (ص) لعنه الله في الدنيا والآخرة. ملعون ملعون من رمى مؤمناً بكفر، ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله.

ملعونة ملعونة امرأة تؤذي زوجها وتغمه، وسعيدة سعيدة امرأة تكرم زوجها ولا تؤذيه وتطيعه في جميع أحواله.

يا يونس: قال جدي رسول الله (ص):

ملعون ملعون من يظلم بعدي فاطمة ابنتي ويغصبها حقها ويقتلها. ثم قال: يا فاطمة: البشري، فلك عند الله مقام محمود، تشفعين فيه لمحبيك وشيعتك فتشفعين^{لهم}.

يا فاطمة لو أن كل نبي بعثه الله، وكل ملك قر به، شفّعوا في كل مبغض لك، غاصب لك، ما أخرجه الله من النار أبداً.

ملعون ملعون قاطع رحمه، ملعون ملعون مصدق بسحر، ملعون ملعون من قال الإيمان قول بلا عمل، ملعون ملعون من وهب الله له مالاً فلم يتصدق به. أما سمعت أن النبي (ص) قال:

صدقة درهم أفضل من صلاة عشر ليالٍ.

ملعون ملعون من ضرب والده أو والدته. ملعون ملعون من عقى والديه، ملعون ملعون من لم يوقر المسجد.

أتدري يا يونس لم عظم الله تعالى حق المساجد، وأنزل هذه الآية: (وأن

(١) في النسخة فيريها.

المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً)، كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم أشركوا بالله تعالى، فأمر الله سبحانه نبيه أن يوحد الله فيها ويعبده.

رسالة للمؤلف

رسالة كتبته إلى أحد الإخوان وسميتها بالقول المبين عن وجوب مسح الرجلين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد رسوله خاتم النبيين وآله الطاهرين.

سألت يا أخي - أيدك الله تعالى - في أن أورد لك من القول في مسح الرجلين ما يتبين لك به وجوبه وصحة مذهبنا فيه وصوابه. وأنا أجيبك إلى ما سألت، وأورد مختصراً نطلب ما طلبت بعون الله وتوفيقه.

أعلم أن فرض الرجلين عندنا في الوضوء هو المسح دون الغسل، ومن غسل فلم يؤد الفرض. وقد وافقنا على ذلك جماعة من الصحابة والتابعين، كابن عباس^(١) رحمه الله، وعكرمة^(٢) وأنس، وأبي العالية، والشعبي وغيرهم.

ودليلنا على أن فرضهما المسح قول الله تعالى:

(يا أيها الذين إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين.. النساء: ٦)

فتضمنت الآية جملتين، صرح فيها بحكمين، بدأ في الجملة الأولى بغسل

(١) هو عبدالله بن العباس بن عبد المطلب، ابن عم النبي (ص) وحبر الأمة وترجمان القرآن - كما وصفوه - ولد بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين وتوفي بالطائف سنة ٦٨ هـ بعد أن كف بصره، وينسب له التفسير المطبوع المعروف بتفسير ابن عباس، ولي لأمر المؤمنين علي (ع) البصرة وقيل أنه احتج ما في بيت المال وهرب به، وجرت بينه وبين الإمام (ع) مراسلات ومكاتبات في شأن ذلك تجدها في العقد الفريد وبعضها في نهج البلاغة، وهو جد الخلفاء العباسيين.

(٢) هو أبو عبدالله عكرمة البربري مولى عبدالله بن عباس، حدث عن جماعة من الصحابة ومنهم عبدالله بن العباس، كان يرى رأى الخوارج وهو متهم بالكذب مات (١٠٥/١٠٧ هـ).

الوجوه، ثم عطفت الأيدي عليها، فوجب لها من الحكم بحقيقة العطف مثل حكمها.

ثم بدأ في الجملة الثانية بمسح الرؤوس، ثم عطف الأرجل عليها، فوجب أن يكون لها من الحكم بحقيقة العطف مثل حكمها، حسبما اقتضاه العطف في الجملة التي قبلها. (١)

ولو جاز أن يخالف في الجملة الثانية بين حكم الرؤوس والأرجل المعطوفة عليها، لجاز أن يخالف في الجملة الأولى بين حكم الوجوه والأيدي المعطوفة عليها. فلما كان هذا غير جائز كان الآخر مثله، فعلم وجوب حمل كل عضو معطوف في جملة على ما قبله، وفيه كفاية لمن تأمله.

فإن قال قائل: إنا نجد أكثر القراء يقرأون الآية بنصب الأرجل، فيكون الأرجل في قراءتهم معطوفة على الأيدي، وذلك موجب للغسل.

قيل له: أما الذين قرأوه بالنصب من السبعة فليسوا بأكثر من الذين قرأوا بالجر، بل هم مساوون لهم في العدد.

وذلك إن ابن كثير، (٢) وأبا بكر، (٣) وحمزة عن (٤) عاصم، (٥) قرأوا أرجلكم بالجر. وابن عامر، (٦) والكسائي، (٧) وحفصاً، (٨) عن عاصم، قرأوا وأرجلكم بالنصب.

(١) لأن الواو العاطفة تدل على مشاركة ما بعدها في الحكم لما قبلها وهي لمطلق الجمع.

(٢) هو أبو معبد عبدالله أحد القراء السبعة كانت وفاته بمكة المكرمة سنة (١٢٠هـ).

(٣) هو شعبة وقيل سالم بن عياش الأسدي الكوفي أخذ عن عاصم أحد القراء السبعة توفي بالكوفة سنة (١٩٣هـ) وكان من الزهراء العباد اضطهد وشم وحبس في سبيل نبيه عن المنكر.

(٤) هو حمزة بن حبيب الزيات أحد القراء السبعة وكان فقيهاً توفي سنة ١٥٦هـ.

(٥) هو عاصم بن بهدلة ويكنى أبا بكر بن أبي النجود قرأ على أبي عبد الرحمن السلمي وزر بن حبيش توفي سنة ١٢٨هـ.

(٦) هو عبدالله بن عامر اليخشي أحد القراء السبعة من التابعين من أهل دمشق مات سنة ١٢٨هـ.

(٧) هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبدالله بن عثمان وقيل بهمن بن فيروز، اتصل بالرشيد وأدب ولديه الأمين والمأمون أخذ عن الرؤاسي وغيره، توفي سنة ١٩٧هـ، أخذ عن حمزة بن حبيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى.

(٨) هو حفص بن سليمان أبو عمرو البزار أخذ القراءة عن عاصم مرتفعة إلى علي (ع) من رواية أبي عبد الرحمن السلمي مات حفص سنة ١٣١هـ.

وقد ذكر العلماء بالعربية أن العطف من حقه أن يكون على أقرب مذكور دون أبعده، هذا هو الأصل، وما سواه عندهم تعسف وانصراف عن حقيقة الكلام إلى التجوز، من غير ضرورة تلجئ إلى ذلك.

وفيه إيقاع للبس، وربما صرف المعنى عن مراد القائل. ألا ترى أن رئيساً لو أقبل على صاحب له، فقال له: أكرم زيداً وعمراً، واضرب بكرأ وخالداً، كان الواجب على صاحب أن يميز بين الجملتين من الكلام، ويعلم أنه ابتداء في كل واحدة منهما ابتداء عطف باقي الجملة عليه، دون غير، وأن بكرأ في الجملة الثانية معطوف على خالد، كما أن عمراً في الجملة الأولى معطوف على زيد.

ولو ذهب هذا المأمور إلى أن بكرأ معطوف على عمرو، لكان قد انصرف عن الحقيقة ومفهوم الكلام في ظاهره، وتَعَسَّفَ تَعَسُّفاً صرف به الأمر عن مراد الأمر به، فأداه ذلك إلى إكرام من أُمِرَ بضربه.

ووجه آخر، وهو أن القراءة بنصب الأرجل غير موجبة أن تكون معطوفة على الأيدي، بل تكون معطوفة على الرؤوس في المعنى دون اللفظ، لأن موضع الرؤوس نصب، لوقوع الفعل الذي هو المسح، وإنما انحرت بعارض وهو الباء. والعطف على الموضع دون اللفظ جائز مستعمل في لغة العرب، ألا تراهم يقولون: مررت بزيد وعمراً، ولست بقاءم ولا قاعداً. قال الشاعر:

معاوي إننا بشر فاسحج فلسنا بالجبال ولا الحديد
والنصب في هذه الأمثلة كلها إنما هو العطف على الموضع دون اللفظ.

فيكون على هذا من قرأ الآية بنصب الأرجل، كمن قرأها بجرها، وهي في القرآن جميعاً معطوفة على الرؤوس التي هي أقرب إليها في الذكر من الأيدي، ويخرج ذلك عن طريق التعسف، ويجب المسح بها جميعاً والحمد لله.

وشيء آخر وهو: أن حمل الأرجل في النصب على أن تكون معطوفة على الرؤوس أولى من حملها على أن تكون معطوفة على الأيدي. وذلك أن الآية قد

قرئت بالجر والنصب معاً، والجر موجب للمسح، لأنه عطف على الرؤوس، فمن جعل النصب إنما هو لعطف الأرجل على الأيدي، أوجب الغسل وأبطل القراءة بالجر الموجب للمسح، ومن جعل النصب إنما هو لعطف الأرجل على موضع الرؤوس، أوجب المسح الذي أوجبه الجر، فكان مستعملاً للقراءتين جميعاً غير مبطلٍ لشيءٍ منها، ومن استعملها فهو أسعد من استعمل أحدهما.

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون استعمال القراءتين إنما هو بغسل الرجلين وهو أحوط في الدين، وذلك أن الغسل يأتي على المسح ويزيد عليه، فالمسح داخل فيه. فمن غسل فكأنما مسح وغسل، وليس كذلك من مسح، لأن الغسل غير داخل في المسح.

قلنا: هذا غير صحيح، لأن الغسل والمسح فعلان، كل واحدٍ منهما غير الآخر، وليس بداخلٍ فيه، ولا قائم مقامه في معناه الذي يقتضيه.

ويتبين ذلك أن الماسح كأنه قيل له: اقتصر فيما تتناوله من الماء على ما يندى به العضو الممسوح، والغاسل كأنه قيل له: لا تقتصر على هذا القدر، بل تناول من الماء ما يسيل ويجري على العضو المغسول.

فقد تبين أن لكل واحدٍ من الفعلين كيفية يتميز بها عن الآخر. ولولا ذلك لكان من غسل رأسه فقد أتى على مسحه، ومن اغتسل للجمعة فقد أتى على وضوئه. هذا مع أجماع أهل اللغة والشرع على أن المسح لا يسمى غسلاً، والغسل لا يسمى مسحاً.

فإن قيل: لم زعمتم ذلك؟ وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله سبحانه:

(فطقق مسحاً بالسوق والأغناق) ص: ٣٣ إلى أنه أراد غسل سوقها وأعناقها، فسمى الغسل مسحاً.

قلنا: ليس هذا مجمعاً عليه في تفسير الآية. وقد ذهب قوم إلى أنه أراد المسح بعينه.

وقال أبو عبيدة^(١) والفراء^(٢) وغيرهما أنه أراد بالمسح الضرب .
وبعدُ فإن من قال إنه أراد بالمسح الغسل لا يخالف في أن تسمية الغسل
مسحاً مجازاً واستعارة، وليس هو على الحقيقة، ولا يجوز لنا أن نصرف كلام
الله تعالى عن حقائق ظاهرة إلا بحجة صارفة.

فإن قال: ما تنكرون من أن يكون جر الأرجل في القراءة إنما هو لأجل
المجاورة لا للنسق، فإن العرب قد تعرب الاسم بإعراب ما جاوره، كقولهم:
(حجر ضبٍ خربٍ)، فجروا خرباً لمجاورته لضب، وإن كان في الحقيقة صفةً
للحجر لا للضب، فتكون كذلك الأرجل إنما جرت لمجاورتها في الذكر لمجرور
وهو الرؤوس، قال امرؤ القيس:

كأن ثبيراً في عراني وبله
كبير أناسٍ في بجادٍ مزمل^(٣)

فجر مزملًا لمجاورته لبجادٍ، وإن كان من صفات الكبير، لا من صفات
البجاد، فتكون الأرجل على هذا مغسولة وإن كانت مجرورة.

(١) هو معمر بن المثنى التيمي من تيم قريش مولى لهم من علماء اللغة والأدب والأخبار، وكان
شعوبياً ومع هذا يرى رأي الخوارج، له مؤلفات عديدة ولد سنة ١١٢ هـ، وتوفي سنة ٢١١ هـ.
(٢) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء من أئمة العربية له مؤلفات كثيرة فيها، مات بطريق مكة
سنة ٢٠٧ هـ.

(٣) هو من معلقة امرئ القيس المشهورة التي أولها
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وفي ديوان امرئ القيس باخراج السندوي روى البيت هكذا
كأن أبانسا في أفانين ودقه كبير أناس في بجاد مزمل
وثبير: جبل. أفانين: ضروب. البجاد: كساء مخطط. مزمل: ملفف.
وامرئ القيس هو ابن الملك حجر بن الحارث الكندي، ويقال له الملك الضليل توفي سنة
٨٠ قبل الهجرة سنة ٥٦٥ م.
وهو من فحول الشعراء الجاهليين حتى قيل أنه بدئ الشعر بملك يعني امرئ القيس، وحتم
بملك يعني أبا فراس الحمداني.

قلنا: هذا باطل من وجوه، أولها:
اتفاق أهل العربية على أن الإعراب بالمجاورة شاذ نادر لا يقاس عليه،
وإنما ورد مسموعاً في مواضع لا يتعداها إلى غيرها، وما هذا سبيله فلا يجوز
حمل القرآن عليه من غير ضرورة يلجئ إليه.
وثانيها: أن المجاورة لا يكون معها حرف عطف، وهذا ما ليس فيه بين
العلماء خلاف.

وفي وجود واو العطف في قوله تعالى (وأرجلكم) دلالة على بطلان دخول
المجاورة فيه وصحة العطف.

وثالثها: أن الإعراب بالجوار إنما يكون بحيث ترتفع الشبهة عن الكلام،
ولا يعترض اللبس في معناه، ألا ترى أن الشبهة زائلة، والعلم حاصل في قولهم
(حجر ضب خرب) بأن خرباً صفة للحجر دون الضب.

وكذلك ما أشد في قوله (مزمل) وأنه من صفات الكبير دون البجاد.
وليس هكذا الآية، لأن الأرجل يصح أن فرضها المسح كما يصح أن يكون
الغسل، فاللبس مع المجاورة فيها قائم، والعلم بالمراد منها مرتفع. فبان بما
ذكرناه أن الجر فيها ليس هو بالمجاورة والحمد لله.

فإن قيل: كيف ادعيت أن المجاورة لا تجوز مع واو العطف؟ وقد قال الله
عز وجل:

(يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب، وأباريق)^(١)

ثم قال: (وحور عين)^(٢)

فخفضهن بالمجاورة، لانهن يطفن ولا يطاف بهن.

قلنا: أول ما في هذا أن القراء لم يجمعوا على جر (حور عين)، بل أكثر
السبعة يرى أن الصواب فيها الرفع، وهم نافع، وابن كثير، وعاصم في رواية

(١) سورة الواقعة آية: ١٧ - ١٨.

(٢) الواقعة آية: ٢١.

أبي عمرو، وابن عامر، وإنما قرأها بالجر حمزة والكسائي، وفي رواية المفضل عن عاصم.

وقد حكى عن أبي عبيدة أنه كان ينصب، فيقرأ (وحوراً غنياً). ثم إن للجر فيها وجهاً صحيحاً غير المجاورة، وهو أنه لما تقدم قوله تعالى: (أولئك المقربون في جنات النعيم) الواقعة: ١٢ - ١٣ عطف (بجور عين) على (جنات النعيم)، فكأنه قال: هم في جنات النعيم، وفي مقارنة أو معاشرة حورٍ عين، وحذف المضاف^(١).

وهذا وجه حسن، وقد ذكره أبو علي الفارسي^(٢) في كتاب (الحجة في القرآن) واقتصر عليه دون ما سواه، ولو كان للجر بالمجاورة فيه وجه لذكره.

فإن قيل: ما أنكرتم من أن تكون القراءة بالجر موجبة للمسح إلا أنه متعلق بالحفين لا بالرجلين، وأن تكون القراءة بالنصب موجبة للغسل المتعلق بالرجلين بأعيانها، فيكون للآية قراءتان مفيدة لكل الأمرين؟

قلنا: أنكرنا ذلك لأنه انصراف عن ظاهر القرآن والتلاوة إلى التجوز والاستعارة من غير أن تدعو إليه ضرورة، ولا أوجبته دلالة، [و] ذلك خطأ لا محالة.

والظاهر يتضمن ذكر الأرجل بأعيانها، فوجب أن يكون المسح متعلقاً بها دون غيرها، كما أنه يتضمن ذكر الرؤوس، وكان الواجب المسح بها أنفسها دون أعيانها.

ولا خلاف في أن الخفاف لا يعبر عنها بالأرجل، كما أن العائم لا يعبر عنها

(١) وهو المقارنة أو المعاشرة.

(٢) هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار القسوي النحوي من أئمة العلم والأدب ولد بمدينة (فسا) سنة ٢٨٨ هـ، وقدم بغداد واشتغل بها سنة ٣٠٧ هـ، وأصبح إمام عصره في النحو واتصل بسيف الدولة الحمداني وأقام عنده مدة وذلك سنة ٣٤١ هـ، وجرت بينه وبين المتني الشاعر محاورات، توفي في بغداد سنة ٣٧٧ هـ.

بالرؤوس، ولا البراقع بالوجوه. فوجب أن يكون الغرض متعلقاً بنفس المذكور دون غيره على جميع الوجوه.

ولو شاع سوى ذلك في الأرجل حتى تكون هي المذكورة والمراد من سواها، لشاع نظيره في الوجوه والرؤوس، ولجاز أيضاً أن يكون قوله سبحانه:

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله، ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يُصلَّبوا أو تُقَطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف) المائدة: ٣٣ محمولاً على غير الأبعاض المذكورة.

ولا خلاف في أن هذه الآية دالة بظاهرها على قطع الأيدي والأرجل بأعيانها، وأنه لا يجوز أن ينصرف عن دليل التلاوة وظاهرها، فكذلك آية الطهارة لأنها مثلها.

فإن قيل: إن عطف الأرجل على الأيدي أولى من عطفها على الرؤوس لأجل أن الأرجل محدودة كاليدنين، وعطف المحدود على المحدود أشبه بترتيب الكلام.

قلنا: لو كان ذلك صحيحاً لم يجز عطف الأيدي وهي محدودة على الوجوه وهي غير محدودة، في وجود ذلك، وصحة اتفاق الوجوه والأيدي في الحكم مع اختلافهما في التحديد دلالة على صحة عطف الأرجل على الرؤوس، واتفاقهما في الحكم وإن اختلفا في التحديد.

على أن هذا أشبه بترتيب الكلام مما ذكره الخصم، لأن الله تعالى ذكر عضواً ممسوحاً غير محدود، وهو الرأس، وعطفه عليه من الأرجل بمسوح محدود، فتقابلت الجملتان من حيث عطف فيها مغسول محدود على مغسول غير محدود، وممسوح محدود على ممسوح غير محدود.

فأما من ذهب إلى التخيير وقال: أنا مخير في أن أمسح الرجلين وأغسلهما، لأن القراءتين تدل على الأمرين كليهما، مثل الحسن البصري، والجبائي، ومحمد ابن جرير الطبري ومن وافقهم،^(١) فيسقط قولهم بما قدمناه من أن القراءتين

(١) هذا الرأي تضمنه التساؤل السابق على الأخير.

لا يصح أن تدلا إلا على المسح، وأنه لا حجة لمن ذهب إلى الغسل، وإذا وجب المسح بطل التخيير.

وقد احتج الخصوم لمذهبهم من طريق القياس، فقالوا: إن الأرجل عضو يجب فيه الدية، أمرنا بإيصال الماء إليه، فوجب أن يكون مغسولاً كاليدين.

وهذا احتجاج باطل، وقياس فاسد، لأن الرأس عضو يجب فيه الدية، وقد أمرنا بإيصال الماء إليه، وهو مع ذلك مسح.

ولو تركنا والقياس، لكان لنا منه حجة، هي أولى من حجتهم، وهي أن الأرجل عضو من أعضاء الطهارة الصغرى، يسقط حكمه في التيمم، فوجب أن يكون فرضه المسح دليله [القياس على] الرأس.

فإن قالوا: هذا ينتقض عليكم بالجنب، لأن غسل جميع بدنه وأعضائه يسقط في التيمم [و] فرضه مع ذلك الغسل.

[قلنا] وقد احترزنا من هذا بقولنا إن الأرجل عضو من أعضاء الطهارة الصغرى، فلا يلزمنا بالجنب نقض على هذا.

فإن قال قائل: فما تصنعون في الخبر المروي عن النبي (ص):

(أنه توضأ، فغسل وجهه وذراعيه، ثم مسح رأسه وغسل رجليه، وقال: هذا وضوء الأنبياء من قبلي، هذا الذي لا تقبل الصلاة إلا به)؟

قيل: هذا الخبر الذي مختلط من وجهين رواهما أصحابك.

أحدهما: أن النبي (ص) توضأ مرة مرة، وقال: (هذا الذي لا يقبل الله صلاة إلا به) ولم يأت في الخبر كيفية الوضوء.

والآخر: أن النبي (ص) غسل وجهه ثلاثاً، ويديه ثلاثاً، ومسح رأسه، وغسل رجليه إلى الكعبين، وقال: (هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي) ولم يقل: لم يقبل الله صلاة إلا به، فخلطت في روايتك أحد الخبرين بالآخر، لبعده من معرفة الأثر.

وبعد فلو كانت الرواية على ما أوردته لم يكن لك فيها حجة، لأن الخبر

إذا خالف ما دل عليه القرآن وجب اطراحه والمصير إلى القرآن دونه .
ولو سلمنا لك باللفظ الذي تذكره بعينه ، كان لنا أن نقول : إن النبي
(ص) مسح رجليه في وضوئه ثم غسلها بعد المسح لتنظيف أو تبريد أو نحو ذلك
مما ليس هو داخلياً في الوضوء ، فذكر الراوي الغسل ولم يذكر المسح الذي كان
قبله ، إما لأنه لم يشعر به بعدم تأمله ، أو لنسيان اعتراضه ، أو لظنه أن المسح لا
حكم له ، وأن الحكم للغسل الذي بعده ، أو لغير ذلك من الأسباب . وليس هذا
بمحال .

فإن قال : فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :
(ويل للأعقاب من النار)
فلو كان ترك غسل العقب في الوضوء جائزاً لما تواعد على ترك غسله .
قلنا : ليس في هذا الخبر ذكر مسح ولا غسل فيتعلق به ، ولا فيه أيضاً ذكر
وضوء فنورده لنحتج^(١) به ، وليس فيه أكثر من قوله : ويل للأعقاب من النار .
فإن قال : قد روى أنه رآها تلوح ، فقال : (ويل للأعقاب من النار) .
قليل له : وليس لك في هذا أيضاً حجة ، ولا فيه ذكر لوضوء في طهارة .
وبعد فيحوز أن يكون رأى قوماً غسلوا أرجلهم في الوضوء عوضاً عن
مسحها ، ورأى أعقابهم يلوح عليها الماء ، فقال : ويل للأعقاب من النار .
ويحوز أيضاً أن يكون رأى قوماً اغتسلوا من جنابة ولم يغمس الماء جميع
أرجلهم ، ولا حت أعقابهم بغير ماء ، فقال : ويل للأعقاب من النار .
ويمكن أيضاً أن يكون ذلك في الوضوء لقوم من طعام العرب مخصوصين ، كانوا
يمشون حفاة ، فتشقق أعقابهم ، فيداوونها بالبول على قديم عادتهم ، ثم يتوضأون
ولا يغسلون أرجلهم قبل الوضوء من آثار النجس ، فتوعدهم النبي (ص) بما
قال : وكل هذا في حيز الإمكان .

(١) في النسخة نحتج فأضفنا إليها اللام لتصحيح التعبير .

ثم يقال: له: وقد قابل ما رويت أخباراً، هي أصح وأثبت في النظر،
والمصير إليها أولى لموافقة ظاهرها لكتاب الله تعالى.

فمنها: إن النبي (ص) قام بحيث يراه أصحابه، ثم توضأ، فغسل وجهه
وذراعيه، ومسح برأسه ورجليه.

ومنها: أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) قال للناس في الرحبة:
ألا أدلكم على وضوء رسول الله (ص)؟

قالوا: بلى، فدعا بعقب فيه ماء، فغسل وجهه وذراعيه، ومسح على رأسه
ورجليه، وقال: هذا وضوء من لم يحدث حدثاً.

فإن قال الخصم: ما مراده بقوله:

وضوء من لم يحدث حدثاً؟ وهل هذا إلا دليل على أنه قد كان على وضوء
قبله؟

قيل له: مراده بذلك أنه الوضوء الصحيح الذي كان يتوضأ رسول الله
(ص)، وليس هو وضوء من غير وأحدث في الشريعة ما ليس منها.

ويدل على صحة هذا التأويل وفساد ما توهمه الخصم أنه قصد أن يريهم
فرضاً يعولون عليه، وتقيدون به فيه. ولو كان على وضوء قيل ذلك، لكان لم
يعلمهم الفرض الذي هم أحوج إليه.

ومن ذلك ما روي عن أمير المؤمنين (ع) من قوله:
(ما نزل القرآن إلا بالمسح).

ولا يجوز أن يكون أراد بذلك إلا مسح الرجلين، لأن مسح الرأس لا
خلاف فيه.

ومنه قول ابن عباس رحمه الله
(نزل القرآن بغسلين ومسحين)

ومن ذلك إجماع آل محمد عليهم السلام على مسح الرجلين دون غسلها، وهم

الآئمة والقدوة في الدين ، لا يفارقون كتاب الله عز وجل ، إلى يوم القيامة^(١)
وفيا أوردناه كفاية والحمد لله

(سؤال)

فإن قال قائل: فلم ذهبتم في مسح الرأس والرجلين إلى التبويض؟

(جواب)

قيل له: لما دل عليه من ذلك كتاب الله سبحانه وسنة نبيه (ص).

أما دليل مسح بعض الرأس فقول الله تعالى: (وامسحوا برؤوسكم) فأدخل الباء التي هي علامة التبويض، وهي التي تدخل على الكلام مع استغنائه في إفادة المعنى عنها، فتكون زائدة، لأنه لو قال: (وامسحوا رؤوسكم) لكان الكلام صحيحاً، ووجب مسح جميع الرأس، فلما دخلت الباء التي لم يفتقر الفعل في تعديته إليها أفادت التبويض.

وأما دليل مسح بعض الأرجل، فعطفها على الرؤوس، والمعطوف يجب أن يشارك المعطوف عليه في حكمه.

وأما شاهد ذلك من السنة فما رُوي أن رسول الله (ص) توضأ ومسح بِنَاصِيَتِهِ ولم يمسح الكل.

ومن الحجة على وجوب التبويض في مسح الرؤوس والأرجل إجماع أهل البيت عليهم السلام على ذلك وروايتهم إياه عن رسول الله جدهم (ص)، وهم أخبر بمذهبه.

(سؤال)

فإن قال قائل: ما الكعبان عندكم اللذان تمسحون عليهما؟

(١) هو إشارة إلى الحديث المشهور المستفيض: «إني مخلف فيكم ما إن تسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفرقا حتى يردا عليّ الحوض...». رواه مسلم والبيهقي والحاكم في المستدرک والنسائي في الخصائص وأحمد في المسند، وابن سعد في الطبقات والهندي في كنز العمال، وغيرها. أنظر: فضائل الخمسة ج ٢ ص ٤٣ - ٥٢.

(جواب)

قيل له: العظمان النابتان في ظهر القدمين عند عقد الشراك، وقد وافقنا على ذلك محمد بن الحسن^(١) دون من سواه.

دليلنا ما رواه أبان بن عثمان عن ميسر عن أبي جعفر (ع) أنه قال:
ألا أحكي لك وضوء رسول الله (ص)، ثم انتهى إلى أن قال: فمسح رأسه وقدميه، ثم وضع يده على ظهر القدم^(٢)

★ ★ ★

ثم قال: (٣) وذكرت فأوجزت، وقد علمت أنا لا نقبل إلا ما أدركناه بأبصارنا، أو سمعناه بآذاننا، أو ذقناه بأفواهنا، أو شممناه بأنوفنا، أو لمسناه ببشرتنا.

فقال الصادق عليه السلام:

ذكرت الحواس الخمس، وهي لا تنفع في الاستنباط إلا بدليل، كما لا يقطع الظلمة إلا بمصباح^(٤).

قال شيخنا المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي رضي الله عنه:

(١) هو محمد بن الحسن بن واقد الشيباني مولى بني شيبان وصاحب أبي حنيفة ولد بواسط سنة ١٣٢ هـ ومات بالري سنة ١٨٩ هـ أخذ عن أبي حنيفة والثوري ومسر بن كدام والأوزاعي ومالك.

(٢) اختصر المؤلف هذا الحديث، ويبدو أنه قد سقط من النسخة طائفة كبيرة من بحث كيفية الوضوء.

(٣) قد سقط من النسخة أوائل الحديث الثاني المتعلق بحدوث العالم واثبات الصانع.

(٤) أول الحديث هو أنه سأل أبو شاهر الديصاني الإمام الصادق فقال له: ما الدليل على حدوث العالم، فقال (ع): نستدل عليه بأقرب الأشياء، قال: وما هو؟ قال فدعا (ع) بيضة فوضعها على راحته، فقال: هذا حصن ملموم داخله عرقى رقيق لطيف، به فضة سائلة وذهبة مائعة، ثم تنغل عن مثل الطاووس، أدخلها بشيء؟ فقال: لا، قال: فهذا الدليل على حدوث العالم. قال: أخبرت فأوجزت وقلت فأحسنيت، وقد علمت... أنظر: توحيد الصدوق ص ٣٠٣.

إن الصادق عليه السلام أراد أن الحواس بغير عقل لا توصل إلى معرفة الغائبات. وإن الذي أراه من حدوث الصورة معقول بنا [لوقوع] العلم به على محسوس. (١)

وأعلم - أيّدك الله تعالى - أن الأجسام إذا لم تخل من الصور التي قد ثبت حدوثها فهي محدثة مثلها. (٢)

فصل: (في ذكر مولد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله ووصف شيء من فضله).

روى نقلة الأخبار وحيلة الآثار من الخاص والعام أن رسول الله (ص) قال:
(أنا سيد ولد آدم، وأنا سيد البشر)

وقال أمير المؤمنين (ع):

(ما برء الله نسمةً خيراً من محمد صلى الله عليه وآله)

وجاء في الحديث النبي (ص) أنه قال:

(نقلت من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة نكاحاً لا سفاحاً).

وروي عن الصادق جعفر بن محمد عليها السلام أنه قال:

(نزل جبرئيل (ع) على رسول الله (ص) فقال:

يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، ويقول:

(إني قد حرّمت النار على صلب أنزلك، وبطن حملك، وثدي أرضعك).

وروي: أن نوره (ص) كان يلوح في جبهة آدم (ع)، وإن الله سبحانه أعلم

بجأله، ويبيّن أمره، وعهد إليه أن لا يقرب حواء إلا وهما طاهران، لأجل

انتقال ذلك النور إلى ولده، وأن عهداً باقياً في عقبه، يأخذه كل أبٍ منهم على

(١) في العبارة قلق يحول دون وضوح المعنى ولعل هنا سقوط جملة أو جمل من قلم الناسخ.

(٢) ذلك لأن الجسم أو الهيولى حيث وجدت تكون في صورة ما، ولا يوجد بدون صورة، والصورة متغيرة إذن الجسم متغير فهو محدث، ولذلك قال الفلاسفة: إن شئياً الشيء بصورته لا بمادته.

ابنه، ممن يظهر نور رسول الله (ص) في وجهه، بأنه لا يتزوج إلا بأطهر نساء أهل وقته، حراسةً لهذا النور ألا ينتقل إلا [في] درجات الشرف، ومنازل الطهارة، من الدنس، فلم يزل نوره منتقلاً فيهم، ظاهراً بين أعينهم، يدركه الناس بالمشاهدة، ويرون خلو الوالد منه، إذا انتقل إلى ولده. وهو يزداد بالانتقال بياناً، ويتضاعف بالموارثة برهاناً، إلى انتهى إلى عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم، بن عبد مناف رضوان الله عليهم، فعُظم في وجهه، وأضاء في غرته، وعلمت حاله الأخبار، وأخبرت بأمره الكهان، وذاع خبره في البلاد.

حتى روي^(١) أن أحبار يهود الشام كانت عندهم جبة مغموسة في دم يحيى ابن زكريا (ع)، وكانوا قد وجدوا في كتبهم أن إذا رأيت الجبة بيضاء والدم يقطر، فاعلموا أن أبا النبي محمد المصطفى قد ولد، فلما رأوا ذلك من حالها، تحققوا ولادة عبدالله بن المطلب، عمدوا بأجمعهم إلى الحرم ليغتالوه، ويغتبنموا الظفر به فيقتلوه، فصرف الله سبحانه عنه كيدهم، وردهم خائبين إلى بلادهم، وكانوا إذا سألوا عنه قيل لهم: تركناه نوراً يتلألأ في قریش تلالؤ القمر، فيقول الأخبار: ليس ذلك النور لعبدالله، إنما هو لولده محمد (ص)، ثم ترجع في كفرها وعنادها، فإذا تأملت الحال، وأفقت للاستدلال قالت: هو هو ورب موسى.

وقيل: إن الكهنة اهتمت فقالت: نحن نتخوف لتزايد نور عبدالله أن يغلب كهانتنا.

وروى: أن نساء قریش افتنن به، وكُنَّ يتعرضن به في طريقه، حتى لقي منهن ما لقي يوسف (ع) من امرأة العزيز، وهو لا يلوي عليهن، ويقول لهن: ليس في سبيل إلى كلامكن.^(٢)

حتى ورد في الحديث: أن الجوار الأبكار كنَّ يقفن في طريقه، وإذا رمن

(١) تجد شرطاً من هذه الرواية في مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٢٧.

(٢) تجد شرطاً من هذا الخبر في كتاب اثبات الوصية للمعويدي ص ٨٨ - ٨٩.

كلامه، تصورت الملائكة لهن في صورة مفزعة، يصدونهن عنه، فيرجعن مذعورات فزعات.

ثم إن وهب بن عبد مناف لما رأى عِظَمَ أمره، وجلالة قدره، اجتهد في تزويجه آمنة ابنته، وراسل في ذلك عبد المطلب رضوان الله عليه، فزوجه بها، ونقل الله تعالى نور نبيِّه إليها، فحملت به في ليلة الجمعة لتسع خلون من ذي الحجة ليلة عرفة، وقيل بل في أيام التشريق،^(١) وذلك بمنى عند الجمرة الوسطى، وكانت منزل عبد الله بن عبد المطلب.

فروي عنها من الآيات التي شاهدها ليلة حملها به وعند ولادتها ما يطول ذكره.

فكان مما قالت: أنه أتاني الخاض، وأنا وحدي، فلما وضعته (ص) رأيته ساجداً، قد رفع أصبعه إلى السماء كالمبتهل المتضرع، ثم غَشَتْنِي سحابة غيبته عن عيني، وسمعت منها كلاماً، ثم أُعيد إلي، وهو مدرج في ثوب صوف أشد بياضاً من الثلج، وتحتة حريرة خضراء، وولد (ص) طاهراً مطهراً.

فكان من دلائل ولادته خمود نيران المجوس، وتزعزع أسرة الملوك، وكلام كثير من الدواب، وسقوط الأوثان عن البيت الحرام.

وروى عن عبد المطلب أنه قال:

كنت في تلك الليلة في البيت الحرام أرُمُّ منه شيئاً، فلما انتصف الليل رأيته قد أهوى من جميع جوانبه مائلاً كالساجد إلى ناحية المقام، ثم استوى قائماً، وسمعت منه تكبيراً عجباً، يقول: الله أكبر رب محمد المصطفى، الآن قد طهرني ربي من أنجاس المشركين وأرجاس الجاهلية. فحرت من ذلك حتى ظننت أنني نائم.

ثم إن عبد المطلب أتى آمنة رضوان الله عليها، فسألها عن حالها فاخبرته بولادتها، والآيات التي رأتها، فقال لها أريني الولد، فقالت: لا شئيل لأحدٍ إلى

(١) هي ثلاثة أيام يتبدى أولها ثاني يوم النحر وآخرها اليوم الثالث عشر من ذي الحجة إلى العصر.

رؤيته حتى تمضي ثلاثة أيام ، فعند ذلك جرد سيفه ليقتل نفسه ، فقالت : هو في ذلك البيت ، ادخل إن أحببت أن تراه ، فلما دخل عبد المطلب تراءى له رجل ، وقال إليك يا عبد المطلب ، لا سبيل لك إلى رؤيته حتى تنقطع عنه زيارة الملائكة .

وكانت ولادته (ص) يوم الجمعة عند طلوع الفجر في اليوم السابع عشر^(١) من ربيع الأول عام الفيل^(٢) بمكة في شعب أبي طالب رضوان الله عليه . وهذا اليوم الذي ولد فيه سيدنا رسول الله (ص) يوم عظيم الشرف ، جليل القدر ، لم يزل آل محمد (ع) يعظمونه ، ويرعون حرمة ، ويتطوعون بصيامه والصدقة فيه .

وروي أن من صامه كتب الله له صيام سنة . ولما صار له (ص) شهران توفي أبوه عبدالله بن عبد المطلب رضوان الله عليه ، عند أخواله بالمدينة .

وكذلك ماتت أمه رحمة الله عليها وهو طفل . ورُوي أن الله تعالى أيتّم نبيه (ص) لئلا تجري عليه رئاسة لأحد من الناس . وشرف الله تعالى حلّمة بنت أبي ذؤيب السعدية برضاعه ، وخصها بتربيته ، وكانت ذات عقل وفضل . فروت من آياته ما يبهر عقول السامعين ، وأغناها الله ببركته في الدنيا والدين .

وكان لا يرضع إلا من ثديها اليمين . قال ابن عباس رضي الله عنه : أُلهمّ العدل حتى في رضاعه ، لأنه علم أن له شريكاً ، فناصره عدلاً منه (ص) .

(١) وهو المشهور بين الشيعة الإمامية ، وقيل في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول وهو المعروف بين الجمهور وبه قال أبو جعفر الكليني من الإمامية ، وقيل لثمان خلون من شهر ربيع الأول ، وقيل لعشر خلون منه .

(٢) وذلك بعد قدوم أصحاب الفيل بمكة بخمسة وستين يوماً ، وقيل أقل من ذلك وكان قدومهم مكة يوم الأحد لخمس ليالٍ خلون من المحرم .

قالت حليلة: فكان ثدي اليمين لرسول الله، واليسار لولدي ضميرة، وكان ولدي لا يشرب حتى يراه قد شرب.

قالت: ولم أرقط ما يرى للأطفال طهارة ونظافة، وإنما كان له وقت واحد، ثم يعود إلى وقته من الغد.

وما كان شيء أبغض إليه من أن يرى جسده مكشوفاً، فكنت إذا كشفتُه يصيح حتى أستر عليه.

وروي عنها أنها قالت: سمعته لما تمت له سنة، يتكلم بكلامٍ، لم أسمع أحسن منه. سمعته يقول: قدوس، قدوس، نامت العيون، والرحمن لا تأخذه سنة ولا نوم.

ولقد ناولتني امرأة كف تمر من صدقه، فناولته منه، وهو ابن ثلاث سنين، فردّه عليّ، وقال: يا أمه، لا تأكلي الصدقة، فقد عظمت نعمتك، وكثر خيرك، فإني لا أكل الصدقة.

قالت: فوالله ما قبلتها بعد ذلك من أحدٍ من العالمين.

وكان بنو سعد يرون البركات بمقامه معهم، وسكناه بينهم، حتى إنهم كانوا إذا عرض لدواهم بؤس أتوا بها إليه، ليمسها بيده، فيزول ما بها، وتعود إلى أحسن حالها.

ولم يزل كذلك إلى أن رده حليلة إلى أهله، فاشتمل عليه جده عبد المطلب، يحبوه التحف، ويمنحه الطُرف، ويعد قريشاً به، ويخبرهم بما يكون من حاله، إلى أن ذنت وفاته فوضعه في حجر أبي طالب، وأوصاه به، وأمره بحياطته ورعايته، وعرفه ما يكون من أمره.

ثم توفي عبد المطلب رضوان الله عليه في شهر ربيع الأول، وللنبي (ص) ثماني سنين من عمره، فكفله أبو طالب أحسن كفالة، ولم يكن له يومئذ ولد، وكانت امرأته فاطمة بنت أسد بن هاشم المعروفة بسودة الفاضلة، فتولت معه تربيته، وأحسننا جميعاً حياطته ورعايته، واتخذاه لأنفسهما ولداً، ولم يؤثرأ عليه في المحبة ولداً، وقد شغفا بواضح دلالة، وذهلا من ظاهر حجته.

والكهان مع ذلك يخبرونه بشأنه، ويتعجبون من جلي برهانه، ويبشرون أبا طالب بأمره، وبأنه سيكفل ولدًا له من ظهره.

ثم نشأ (ص) نشوءاً يحير أهل عصره، يحضر مشاهد قریش كلها، غير السجود للأصنام [والعبادة] ^(١) لها، وشرب الخمر، ونظم الشعر، وافتعال الكذب، والاشتغال باللعب، إلى أن أظهر الله أمره، وأعلى قدره، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا.

فصل: في ذكر شيء من معجزات رسول الله (ص) وباهر آياته.

فمن ذلك: أنه دعا شجرة فجاءت تحذّ الأرض، ثم أشار إليها فرجعت. ومن ذلك: أنه مسح شطري ضرع العناق ^(٢) وهما ملتصقان، لا لبن فيهما، فدر، وحلب منه لبن كثير. هذا في هجرته إلى المدينة. وذلك مشتهر قد أتت به الأخبار، وقيل فيه الأشعار.

ومن ذلك: رمى الحصى في وجوه الأعداء يوم بدر، فنالهم في عيونهم ما نالهم، وكانت في الحال عزيزتهم، وأنزل الله سبحانه:

(وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى) الانفال: ١٧.

وفعل مثل ذلك يوم حنين وقال:

(شاهت الوجوه)، فانهزم المشركون بأسرهم.

ومن ذلك: إخباره عن العير التي جاءت من الشام، وحال القوم وأفعالهم، وما معهم من متاعهم، وكثير من كلامهم.

ومن ذلك: كلام الذئب والضب أيضاً معروف.

ومن ذلك: الميضاة ^(٣) التي وضع فيها يده، وفيها شيء يسير من الماء، فشرب منه خلق كثير، وتوضأوا منه.

(١) في النسخة كلمة غير واضحة

(٢) هي الأنثى من أولاد المعزى قبل استكمالها الحول.

(٣) هي المطهرة الكبيرة التي يتوضأ منها.

ومن ذلك: أن ناقةً ضلت من صاحبها في بعض أسفاره، فقال المنافقون: لو كان نبياً لعلم أين الناقة، فبلغه ذلك فقال: الغيب لا يعلمه إلا الله، انطلق يا فلان، لصاحب الناقة، فإن ناقتك بمكان كذا، قد تعلق زمامها بالشجرة، فوجدها كما قال (ص).

ومن ذلك: أنه أقام بتبوك (ع)، فنفت أزوادهم، فأمرهم عليه السلام، فجمعوا ما بقي منها، ثم أمر بأنطاع فبسطت، وقال: من كان عنده فضل زادٍ فليأتنا به، فكان الرجل يأتي بالمد الدقيق، والسويق، والقليل من الخبز، فيوضع كل صفٍ على حدة، فكان جميع ذلك قليلاً، ثم توضأ وصلى ودعا بالبركة فيه، فكثر ذلك، حتى فاض من الأنطاع، ثم نادى الناس: أن هلموا، فأقبل الناس، فحملوا من كل شيء، حتى ملأوا كل جراب ومزودٍ

ومن ذلك: أنه نزل بالحديبية فإذا بيئرها لا ماء فيها، فشكا الناس ذلك إليه (ص)، فأخرج سهماً من كنانته، فدفعه إلى البراء بن عازب، فنزل في البئر، فأقبل الماء من عيون البئر، حتى ملأوا كل ما معهم، وسقوا ركائبهم^(١).

ومن ذلك: أنه كان في سفر، فاستيقظ من نومه، فقال: مع من وضوء؟ فقال: أبو قتادة: معي في ميضاة، فأتاه به، فتوضأ، وفضلت في الميضاة فضلة، فقال (ع): احتفظ بها يا أبا قتادة، فسيكون لها شأن، فلما حمى النهار واشتد العطش بالناس، فابتدروا إلى النبي (ص) يقولون: الماء الماء، فدعا النبي (ص) بقدره، ثم قال: هلم الميضاة يا أبا قتادة، فأخذها، ودعا فيها، وقال: اسكب، فسكب في القدح، وابتدر الناس الماء فقال رسول الله (ص): كلكم يشرب إن شاء الله تعالى، فكان أبو قتادة يسكب، ورسول الله (ص) يسقي، حتى شرب الناس أجمعون. ثم قال النبي (ص) لأبي قتادة: اشرب، فقال: لا، بل اشرب أنت يا رسول الله، فقال: اشرب فإن ساقى القوم آخرهم يشرب، فشرب أبو قتادة، ثم شرب رسول الله، وانتهى القوم رواءً.

(١) تجد هذه المعجزة مفصلةً في كتاب اعلام النبوة ص ٦٨.

ومن ذلك: أنه أتي بشاة، فأخذ بأذنها بين أصبعيه ثم خلاها، فصار لها وسم^(١) وكانت تولد والأثر في أولادها.

ومن ذلك: ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه، قال: أصاب الناس يوم الخندق كدية^(٢) ضربوا فيها بمعاولهم حتى انكسرت، فأخبروا رسول الله (ص) فدعا بماء فصبه عليها، فصارت كثيباً^(٣).

ومن ذلك: أن اعرابياً باع شيئاً من أبي جهل فمطله، فأتى قريشاً فقال: اعدوني على أبي الحكم، فقد لوى بحقي، فأشاروا إلى النبي (ص) وقالوا: أنت هذا الرجل فاستعد عليه، وهم يهزأون بالإعرابي، ويريدون أن يغروا أبا جهل برسول الله (ص) فأتى الإعرابي رسول الله (ص)، فقال: يا عبدالله، أعدني على عمرو بن هشام، فقد مطلني حقي، قال: نعم، فمضى معه النبي (ص) فضرب على أبي جهل بابه، فخرج متغيراً، فقال: ما حاجتك؟ فقال: اعط هذا الرجل حقه، قال: نعم، الساعة، فأعطاه فجاء الرجل إلى قريش فقال: جزاكم الله خيراً، انطلق معي الرجل الذي دلتهموني عليه، فأخذ لي حقي، وجاء أبو جهل، فقالوا: أعطيت الإعرابي حقه؟ قال: نعم قالوا: إنما اردنا أن نغريك بمحمد (ص) قال: ما هو إلا أن دق بابي، وسمعت كلامه، فما تمالككت أن خرجت إليه، وخلفه مثل الفالج^(٤) فاتح فاه، فكأنما يريدني، فقال: اعطه حقه، فلو قلت: لا، لا لا بتلع رأسي^(٥).

(١) أي علامة

(٢) الكدية هي الضخرة الصلدة.

(٣) تجد هذه المعجزة مفصلة في اعلام النبوة للهاوردي ص ٦٦ - ٦٧ نقلها عن البخاري عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر.

(٤) الفالج: الجمل الضخم ذو السنامين، وفي رواية ابن هشام: وإن فوق رأسه لفحلاً.

(٥) رواه ابن هشام في السيرة ج ١ ص ٤١٦ - ٤١٧ مع اختلاف يسير.

ومن ذلك: أن أبا جهل جاء إلى النبي (ص) ومعه حجر، يريد أن يرميه به، إذا سجد، فلما سجد رسول الله (ص) رفع أبو جهل يده، فبيست على الحجر، فقالوا له: أجبت؟ قال: لا، ولكن رأيت بيني وبينه كهيئة الفحل، يخطر بذهنه.

وهذا الحديث مشهور، وفيه يقول أبو طالب رضوان الله عليه:

افيقوا بني غالب وانتها
عن الغي في بعض ذا المنطق
وإلا فلاني إذا خائف
بواثق في داركم تلتقي
تكون لعابركم عـــــــبرة
ورب المغارب والمشرق
كما ذاق من كان من قبلكم
ثمود وعـــــــاد، فمن ذا بقي
غــــداه أتتهم بها صرصر
وناقة ذي العرش إذ تستقي
فحلّ عليهم بها سخطة
من الله في ضربــــة الأزرق
غــــداه [يعض^(١)] بعرقوبها
حسام من الهند ذو رونق
وأعجب من ذاك في أمركم
عجائب في الحجر الملصق
يكف الذي قام من جنبه
إلى الصابر الصــــادق المتقي
فأيسه الله في كفه
على رغم ذي الخائن الأحمق

(١) في النسخة كلمة غير واضحة.

وهذا مما يستدل به على صحيح إيمان أي طالب بالله تعالى ورسوله (ص)، لما تضمنه قوله من إقراره بالله سبحانه، واعترافه بآياته، وبالمعجز الذي بان لنبيه، وإخباره عنه بأنه صابر صادق متقي.

ومن ذلك: أن امرأة سلام بن مسكين أتت بشاة قد سمتها إلى النبي (ص)، فقال: ما هذا؟ فقالت: أطفك بها، وكان مع النبي (ص) بشر بن البراء بن المعرور، فتناول النبي (ص) من الذراع، وتناول بشر، فأما النبي (ص) فإنه لأكها ثم لفظها، وقال: إن هذه الذراع تكلمني وترغم أنها مسمومة، وأما بشر فلاك البضعة ليبلعها فمات منها، فأرسل النبي (ص) إلى المرأة فأقرت، فقال: ما دعاك إلى هذا؟ قالت: قتلت زوجي وأشرف قومي، فقلت إن كان ملكاً قتلته، وإن كان نبياً فسيطعه الله على ذلك.^(١)

ومن ذلك: أن صفوان بن أمية، وعمرو بن وهب الجمحي قالا: من لنا بمحمد؟ فقال عمرو بن وهب: لولا دين علي لخرجت إلى محمد حتى أقتله، فقال: صفوان: علي دينك، ونفقة عيالك إن قتلته. فخرج حتى قدم المدينة، فدخل على رسول الله (ص) فقال: أنعم صباحاً، أبيت اللعن، فقال النبي (ص): قد أبدلنا الله بها خيراً منها، قال: إن عهدك بها حديث، قال: أجل، ثم أكرمنا الله بالنبوة، ثم قال: يا عمرو، ما جاء بك؟ قال: ابني أسير عندكم، قال: لا ولكنك جلست مع صفوان، ثم قص عليه الذي قال، فقال عمرو: والله ما حضرنا أحد، وما أتاك بهذا إلا الذي يأتيك بأخبار السماء، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.^(٢)

ومن ذلك: أن المدينة أجدت فشكوا ذلك إلى رسول الله (ص)، فرفع يديه إلى السماء وقال:

اللهم إني سألتك فأعطيني، ودعوتك فأجبتني، اللهم اسقنا غيثاً مرياً،

(١) أشير إلى هذا في مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٨١.

(٢) تجد هذا مختصراً في مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١١٣.

مريعاً، عاجلاً، غير رايت، نافعاً غير بايث، نافعاً غير ضار، فمطر الناس للوقت، وسالت الأودية، وامتلأ كل شيء، فدامت جمعة.

فأتى رجل فقال: غرقنا، وتقطعت السبل في أسواقنا، فقال رسول الله (ص): حوالينا ولا علينا.

فانجاب السحاب عن المدينة، وكان فيما حولها حتى حصلت السماء فوقها، والسحاب ذلك^(١).

فقال كل واحد منهم في نفسه: آمنت إذا مضيت أن يأتي أحد غيري فيشعري، فاجتمعوا بأسرهم لاتفاق ما في نفوسهم، ولما أزعجهم من التعجب لاستماع ما حيرهم وأذهلهم، فوقفوا إلى الصباح، فلما انصرفوا اجتمعوا أيضاً، وافتضح بعضهم عند بعض، وجددوا العهد بينهم، ثم عادوا حتى فعلوا ذلك عدة دفعات، تطلعاً إلى سماع القرآن مع ما هم عليه من الإصرار على العناد. وأما تعجب الجن فقولها:

(إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشd فأما به، ولن نشرك بربنا أحداً). سورة الجن: ١

فصل: من البيان عن إعجاز القرآن

فمن ذلك عجز بلغاء العرب عن الإتيان بمثله في فصاحته ونظمه مع علمهم بأن النبي (ص) قد جعله علماً على صدقه، وسماعهم للتحدي فيه على أن يأتوا بسورة من مثله. هذا مع اجتهادهم في دفع ما أتى به (ص)، وتوفر دواعيهم إلى إبطال أمره، وفلّ جمعه، واستفراغ مقدورهم في أذيته، وتعذيب أصحابه، وطرده المؤمنين به.

ثم ما فعلوه بعد ذلك من بذل النفوس والأموال في حربه، والحرص على إهلاكه، مع علمهم بأن ذلك لا يشهد بكذبه، ولا فيه إبطال الحجة، ولا يقوم مقام معارضته فيما جعله دلالة على صدقه، وتحداهم على الإتيان بمثله.

(١) تجد هذا في مجالس المفيد ص ١٣٩ رواها باسناده عن مسلم الغلابي مع زيادات.

وقد كانوا قوماً فصحاء ، حكماء ، عقلاء ، خصماء ، لا يصبرون على التقرير ، ولا يتفاوضون عن التعجيز ، وعاداتهم معروفة في التسرع^(١) إلى الافتخار ، وتحدي بعضهم لبعض بالخطب والأشعار ، وفي انصرافهم عن المعارضة دلالة على أنها كانت متعذرة عليهم ، وفي التجأهم إلى الحروب الشاقة دونها بيان أنها الأيسر عندهم .

وأي عاقل يطلب أمراً^(٢) فيه هلاك حاله ، والتغريض بنفسه ، وهو يقدر على كلامٍ يقوله ، يغنيه بذلك ، وينال به أمله ومراده ، فلا يفعله .

هذا ما لا يتصور في العقل ، ولا يثبت في الوهم ، وفي عجزهم الذي ذكرناه حجة في بيان معجز القرآن ، وفي صحة نبوة نبينا (ص) .

ومن ذلك : ما يتضمنه من أخبار الدهور الماضية ، وأحوال القرون الخالية ، وأبناء الأمم الغابرة ، ووصف الديار الدائرة ، وقصص الأنبياء المتقدمين ، وشرح أحكام أهل الكتابين ، مما لا يقدر عليه إلا من اختص بهم ، وانقطع إلى الإطلاع بكتبهم ، وسافر في لقاء علمائهم ، وصحب رؤسائهم .

ولما كان نبينا (ص) معلوم المولد^(٣) والدار ، والمنشأ والقرار ، لا تخفى أحواله ، ولا تستتر أفعاله ، لم يلف قبل بعثته مدارساً لكتاب ، ولا رُئي مخالطاً لأهل الكتاب ، ولم يزل معروفاً بالإنفراد عنهم ، غير مختص بأحدٍ منهم ، ولا سافر لاتباع عالم سراً ولا جهراً ، ولا احتال في نيل ذلك أولاً ولا آخراً ، عُلِمَ أنه لم يأخذ ذلك إلا عن رب العالمين ، دون الخلائق أجمعين ، وثبت صدقه وحجته ، وإعجاز الوارد على يده . وكان قول الله عز وجل :

(وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين) . سورة القصص : ٤٤

وقوله عز وجل :

(١) في النسخة الشرع

(٢) في النسخة (فيه بما)

(٣) في النسخة (المولود)

(وما كنت بجانب الطور إذ نادينا، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون). سورة القصص: ٤٦.

يعضد ما ذكرناه، ويشهد بصحة ما وصفناه.

ومن ذلك أيضاً: ما ثبت فيه من الإخبار بالكائنات قبل كونها، وإعلام ما في القلوب وضائرها، كقوله سبحانه في اليهود من أهل خيبر:

ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون، لن يضروكم إلا أذى، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار، ثم لا ينصرون). سورة آل عمران: ١١١

وكان الأمر في هزيمتهم وخذلانهم كما قال سبحانه.

وقال في قصة بدر تشجيعاً للمسلمين، وإخباراً لهم عن عاقبة أمرهم وأمر المشركين:

(سيهزم الجمع ويولون الدبر). سورة القمر: ٤٥

وكان ذلك يقيناً كما قال سبحانه.

وقال فيهم:

(الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) سورة الانفال: ٣٦.

فكان الظفر قريباً كما قال سبحانه.

وقال عز اسمه:

(ألم غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيُغلبون، في بضع سنين، الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) سورة الروم: ٣ و٣٠.

فأخبر الله تعالى عن ظفرهم بغلبهم وغلبتهم له، وحدد زمان ذلك، وحصره، فكان الأمر فيه حسب ما قال سبحانه.

وقال عز وجل:

(يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) سورة الجمعة: ٦ و ٧

فقطع على بغيتهم، وأعلم أنهم لا يتمنون الموت، فلم يقدر أحد منهم على دفعه، ولا أظهر تمنيه، كان الأمر في ذلك موافقاً لما قال سبحانه .
[وقال تعالى]:

(ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) سورة المجادلة: ٨ .
فأخبر عن ضائرتهم بما في سرائرهم قبل أن يبدو على ألسنتهم، وكان الأمر كما قال سبحانه .

وقال في أبي لهب وهو حي متوقع منه الإيمان والبصيرة والإسلام:
تبت يدا أبي لهب (سورة المسد: ١)
فمات على كفره ولم يصير إلى الإسلام .
وقال تعالى لنبيه (ص):
(إنا كفيناك المستهزئين) سورة الحجر: ٩٥ .

وكلهم يومئذٍ حي عزيز في قومه، فأهلكهم الله أجمعين، وكفاه أمرهم على ما أخبر به .

وأمثال ذلك كثيرة يطول بها الكتاب، وقد ذكرها أهل العلم^(١)، وهذا طرف منها، يدل على معجزة القرآن، وصدق من أتى به (ع) .

دليل على حدوث العالم:

الذي يدلنا على ذلك أنا نرى أجساماً لا تخلو من الأحداث المتعاقبة عليها،

(١) تجد ذلك في أكثر المؤلفات الموضوعة في حياته ومعجزاته وكراماته واعجاز القرآن من الشيعة والسنة على السواء .

ولا يتصور في العقل أنها كانت خالية منها، وهذا يوضح أنها محدثة مثلها،
لشهادة العقل بأن ما لم يوجد عارياً من الحدث فإنه يجب أن يكون مثله محدثاً.

وهذه الحوادث هي: الاجتماع، والإفتراق، والحركة، والسكون، والألوان،
والروائح، والطعوم ونحو ذلك من صفات الأجسام التي تدل على أنها أشياء غير
الجسم [ما نراه] من تعاقبها عليه، وهو مع كل واحدٍ منها. وهذا يقين أيضاً
على حدوثها، لأن الضدين المتعاقبين لا يجوز أن يكونا مجتمعين في الجسم، ولا
يتصور اجتماعهما في العقل، وإنما وجد أحدهما وعدم الآخر، فالذي طرأ ووجد
هو الحدث، لأنه كائن بعد أن لم يكن، والذي انعدم أيضاً محدث، لأنه لو كان
غير محدث لم يجوز أن ينعدم، ولأنه مثله أيضاً قد تجدد وحدث.

والذي يشهد بأن الأجسام لم تخل من هذه الحوادث بداية^(١) العقول وأوائل
العلوم، إذ كان لا يتصور فيها وجود الجسم مع هذه الأمور.

ولو جاز أن يخلو الجسم منها فيما مضى لجاز أن يخلو منها الآن وفيما يستقبل
من الزمان.

والذي يدل على أن حكم الجسم كحكمها في الحدوث، أن الحدث هو الذي
لوجوده أول، والقديم هو المتقدم على كل محدث، وليس لوجوده أول. فلو كان
الجسم قديماً لكان قبل الحوادث كلها، خالياً منها.

وفيما قدمناه من استحالة خلوه منها دلالة على أنه محدث مثلها والحمد
لله.

(١) المراد به البداهة العقلية.

فصل

في الأشعار المأثورة عن أبي طالب بن عبد المطلب (ره)
التي يستدل بها على صحة إيمانه

من ذلك قوله في قصيدته اللامية:
لعمري لقد كلفت جداً بأحمد.
وأحببته حب الحبيب المواصل
وجُدت بنفسي دونه وحيته
ودارأت عنه بالذرا والكلاكل
فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها
وشيئاً لمن عاداه زين المحافل
حليماً رشيداً خازماً غير طائش
يوالي آله الخلق ليس بما حل
فأيّده رب العباد بنصره
وأظهر ديناً حقه غير باطل
لقد علموا ان ابننا لا مكذب
لدينا ولا يُعنى بقل الأباطل^(١)
ومن قطعة ميمية:

ترجون أن نسخى بقتل محمد
ولم تختضب سحر العوالي من الدم
كذبتم وبيت الله حتى تُعرفوا
جاعم تلقى بالحطيم وزمزم

(١) هذه الأبيات من قصيدة طويلة أوردها ابن هشام في السيرة ج ١ ص ٢٨٦ - ٢٩٨ مع اختلاف يسير.

وتقطع أرحام وتنسى حليلة
حليلاً ويفشى محرماً بعد محرم
وينهض قوم في الحديد إليكم.
يذودون عن أحسابهم كل مجرم
على ما أتى من بغيكم وضلالكم
وغشيانكم في أمرنا كل مأت
بظلم نبي جاء يدعو إلى الهدى
وأمر أتى من عند ذي العرش مبرم
فلا تحسبونا مسلميه ومثله
إذا كان في قومٍ فليس بمسلم
وقوله أيضاً:

أخلم بأننا مسلمون محمداً
ولما نقاذف دونه بالمراجع
أصننا حبيباً في البلاد مسوماً
بجرائم رب قاهر للجرائم
يرى الناس برهاناً وهيبَةً
وما جاهل في فعله مثل عالم
نبي أتاه الوحي من عند ربه
فمن قال لا يقرع بها سن نادم
تطيف به جرثومة هاشمية
يذبون عنه كل باغ وظالم
وقوله أيضاً:

ألا أبلغا عني على ذات بينها
لؤياً وخُصّاً من لؤي بني كعب

ألم تعلموا أننا وجدنا محمداً
نبيّاً كموسى خط في أول الكتب^(١)
وإن عليه في العباد محبة
ولا سن فيمن خصه الله بالحب
وقوله أيضاً يحض أخاه حمزة بن عبد المطلب (ره) على اتباع رسول الله
(ص) ونصرته:

فصبراً أبا يعلى على دين أحمد
وكن مظهراً للدين وفقّت صابراً
وحط من أتى بالدين من عند ربه
بصدقٍ وحقٍ ولا تكن حمز كافراً
فقد سرتني إذ قلت أنك مؤمن
فكن لرسول الله في الله ناصراً
وباد^(٢) قريشاً بالذي قد أتته
جهاراً وقل ما كان أحمد ساحراً
وقوله لابنه جعفر وقد أمره بالصلاة مع النبي (ص) وقال: يا بني صل
جناح ابن عمك فلما أجابه قال:

إن عليّاً وجعفرأ ثقتي
عند ملّم الزمان والكرب
والله لا أخذل النبي ولا
يخذله من بئى ذو حسب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما
أخي لأمي من بينهم وأبي
وقوله أيضاً:

(١) في الفصول المختارة هكذا:
ألم تعلموا أننا وجدنا محمداً رسول أمين خط في سالف الكتب

زعمت قريش أن أحمد ساحر
كذبوا ورب الراقات إلى الحرم
ما زلت أعرفه بصدق حديثه
وهو الأمين على الخرائب والحرم
بهتوه، لاسعدوا بقطر بعدها
ومضت مقاتلهم تسير إلى الأمم
وقال في الإقرار بالتوحيد:

ملك الناس ليس له شريك
هو الوهاب والمبدي المعيد
ومن فوق السماء له بحق
ومن تحت السماء له عبيد
وقال أيضاً:

يا شاهد الله عليّ فاشهدِ آمنت بالواحد رب أحمد
من ضل في الدين فإني مهتدي

وهذا كله دليل واضح على إيمانه رضوان الله عليه بالله تعالى وبرسوله
(ص).

ومن الحديث الوارد بصحة إيمانه، ما أخبرني به شيخي أبو عبد الله الحسين
بن عبد الله بن علي المعروف بابن الواسطي رضي الله عنه.

قال: أخبرني أبو محمد هارون بن موسى التلعكبري، قال: أخبرني أبو علي
بن همام، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن محمد القمي الأشعري، قال: حدثني
منجح الخادم مولى بعض الطاهرية بطوس، قال: حدثني أبان بن محمد، قال:
كتبت إلى الإمام الرضا علي بن موسى عليه السلام:
جعلت فداك، قد شككت في إيمان أبي طالب.

قال: فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد فمن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى . إنك إن لم تقر بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار .

وبإسناده إلى أبان بن محمد بن يونس بن نباته عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال :

يا يونس ، ما يقول الناس في إيمان أبي طالب ؟

قلت : جعلت فداك ، يقولون : هو في ضحضاح من نار يغلي منها أم رأسه ، فقال : كذب أعداء الله ، إن أبا طالب من رفقاء النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

ومن ذلك ما حدثنا به الشيخ الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان القمي رضي الله عنه ، قال : حدثني القاضي أبو الحسين محمد بن عثمان بن عبدالله النصيبي في داره ، قال : حدثنا جعفر بن محمد العلوي ، قال : حدثنا عبيدالله بن أحمد ، قال : حدثنا محمد بن زياد ، قال : حدثنا مفضل بن عمر ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه كان جالساً في الرحبة ، والناس حوله ، فقام إليه رجل ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك بالمكان الذي أنزلك الله ، وأبوك معذب في النار ، فقال له :

مه ، فض الله فاك ، والذي بعث محمداً بالحق نبياً ، لو شفع أبي في كل مذنب على وجه الأرض لشفعه الله ، أأبي معذب في النار؟ وابنه قسيم الجنة والنار ، والذي بعث محمداً بالحق ، إن نور أبي طالب يوم القيامة ليطفئ أنوار الخلائق إلا خمسة أنوار ، نور محمد ، ونور فاطمة ، ونور الحسن والحسين ، ونور ولده من الأئمة ، ألا إن نوره من نورنا ، خلقه الله من قبل خلق آدم بألفي عام .

ومن ذلك : ما حدثني به الحسن بن محمد بن علي الصيرفي البغدادي قراءة عليّ من طريق نقل العامة ، قال : حدثني أبو القاسم منصور بن جعفر بن ملاعب قراءة عليّ ، قال : حدثنا أبو عيسى محمد بن داود بن جندل الحلبي ،

قال: أخبرنا علي بن حرب، قال: حدثنا زيد بن الجناح، قال: أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت بن اسحاق، عن عبدالله العباس أنه سأل رسول الله (ص) فقال: ما ترجو لأبي طالب، فقال: كل خير أرجو من ربي عز وجل.

وحدثني أبو الحسن طاهر بن موسى بن جعفر الحسيني، قال: حدثنا أبو القاسم ميمون بن حمزة الحسيني، قال: حدثنا مزاحم بن عبد الوارث البصري، قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أيوب الجوهري، قال: حدثنا العباس بن علي، قال: حدثنا علي بن عبدالله الجرشي، قال: حدثنا جعفر بن عبد الواحد بن جعفر، قال: قال لنا العباس بن الفضل، عن اسحاق بن عيسى بن علي بن عبدالله بن العباس، قال: سمعت أبي يقول: سمعت المهاجر مولى نوفل الياني يقول: سمعت أبا رافع يقول: سمعت أبا طالب يقول: حدثني محمد (ص): إن ربه بعثه بصلة الرحم، وأن يعبد الله وحده، ولا يعبد معه غيره، ومحمد عندي الصادق الأمين.

فصل: من أخبار عبد المطلب رضي الله عنه.

وأخبرني شَيْخِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ الْوَاسِطِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ هَارُونَ بْنُ مُوسَى التَّلْعَكَبَرِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ هَامٍ، وَأَحْمَدُ بْنُ هُوْذَةَ جَمِيعاً، عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جَهْوَ الْقُمِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ مَحْبُوبِ الزَّرَادِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحُجَّاجِ، عَنْ هَارُونَ بْنِ خَارِجَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ آبَائِهِ قَالَ: لما ظهرت الحبشة باليمن، وَجَّهَ يَكْسُومُ مَلِكُ الْحَبْشَةِ بِقَائِدِينَ مِنْ قَوَادِهِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا إِبْرَهَةَ، وَالْآخَرُ رِبَاطُ، فِي عَشْرَةِ مِنْ الْفِيلَةِ، كُلُّ فِيلٍ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ، لَهْدَمَ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامَ، فَلَمَّا صَارُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ وَقَعَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ، وَاخْتَلَفُوا، فَقَتَلَ إِبْرَهَةُ أَرْبَاطُ، وَاسْتَوْلَى عَلَى الْحَبْشِ.

فلما قارب مكة طرد أصحابه عيراً لعبد المطلب بن هاشم. فصار عبد المطلب إلى إبرهه، وكان ترجمان إبرهه والمستولي عليه ابن داية لعبد المطلب، فقال الترجمان لإبرهه:

هذا سيد العرب وديّانها، فأجله وأعظمه . ثم قال لكاتبه: سله ما حاجته؟ فسأله . فقال: إن أصحاب الملك طردوا لي نعماً، فأمر بردها، ثم أقبل على الترجمان، فقال: قل له: عجباً لقوم سودوك، ورأسوك عليهم حيث تسألني في غير لك، وقد جئت لأهدم شرفك ومجديك، ولو سألتني الرجوع عنه لفعلت . فقال: أيها الملك، إن هذه العير لي، وأنا ربها، فسألتك إطلاقها، وإن لهذه البنية رباً يدفع عنها .

قال: فأني غادٍ لهدمها، حتى أنظر ما ذا يفعل . فلما انصرف عبد المطلب رحل إبرهة بجيشه، فإذا هاتف يهتف في السحر الأكبر: يا أهل مكة، أتاكم أهل عكة، بجحفلٍ جرارٍ، يملأ الأندار ملء الجفار^(١)، فعليهم لعنة الجبار، فأنشأ عبد المطلب يقول:

أيها الداعي لقد أسمعتني
كلما قلت وما لي من صمم
إن للبيت لرباً مانعاً
من يرده بأثم يصطلم
رامه تبع^(٢) في أجناده
حمير والحي من آل إرم^(٣)
هلكت بالبغي فيهم جرهم
بعد طسم وجديس وجثم^(٤)
وكذاك الأمر فيمن جاده
ليس أمر الله بالأمر الأمم^(٥)

(١) جفار جمع جفرة وهي سعة في الأرض مستديرة .

(٢) هو من ملوك اليمن

(٣) أي من آل عاد وعليه قوله تعالى: ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد .

(٤) جرهم وطسم وجديس وجثم هي قبائل عربية بائدة .

(٥) الأمم بالتحريك السير .

نحن آل الله فيما قد خلا
 لم يزل ذاك على عهد أبرهم^(١)
 نعرف الله وفينا شيممة
 صلوة الرحم ونوفي بالذمم
 لم يزل لله فينا حجة
 يدفع الله بها عنها النقم^(٢)
 ولننا في كل دور كرة
 نعرف السدين وطوراً في العجم
 فإذا ما بلغ الدور إلى
 منتهى الوقت أتى الطين قدم^(٣)
 بكتاب فصلت آياته
 فيه تبيان أحاديث الأمم^(٤)

فلما أصبح عبد المطلب جمع بينه، وأرسل الحرث ابنه الأكبر إلى أعلى
 جبل أبي قبيس فقال: انظر ما ذا يأتيك من قبل البحر، فرجع فلم ير شيئاً،
 فأرسل واحداً بعد آخر من ولده، فلم يأت أحد منهم عن البحر بخبر، فدعا
 ولده عبد الله، وإنه لغلام حين أيفع وعليه ذؤابة تضرب إلى عجزه، فقال له:
 اذهب - فداك أبي وأمي - فاعل أبا قبيس، وانظر ماذا ترى يجيء من
 البحر، فنزل مسرعاً، فقال: يا سيد النادي، رأيت سحاباً من قبل البحر
 مقبلاً، يسفل تارة، ويرتفع أخرى، إن قلت غيماً قلت، وإن قلت جهاماً^(٥)
 خلته، يرتفع تارة وينحدر أخرى.
 فنادى عبد المطلب: يا معشر قريش، ادخلوا منازلكم، فقد أتاكم الله
 بالنصر من عنده.

(١) أي إبراهيم عليه السلام

(٢) روى هذه الأبيات السعودي في المروج ج ٢ ص ١٢٩ باختلاف في بعضها.

(٣) الأحمر المشيع حرة.

(٤) هذه الأبيات الثلاثة لم يذكرها السعودي.

(٥) هو السحاب الذي لا ماء فيه.

فأقبلت الطير الأبابيل في منقار كل طير حجر، وفي رجليه حجران، فكان الطائر الواحد يقتل ثلاثة من أصحاب إبرة، كان يلقي الحجر في قمة رأس الرجل فيخرج من دبره. (١)

وقد قص الله تبارك وتعالى بتأهم، فقال سبحانه:

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصفٍ مأكول). (٢) السجيل: الصلب من الحجارة. والعصف: ورق الزرع. ومأكول: يعني كأنه أخذ ما فيه من الحب، فأكل وبقي لا حب فيه.

وقيل إن الحجارة كانت إذا وقعت على رؤسهم، وخرجت من أدبارهم، بقيت أجوافهم فارغة خالية، حتى يكون الجسم كقشر الحنطة.

وباسناده عن ابن جمهور رحمه الله، قال حدثني أبي، قال: حدثني علي بن حرب بن محمد بن علي بن حيان بن مازن الطائي، قال: حدثني عمر بن بكر، عن أحمد بن القاسم، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال:

لما ظفر سيف بن ذي يزن، واسمه النعمان بن قيس بالحبة، وذلك بعد مولد رسول الله (ص) بسنتين، أتته وفود العرب، وأشرافها، وشعراؤها، تهنئه، وتمدحه، وتذكر ما كان من حسن بلائه، وطلبه بثأر قومه، فأتاه فيمن أتاه وفد قريش، وفيهم عبد المطلب بن هاشم، وأميمة بن عبد شمس، وعبدالله بن جدعان، وخويلد بن أسد بن عبد العزى، في أناسٍ من وجوه قريش، فقدموا عليه صنعاء (٣) فإذا هو في رأس غمدان، (٤) وهو الذي ذكره أميمة بن

(١) تجد هذه القصة مروية في مجالس الشيخ المفيد باسناده إلى عبدالله بن سنان عن الصادق (ع) مع اختلاف في أسلوبها ص ١٨٤ - ٦٨٦.

(٢) سورة الفيل

(٣) هي إحدى عواصم اليمن القديمة نزلها الأحباش بعد استيلائهم على اليمن، ولا تزال إلى اليوم عاصمة اليمن الكبيرة.

(٤) غمدان أحد القصور الشهيرة في اليمن، وهو في صنعاء وقد بناه اليرش بحضب ٣٥ - ١٥ ق.م. على رواية الهمداني وياقوت وظل باقياً إلى أيام عثمان بن عفان، وكان مؤلفاً من عشرين طبقة، ومما قيل في وصفه.

الصلت^(١) في قصيدته حيث يقول:

اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً
في رأس غمدان داراً منك محلاً^(٢)

فدخل الآذن، فأخبره بمكانهم، فأذن لهم، فدنا عبد المطلب، فاستأذنه في الكلام، فقال: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك، فقد أذنّا لك، فقال عبد المطلب:

إن الله قد أحلك - أيها الملك - محلاً رفيعاً، صعباً، منيعاً، شامخاً باذخاً،

يسمو إلى كبد السماء مصعداً
ومن السحاب معصب بعامة
عشرين سقفاً سمكها لا يقصر
ومن الغمام منطوق ومؤزر
وتلاحكاً بالفطر منه صخرة
والجزع بين صروحه والمرمر

تاريخ العرب قبل الإسلام

(١) هو أبو الصلت عبدالله بن ربيعة بن عوف بن أمية، والبيت هو له لا لابنه أمية على رواية ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء ورواية ابن قتيبة في الشعر والشعراء، ولكن الأصبهاني في الأغاني نسبة إلى ابنه أمية ابن الصلت.

(٢) هو من أبيات أولها:

لا يطلب الوتر إلا كإين ذي يزن
في البحر لجج للأعداء أحوالا
أتى هرقلًا وقد شالت نعمته
فلم يجد عنده القول الذي قال
ثم انتحى نحو كسرى بعد تاسعة
من السنين لقد أبعدت إغلا
حتى أتى بيبي الأحرار يقدمهم
تخالهم فوق متن الأرض أجيالا

ومنها

من مثل كسرى وسابور الجنود له
أو مثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً
في رأس غمدان داراً منك محلاً

أثبتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومته، وثبت أصله، وسبق^(١) فرعه،
أكرم موطن، وأطيب معدن.

وأنت - أبيت اللعن - ملك العرب وربيعها الذي به نخصب، ورأس
العرب الذي إليه تنقاد، وعمودها الذي عليه العباد، ومعقلها الذي يلجأ إليه
العباد.

سلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف، فلم يحمل من هم سلفه، ولن
يهلك من أنت خلفه.

نحن - أيها الملك - أهل حرم الله، وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي ابهجنا
لكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهئة، لا وفد المرزئة.^(٢)

فقال سيف: وأيهم أنت أيها المتكلم؟

قال: أنا عبد المطلب بن هاشم، قال: ابن اختنا؟ قال: نعم، قال: ادن،
فدنا.

ثم أقبل عليه وعلى القوم، فقال: مرحباً وأهلاً، وناقة ورحلاً، ومستناخاً
سهلاً، وملكاً نحلاً، يعني يعطي عطاءً جزيلاً، قد سمع الملك مقاتلكم، وعرف
قرابتكم، وقيل وسيلتكم، فإنتم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما أقمت،
والحباء إذا ظعنتم.

ثم نهضوا إلى دار الضيافة والوفود، وأقاموا بها شهراً، لا يصلون إليه، ولا
يؤذن لهم في الإنصراف.

ثم انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب: أي مفض إليك من سر
علمي ما لو يكون غيرك لم أبح به، ولكني رأيتك معدنه، فأطلعتك طلعة،^(٣)
فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره.

(١) هكذا في النسخة ولعل الأصل سقم بمعنى ارتفع أو امتد أو الأصل بسق.

(٢) في النسخة (الترزية). والتصحيح عن الأعاني.

(٣) عن نهاية ابن الأثير: أطلعتك طلعة أي أعلمتك.

إني أجد في الكتاب المكنون، والعلم المخزون، الذي اخترناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خيراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاة، وللناس عامة، ولرهطك كافة، ولك خاصة.

فقال عبد المطلب: مثلك - أيها الملك - سرّ وبرّ، فما هو؟ فذاك أهل الوبر زمراً بعد زمر.

قال: إذا ولد بتهامة، غلام بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الدعامة، إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أبيت اللعن، لقد أبت بخير ما آب به وافد، لولاهيبة الملك وإجلاله لسألت [من بشارته] (١) إياي ما أزداد به سروراً.

قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه، أو قد ولد، اسمه محمد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه. قد ولدناه مراراً، والله باعثه جهاراً، وجاعل له منا أنصاراً، يعزهم أوليائوه، ويذل بهم أعداؤه، يضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح به كرائم الأرض، يكسر الأوثان، ويخمد النيران، ويعبد الرحمان، ويدحر الشيطان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر المعروف ويفعله، وينهي عن المنكر ويبطله.

قال عبد المطلب: أيها الملك، عز جدك، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك، فهل الملك ساري بأفصاح، فقد أوضح بعض الإيضاح؟

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحجب، والعلامات على النصب، إنك يا عبد المطلب لجده غير الكذب.

فخر عبد المطلب ساجداً، فقال: ارفع رأسك، وثلج صدرك وعلا أمرك، فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك؟

فقال: أيها الملك، كان لي ولد، وكنت به معجباً، وعليه شقيقاً، فزوجته

(١) في النسخة من سارة، وصحناه عن اعلام النبوة للهاوردي، وفي رواية الأغاني: أن يزيدني من البشارة.

كريمة من كرائم قومي، آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فجاءت بغلام، وسميته محمداً، مات أبوه وأمه، فكفلته أنا وعمه، بين كتفيه شامة، وكل ما ذكرت من علامة.

قال ابن ذي يزن، إن الذي قلت لك لكما قلت، فاحتفظ بابنك، واحذر عليه اليهود، فانهم أعداء له، ولن يجعل الله لهم عليه سيلاً، واطو ما قلت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تدخلهم النفاسة من أن تكون لك الرئاسة، فيطلبوا لك الغوائل، وينصبوا لك الحبائل، وهم فاعلون لو أنبئهم، ولولا إني أعلم أن الموت محتاجي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير يثرب دار ملكي، فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم الباسق، أن يثرب استحكام أمره، وأهل نصره، وموضع قبره، ولولا أني أقيه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنت على حداثة سنه أمره، ولأوطأت أسنان العرب عقبه، لكنني صارف ذلك إليك، عن غير تقصير لمن معك، فعليه مني التحية والسلام.

ثم أمر لكل واحدٍ منهم بعشرة أعبد وعشر إماء، وبمائة من الإبل، وخمس البرود، وخمسة أرطال من الذهب، وعشرة أرطال فضة، وكرش مملوء عنبراً.

وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحول فاتي فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول: يا معشر قريش، لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك، وإن كثر، فإنه إلى نفاق، ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبتي من بعدي ذكره، وفخره، وشرفه. فإذا قيل له: وما ذلك؟ قال: سيُعلم ما أقول ولو بعد حين. (١)

(١) وهكذا ذكر الماوردي في إعلام النبوة قصة وفود عبد المطلب على سيف رواها بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس وتجددها في الأغاني ج ١٦ ص ١٤٦ - ١٤٨. ورواها الطبرسي في إعلام الوري ص ٢٤ - ٢٦ وقال روى هذا الحديث أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في دلائل النبوة من طريقين.

وفي ذلك يقول أمية بن عبد شمس:

جلبنا النصح تحمله المطايا
على أكوار أجمالٍ ونوق
مغلغلة مراقعها تعالى
إلى صنعاء من فج عميق
تؤم^(١) بنا ابن ذي يزن ومعرى
ذوات بطونها أم الطريق
وترعى عن مخايله يروقا
مواصلة الوميض إلى بروق
فلما وافقت صنعاء حلت
بدار الملك والحسب العريق^(٢)

وروي أنه قيل لأكثم بن صيفي، وكان حكيم العرب: إنك لأعلم أهل زمانك، وأحكمهم، وأعقلهم، وأحلمهم، فقال:

وكيف لا أكون كذلك، وقد جالست أبا طالب^(٣) بن عبد المطلب دهره،
وهاشماً دهره، وعبد مناف دهره، وقصياً دهره، وكل هؤلاء سادات أبناء
سادات، فتخلقت بأخلاقهم، وتعلمت من حلمهم، واقتفيت سؤددهم، واتبعت
آثارهم. وكان أكثم بن صيفي من المعمرين.^(٤)

(١) في النسخة (ترم) والتصحيح عن الأغاني

(٢) هذه الأبيات موجودة في الأغاني ج ١٦ ص ١٤٨ وتجد قصة دخول عبد المطلب على سيف ابن

ذي يزن في أمالي الصدوق ص ١٧٤ - ١٧٨ وأنظر: إعلام الوری ص ٢٦ - ٢٧.

(٣) قد يكون هنا سقط وهو قد جالست أبا طالب دهره وعبد المطلب دهره.

(٤) كما يأتي ذلك في بعض فصول هذا الكتاب.

خبر رؤيا ربيعة بن نصر اللخمي^(١) ملك اليمن التي تأولها سطيح وشق

ذكر الرواة من أهل العلم أن ربيعة بن نصر رأى رؤياً هالته، وفضع بها، فلما رآها بعث في أهل مملكته، فلم يدع كاهناً، ولا ساحراً، ولا قائضاً، ولا منجماً إلا أحضره إليه، فلما جمعهم قال لهم: إني قد رأيت رؤياً هالتي، وفضعت بها، فأخبروني بتأويلها، قالوا: اقصصها علينا لنخبرك بتأويلها، قال: إنه لا يعرف تأويلها إلا من يعرفها قبل أن أخبره بها.

فلما قال لهم ذلك قال رجل من القوم: إن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطيح وشق، فإنه ليس أحد أعلم منها، فها يخبرانك بما سألت.

فلما قيل له ذلك بعث إليها، فقدم عليه سطيح قبل شق، ولم يكن مثلها من الكهان، فلما قدم عليه دعاه، فقال له: يا سطيح، إني قد رأيت رؤياً، هالتي، وفضعت بها، فأخبرني بها، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها، قال أفعل: رأيت جمجمة خرجت من ظلمة، فوقعت بأرض تهمة، فأكلت منها كل ذات جمجمة.

قال له الملك: ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح، فما عندك في تأويلها؟ فقال: أحلف بما بين الحرمين من خش ليهبطن أرضكم الحبش، فلتملك ما بين أبين إلى جرش.

قال له الملك: وأبيك يا سطيح، إن هذا لنا لغائظ موجد، فمتى هو كائن يا سطيح، أفي زمني أم بعده؟

قال: لا، بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين، يمضين من السنين، ثم يقبلون^(٢) بها أجمعون، ويخرجون منها هاربين.

(١) هو جد النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر.

(٢) في سيرة ابن هشام: ثم يقتلون.

قال الملك: من ذا الذي يلي ذلك من قبلكم وإخراجهم؟
قال: يليه إرم ابن ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك منهم أحداً باليمن.

قال: أفيدوم ذلك من سلطانه أو ينقطع؟

قال: بل ينقطع.

قال: ومن يقطعه؟ قال نبي زكي، يأتيه الوحي من قبل العلي.

قال: ومن هذا النبي؟ قال: من ولد غالب بن فهر بن مالك ابن النضر، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر.

قال: وهل للدهر يا سطيح من آخر؟

قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، ويسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون.

قال: أحق ما تخبرنا يا سطيح؟ قال نعم والشفق، والليل إذا اتسق، إن ما أنبأتك به لحق.

فلما فرغ قدم عليه شق، فقال له يا شق إني رأيت رؤياً هالتي، وفطعت بها، فأخبرني عنها، فأنك إن أصبتها أصبت تأويلها، كما قال السطيح، وقد كتبه ما قال السطيح، لينظر أيتفقان أم يختلفان.

قال: نعم، رأيت جمجمة خرجت من ظلمة، فوقعت بين روضة وأكمة، فأكلت منها كل ذات نسمة.

قال له الملك: ما أخطأت منها، فما عندك في تأويلها؟

قال: أحلف بما بين الحرمين من إنسان، لينزلن أرضكم الحبشان، فليغلبن على كل طفلة البنان، وليملكن ما بين أبين إلى نجران.

فقال له الملك: وأبيك إن هذا لنا لغائظ موجه، فمتى [هو] كائن؟ أفي زمني أم بعده؟

قال: بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم الشأن، ويذيقهم أشد الهوان.

قال: ومن هذا العظيم الشأن؟

قال: غلام، ليس بدني ولا مُدِّنٍ، يخرج من بيت ذي وزن.

قال: فهل يدوم سلطانه أو ينقطع؟

قال: بل ينقطع برسول مرسل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل.

قال: وما يوم الفصل؟

قال: يسمع منها الأحياء والأموات، ويجمع فيه الناس للميقات، يكون لمن اتقى الفوز والخيرات.

قال: أحق ما تقول يا شق؟

قال: إي ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أبنأتك لحق ما فيه أمض.^(١)

دليل في تثبيت الصانع

حكى عن ابراهيم النظام قال:

الدليل على ذلك، أنا رأينا أشياء متضادة، من شأنها التنافي والتباين والتفاسد مجموعة، وهي الحرارة والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، المجتمعة في كل حيوان، وفي أكثر سائر الأجسام، فعلمنا أن جامعها أقسرهما على الاجتماع. ولولا ذلك لتباينت وتفاسدت.

قال: ولو جاز أن تجتمع المتضادات المتنافرات، وتتقاوم من غير جامع جمعها، لجاز أن يجتمع الماء والنار، ويتقاوما من ذاتها بغير جامع مدبرٍ مقيم يقيمهما، وهذا محال لا يثوهم.

(١) قال ابن هشام: أمض يعني شكاً، وقال أبو عمرو أمض أي باطل وتجد قصة هذه الرؤيا في سيرة ابن هشام ج ١ ص ١١ - ١٣.

قال: وفي اجتماعها دليل على حدوثها، لأنها لا يجوز عليها الإنفراد، فإذا كانت لا توجد إلا مجتمعة، وبطل أن توجد كذلك إلا بجمع جمعها، صح أنه قبلها، وأنها لم توجد إلا حين ابتدئها مجتمعة، ولو وجدت قبل ذلك لم توجد إلا على أحد وجهين، أما أن يكون كل واحدٍ منها منفرداً، وهذا محال، أو تكون مجتمعة لا جامع لها، وهذا أيضاً محال.

فقد صح أنها ابتدعت، وأن الذي جمعها كان موجوداً قبلها لم يزل.

مسألة على نفاة الحقائق^(١)

[و] هم الذين يقولون المذاهب باطلة كلها، وأنه لاحق بشيء منها.

فيقال لهم: أخبرونا عن مذهبكم هذا، أحق هو أم باطل؟

(١) هم من فرق الفلسفة السوفسطائية «الحكمة المجهوه» ويقولون إنه لا حقائق واقعاً، لأن الطريق إلى إدراكها هي الحواس الظاهرة الخمسة، وقد تخطى، ومع احتمال خطئها فلا يمكن الجزم بشيء مما تؤديه، فالجهاز البصري قد نرى به ما ليس بواقع واقعاً، والحاسة الذوقية قد تخدعنا أحياناً، فالمرضى بالحمى يجد الحلوى مرّاً، والحاسة السمعية قد تخدعنا أيضاً فتسمعنا أصواتاً غير واقعية، وحاسة الشم قد تخطيء أيضاً عند اختلاها، وتعطينا رائحة غير واقعية، وأنه يكفي للشك فيما تؤديه هذه الحواس ولو مرة واحدة.

وتقول هذه الفلسفة إنه لا حقائق للأشياء، وإنما هي أوهام عارضة، لأن ما نشاهده يجوز أن يكون على ما نشاهده أو نسمعه أو نبصره أو نشمه، كما يجوز أن لا يكون كذلك.

ومن مذاهب هذه الفلسفة، المذهب اللأدري، القائم على نفي العلم بالحقائق، وهم يشبتون الحقائق في نفس الواقع ولكنهم ينفون العلم بها، ويقولون لا ندري.

ومذهب آخر منها يسمى المذهب العندي، ويقوم على نفي حقائق للأشياء في واقعها، وإنما واقعها عند معتقديها فقط، فليس لها حقيقة واحدة في نفس الأمر، بل حقيقتها عند كل قوم على حسب اعتقادهم.

ويبدو أن هذا المذهب هو الأساس للفلسفة المثالية التي نادى بها (بركلي) القائلة بأنه لا واقع خارج الذهن والوعي، وأن الحقائق ليست إلا انعكاسات لوعي الإنسان، وليست أشياء مستقلة خارجة عن هذا الوعي.

فإن قالوا هو حق، قيل لهم: فقد ناقضتم وأوجبتم أن في المذاهب حقاً من حيث نفيتم ذلك.

وإن قالوا: ليس مذهبنا حقاً، وهو باطل، قيل لهم: فإذا بطل قولكم أنه لا حق في شيء من المذاهب، فقد صح أن فيها حقاً.

مسألة على مبطلي النظر وحجج العقل

يقال لهم: أبينظري أفسدت النظر أم بالحواس، أم بالخبر؟ وبعقل أفسدت حجة العقل أم بغير عقل؟

فإن قلتم: أفسدنا النظر بنظر، فقد ناقضتم ورجعتم إلى ما أعيتكم، وصححت النظر من حيث رمت إفساده.

وإن قلتم بالحواس، قلنا: حواسنا كحواسنا، وعلوم الحواس لا تختلف فيها، فما بالناس لا نعلم من ذلك ما علمتم؟

وإن قلتم بخبر، فبأي شيء فصلتم بين هذا الخبر وبين ضده من الإخبار، إلا بالعقل والنظر.

فإن قلتم السؤال، فقالوا: أبينظر صححت النظر أم بحس أم بخبر؟ وبعقل أوجبتم حجة العقل أم بغير عقل، أو قلتم بالحواس علمنا ذلك؟

قلنا لكم: حواسنا كحواسكم، وعلوم الحواس ليس فيها اختلاف، فما بالناس لا نعلم من صحة أمر النظر والعقل ما علمتم؟

وإن قلتم بالخبر [فقد جعلتم الخبر عياراً^(١) على العقل، وليس هذا قولكم.

وإن قلتم: عرفنا صحة النظر والعقل [بالنظر والعقل]، جاز لنا أن نزعم أنا عرفنا صحة الخبر بالخبر.

فالجواب: أن يقال لهم: أنا عرفنا صحة النظر والعقل بالنظر والعقل، وليس يصح لكم مثل ذلك في الخبر، لأنكم إن كنتم عرفتم صحة الخبر. [بـ]

(١) أي معيار يقاس به.

نفسه ، فيجب أن يكون كل من طرقه الخبر علم صحته ، حتى لا يوجد الخلف فيه ، ولسنا نجد ذلك^(١) وإن قلتم: علمنا صحة الخبر بخبر آخر ، فهذا يؤدبكم إلى ما لا يتناهى^(٢).

فإن قالوا: فأنتم إذا عرفتم صحة النظر والعقل بنظرٍ وعقل ، فقد وجب أن يؤدبكم هذا أيضاً إلى ما لا يتناهى .

قيل لهم: إنا لا نزعم أننا عرفنا صحة النظر والعقل بنظرٍ وعقل غيرها ، بل نعرف صحتها بها .

وذلك: أننا نعرف بها أن كل نظري لزم صاحبه السنن والترتيب ، ولم يل به هواه ، ولا إلفه وعصبيته ، فهو صحيح ، وكل علم بني على ما في بداية العقول فغير فاسد ، فيكون هذا النظر نفسه داخلاً فيما شهد بصحته إن كان حكمه ذلك .

(فصل: ما جاء في الحديث في العقل)

أخبرني شيخي أبو عبدالله الحسين بن عبدالله بن علي المعروف بابن الواسطي رضي الله عنه ، قال: أخبرني أبو محمد هارون بن موسى التلعكبري ، قال: أخبرني أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني ، عن علي بن ابراهيم ، عن أبيه ، عن النوفلي ، عن السكوني ، عن الإمام الصادق أبي عبدالله جعفر بن محمد عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص).

(١) وخلاصة ذلك أن العلم بصحة الخبر من لوازم ذات الخبر نفسه فينبغي أن لا يختلف اثنان في صحته ، وهو خلاف الواقع على أن هذا من الدور الباطل لتوقف الشيء على نفسه .

(٢) الأولى في الجواب أن يقال أن العلم أو النظر لا يد لإثبات صحته من سبب صحيح معلوم ، ولا يمكن أن يكون بديهياً دائماً وإلا لما جهل ولما وقع الخلاف فيه ، ولا يكون كسبياً نظرياً دائماً لأنه هو نفسه محتاج إلى سبب صحيح مثبت له أيضاً فإن استند إلى كسبي مثله وذهب إلى ما لا نهاية لزم التسلسل وإن رجع لزم الدور ، بل لا بد أن يستند إلى ما هو بديهي بنفسه ومن هنا قيل إن ما بالعرض لا بد أن ينتهي إلى ما بالذات .

إذا بلغكم عن رجل حسن حال، فانظروا إلى حسن عقله، فإنما يجازي بعقله.

وبإسناده عن الكليني، عن أحمد بن محمد، عن بعض من رفعه إلى أبي عبدالله (ع) أنه قال: قال رسول الله (ص):

إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة، كثير الصيام، فلا تباهوا به حتى تنظروا عقله.

وبإسناده عن الكليني عن علي بن محمد، عن سهل بن زياد عن إسماعيل بن مهران عن بعض رجاله عن أبي عبدالله (ع) أنه قال: العقل دليل المؤمن.

(فصل: من كلام أمير المؤمنين (ص) في العقل)

لا عدة أنفع من العقل، ولا عدو أضر من الجهل.
زينة الرجل عقله.

من صحب جاهلاً نقص من عقله.

التثبت رأس العقل، والحدة رأس الحمق.

غضب الجاهل في قوله، وغضب العاقل في فعله.

الأدب صورة العقل، فحسّن عقلك كيف شئت.

العقول مواهب، والآداب مكاسب.

فساد الأخلاق معاشره السفهاء، وصلاح الأخلاق معاشره العقلاء.

قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل، والعاقل من وعظته التجارب.

رسولك ترجمان عقلك.

لا تأوي من لا عقل له، فيكثر ضررك.

ظن الرجل قطعة من عقله.

من ترك الاستماع من ذوي العقول مات عقله.

من جانب هواه صح عقله.

من أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل .
إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله .
من لم يكن أكثر ما فيه عقله ، كان بأكثر ما فيه قتله .
لا جمال أزين من العقل .
عجباً للعاقل كيف ينظر إلى شهوة ، يعقبه النظر إليها حسرة .
همة [العاقل] ^(١) ترك الذنوب ، واصلاح العيوب .
الجمال في اللسان ، والكمال في العقل .
لا يزال العقل والحمق يتغالبان على الرجل إلى ثماني عشرة سنة ، فإذا بلغها
غلب عليه أكثرهما فيه .
ليس على العاقل اعتراض المقادير ، إنما عليه وضع الشيء في حقه .
العقول أئمة الأفكار ، والأفكار أئمة القلوب ، والقلوب أئمة الحواس ،
والحواس أئمة الأعضاء .

(فصل: من الاستدلال على صحة نبوة رسول الله (ص).)

إعلم - أيدك الله - أن المتمحلين من الكفار في إيطال نبوة بيننا عليه وعلى
آله السلام قد أداهم الحرص في الإنكار إلى وجوب الإذعان والإقرار ، وساقهم
الخير والقضاء إلى لزوم التسليم والرضا ، فلا خلاص لهم من ثبوت الحجة عليهم
وهم راغمون ، ولا محيص لهم من وجوب تصديقه وهم صاغرون .
وذلك أنهم لم يجدوا طريقاً يسلكونها في إنكار حقه من النبوة ، والدفع لما
أتى به من الرسالة ، إلا بأن أقروا له ببلوغه من كل درجة في الفضل منيفة ،
ومرتبة في الكمال والعقل شريفة ، ما قد قصر عنه جميع خلق الله . وبدون ذلك
تجب له الرياسة والتقدم على الكافة ، ولا يجوز أن يتوجه إليه ساقط الظنة من
قبل التهمة ، لمنافاتها لما أقروا به في موجب العقل والحكم .

(١) في النسخة (العقل)

وبيان ذلك أنهم إذا سمعوا القرآن الوارد على يده الذي قد جعله علماً على صدقه، ورأوا قصور العرب عن معارضته، وعجزهم عن الإتيان بمثله، قالوا: أنه كان قد فاق جميع البلغاء في البلاغة، وزاد على سائر الفصحاء في الفصاحة، قصر عن مساواته في ذلك الناس كافة، ففضلوه بهذا على الخلق أجمعين، وقدموه على العالمين.

فإذا تأملوا ما في القرآن من أخبار الماضين والذاكرين، وأعاجيب السالفين، وذكر شرائع الأنبياء المتقدمين، قالوا: قد كان أعرف عباد الله بأخبار الناس، وأعلمهم بجميع ما حدث، وكان في سالف الأزمان قد أحاط بنبأ الغابرين وحفظ جميع علوم الماضين، ففضلوه بهذه الرتبة على الخلق أجمعين، وأوجبوا له التقدم على العالمين.

فإذا رأوا ما تضمنه القرآن من عجيب الفقه والدين وبدائع عبادات المكلفين، وترتيب الفرائض وانتظامها، وحدود الشريعة وأحكامها، قالوا قد كان أحكم أهل زمانه وأفضلهم، وأبصرهم بأنواع الحكم، وأعلمهم، ولم يكن خلق في ذلك يساويه، ولا بشر يدانيه، ففضلوه بذلك أيضاً على الخلق أجمعين، وأوجبوا له التقدم على العالمين.

فإذا علموا ما في القرآن من الإخبار بالغائبات، وتقديم الإعلام بمستقبل الكائنات، وسمعوا ما تواترت به الأخبار من إنبائه لكثير من الناس بما في نفوسهم، وإظهاره في الأوقات لمغيب مستورهم، قالوا: قد كان أعرف الناس بأحكام النجوم، وأبصرهم بما تدل عليه في مستأنف الأمور، وإن لم يظهر معرفته بها لأمته، ونهاهم عن الاطلاع فيها لينتظم له حال نبوته، وأنه كان معولاً عليها، مستنداً في أموره إليها، قوله لا يخرم، وإخباره بالشيء لا يختلف، يعلم الحوادث والضمائر، ويطلع على الخبايا والسرائر، ولا يخفي عليه أوقات المساعد...^(١)، ولم يكن أحد يعثره^(٢) في ذلك، ففضلوه بهذا أيضاً على الخلق أجمعين، وأوجبوا له التقدم على العالمين.

(١) هنا كلمة غير واضحة.

(٢) هكذا في النسخة وهي غير واضحة المعنى.

فإذا قيل لهم: فما تقولون في المآثور من معجزاته، والمنقول من جرائحه^(١) وآياته الخارقة للعادة، التي أقام بها الحجة، قال المسلمون منهم لذلك، المتعاطون لإخراج معناه: كان أعرف الناس بخواص الموجودات، وأسرار طبائع الحيوان والحوادث، فيظهر من ذلك للناس ما يتحير له من رآه، لقصوره عن إدراك سببه ومعناه، ففضلوه بهذا أيضاً على الخلق أجمعين، وأوجبوا له التقدم على العالمين.

وقد سمعنا في بعض الأحاديث أن أحد السحرة قال لموسى عليه السلام: إن هذه العصا من طبيعتها أن تسعى إذا أُلقيت، وتشكل حيواناً إذا رميت، [و] خاصية لها بسبب فيها.

فقال له موسى على نبينا وعليه السلام: فخذها أنت وارمها، قالوا: فأخذها الساحر، ورمها، فما تغيرت عن حالها، فأخذها موسى ورمها، فصارت حية تسعى.

فقال الساحر: ليس السر في العصا، وإنما السر فيما ألقاها. آمنت بآله موسى.

أفترى لو أخذ أحد المشركين الحصا الذي سبح في كف رسول الله (ص)، فتركه في يده، أكان يسبح أيضاً فيها؟ أم ترى أحدهم لو أشار بيده إلى الشجرة التي أشار إليها رسول الله (ص) فأنت، لكانت تأتيه أيضاً إذا أوما إليها؟ وأن هذه الأشياء تفعل بالطبع كما يفعل حجر المغناطيس في الحديد الجذب؟ كلا: والحمد لله ما يتصور هذا عاقل، فإذا نظر وأحسن تمام النظر أمر رسول الله (ص)، وانتظام مراده الذي قصده، وأنه نشأ بين قوم يتجاذبون العز والمنعة، ويتنافسون في التقدمة والرفعة، ويأنفون من العار والشنعة، ولا يعطون لأحد إمرة ولا طاعة، فلم يزل بهم حتى قادهم إلى أمره، وساقهم إلى طاعته، واستعبدهم^(٢) بما لم يكونوا عرفوه، وأمرهم بهجران ما ألفوه، إلى أن

(١) كذا في النسخة.

(٢) أي تعبدتهم.

صاروا يبذلون أنفسهم دون نفسه، ويسلمون لقوله، ويأتمون لأمره، من غير أن كان له ملك خافوه، ولا مال أملوه، تفتح له البلاد، وأذن له ملوك العباد، ونفذ أمره في الأنفس والأموال، والحلائل والأولاد.

قالوا: إنما تم له ذلك، لأنه فاق العالمين بكمال عقله، وحسن تدييره ورأيه، ولم يكن ذلك في أحدٍ غيره، ففضلوه بهذا أيضاً على الخلق أجمعين، وأوجبوا له التقدم على العالمين.

فإذا سمعوا المشتهر من عدله ونصفته، وحسن سيرته في أمته ورعيته، وأنه كان لا يكلف أحداً شيئاً في ماله، وإذا حصلت المغام فرقها في أمته، وقنع في عيشه بدون كفايته. هذا مع سخاوته وكرمه، وإيثاره على نفسه، ووفائه بوعده، وصدق لهجته، واشتهاره منذ كان بأمانته، وشريف طريقته، وحسن عفوه ومسامحته، وجميل صبره وحلمه، قالوا: كان أزهد الناس وأعلاهم قدراً في العدل والإنصاف، ولا طريق إلى إنكار إحاطته بالفضائل الكرام، والمناقب [العظام]، ففضلوه في جميع هذه الأمور على الخلق أجمعين، وأوجبوا له التقدم على العالمين.

فإذا قيل لهم: فهذه العلوم العظيمة متى أدركها؟ وفي أي زمان جمعها وتلقطها؟ وأي قلب يعيها ويحفظها؟ وهل رأى بشر قط [من] يحيط بجميع الفضائل، ويتقدم العالمين كافة في جميع المناقب، ويكون أوحدهم الخلق في كمال العقل والتمييز، وثاقب الرأي والتدبير؟ مع نزاهة النفس و[صفائها]^(١)، وجلالها وشرفها، وزهداها وفضلها، وجودها وبذلها.

قالوا: كانت له سعادات فلكية، وعطايا نجومية، فاق بها على جميع البرية. قيل لهم: فمن يكون بهذا الوصف العظيم، والمحل الجليل، كيف يستجيز عاقل مخالفته، أو يسوغ له مباينته؟؟ ومن يقتدى أفضل منه؟ ومتى يكون مصيباً في الإنصاف عنه؟

(١) في النسخة وصلفها.

بل كيف لا يرضى بعقل أعقل [الناس]، ويؤخذ العلم من أعلم الناس،
ويقتبس الحكمة من أحكم الناس؟

وما الفرق بينكم في قولكم إن هذه العطايا التي حصلت له إنما كانت فلكية
ونجومية، وبيننا إذا قلنا آلهية ربانية؟

وبعدُ فكيف يستجيز من يكون بهذا العقل الكامل، والفضل الشامل،
والورع الظاهر، والزهد الباهر، والشرف العريق، واللسان الصدوق، أن
يكذب على خالق السموات والأرضين، فيقول للناس: أنا رسول رب العالمين،
ويدعي هذا المقام الجليل، ويكون بخلاف ما يقول؟

وكيف تلائم صفاته التي سلمتموها لهذه الحال التي أدعتموها؟

فدعوا المناقضة والمكابرة، وأثبتوا على ما أقررتم به في المناظرة، فكلامكم
لازم لكم، وقولكم حجة لكم عليكم، قد أقررتم بالحق وأنتم راغمون، والتجأتم إلى
ما هربتم منه وأنتم صاغرون.

وأعلموا أن من باين المسعود كان منحوساً، ومن خالف العاقل العالم كان
جاهلاً غيباً، ومن كذب الصادق كان هو في الحقيقة كاذباً. والحمد لله مقيم
الحجة على من أنكرها، وموضح الحجة لمن أثرها.

**فصل: مما في التوراة يتضمن البشارة نبينا (ص) وبأتمته
المؤمنين.**

في التوراة مكتوب «إذا جاءت الأمة الأخيرة، تتبع راكب البعير،
يسبحون الرب تسبيحاً جديداً، في الكنائس الجدد، فليفرح بنو إسرائيل،
ويسيروا إلى صهيون، ولتطمئن قلوبهم، لأن الله اصطفى منهم في الأيام الأخيرة
أُمماً جديدة، يسبحون الله بأصوات عالية، بأيديهم ذات شفرتين،
فينتقمون لله من الأمم الكافرة في جميع أقطار الأرض.

فمن ترى راكب البعير غير رسول الله (ص)؟ ومن الأمم الأخيرة المسبحة
تسبيحاً جديداً غير أتمته؟

ومن الذين أتوا وفي أيديهم السيوف غير ناصريه والمتبعين لدعوته؟
وفي التوراة أيضاً مكتوب في السفر الخامس:
«الرب ظهر فتجلى على سنين، وأشرف على جبل ساعير، وأشرف من
جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، من يمينه نار، شريعة لهم.»^(١)
وجبال فاران جبال مكة، وظهور الرب إنما هو ظهور أمره.

فصل في الإنجيل

وفي الإنجيل اليوم مكتوب:
«ابن البشر ذاهب، والفار قليط أتى من بعده، وهو الذي يجلي لكم
الأسرار، ويعيش لكم كل شيء، وهو يشهد لي كما شهدت له، فأني أنا جئتكم
بالأمثال، وهو يأتيكم بالتأويل.»
ومن قول شعيا النبي (ع):
«قال لي آله إسرائيل: أقم على المنظرة فانظر ماذا ترى؟ فإذا رأيت
راكبين يسيرون، أضاءت لهما الأرض، أحدهما على حمار، والآخر على جمل،
فقال: ويل لبابل، كل صنم بها يكسر ويضرب به الأرض.»
ومن قول يوشع النبي (ع):
«رأيت راكبين يسيرون، أضاءت لهما الأرض، أحدهما على حمار، والآخر
على جمل.»
فراكب الحمار عيسى (ع) وراكب الجمل محمد (ص).
ومن قول دانيال النبي (ع):
«جاء الله بالبيان من جبل فاران، وامتلت السموات والأرض من تسبيح
محمد وأُمته»

(١) سفر التثنية ٣٣: ١-٣ باختلاف في بعض ألفاظه حسب الترجمة أنظر: إظهار الحق للهندي
هامش المعلق ص ٥١٧.

وقال أيضاً:

«يأتينا كتاب جديد بعد خراب بيت المقدس» فما الكتاب الجديد إلا القرآن.

ومن قول داود (ع):

«اللهم ابعث إلينا مقيم السنة بعد الفترة»
فمن أقامها غير رسول الله (ص)؟

ومن ذلك تأويل دانيال لرؤيا بخت نصر ملك بابل حيث قال:

رأيت في المنام صنماً، رأسه من ذهب، وصدره وذراعاؤه من فضة، بطنه وفخذه من نحاس، وركبته وساقاه من حديد وفيه خلط قليل من فخار.

ثم رأيت بعد ذلك حجراً انقطع من جبل عظيم بغير يد إنسان، فضرب ذلك الصنم الذي فيه الصور الكثيرة، فكسره، ثم جعله مثل الرماد في يوم ريح، ثم عظم الحجر بعد ذلك، حتى رأيت الأرض قد امتلأت منه.

فقال له دانيال:

أما الصنم الذي فيه الصور الكثيرة فهم الملوك الذين مضوا في سائر الأحقاب، والذين يكونون على مر الأيام.

وأما الحجر الذي يجيء في آخر الزمان خاتم الأنبياء وأما امتلاء الأرض منه فهم الذين يتبعونه ويؤمنون به. (١)

فصل: من أخبار الواقدين على رسول الله (ص) للإسلام وما رأوه قبل قدومهم من الإعلام وما شاهدوه من أحوال الأصنام.

فمن ذلك خبر أهبان بن أنس الأسلمي.

روى أن ذنباً شَدَّ على غنم لإهبان بن أنس، فأخذ منها شاةً، فصاح به

(١) انظر: إظهار الحق ص ٥٣٠ البشارة الحادية عشرة في الأصحاح الثاني من سفر دانيال مع اختلاف حسب الترجمة.

فخلَّاهَا، ثم نطق الذئب فقال إهبان: سبحان الله، ذئب يتكلم؟ فقال الذئب: أعجب من كلامي، أن محمداً يدعو الناس إلى التوحيد بيثرب، ولا يجاب. فساق إهبان غنمه وأتى المدينة فأخبر رسول الله (ص) بما رآه، فقال خذ هذه غنمي طعمة لأصحابك.

فقال: أمسك عليك غنمك، فقال: لا والله، لا أسرحها أبداً بعد يومي هذا.

فقال: اللهم بارك عليه، وبارك له في طعمته، فأخذها أهل المدينة، فلم يبق في المدينة بيت إلا أناله منها.^(١)

وخبر ذباب:

ذكروا أنه كان لسعد العشيرة صنم، يقال له فراص، وكانوا يعظمونه، وكان سادنه رجل من بني أنس الله بن سعد العشيرة يقال له ابن وقشة، فحدث رجل من بني أنس الله يقال له ذباب بن الحرث بن عمرو، قال: كان لابن وقشة ربيٌّ من الجن، يخبر بما يكون، فأتاه ذات يوم، فأخبره، قال فنظر إلي وقال: يا ذباب، اسمع العجب العجيب، بعث أحمد بالكتاب، يدعو بمكة لا يجاب.

قال فقلت: ما هذا الذي تقول؟

قال: ما أدري، هكذا قيل لي.

قال: فلم يكن إلا قليل حتى سمعنا بخروج النبي (ص)، فقام ذباب إلى الصنم فحطمه، ثم أتى النبي (ص) فأسلم على يده، وقال بعد إسلامه:

تبعث رسول الله إذ جاء بالهدى

وخلفت فراصاً بأرض هوان

(١) ذكر قصة إهبان أبو الحسن الماوردي في أعلام النبوة ص ٩٤، مختلفة في أسلوبها ببعض الاختلاف وفيها بدل المدينة مكة وليس فيها قوله سبحان الله وذكر قصة أخرى مماثلة وقعت مع عمير الطائي رواها عن أبي سعيد الخدري.

شدت عليه شدة فتركته
كأن لم يكن، والدهر ذو حدثان
ولما رأيت الله أظهر دينه
أجبت رسول الله حين دعاني
فمن مبلغ سعد العشيرة انني
شريت الذي يبقى بآخر فان

وخبير زمل بن عمرو العدوي:

روى أنه كان لني عذرة صنم يقال له حمام، وكانوا يعظمونه، وكان في بني
هند بن حزام، وكان سادته رجل منهم يقال له طارق، وكان يعقرون عنده
العقائر.

قال زمل بن عمرو العدوي، فلما ظهر النبي (ص) سمعنا منه صوتاً، وهو
يقول: يا بني هند بن حزام، ظهر الحق وأودى حمام، ودفع الشرك بالإسلام.

قال: ففرزنا لذلك، وهالنا، فمكثنا أياماً ثم سمعنا صوتاً آخر وهو يقول:

يا طارق، بعث النبي الصادق، يوحى ناطق، صدع صادع، بأرض تهامة،
لناصرية السلامة، ولخاذليه الندامة، هذا الوداع إلى يوم القيامة ثم وقع الصنم
لوجهه. (١)

قال زمل: فخرجت حتى أتيت النبي (ص)، ومعني نفر من قومي، فأخبرناه
بما سمعناه، فقال: ذلك كلام مؤمن من الجن.

ثم قال: يا معشر العرب، إني رسول الله إلى الأنام كافة، أدعوكم إلى عبادة
الله وحده، وأني رسوله وعبيده، وأن تحجوا البيت، وتصوموا شهراً من اثني عشر
شهراً، وهو شهر رمضان، فمن أجابني فله الجنة نزلاً وثواباً، ومن عصاني
كانت له النار منقلباً وعقاباً.

(١) ورد هذا الخبر مختصراً في مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٧٧.

قال: فأسلمنا، وعقد لي لواءً، وكتب لي كتاباً، فقال زمل عند ذلك:

إليك رسول الله أعلمت نصها
أكلّفها حزناً وفوزاً من الرمل
لأنصر خير الناس نصراً مؤزراً
وأعقد حبلاً من حبالك في حبلي
وأشهد أن الله لا شيء غيره
أدين له ما أثقلت قدمي نعلي.

خبر عمرو بن مرة الجهني:

ذكروا أن عمرو بن مرة كان يحدث فيقول:

خرجت حاجاً في الجاهلية في جماعة من قومي، فرأيت في منامي وأنا في الطريق، كأن نوراً قد سطع من الكعبة، حتى أضاء إلى نخل يثرب، وجبلي جهينة الأشعر والأجرد، وسمعت في النوم قائلاً يقول:
تقشعت الظلماء، وسطع الضياء، وبعث خاتم الأنبياء.
ثم أضاء إضاءةً أخرى، حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن، وسمعت يقول:

أقبل حق فسطع، ودفع باطل فانقمع.

فانتبهت فزعاً، وقلت لأصحابي: والله، ليحدثن بمكة في هذا الحي من قريش حدث.

وكان لنا صنم فكنت أنا الذي أسدنه، فشددت عليه فكسرتة، وخرجت حتى قدمت عليه مكة، فأخبرته، فقال:

يا عمرو بن مرة، أنا النبي المرسل إلى العباد كافة، أدعوهم إلى الإسلام، وأمرهم بحفظ الدماء، وصلة الأرحام، وعبادة الرحمن ورفض الأوثان، وحج البيت، وصوم شهر رمضان، فمن أصاب فله الجنة، ومن عصى فله النار، فأمن بالله يا عمرو بن مرة، تأمن يوم القيامة من النار.

فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، آمنت بما جئت به من حلال وحرام، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام، وأنشأت أقول:

شهدت بأن الله حق وإنني
لأهمة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساقى الإزار مهاجراً
إليك أجوب الوعث بعد الدكادك
لأصحب خير الناس نفساً ووالداً
رسول مليك الناس فوق الحبائك

ثم قلت: يا رسول الله ابعثني إلى قومي، لعل الله تبارك وتعالى يمين عليهم كما من علي بك، فبعثني، فقال: عليك بالرفق، والقول السديد، ولا تك فظاً، ولا غليظاً، ولا مستكبراً، ولا حسوداً.

فأتيت قومي، فقلت: يا بني رفاعه، بل يا جهينة، إن [رسول] رسول الله (ص) إليكم، أدعوكم إلى الجنة، وأحذركم النار، يا معشر جهينة، إن الله وله الحمد، قد جعلكم خيار من أنتم منه، وبعض إليكم في جاهليتكم ما حُببت إلى غيركم من العرب، الذين كانوا يجمعون بين الأختين، ويخلف الرجل منهم على امرأة أبيه، وأغارت في الشهر الحرام، فأجيبوا هذا الذي من لؤي، أأنا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة، وسارعوا في أمره، يكن بذلك لكم عنده فضيلة. قال: فأجابوني إلا رجل منهم، فإنه قام فقال: يا عمرو بن مرة، أمر الله عيشك، أأمرنا برفض آلهتنا، وتفريق جماعتنا، ومخالفة دين آبائنا، ومن مضى من أوائلنا إلى ما يدعوك إليه هذا المضري من أهل تهامة، لا ولا حباً ولا كرامة ثم أنشأ يقول:

إن ابن مرة قد أتى بمقالة
ليست مقالة من يريد صلاحاً
إني لأحسب قوله وفعاله
يوماً وإن طال الزمان ذباحاً^(١)

(١) يريد به الهلاك.

أتسّفه الأشياخ من قد مضى
من رام ذلك لا أصاب فلاحا

فقال له عمرو: الكذاب مني [أو] منك، أمر الله عيشه، وأبكم لسانه، وأكمه إنسانه، قال عمرو: فوالله، لقد عمي ومامات حتى سقط فوه، وكان لا يقدر على الكلام، ولا يبصر شيئا، وافتقر واحتاج.

وخبر ركانة وما فيه من الآية

كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشد قريش وأقواهم، فخلا يوماً برسول الله (ص) في شعاب مكة، فقال له رسول الله (ص): يا ركانة، ألا تتقي الله، وتقبل ما أدعوك إليه، فقال له ركانة: إني لو أعلم الذي تقول حقاً لأتبعك. قال فقال رسول الله (ص): أفرأيت أن صرعتك، أتعلم أن ما أقول حق؟ قال: نعم، قال فقم حتى أصارعك، فقام ركانة إليه، فلما بطش به رسول الله (ص) أضجعه لا يملك من نفسه شيئا، فقال ركانة وقد عجب من ذلك: عد يا محمد، فعاد فصرعه رسول الله (ص) دفعة أخرى فاستعظم ذلك وقال: يا محمد، ذا العجب، فقال رسول الله (ص): وأعجب من ذلك إن شئت أريكه إن اتقيت الله، واتبعت أمري، قال: ما هو؟ قال: أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتينني، قال: فادعها، فدعاها، فأقبلت حتى ووقفت بين يدي رسول الله (ص)، ثم قال لها: إرجعي إلى مكانك، فرجعت حتى وقفت.

فذهب ركانة إلى قومه، فقال: يا بني عبد مناف، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فوالله، ما رأيت أسحر منه قط.

ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع^(١).
وخبر أبي تيمة الهجيمي.

(١) قصته موجودة في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٨.

قال [أبو] تيممة:

وفدت على رسول الله (ص)، فوجدته قاعداً في حلقة، فقلت: أيكم رسول الله فلا أدري، أشار إلي رسول الله (ص) فقال: أنا رسول الله أو أشار إلي بعض القوم، فقالوا: هذا رسول الله، وإذا عليه بردة حمراء، تتناثر هدهبها على قدميه، فقلت: إلى ما تدعو يا رسول الله؟ قال: أدعوك إلى الذي إذا كنت بأرض فلاة فأضللت راحلتك فدعوته أجابك، وأدعوك إلى الذي إذا استنتت^(١) أرضك أو أجذبت فدعوته أجابك.

قال: فقلت: وأبيك لنعم الرب هذا، فأسلمت، وقلت: يا رسول الله، علمني مما علمك الله تبارك وتعالى، فقال النبي (ص):

اتق الله، لا تحقرن شيئاً من المعروف ولو أن تلقى أخاك ووجهك مبسوط إليه^(٢)، وإياك وإسبال الإزار من المخالبة، قال الله تبارك وتعالى:

(إن الله لا يحب كل مختال فخور) سورة القمان: ١٨
ولا تسبّ أحداً، وإن سبّك بأمر لا يُعلم فيك، فلا تسبه بأمر تعلمه فيه،
فيكون لك الأجر، وعليه الوزر.

وخبر أهيب بن سماع:

وروي أن النبي (ص) كان يوماً جالساً في نفر من أصحابه، وقد صلى الغداة، فإذا أقبل إعرابي على ناقه له، حتى وقف بباب المسجد فأناخها ثم عقلها، ودخل المسجد يتخطى الناس، والناس يوسعون له، وإذا هو رجل مديد القامة، عظيم الهامة، معتجر بعمامة، فلما مثل بين يدي رسول الله (ص) أسفر عن لثامه، ثم همّ أن يتكلم فارتج حتى اعترضه ذلك ثلاث مرات.
فلما رآه النبي (ص)، وقد ركب الزمعة^(٣) لها عنه بالحديث، ليذهب عنه

(١) أي قحطت.

(٢) في النسخة: ووجهك مبسوط إليك

(٣) أي أخذه الدهش.

بعض الذي أصابه ، وقد كسا الله نبيه جلالةً وهيبةً ، فلما أنس وفرخ روعه^(١)
قال له النبي (ص): قل لله [أنت] ما أنت قائل .
فأنشأ يقول:

رب يومٍ يعي الألد المداري
شره حاضر يروع الرجـالـا
قمتـه فأنجـلى ولو قام فيه
مسجل الجن ما أطاق المقالا
جئت بالاقتدار في ذات نفسي
انني أقهر الرفا^(٢) والكلالا
فانثت حدقي وفلت شباتي
والهدى يقهر العمى والضلالا
لم أضق بالكلام ذرعاً ولكن
شدة البغي يستجير الحبالا^(٣)

قال فاستوى رسول الله (ص) جالساً ، وكان متكئاً ، فقال: أنت أهيب بن
سماع؟ ولم يره قد قبل وقته ذاك ، فقال: أنا أهيب بن سماع الأبي الدفاع ،
القوي المناع .

قال: أنت الذي ذهب جل قومك بالغارات ، ولم ينفضوا رؤوسهم من
الهفوات إلا منذ أشهر وسنوات؟

قال: أنا ذاك ، قال: أف تذكر الأزمة التي أصابت قومك ، أخرجهم لها
الذبح ، وأخلف نوء المرنج ، وامشعت السماء وانقطعت الأنواء ،
واحترقت الغمة ، وخفت البرية ، حتى إن الضيف لينزل بقومك ، وما في الغنم
عرق ولا غرر ، فترصدون الضب المكنون فتصيدونه .

(١) أي ذهب فرعه .

(٢) هكذا في النسخة ولعل كلمة الرفا تصحيف الغنا أو الفلا .

(٣) هكذا في النسخة .

وكأنك في طريقك إلي لتسألني عن جل ذلك، وعن حرجه. ألا ولا حرج على مضطر، ومن كرم الأخلاق بر الضيف.

قال: فقال: لا والله، لا أطلب أثراً بعد عين، لكأنك كنت معي في طريقي، أو شريكي في أمري، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك محمد رسول الله. ثم قال: يا رسول الله زدني شرحاً وبياناً، أزدد بك إيماناً.

فقال له النبي (ص): أتذكر إذ أتيت صنمك في الظهيرة فعزّت له العشرة؟

قال: نعم- بأبي أنت وأمي يا رسول الله- إن الحرث بن أبي ضرار المصطلقى جمع لك جموعاً، ليدهمك بالمدينة، واستعان بي على حربك، وكان لي صنم يقال له راقب، فرقت خلوته، وقممت ساحته^(١)، ثم نفضت التراب عن رأسه، ثم عزت له عتيرة^(٢)، فأني لأستخيره في أمري، وأستشيره في حربك، إذ سمعت منه صوتاً هائلاً، فوليت عنه هارباً، وهو يقول كلاماً في معنى كلامه الأول قال: فلما كان من غدٍ ركبت ناقتي، ولبست لامتي، وتكبدت الطريق حتى أتيتك، فأمر لي سراجك، وأوضح لي منهاجك.

قال: قال له النبي (ص): قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني محمد عبده ورسوله، فقاها غير مستنكفٍ وأسلم وحسن إسلامه، ووقر حب الإسلام في قلبه.

فقال النبي (ص) لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): خذ بيده، فعلمه القرآن، فأقام عند النبي (ص)، فلما حذق شيئاً من القرآن، قال: يا نبي الله، إن الحرث بن أبي ضرار المصطلقى قد جمع لك جموعاً ليدهمك بالمدينة، فلو وجهت معي قوماً بسرية، نشن عليهم الغارة، فوجه النبي (ص) معه أمير المؤمنين (ع) وجماعة من المسلمين، فظفروا بهم، واستاقوا إبلهم وماشيتهم.

وأهيب الذي يقول في إسلامه:

(١) أي كنس قمامة ساحته وهي الكناسة، فيقال قم البيت قمّاً أي كنسه.

(٢) هي الذبيحة التي تقدم للأصنام ويصب دمها على رأسها.

جبت الفلاة على حرف^(١) مبادرة
خطارة تصل الإرقال بالخب^(٢)
لا تشكي [للذي] جابت جوانبه
و[ما] تأقي لأين^(٣) السير والتعب
خطر فنها والثريا النجم واقفة
كأنها قطف ملاح من العنب
أو كالجمان زهاني صدر جارية
[مطورة]^(٤) بنظام الدر والذهب
سارت ثلاثاً، فوافت بعد ثلاثة
ذات المناهل أرض النخل والكرب^(٥)
فيها النبي الذي لاحت حقائقه
في معشر بسقوا في ذروة الحسب
حلو الشائل ميمون نقيته
محض الضرائب حياذ عن الكذب
لا ينثني وسعير الحرب مضرمة
تحش^(٦) بالنبل والأرماع والقضب
والحرب حامية والهام راسية
والموت يختطف الأرواح من كذب

(١) هي الناقة الضامرة.

(٢) الإرقال والخب نوعان من السير.

(٣) الآين: الإعياء.

(٤) في النسخة ممطرة ومعها لا يستقيم الوزن.

(٥) هي أصول سعف النخل.

(٦) أي توقد.

هناك تخبو إذا ما راس^(١) أخضه
سماحها^(٢) لعظيم الهول والرهب
داخت^(٣) رقاب الورى من هول رؤيته
إذا بدا لهم في الموكب اللجب

فصل: من كلام سيدنا رسول الله (ص)

«أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى،
وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله،
وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوامها، وشر الأمور محدثاتها،
وأهدى الهدى هدى الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى
ضلالة بعد الهدى، وخير العمل ما نفع، وخير الهدى ما اتبع، واليد العليا خير
من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة عند حضرة
الموت، وشر الندامة ندامة يوم القيامة.

ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا نزرأ، ولا يذكر الله إلا هجرأ.

ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الفنى غنى النفس، وخير الزاد
التقوى، ورأى الحكمة مخافة الله، وخير ما أُلقي في القلب اليقين.

والارتياح من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول^(٤) من جر
جهنم، والسكر من النار، والشعر من إبليس، والخمر جماعة الإثم، والنساء
حبائل الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، وشر الكسب كسب الربا،
وشر المال أكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي شقي في بطن أمه.

(١) و(٢) هكذا في النسخة.

(٣) أي ذلت.

(٤) هو السرقة والخيانة في شيء.

وإنما بصير أحدكم إلى موضع ذراع، والأمر إلى آخره، وملاك الأمر خواتمه، وشر الروايات روايات الكذب، وكل ما هو آتٍ قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتألم على الله يكذبه، ومن يستغفر الله يغفر له، ومن يتبع المستمع يستمع الله به، ومن يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يؤجره الله، ومن يصير على الرزية يعوضه الله، ومن يصم يضاعف الله أجره، ومن يعص الله يعذبه.

ومن كلامه (ص) قوله:

«إنكم في زمان، من ترك عُشر ما أُمر به هلك، وسيأتي على الناس زمان من عمل بعشر ما أُمر به نجا».

ومن كلامه عليه وآله السلام قوله: «استحيوا من الله حق الحياء».

قيل له: يا رسول الله، إنا لنستحيي، فقال: ليس كذلك. من استحيى من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء.

وقال عليه السلام:

حب الدنيا رأس كل خطيئة.

وقال:

إنكم لا تنالون ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون، ولا تبلغون ما تأملون إلا بترك ما تشتهون.

فصل من البيان والسؤال

إن سأل سائل عن أول ما فرض الله عليك.

فقل: النظر المؤدي إلى معرفته

فإن قال: لم زعمت ذلك؟

فقل: لأنه سبحانه قد أوجب معرفته، ولا سبيل إلى معرفته إلا بالنظر في الأدلة المؤدية إليها.

فإن قال: فإذا كانت المعرفة بالله عز وجل لا تدرك إلا بالنظر، فقد [أصبح] المقلد غير عارف بالله.

فقل: هو ذاك

فإن قال: فيجب أن يكون جميع المقلدين في النار.

فقل: إن العاقل المستطيع إذا أهمل النظر والإعتبار، واقتصر على تقليد الناس، فقد خالف الله تعالى، وانصرف عن أمره ومراده، ولم يكفه تقليده في أداء فرضه، واستحق العقاب على مخالفته وتفريطه. غير أنا نرجو العفو عمن قلد الحق، والتفضل^(١) عليه، ولا نرجوه لمن قلد المبطل ولا نعتقده فيه.

وكل مكلف يلزمه من النظر بحسب طاقته ونهاية إدراكه وفطنته. فأما المقصر الضعيف الذي ليس له استنباط صحيح، فإنه يجزيه التمسك في الجملة بظاهر ما عليه المسلمون.

فإن قال: كيف يكون التقليد قبيحاً من العقلاء المميزين؟ وقد قلدَّ الناس رسول الله (ص) فيما أخبر به عن رب العالمين، ورضي بذلك عنهم، ولم يكلفهم ما تدعون.

فقل: معاذ الله أن نقول ذلك أو نذهب إليه، ورسول الله (ص) لم يرض من الناس التقليد دون الاعتبار، وما دعاهم إلا إلى الإستدلال، ونبههم عليه بآيات القرآن من قوله سبحانه وتعالى:

(أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء..)

الاعراف: ١٨٥

وقوله:

(١) في النسخة (والتفضل).

(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب). آل عمران: ١٩٠.

وقوله:

(وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون). الذاريات: ٢٠-٢١

وقوله:

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت). الفاشية: ١٩-٢٢

ونحن نعلم أنه ما أراد بذلك إلا نظر الاعتبار، فلو كان (ع) إنما دعا الناس إلى التقليد، ولم يرد منهم الاستدلال لم يكن معنى لنزول هذه الآيات. ولو أراد أن يصدقوه ويقبلوا قوله تقليداً بغير تأمل واعتبار لم يحتج إلى أن يكون على ما ظهر من الآيات والمعجزات.

فأما قبول قوله (ص) بعد قيام الدلالة على صدقة، فهو تسليم وليس بتقليد.

وكذلك قبولنا لما أتت به أئمتنا (ع)، ورجوعنا إلى فتاويهم في شريعة الإسلام.

فإن قال: فأبى لنا ما التقليد في الحقيقة؟ وما التسليم؟ ليقع الفرق والبيان.

فقل: التقليد هو قبول قول من لم يثبت صدقه، وهذا معنى التقليد لا يكون إلا عن بينة وحجة^(١).

فصل: من كلام جعفر بن محمد الصادق (ع) مما حفظ عنه في وجوب المعرفة بالله عز وجل وبدينه.

٢١٩

وقوله:

وجدت علم الناس في أربع:

(١) ومن جوابه هذا يظهر معنى التسليم وهو الأخذ بقول من ثبت صدقه وأصبح حجة بذاته.

أحدها: أن تعرف ربك .
والثاني: أن تعرف ما صنع بك .
والثالث: أن تعرف ما أراد منك .
والرابع: أن تعرف ما يخرجك عن دينك^(١) .

قال شيخنا المفيد رحمه الله:

هذه أقسام تحيط بالمفروض من المعارف، لأنه أول ما يجب على العبد معرفة ربه جل جلاله، فإذا علم أن له إلهاً وجب أن يعرف صنعه، وإذا عرف صنعه عرف به نعمته، فإذا عرف نعمته، وجب عليه شكره، فإذا أراد تأدية شكره، وجب عليه معرفة مراده، ليطيعه بفعله، وإذا وجب عليه طاعته، وجب عليه معرفة ما يخرج به عن دينه، ليتجنبه، فتخلص له به طاعة ربه، وشكر إنعامه.

أنشدني بعض أهل هذا العصر لنفسه:
والزم من الدين ما قام الدليل به
فإن أكثر دين الناس تقليد
فكلما وافق التقليد مختلف
زور وإن كثرت فيه الأسانيد
وكل ما نقل الأحاد من خير
مخالف لكتاب الله مردود.

فصل آخر من السؤال والبيان

إن سأل سائل فقال:
ما نعمة الله تعالى عليك؟
فقل: خلقه إياي حياً لينفعني .
فإن قال: ولم زعمت أن خلقه إياك حياً أول النعم؟

(١) تجد هذا الحديث مروياً في إرشاد المفيد ص ٢٥٩ .

فقل: لأنه خلقتني لنفعي ، ولا طريق لنيل النفع إلا بالحياة التي يصح معها الإدراك .

فإن قال: ما النعمة؟

فقل: هي المنفعة إذا كان فاعلها قاصداً لها .

فإن قال: ما المنفعة؟

فقل: هي اللذة الحسنة أو ما يؤدي إليها .

فإن قال: لم شرطت أن تكون اللذة حسنة؟

فقل: لأن من اللذات ما لا يكون حسناً .

فإن قال: لم قلت: أو ما يؤدي إليها؟

فقل: لأن كثيراً من المنافع لا يتوصل إليها إلا بالمشاق، كشرب الدواء الكريه والفصد ونحو ذلك من الأمور المؤدية إلى السلامة واللذات، فتكون هذه المشاق منافع لما يؤدي إليه في عاقبة الحال .

ولذلك قلنا: إن التكليف نعمة حسنة، [لأنه] به ينال مستحق النعيم الدائم واللذات .

فإن قال: فما كمال نعم الله تعالى؟

فقل: إن نعمه تتجدد علينا في كل حال، ولا يستطيع لها الإحصاء .

فإن قال: فما تقولون في شكر المنعم؟

فقل: هو واجب .

فإن قال: فمن أين عرفت وجوبه؟

فقل: من العقل وشهادته، وواضح حجته ودلالته .

ووجوب شكر المنعم على نعمته مما تتفق العقول عليه، ولا تختلف فيه .

فإن قال: فهل أحد من الخلق يكافئ نعم الله تعالى بشكر، أو يوفي حقها

بعمل؟

فقل: لا يستطيع أحد من العباد، من قبل أن الشيء إنما يكون كفواً لغيره

إذا سد مسده، وناب منابه، وقابله في قدره، ومائله في وزنه.

وقد علمنا أنه ليس شيء من أفعال الخلق تسد مسد نعم الله عليهم، لإستحالة الوصف لله تعالى بالإنتفاع، أو تعلق الحوائج به إلى المجازاة، وفساد مقال من زعم أن الخلق يحيطون علماً بغاية الإنعام من الله تعالى عليه، والإفضال، فيتمكنون من مقابلتها بالشكر على الإستيفاء للواجب، والإتمام.

فيعلم بهذا تقصير العباد من مكافأة نعم الله تعالى عليهم، ولو بذلوا في الشكر والطاعات غاية المستطاع، وحصل ثوابهم في الآخرة تفضلاً من الله تعالى عليهم، وإحساناً إليهم.

وإنما سميناه استحقاقاً في بعض الكلام، لأنه وعد به على الطاعات، وهو الموجب له على نفسه بصادق وعده، وإن لم يتناول شرط الإستحقاق على الأعمال.

وهذا خلاف ما ذهب إليه المعتزلة إلا أبا القاسم البلخي^(١)، فإنه يوافق في هذا المقال، وقد تناصرت به مع قيام الأدلة العقلية عليه الأخبار^(٢).

أخبرني شيخنا المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد النعمان الحارثي رضوان الله عليه إجازةً، قال: أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه، عن محمد بن يعقوب الكليني، عن عدة من أصحابه، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن ابن محبوب، عن داود بن كثير، عن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله (ص):

(١) في النسخة إلا أبو والصحيح أبا لأنه استثناء من موجب

(٢) اتفق أهل العدل على أن المؤمن الذي عمل عملاً صالحاً يدخل الجنة خالداً فيها، واختلفوا في أن هذا الثواب هل هو على جهة الإستحقاق والمعاوضة بينه وبين العمل أم تفضل من المولى تعالى قال أكثر المعتزلة بالأول اعتماداً على قبح الثواب مع عدم الإستحقاق ولأن التكليف حينئذ لغو، وذهب البلخي والمعتزلة والمفيد وجماعة من الإمامة إلى الثاني عملاً بطبيعة المولى والعبد إذ لا يجب على المولى بازاء العبد بشيء إذا أطاعه، ولأنه يكفي في صحة التكليف وحسنه عقلاً سبق المنعم على المكلف المستتبعه لوجوب شكر المنعم بالطاعة، وللإخبار المؤيدة لحكم العقل، التي ذكر المؤلف بعضاً منها.

قال الله تعالى: لا يتكل^(١) العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو أجمعوا وأتعبوا أنفسهم وأعمارهم في عبادتي، كانوا مقصرين، غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي، فيما يطلبون من كرامتي، والنعم في [جناتي]، ورفع الدرجات العلى في جواربي، ولكن برحمتي فليثقوا، وفضلي فليرجوا، وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا، فإن رحمتي عند ذلك تدركهم، وبمَنِّي أبلغهم رضواني ومغفرتي، وألبسهم عفوي، فإني الله الرحمن الرحيم، بذلك تسميت.

أخبرني شيخنا المفيد رحمه الله قال: أخبرني أبو الحسن أحمد بن الحسن بن الوليد، عن أبيه، عن محمد بن الحسن الصفار، عن علي بن محمد القاشاني، عن القاسم بن محمد الأصهباني، عن سليمان بن خالد المنقري، عن سفيان بن عيينه عن حميد بن زياد، عن عطاء بن يسار، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) قال:

يوقف العبد بين يدي الله تعالى فيقول: قيسوا بين نعمي وبين عمله، فتفرق النعم العمل، فيقول: هبوا له النعم، وقيسوا بين الخير والشر منه، فإن استوى العملان، أذهب الله الشر بالخير، وأدخل الجنة، وإن كان له فضل أعطاه الله بفضله، وإن كان عليه فضل وهو من أهل التقوى لم يشرك بالله تعالى، [واتقى] الشرك به فهو من أهل المغفرة، يغفر الله له برحمته، ويتفضل عليه بعفوه.

وأخبرني أيضاً شيخنا المفيد رحمه الله قال: أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمد، عن محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن سعد بن خلف، عن أبي الحسن (ع) أنه قال: «عليك بالجد، ولا تخرج نفسك من حد التقصير في عبادة الله وطاعته، فإن الله تعالى لا يعبد حق عبادته.

(١) في النسخة (لا يتكلوا).

شبهة للبراهمة في النبوة (١)

اعتلت البراهمة في إبطال الرسالة بأن قالت:

ليس يخلو أمر الرسول من حالين:

إما أن يأتي ما يدل عليه العقل أو بخلافه. فإن أتى بما في العقل كان من كمل عقله غنياً عنه، لأن الذي يأتيه مستقر عنده، موجود في عقله.

وإن أتى بخلاف ما في العقل فالواجب رد ما يأتيه به، لأن الله تعالى إنما خلق العقول للعباد ليستحسنوا بها ما استحسنست، ويقروا بما أقرت، وينكروا ما أنكرت.

نقض: يقال لهم: إن الرسول لا يأتي أبداً بما يخالف العقل، غير أن الأمور في العقول على ثلاثة أقسام: واجب، وممتنع، وجائز.

فالواجب في العقل يأتي السمع بإيجابه تأكيداً له عند من علمه، وتنبهياً عليه لمن لم يعلمه.

والجائز هو الذي يمكن في العقل حسنه تارة وقبحه تارة، كانتفاع الإنسان بما يملكه غيره، فإنه يجوز أن يكون حسناً إذا أذن له فيه مالكة، وقبيحاً إذا لم يأذن له. وكل واحدٍ من القسمين جائز في العقل، لا طريق إلى القطع على أحدهما إلا بالسمع.

ومن الأمور التي لا يصل العقل إليها أيضاً فيها إلى القطع على العلم بأدوية الأعلال ومواضعها، وطبائعها، وخواصها، ومقاديرها، [التي] يحتاج إليه منها، وأوزانها.

فهذا مما لا سبيل للعقل فيه إلى حقيقة العلم، وليس يمكن امتحان كل ما في البر والبحر، ولا تحسن التجربة والسير، لما فيها من الخطر المستقبح.

فعلم أن هذا مما لا غناء فيه عن طارق السمع.

(١) هم أكثر الهندوس في الهند ينتسبون إلى برهام وهم أهل نحل عديدة ولهم شبهات على إرسال الرسل وإبطال النبوات وتجد شرح مذاهبهم في الملل والنحل.

وبعد فإن شكر النعم عندنا وعند البراهمة مما هو واجب في العقل ، وليس في وجوبه ووجوب تعظيم مبدأ النعمة خلاف ، وشكر الله تعالى ، وتعظيمه أوجب ما يلزمنا ، لعظيم أياديه لدينا ، وإحسانه إلينا .

ولسنا نعلم بمبلغ عقولنا أي نوع يريده من تعظيمنا له وشكرنا . هذا مع الممكن من لطف يكون^(١) في نوع من ذلك لنا لا يعلمه إلا خالقنا . ثم يقال للبرهمة أيضاً :

لو لم يكن في العقل القسم الجائز الذي ذكرناه ، وكانت الأشياء لا تخلو من واجب ، وممتنع ، دون ما بيناه ، لم يستغن مع هذا التسليم عن المرسلين ، لأنهم ينبهون على طريق الاستدلال المسترشدين ، ويجركون الخواطر بالتذكارات إلى سنن التأمل والاعتبار .

وهذا أمر يدل عليه ما نشاهده من أحوال العقلاء ، واقتقارهم إلى من يفتح لهم باب الاستدلال أولاً .

وفي بعض ما أوردناه بيان عن غلط البراهمة فيما اعتدت ، ونقض لشبهتها التي ذكرت والحمد لله .

(مختصر من الكلام على اليهود في إنكارهم جواز النسخ في الشرع).

إعلم أن اليهود طائفتان ، أحدهما تدّعي أن نسخ الشرع لا يجوز في العقل . والأخرى تجيز ذلك عقلاً ، وتزعم أن المنع منه ورد به السمع . فأما المدعون على العقل الشهادة بقبح النسخ ، فإنهم زعموا أن النسخ هو البداء .

(١) في العبارة قلق تركيبي وإن كان المراد واضحاً .

قالوا: والبداء لا يجوز على الله تعالى .
فيقال لهم: لِمَ زعمتم أن النسخ هو البداء؟
فإن قالوا: للمتعارف بين العقلاء، أن الأمر بالشيء إذا نهى عنه بعد
أمره، [فقد] بدا له فيه .

وكذا إذا نهى عن الشيء ثم أمر به من بعد نهيه .
قيل لهم: ما تنكرون من أن يكون على هذا قسمين:
أحدهما: أن يأمر الأمر بالشيء في وقت، وإذا فُعل وجاز وقت فعله، نهى
عنه من بعد، فيكون في الحقيقة، إنما نهى عن مثله . وهذا هو النسخ بعينه .
وكذلك القول في الأمر بالشيء بعد النهي عنه .

والقسم الآخر: أن يأمر بفعل الشيء في وقت، فإذا أتى ذلك الوقت نهى
عنه فيه بعينه، قبل أن يفعل، ويكون هذا البداء دون القسم الأول، محصل
الفرق بين البداء والنسخ، ويتضح أن دعواكم فيها أنها واحد لم تصح .
فإن قالوا: إن العبادة إذا تعلقت على المكلف بأمر أو نهى، فالحكمة
اقتضتها . فمتى تغيرت العبادة، دلت على تغيير الحكمة، والحكمة لا يجوز
تغييرها .

قيل لهم: فالأقلتم: إن العبادة إذا ألزمت المكلف، فالحكمة اقتضتها
لمصلحة من مصالح المكلف أوجبته، فإذا تغيرت العبادة، دلت على أن الحكمة
اقتضت ذلك لتغير المصلحة، والمصلحة يجوز تغييرها .

فإن قالوا: إنا لا نعلم في العقل تغيير المصالح .

قيل لهم: وكذلك لا تعرفون بالعقل المصالح .

ثم يقال لهم: ما السبب في نقل الله تعالى، الإنسان من كونه شاباً إلى أن
صيرَه شيخاً، وأفقره ثم أغناه، وأماته بعد أن أحياه؟ وكيف أصحه ثم
أسقمه، وأوجده ثم أعدمه؟ فكيف تغيرت الحكمة في جميع ما عددنا؟ وما
أنكرتم أن يكون هذا كله بداءً؟ أي اختلاف في المصالح يكون أوضح من
هذا؟

وأما المدعون من اليهود، أن إبطال النسخ عُلِمَ بالسمع دون العقل، فإنهم ادعوا في ذلك على موسى (ع) أنه قال:
إن شريعته دائمة لا تنسخ.

والذي يدل على بطلان دعواهم هذه ظهور المعجزات على من أتى بالنسخ. ولو كان خبرهم حقاً لم يصح إتيان ذي معجز بنسخ. وهذه المعجزات يعلم أنها قد كانت بمثل ما تعلم له اليهود معجزات موسى (ع) من غير فرق.

فصل في ذكر البداء

أعلم - أيدك الله تعالى - أن أصحابنا دون المتكلمين يقولون بالبداء، ولهم في نصرّة القول به كلام، ومعهم فيه آثار. وقد استشنع ذلك منهم مخالفوهم، وشَنَعَ عليهم به مناظروهم. وإنما استشنعوه لظنهم أنه يؤدي إلى القول بأن الله تعالى، علم في البداء ما لم يكن يعلم. فإذا قدر الناصر للبداء على الإحتراز من هذا الموضع فقد أحسن، ولم يبق عليه أكثر من إطلاق اللفظ، وقد قلنا إن ذلك قد ورد به السمع. وقد اتفق لي فيه كلام مع أحد المعتزلة بمصر، أنا أحكيه، لتقف عليه.

حكاية مجلس في البداء

كنت سألت معتزلياً، حضرت معه مجلساً، فيه قوم من أهل العلم، فقلت له:
لِمَ أنكرت القول بالبداء؟ وزعمت أنه لا يجوز على الله تعالى.
فقال: لأنه يقتضي ظهور أمرٍ لله سبحانه كان عنه مستوراً، وفي هذا أنه قد تجدد له العلم بما لم يكن به عالماً.

فقلت له: أين لنا من أين علمت أنه يوجب ذلك، وتقتضيه، ليسع الكلام معك فيه؟

فقال: هذا هو معنى البداء، والتعارف يقضي بيننا. ولسنا نشك أن البداء هو الظهور، ولا يبدو للآمر إلا لظهور شيء تجدد من علم أو ظن لم يكن معه من قبل.

وبيان ذلك: أن طبيباً لو وصف لعليل أن يشرب في وقته شراب الورد، حتى إذا أخذ العليل القدح بيده ليشرب ما أمره به، قال له الطبيب في الحال صبه ولا تشربه، وعليك بشرب النيلوفر بدله، فلسنا نشك في أن الطبيب قد استدرك الأمر وظهر له من حال العليل ما لم يكن عالماً به من قبل، فغير عليه الأمر لما تجدد له من العلم. ولولا ذلك لم يكن معنى لهذا الخلاف.

فقلت له: هذا مما في الشاهد وهو من البداء، فيجوز عندك أن يكون في البداء قسم غير هذا؟

فقال: لا أعلم في الشاهد غير هذا القسم، ولا أرى أنه يجوز في البداء قسم غيره ولا يعلم.

فقلت له: ما تقول في رجل له عبد، أراد أن يختبر حاله وطاعته من معصيته، ونشاطه من كسله، فقال له في يومٍ شديد البرد: سر لوقتِكَ هذا إلى مدينة كذا، لتقبض مالاً لي بها، فأحسن العبد لسيدة الطاعة، وقدم المبادرة، ولم يحتج بحجة، فلما رأى سيده مسارعتَه، وعرف شهامته ونهضته، شكره على ذلك، وقال له: أقم على حالك، فقد عرفت أنك موضع للصنيعة، وأهل للتعويل عليك في الأمور العظيمة، أيجوز عندك هذا؟ وإن جاز فهل هذا داخل في البداء أم لا؟

فقال: هذا مستعمل ورأينا في الشاهد، وقد بدا فيه للسيد، وليس هو قسماً ثانياً، بل هو بعينه الأول، هو الذي لا يجوز على الله عز وجل.

فقلت له: لم جعلت الجمع بينهما من حيث ذكرت أولى من التفرقة بينهما، من حيث كان أحدهما ريداً لإتمام قبل أن يبدو له فيه فينهي عنه، وهو

الطبيب، والآخر غير مريدٍ لإتمامه على كل وجه، وهو سيد العبد، بل كيف لم تفرق بينهما من حيث أن الطبيب لم يجوز قط أن يقع منه اختلاف الأمر إلا لتجدد علم له لم يكن، وسيد العبد يجوز أن يقع منه النهي بعد الأمر من غير أن يتجدد له علم، ويكون عالماً بنهضته في الحالين، ومسارعتة إلى ما أحب، وإنما أمره بذلك ليعلم الحاضرون حُسن طاعته، ومبادرته إلى أمره، وأنه ممن يجب اصطفاؤه، والإحسان إليه، والتعويل في الأمور عليه.

قال: فإذا سلمت لك الفرق بينهما، فما تنكر أن يكون دالاً على أن مثالك الذي أتيت به غير داخلٍ في البداء؟

قلت: أنكرت ذلك من قبل أن البداء عندنا جميعاً نهي الأمر عما أمر به قبل وقوعه في وقته، وإذا كان هذا هو الحد المراعى فهو موجود في مثالنا، وقد أجمع العقلاء أيضاً على أن السيد فيه قد بدا له فيما أمر به عبده.

قال: فإذا دخل القسمان في البداء، فما الذي تجيز على الله تعالى منهما؟

فقلت: أقربهما إلى قصة إبراهيم الخليل (ع) وأشبههما لما أمر الله تعالى في المنام بذبح ولده اسماعيل (ع)، فلما سارع إلى المأمور راضياً بالمقدور، وأسلم جميعاً صابرين، وتلّه للجبين، نهاه الله عن الذبح بعد متقدم الأمر، وأحسن الثناء عليهما، وضاعف لهما الأجر.

وهذا نظير ما مثلت من أمر السيد وعبده، وهو النهي عن المأمور به قبل وقوع فعله.

قال: فمن سلم لك أن إبراهيم (ع) مأمور بذلك من قبل الله سبحانه؟

قلت: سلمه لي من يقر بأن منامات الأنبياء عليهم السلام صادقة، ويعترف بأنها وحي الله في الحقيقة، وسلمه لي من يؤمن بالقرآن، ويصدق ما فيه من الأخبار.

وقد تضمن الخبر عن اسماعيل أنه قال الأبويه: يا أبت أفعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين، وقوله الله تعالى لإبراهيم: (قد صدقت

الرؤيا^(١) وثناؤه عليه ، حيث قال: (كذلك نجزي المحسنين). وليس بمحسن من امتثل غير أمر الله تعالى في ذبح ولده، وهذا واضح لمن أنصف من نفسه . قال: فأني لا أسمى هذا بداءً .

فقلت له: ما المانع لك من ذلك ، أتوجه الحجة عليك به ، أم مخالفته للمثال المتقدم ذكره؟

فقال: يعني من أن أسمى البداء ، أن البداء لا يكشف إلا عن متجدد علم لمن بدا له ، وظهوره له بعد ستره ، وليس في قصة إبراهيم وإسماعيل (ع) ما يكشف عن تجدد علم الله سبحانه ، ولا يجوز ذلك عليه ، فلهذا قلت أنه ليس ببداء .

فقلت له: هذا خلاف ما سلمته لنا من قبل ، وأقررت به ، من أن سيد العبد يجوز أن يأمره بما ذكرناه ، ثم يمنعه مما أمره به وينهاه ، مع علمه بأنه يطيعه في الحالين لغرضه في كشف أمره للحاضرين .

ثم يقال لك: ما تنكر من إطلاق اللفظ بالبداء في قصة إبراهيم وإسماعيل (ع) ، لأنها كشفت لهما عن علم متجدد ، ظهر لهما ، كان ظنهما سواء ، وهو إزالة هذا التكليف بعد تعلقه ، والنهي عن الذبح بعد الأمر به .

قال: أفقول إن الله تعالى أراد الذبح لما أمر به أم لم يرده؟

وأعلم أنك إن قلت: إنه لم يرده دخلت في مذاهب المجبرة ، لقولك إن الله تعالى أمر بما لا يريده .

وكذلك: إن قلت إنه أراد دخلة في مذهبهم أيضاً ، من حيث أنه نهى عما أراد ، فما خلاصك من هذا؟

فقلت له: هذه شبهة يقرب أمرها ، والجواب عنها لازم لنا جميعاً ، لتصديقنا بالقصة ، وإقرارنا بها .

وجوابي فيها أن الذبح في الحقيقة هو تفرقة الأجزاء ، ثم قد تسمى الأفعال

(١) الصافات: ١٠٥ .

التي في مقدمات الذبح، مثل القصد، والاضجاع، وأخذ الشفرة، ووضعها على الحلق، ونحو ذلك، ذجاً مجازاً واتساعاً.

ونظير ذلك أن الحاج في الحقيقة هو زائر بيت الله تعالى، على منهاج ما قررته الشريعة، من الأحرام، والطواف، والسعي.

وقد يقال لمن شرع في حوائجه لسفره في حجة من قبل أن يتوجه إليه، أنه حاج اتساعاً ومجازاً.

فأقول: إن مراد الله تعالى فيما أمر به لخليله إبراهيم (ع) من ذبح ولده، إنما كان مقدمات الذبح، من الإعتقاد أولاً والقصد، ثم الإضجاع للذبح، ترك الشفرة على الحلق، وهذه الأفعال الشاقة التي ليس بعدها غير الإتمام بتفرقة أجزاء الحلق.

وعبرَ عن ذلك بلفظ الذبح، ليصح من إبراهيم (ع) الإعتقاد له، والصبر على المضض فيه، الذي يستحق جزيل الثواب عليه.

ولو فُسِّرَ له في الأمر المراد على التعيين لما صح منه الاعتقاد للذبح، ولا كان ما أمر به شاقاً، يستحق عليه الثناء، والمدح، وعظيم الأجر.

والذي نهى الله تعالى عنه هو الذبح في الحقيقة، وهو الذي لم يبق غيره، ولم تتعلق الإرادة قط به. فقد صح بهذا أن الله تعالى لم يأمر بما لا يريد، ولا نهى عما أراد، والحمد لله.

قال: الخصم: فقد انتهى قولك إلى أن الذي أمر به غير الذي نهى عنه، وليس هذا هو البداء.

فقلت له: أما في ابتداء الأمر فما ظن إبراهيم (ع) إلا أن المراد هو الحقيقة.

وكذلك كان ظن ولده إسماعيل (ع)، فلما انكشفت بالنهي لهما ما علماه مما كان ظنهما سواه، كان ظاهره بداء، لمشايتته لحال من يأمر بالشيء، وينهي عنه بعينه في وقته، وليستسلمه على ظاهر الأمر دون باطنه، فلم يرد على ما ذكرت شيئاً.

وهذا الذي اتفق لي من الكلام في البداء .

مسألة:

فإن قال قائل: ما تقولون في الذبيح؟ ومن كان من ولدي إبراهيم (ص) أكان إسماعيل أم إسحاق (ع)؟؟

قلنا: الذبيح عندنا هو إسماعيل، وهذا يشهد ظاهر القرآن والخبر المأثور عن النبي (ص).

أما القرآن فإن الله تعالى قال حكايةً عن إبراهيم (ص):

(رب هب لي من الصالحين) الصافات: ١٠٠

فأخبر عن سؤاله في الولد، قال الله تعالى:

(فبشرناه بغلام حليم) الصافات: ١٠١

ثم أخبر عن حال هذا الغلام فقال:

(فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك). الصافات:

١٠٢

فوصف قصة الذبح المختصة بهذا الغلام إلى قوله:

(إنا كذلك نجزي المحسنين). الصافات: ١٠٥

ثم قال بعد ذلك:

(وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين). الصافات: ١١٢

فأعلمنا أن إسحاق إنما أتاه بعد الولد الأول الذي أُجيبَت فيه دعوته، ورأى في المنام أنه يذبحه.

وهذا يدل على أنه غير إسحاق، وليس غيره ممن ينسب هذا إليه إلا إسماعيل (ع).

وأما الخبر المأثور فقول رسول الله (ص) «أنا ابن الذبيحين»^(١)

(١) أنظر أعلام النبوة للهاوردي ص ١٤٣

يعني إسماعيل وعبدالله بن عبد المطلب، ولو كان الذبيح إسحاق لما صح هذا الخبر على ظاهره، لأنه ليس هو ابنه، وهو ابن إسماعيل (ع).

فصل:

جاء في الحديث أن الله تعالى بعث إلى عبد المطلب في منامه ملكاً، فقال له: يا عبد المطلب احفر زمزم، قال: وما زمزم؟ قال: تراث أبيك آدم (ع)، وجدك الأقدم عند الفرث والدم، عند الغراب الأعصم.

وأن عبد المطلب رأى ذلك في منامه ثلاث ليالٍ متواليات، وأصبح اليوم الرابع، فقعد عند البيت الحرام، فبينما هو قاعد إذا بقرة قد أفلتت من بعض الجزارين في أعلا الأبطح من وثاقها، حتى جاءت إلى موضع زمزم، فوقفت هناك، فجذرت مكانها، وسقط غراب أعصم على الفرث والدم. والأعصم هو الذي إحدى رجله بيضاء.

فقال عبد المطلب: هذا تأويل رؤيائي، فحفرها في موضعها، فصعب عليه الحفر، فقال: اللهم إن لك عليّ نذراً، أن أتقرب ببعض ولدي، إن أنبسط لي الماء.

فلما نبع الماء عزم على أن يقرب بعض ولده، فجاء بنو مخزوم وسائر قريش، فقالوا له: اقرع بين ولدك، فخرجت القرعة على عبدالله، فقال بنو مخزوم له إفد ولدك بمالك، فأقرع بينه وبين عشرة من الإبل، فخرجت القرعة على عبدالله، فجعلها عشرين، وأقرع بينه وبينها، فخرجت القرعة على عبدالله. فما زال كذلك حتى صارت الإبل مائة.

وفي حديث آخر أنها بلغت ألفاً، وهي دية الملوك، فعند ذلك وقعت القرعة على الإبل، ففقرها فجعلها هدياً.

أخبرني شيخني أبو عبدالله الحسين بن عبيدالله رضي الله عنه، قال: أخبرني أبو محمد هارون بن موسى، قال: أخبرني محمد بن همام، عن أبي محمد الحسن بن

جمهور، قال: حدثني أبي، قال: حدثني الحسن بن محبوب، عن علي بن رباب،^(١)
عن مالك بن عطية، قال:

لما حفر عبد المطلب بن هاشم زمزم، وأنبط منها الماء، أخرج منها غزالين
من ذهب، وسيوفاً وأدراعاً، فجعل الغزالين زينةً للكعبة، وأخذ السيوف
والدروع، وقال: هذه وديعة كان أودعها مضاض الجرهمي بن الحرث بن عمرو
بن مضاض.

والحارث هو الذي يقول^(٢):

كأن لم يكن بين الجحون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى: نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثر^(٣)
ويمنعنا من كل فجٍ نريده
أقرب كسرحان الأباءة ضامر^(٤)
وكل لجوج في الجراء طمرة
كعجاء فتحاء الجناحين كاسر

والقصيدة طويلة^(٥)

فحسدته قریش بذلك، فقالوا: نحن شركاؤك فيها، فقال: هذه فضيلة،
نبئت بها دونكم في منامي ثلاث ليال تباعاً.

(١) يكنى بأبي الحسن، وهو من رواية الشيعة الكوفيين الثقات روى عن الصادق والكاظم. وله
عدة كتب توفي (سنة ٢٢٤هـ).

(٢) في السيرة لابن هشام أن القائل هو عمرو بن الحرث بن عمرو بن مضاض وليس بمضاض الأكبر.

(٣) ذكر البيتين مع أبيات غيرها لم يذكرهما المؤلف، في مروج الذهب ج ٢ ص ٤٩.

(٤) الأباءة أجمة القصب.

(٥) تجد القسم الكبير من هذه القصيدة في سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٨ وهي متضمنة
لبعض الأبيات التي ذكرها المؤلف.

فقالوا: حاكمنا إلى من شئت من حكام العرب، فخرجوا إلى الشام يريدون أحد كهانها وعلماؤها، فأصابهم عطش شديد، فأوصى بعضهم إلى بعض، فبيناهم على ذلك، إذ بركت ناقة عبد المطلب، فنبع الماء من بين أخفافها فشربوا، وتزودوا، وقالوا لعبد المطلب: إن الذي سقاك في هذه الأودية القفر هو الذي سقاك بمكة، فرجعوا، وسلموا له هذه المأثرة. (١)

(بيان عن قول النصارى ومسألة عليهم لا جواب لهم عنها)

اعلم أنهم يزعمون أن المسيح (ع) مجموع من شيئين: لا هوت، وناسوت، يعنون باللاهوت الله سبحانه وتعالى عما يقولون. وبالناسوت الإنسان، وهو جسم المسيح، إن هذين اتحدا، فصارا مسيحا.

ومعنى قولهم اتحدا أي صارا شيئا واحداً في الحقيقة، وهو المسيح. فيقال لهم: أنتم مجموعون معنا على أن الآله قديم، وأن الجسم محدث، وقد زعمتم أنها صارا واحداً.

فما حال هذا الواحد؟ أقديم أم محدث؟

فإن قالوا: هو قديم

قيل لهم: فقد صار المحدث قديماً، لأنه من مجموع شيئين: أحدهما محدث.

وإن قالوا: هو محدث

قيل لهم: فقد صار القديم محدثاً، لأنه من مجموع شيئين أحدهما قديم.

وهذا ما لا حيلة لهم فيه، وليس يتسع لهم أن يقولوا: بعضه قديم، وبعضه محدث، لأن هذا ليس بإتحاد في الحقيقة، ولا أن يقولوا هو قديم محدث، لتناقض ذلك واستحالة [لته]، ولا أن يقولوا: ليس هو قديم ولا محدث، فظاهر فساد ذلك أيضاً وبطلانه.

﴿

(١) تجد قصة حفر زمزم ومنازعة قريش لعبد المطلب مروية في سيرة ابن هشام ج (١) ص ١٥٤ - ١٥٨ بروايته عن علي عليه السلام مختلفة في أسلوبها عن رواية الكراچكي ومتفقة معها في المضمون.

وهذا كافٍ في إبطال الإِتِّحاد^(١) الذي ادعوه.

وقد سألهم بعض المتكلمين فقال:

إذا كنتم تعبدون المسيح، والمسيح آله وإنسان، فقد عبدتم الإنسان، وعبادة الإنسان كفر بغير اختلاف.

مسألة أخرى عليهم

قال لهم: إذا كان المسيح عندكم من مجموع شيئين: آله وإنسان، فأخبرونا عن القتل والصلب على ماذا وقع؟ أتقولون أنه وقع بها أم بأحدهما؟ فإن قالوا: بها. قيل لهم: ففي هذا أن الآله ضرب وصلب، وقُتِل، ودُفِن [وهي] فضيحة لا ينتهي إليها ذو عقل.

وإن قالوا: بل وقع ذلك على أحدهما، وهو الناسوت، لأن اللاهوت لا يجوز عليه هذا.

قيل لهم: فإذا قد صح مذهب المسلمين في أنهم ما قتلوا المسيح ولا صلبوه، لأن المسيح عندكم ليس هو الناسوت بانفراده، وإنما هو مجموع شيئين، لم يظفر اليهود إلا بأحدهما الذي [ليس] هو المسيح.

مسألة أخرى عليهم.

يقال لهم: أيجوز أن يكون جسم متحرك، وشخص آكل شارب، تحله الأعراض الحادثات، وتناله الآلام والآفات قديماً؟

فإن قالوا: يجوز ذلك، لم يأمنوا أن يكون ناسوتاً قديماً.

وإن قالوا: لا يجوز ذلك

قيل لهم: فالمسيح (ع) كانت فيه هذه الصفات معلومات مرئيات.

فإن أنكروا ذلك كابدوا وقبح^(٢) معهم الكلام.

(١) في النسخة: الإلحاد

(٢) في النسخة (وأفبح).

وإن أقرؤا به، وقالوا: ^(١) قد كان على هذه الصفات.
قيل لهم: فقد صح حدوثه، وبطل قدمه، وحصلتم عابدين لبشر مخلوق
مربوب.

فإن قالوا: إنما رأينا ناسوته المحدث، ولم نر لاهوته القديم.
قيل لهم: أو ليس من مذهبكم أنها اتحاد، وصاروا شيئاً واحداً؟
فإذا قالوا: نعم.
قيل لهم: فيجب أن يكون من رأى أحدهما فقد رآها، وإن لم يكن الأمر
كذلك فما اتحاد.

فصل آخر من قولهم وكلام عليهم.

هم يذهبون إلى أن آلههم من ثلاثة أقانيم، والإقنوم عندهم هو الجوهر،
يعنون الأصل، فالثلاثة الجواهر عندهم آله واحد، ويسمون هذه الثلاثة:
الآب، والإبن، والروح.

فيقال لهم: إذا جاز أن يكون عندهم ثلاثة أقانيم آلهاً واحداً، فلم لا يجوز
أن يكون ثلاثة آلهة أقنوماً واحداً، ويكون ثلاثة فاعلين جوهرأً واحداً، فما
أبطلوا به هذا بطل [به] قولهم سواء.

فصل من قولهم

وقد احتجوا فقالوا: وجدنا من له ابن اشرف وأفضل ممن لا ابن له، ومن
لا ابن له ناقص.

قالوا: وكذلك وجدنا من لا حياة له ميت، والروح هي الحياة، فوجب أن
تصِفَ إلهنا بالشرف والكمال، ووجود الحياة.

فيقال لهم: فقولوا: إن له بنين عدة، فإن ذلك أكثر لشرفه، وأسنى لمنزلته،

(١) في النسخة (وقال)

بل قولوا: إن له نسلاً، وإن له جداً، لأن من له ابن ابن أجل من ليس له إلا ابن فقط.

وإذا أوجبتم الروح التي زعمتم أنها الحياة، لئلا يكون ميتاً، فأوجبوا له علماً لئلا يكون جاهلاً، وقدرة لئلا يكون عاجزاً، قولوا أيضاً إن له عينيْن ليكون ناظراً، أو جميع الحواس ليكون مدركاً.

فإن قالوا: إن [كان] له ما ذكرتم، لما اتحد بالناسوت فصار مسيحاً. قيل لهم: بل يجب أن يكون له فيما لم يزل، وإلا كان ناقصاً.

فصل من الألفاظ التي يُقرُّون أن المسيح (ع) قالها، وهي دالة على بطلان مذهبهم فيه.

قوله (ع) في الإنجيل:

« لا يكون الرسول أعظم من أرسله ».

وقوله:

« من آمن بي وآمن بالذي أرسلني ».

وقوله:

« يا إلهي قد علموا أنك أنت الله وحدك لا شريك لك، وأنت أنت الله الخالق، وأنت أنت أرسلت المسيح عيسى ليبغ رسالتك، وأن نعبدك وحدك لا شريك له. »

وقال له الحواريون: أين تذهب وتدعنا فقال:

أذهب إلى إلهي وإلهكم، فأسأله أن يبعث إليكم البرقليط^(١) فإنه الذي

(١) وردت كلمة (فارقليط) و(بارقليط) في إنجيل يوحنا في ثلاث آيات.

١ - يوحنا ١٤: ١٦

« وأنا أسأل الآب (الخالق) فيعطيك فارقليطاً آخر، ليقم معكم إلى الأبد ».

٢ - يوحنا ١٥: ٢٦

ومتى جاء بارقليط سأرسله أنا إليكم من عند الآب (الخالق) روح الحق الذي من عند الخالق ينبثق، فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء. » =

يذكركم الحق، ولا يتكلم إلا بأمره، وإذا جاءكم فهو يشهد لي، ويبين لكم أمري. وزعموا أن الشيطان جرَّبَ المسيح، وأراه ملكوت الأرض، وقال له: هذا كله لي، فاسجد لي سجدة واحدة، أعطكه وأسلطك عليه، فقال له: «اعزب عني، فإن الله أمرني أن لا أسجد لغيره».

وقال الحواريون: الآن علمنا أن الله بعثك، فرفع عينه إلى السماء فقال: «رب قد بلغت رسالتك، وإنما جنة الخلد لمن علم أنك وحدك أرسلت المسيح من عندك، وقد أمرتهم يا إلهي بالذي أمرتني به. علموا أنك أرسلتني، فكيف ابتغي لك من الناس، ولا أبتغي للناس منك».

فصل:

فإن قالوا: هذا كله انما قاله المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته. قيل لهم: وما يدريكم ذلك، وبعد فهل هو صادق فيما قال أم كاذب؟ فإن قالوا: كاذب، فقد أعظموا الفرية. وقيل لهم: وما يؤمنكم أن يكون جميع ما قاله لكم كذب؟ أو كيف يتحد الآله الصادق بالإنسان الكاذب؟ وإن قالوا: إنه لم يقل إلا حقاً. قيل لهم: فأني حجة بقيت في أيديكم مع ما أقررتم بأن المسيح قاله وصدق فيه؟

= ٣ - يوحنا ١٦: ٧

«لكني أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم بارقليطا ولكن إن ذهبت أرسله لكم».

وكلمة فارقليط وبارقليط، تعنيان من له حمد كثير كمحمد وأحمد. وتجد البحث ضافياً على هذه الكلمة في كتاب إظهار الحق للهندي. أنظر البشارة الثامنة عشر ص ٥٣٨ وما بعدها، وتجد بحثاً عنها في كتاب: رسول الإسلام في الكتب السبوية للدكتور محمد الصادقي من ١٤٦ وما بعدها.

وهل هو إلا دال على ما يقول المسلمون .

وقد احتجوا بأن في الإنجيل :

« أمضي إلى أبي »

فيقال لهم: في هذا أنه شارككم بهذا اللفظ في النبوة، فإن وجب أن يكون ابنه فالجميع أبناءه .

على أنه لفظه يحتمل التأويل، ويكون معناه: ربي وربكم، وإلهي وإلهكم .
وفي هذا المختصر من الكلام عليهم كفاية والحمد لله .

رسالة كتبتها إلى أحد الإخوان، وسميتها بالبيان عن جمل
اعتقاد أهل الإيمان .

بسم الله الرحمن الرحيم .

سألت يا أخي أسعدك الله بالطفاه، وأيدك بإحسانه، وإسعافه، أن أثبت
لك جلاً من اعتقادات الشيعة المؤمنين، وفصولاً في المذهب يكون عليها بناء
المسترشدين، لتذاكر نفسك بها، وتجعلها عدةً لطالبها . وأنا اختصر لك القول
وأجمله، وأقرب الذكر وأسهله، وأورده على سنن الفتيا في المقالة، من غير
حجة ولا دلالة، وما توفيقني إلا بالله .

أعلم أن الواجب على المكلف

أن يعتقد حدوث العالم بأسره، وأنه لم يكن شيئاً قبل وجوده .

ويعتقد أن الله تعالى هو محدثٌ جميعه، من أجسامه، وأعراضه، إلا أفعال
العباد، الواقعة منهم، فإنهم محدثوها دونه سبحانه .

ويعتقد أن الله تعالى قديم وحده، لا قديم سواه، وأنه موجود لم يزل، وباق
لا يزال، وأنه شيء لا كالأشياء، لا يشبه الموجودات، ولا يجوز عليه ما يجوز
على المحدثات .

وأن له صفاتٍ يستحقها لنفسه، لا لمعان غيره، وهي كونه حياً، عالماً، قديماً،
باقياً، لا يجوز خروجه عن هذه الصفات إلى ضدها، يعلم الكائنات قبل كونها،
ولا يخفي عليه شيء منها.

وأن له صفات أفعال،^(١) لا يصح إضافتها إليه في الحقيقة، إلا بعد فعله،
وهي ما وصف به نفسه من أنه خالق، ورازق، ومُعطي، وراحم، ومالك،
ومتكلم، ونحو ذلك.

وأن له صفات مجازات، وهي ما وصف به نفسه، من أنه يريد، ويكره،
ويرضى، ويغضب.

فإرادته لفعلٍ هي الفعل المراد بعينه، وإرادته لفعل غيره، هي الأمر بذلك
الفعل.

وليس تسميتها بالإرادة حقيقةً، وإنما هو على مجاز اللغة.

وغضبه هو وجود عقابه، ورضاه هو وجود ثوابه.

وأنه لا يفتقر إلى مكان، ولا يدرك بشيءٍ من الحواس.

وأنه منزّه من القبائح، لا يظلم الناس وإن كان قادراً على الظلم^(٢) لأنه عالم
بقبحه، غني عن فعله. قوله صدق، ووعدته حق، لا يكلف خلقه ما لا يستطيع،
ولا يجرمهم صلاحاً، لهم فيه الإيتفاع، ولا يأمر بما لا يريد، ولا ينهي عما يريد.

وأنه خلق الخلق لمصلحتهم، وكلفهم لأجل منازل منفعتهم، وأزاح في
التكليف عنهم، وفعل أصلح الأشياء بهم.

وأنه أقدرهم قبل التكليف، وأوجد لهم^(٣) العقل والتمييز.

(١) وخلاصة القول في الصفات أن منها ما هو صفات الذات كالحياة والعلم وسواها وهي ليست
بزائدة على الذات، ومنها ما هو صفة له باعتبار الفعل كالرازق والخالق وما إليهما، ومنها ما هو
صفة له على نحو المجاز كالغضب والرضا وغيرهما كما أشار إلى ذلك المؤلف، بما يدل على الانفعال
المنتع في حقه تعالى.

(٢) إشارة إلى الرد على النظام أحد زعماء المعتزلة الذي ذهب إلى أن الله لا يفعل الشر لأنه لا
يقدر عليه، أما الإمامية فذهبوا إلى أنه لا يفعله مع قدرته عليه، لأنه قبيح.

(٣) في النسخة (وأوجدهم)

وأن القدرة تصلح أن يفعل بها وضده بدلاً منه .
وأن الحق الذي تجب معرفته ، تدرك بشيئين ، وهما العقل والسمع .
وأن التكليف العقلي لا ينفك عن التكليف السمعي .^(١)
وأن الله تعالى قد أوجد [للناس] في كل زمانٍ مُسمِعاً [لهم] من أنبيائه ،
وحججه بينه وبين الخلق ، ينبههم على طريق الاستدلال في العقليات ، ويفقههم
على ما لا يعلمونه إلا به من السمعيات .
وأن جميع حجج الله تعالى محيطون علماً بجميع ما يفتقر إليهم فيه العباد .
وأنهم معصومون من الخطأ والزلل عصمة اختيار .^(٢)
وأن الله فضلهم على خلقه ، وجعلهم خلفاء القائمين بحقه .
وأنه أظهر على أيديهم المعجزات ، تصديقاً لهم فيما ادعوه من الأنباء
والأخبار .

وأنهم - مع ذلك - بأجمعهم عباد مخلوقون ، وبشر مكلفون ، يأكلون ،
ويشربون ، ويتناسلون ، ويحيون بإحيائه ، ويموتون بإمامته ، تجوز عليهم الآلام
المعترضات ، فمنهم من قتل ، ومنهم من مات ، لا يقدرّون على خلقٍ ، ولا رزقٍ ،
ولا يعلمون الغيب إلا ما أعلمهم آله الخلق .
وأن أقوالهم صدق ، وجميع ما أتوا به حق .
وأن أفضل الأنبياء أولو العزم ، وهم خمسة :
نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، صلى الله عليه وآله وعليهم .

(١) إن القول بالملزمة بين حكم العقل وحكم الشرع مبني على القول بمسألة عقلية معروفة وهي
مسألة الحسن والقبح العقليين ، أما من لم يقل بهذه المسألة فلا تلازم بين حكم العقل والشرع ،
ومعنى القول بالتلازم هو أن العقل إذا أدرك حسن شيء أو قبحه وقطع به فإنه حتماً يكون
حكم الشرع على طبقه .

(٢) على نحو أن تكون هذه العصمة غير ملجئة له إلى فعل الطاعة ، بل هو قادر معها على فعل
الشر كما هو قادر على فعل الخير لم يرتفع معها شيء من الاختيار والقدرة ، وإلا لما استحق
شيئاً من الثواب والعقاب ولما صح تكليفه .

وأن محمداً بن عبدالله (ص) أفضل الأنبياء أجمعين، وخير الأولين والآخرين.

وأنه خاتم النبيين، وأن آباءه من آدم (ع) إلى عبدالله بن عبد المطلب رضوان الله عليهم، كانوا جميعاً مؤمنين، موحدين لله تعالى عارفين، وكذلك أبو طالب رضوان الله عليه.

ويعتقد أن الله سبحانه شرف نبينا (ص) بباهر الآيات، وقاهر المعجزات، فسمح في كفه الحضا، ونبع من بين أصابعه الماء، وغير ذلك مما قد تضمنته الأنبياء، وأجمع على صحته العلماء، وأتى بالقرآن المبين، الذي بهر به السامعين، وعجز عن الإتيان بمثله سائر الملحددين.

وأن القرآن كلام رب العالمين، وأنه محدث ليس بقديم.^(١)

ويجب أن يعتقد أن جميع ما فيه من الآيات، الذي يتضمن ظاهرها تشبيه الله تعالى بخلقه، وأنه يجبرهم على طاعته أو معصيته، أو يضل بعضهم عن طريق هدايته، فإن ذلك كله لا يجوز حمله على ظاهرها، وأن له تأويلاً، يلائم ما تشهد العقول به، مما قدمنا ذكره في صفات الله تعالى، وصفات أنبيائه.

(١) هذا إشارة إلى الفتنة التي حدثت بين فرق المسلمين في القرآن هل هو مخلوق أم أزلي، بعد اتفاقهم على أنه تعالى يتصف بالكلام وأنه متكلم كما هو صريح قوله تعالى: (وكلم الله موسى تكليماً) وأن القرآن كلام الله، ولكنهم اختلفوا في معنى كلامه فعند المعتزلة والشيعة أنه حادث وأنه تعالى أوجده بعد أن لم يكن موجوداً في أجسام دالة على المراد، كما أوجد الكلام في شجرة الطور لموسى (ع). وعند الأشاعرة أن الكلام صفة من الصفات اللاحقة له تعالى كغيره من الصفات الأخرى، من العلم والقدرة والحياة وغيرها وإن معنى كونه تعالى متكلماً أن هناك صفة قائمة بذاته كالعلم والإرادة، وهذه الصفة القائمة تُعبر عنها وتحكيها الكلمات والألفاظ. وهذا المعنى القائم بذاته أمر واحد عندهم ليس بنهي ولا أمر ولا خبر ولا إنشاء ولا غيرها من أساليب الكلام، ويعبرون عنه بالكلام النفسي، وما يحكيه من الألفاظ والعبارات بالكلام اللفظي.

وقد نشبت هذه الفتنة في عصر المأمون العباسي الذي تبنى القول بخلق القرآن، واشتد على من يقول بقدمه. وقد كتبنا حول هذه المسألة في كتابنا: هشام بن الحكم ص ١٤٤ - ١٤٦.

فإن عرف المكلف تأويل هذه الآيات فحسن، وإلا أجزأه أن يعتقد في الجملة أنها متشابهات، وأن لها تأويلاً ملائماً، تشهد بما تشهد به العقول والآيات المحكمات، وفي القرآن المحكم، والمتشابه، والحقيقة، والمجاز، والناسخ، والمنسوخ، والخاص، والعام.

ويجب عليه أن يقر بملائكة الله أجمعين، وأن منهم جبرئيل وميكائيل، وأنها من الملائكة الكرام، كالأنبياء بين الأنام، وأن جبرئيل هو الروح الأمين، الذي نزل بالقرآن على قلب محمد خاتم النبيين، وهو الذي كان يأتيه بالوحي من رب العالمين.

ويجب الإقرار بأن شريعة الإسلام التي أتى بها محمد (ع) ناسخة لما خالفها من شرائع الأنبياء المتقدمين.

وأنه يجب التمسك بها والعمل بما تضمنته من فرائضها، وأن ذلك دين الله الثابت الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا حلال إلا ما أحلت، ولا حرام إلا ما حرمت، ولا فرض إلا ما فرضت، ولا عبادة إلا ما أوجبت. وأن من انصرف عن الإسلام، وتمسك بغيره، كافر ضال، مخلد في النار، ولو بذل من الاجتهاد في العبادة غاية المستطاع.

وأن من أظهر الإقرار بالشهادتين كان مسلماً، ومن صدق بقلبه، ولم يشك في فرض أتى به محمد (ص) كان مؤمناً.

ومن الشرائط الواجبة للإيمان، العمل بالفرائض اللازمة، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمن.

وقوله تعالى:

(إن الدين عند الله الإسلام)^(١)

إنما أراد به الإسلام الصحيح التام، الذي يكون المسلم فيه عارفاً، مؤمناً، عالماً بالواجبات طائعاً.

(١) آل عمران: ١٩

ويجب أن يعتقد أن حجج الله تعالى بعد رسوله الذين هم خلفاؤه، وحفظة شرعه، وأئمة أئمة، اثنا عشر أهل بيته، أولهم أخوه وابن عمه، وصهره بعل فاطمة الزهراء ابنته، ووصيه على أئمة، علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، ثم الحسن بن علي الزكي، ثم الحسين بن علي الشهيد، ثم علي بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي باقر العلوم، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم علي بن موسى الرضا، ثم محمد بن علي التقي، ثم علي بن محمد المنتجب، ثم الحسن بن علي الهادي، ثم الخلف الصالح بن الحسن المهدي صلوات الله عليهم أجمعين.

لا إمامة بعد رسول الله (ص) إلا لهم (ع)، ولا يجوز الاقتداء في الدين إلا بهم، ولا أخذ معالم الدين إلا عنهم.

وأنهم في كمال العلم والعصمة من الآثام نظير الأنبياء عليهم السلام.

وأنهم أفضل الخلق بعد رسول الله عليه السلام.

وأن إمامتهم منصوص عليهم من قبل الله على اليقين والبيان.

وأنه سبحانه أظهر على أيديهم الآيات، وأعلمهم كثيراً من الغائبات، والأمر المستقبليات، ولم يعطهم من ذلك إلا ما قارن وجهاً يعمله من اللطف والصلاح.

وليسوا عارفين بجميع الضائر والغائبات على الدوام، ولا يحيطون بالعلم بكل ما علمه الله تعالى.

والآيات التي تظهر على أيديهم هي فعل الله دونهم، أكرمهم بها، ولا صنع لهم فيها.

وأنهم بشر محدثون، وعباد مصنوعون، لا يخلقون، ولا يرزقون، ويأكلون ويشربون، وتكون لهم الأزواج، وتناهم الآلام والأعلال، ويستضامون، ويخافون فيقتنون، وأن منهم من قتل، ومنهم من قبض.

وأن إمام هذا الزمان هو المهدي ابن الحسن الهادي، وأنه الحجة على العالمين، وخاتم الأئمة الطاهرين، لا إمامة لأحد بعد إمامته، ولا دولة بعد

دولته، وأنه غائب عن رعيته، غيبة اضطرارٍ وخوفٍ من أهل الضلال، وللمعلوم عند الله تعالى في ذلك الصلاح.

ويجوز أن يعرف نفسه في زمن الغيبة لبعض الناس، وأن الله عز وجل سيظهره وقت مشيئته، ويجعل له الأعوان والأصحاب، فيمهد الدين به، [و] يطهر الأرض على يديه، ويهلك أهل الضلال، ويقيم عمود الإسلام، ويصير الدين كله لله.

وأن الله عز وجل يظهر على يديه عند ظهوره الإعلام، وتأتيه المعجزات بحرق العادات، ويحيي له بعض الأموات، فإذا [أ] قام في الناس المدة المعلومة عند الله سبحانه قيضه إليه، ثم لا يمتد بعده الزمان، ولا تتصل الأيام حتى تكون شرائط الساعة، وإماتة من بقي من الناس، ثم يكون المعاد بعد ذلك.

ويعتقد أن أفضل الأئمة عليهم السلام، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأنه لا يجوز أن يسمى بأمر المؤمنين أحد سواه.

وأن بقية الأئمة صلوات الله عليهم، يقال لهم الأئمة، والخلفاء، والأوصياء، والحجج، وإن^(١) كانوا في الحقيقة أمراء المؤمنين، فإنهم لم يمنعوا من هذا الاسم لأجل معناه، لأنه حاصل لهم على الاستحقاق، وإنما منعوا من لفظه، حشمةً لأمر المؤمنين (ع).

وأن أفضل الأئمة بعد أمير المؤمنين، ولده الحسن، ثم الحسين، وأفضل الباقيين بعد الحسين، إمام الزمان المهدي (ص)، ثم بقية الأئمة بعده على ما جاء به الأثر، وثبت في النظر.

وأن المهدي (ع) هو الذي قال فيه رسول الله (ص):

«لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطول الله تعالى ذلك اليوم، حتى

(١) في النسخة (وإنهم).

يظهر فيه رجل من ولدي، يواطئ اسمه إسمي، يلاًها عدلاً وقسطاً، كما ملئت ظلاً وجوراً»^(١).

فاسمه يواطئ إسم رسول الله (ص)، وكنيته تواطئ كنيته، غير أن النهي قد ورد عن اللفظ، فلا يجوز أن يتجاوز في القول أنه المهدي، والمنتظر، والقائم بالحق، والخلف الصالح، وإمام الزمان، وحجة الله على الخلق.

(١) روى هذا الحديث وأمثاله ابن خلدون في المقدمة في الفصل الثاني والخمسين عن الترمذي وأبي داود باختلاف في بعض ألفاظه، وروى حوالى اثنين وثلاثين حديثاً، وقال في ص ٣١١ من المقدمة:

«إن جماعة من الأئمة خرّجوا أحاديث المهدي، منهم: الترمذي، وأبو داود، والبيهقي، وابن ماجه، والحاكم، والطبراني، وأبو يعلى الموصلي، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل علي، وابن عباس، وابن عمر، وطلحة، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأنس، وأبي سعيد الخدري، وأم حبيبة، وأم سلمة، وثوبان، وقرّة بن إياس، وعلي الهلالي، وعبد الله بن الحارث بن جزء».

وقد ناقش في سندها تارة، وفي متنها تارة أخرى على طريقتيه الخاصة، وهي إسقاط كل رواية تأتي عن طريق الشيعة، أو عن طريق من يميل إلى أهل البيت، أو عن طريق من يتهم بالشيعة وإن لم يكن شيعياً، أو عن طريق من يروي شيئاً من فضائل أهل البيت، أو شيئاً من معائب أعدائهم الأمويين.

ولكن برغم مناقشات ابن خلدون وغيره، فإن هناك حقيقة ثابتة، وهي أن الأحاديث في هذا الموضوع قد بلغت من الكثرة حد التواتر المعنوي، لا يمكن التشكيك في مضمونها، أو دعوى أنها موضوعة، إذ لم يحظ موضوع من المواضيع الإسلامية كموضوع قضية المهدي المنتظر، وليس له شبيه من حيث عدد الأرقام الهائلة من الأحاديث في هذا الموضوع، فقد أحصيت الأحاديث الواردة فيها من طريق أهل السنة وفي مسانيد ومؤلّفات ما يربو على أربعماية حديث عن النبي (ص)، وأحصى مجموع الأخبار الواردة من طرق الشيعة والسنة، فبلغت أكثر من ستة آلاف حديث، وهو رقم هائل لم يتوافر في أي قضية إسلامية أخرى، حتى في تلك القضايا الإسلامية الضرورية، وهو يتحدى كل شك وإنكار.

وقد وضعت عدة مؤلفات في هذا الموضوع، ومن أحسنها، كتاب منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر للشيخ لطف الله محمد جواد الصافي.

ويجب أن يعتقد أن الله فرض معرفة الأئمة (ع) بأجمعهم، وطاعتهم، وموالاتهم، والأقتداء بهم، والبراءة من أعدائهم وظالمهم... وأنه لا يتم الإيمان إلا بموالات أولياء الله، ومعاداة أعدائه، وأن أعداء الأئمة عليهم السلام كفار ملحدون في النار، وإن أظهروا الإسلام، فمن عرف الله ورسوله والأئمة الاثني عشر وتولاهم، وتبرأ من أعدائهم فهو مؤمن، ومن أنكرهم.. أو تولى أعدائهم فهو ضال هالك لا ينفعه عمل ولا اجتهاد، ولا تقبل له طاعة ولا يصح له حسنات^(١)»:

ويعتقد أن الله يزيد وينقص إذا أشاء في الأرزاق والآجال.
وأنه لم يرزق العبد إلا ما كان حلالاً طيباً.
ويعتقد أن باب التوبة مفتوح لمن طلبها، وهي الندم على ما مضى من المعصية، والعزم على ترك المعاودة إلى مثلها.
وأن التوبة ماحية لما قبلها من المعصية التي تاب العبد منها.
وتجوز التوبة من زلة، إذا كان التائب منها مقيماً على زلة غيرها لا تشبهها، ويكون له الأجر على التوبة، وعليه وزر ما هو مقيم عليه من الزلة.
وأن الله يقبل التوبة بفضله وكرمه، وليس ذلك لوجوب قبولها في العقل قبل الوعد، وإنما عُلِمَ بالسمع دون غيره.

ويجب أن يعتقد أن الله سبحانه، يميت العباد ويحييهم بعد الممات ليوم المعاد.

وأن المحاسبة حق والقصاص، وكذلك الجنة والنار والعقاب.
وأن مرتكبي المعاصي من العارفين بالله ورسوله، والأئمة الطاهرين،

(١) مكان النقاط كلمات غير واضحة.

المعتقدين لتحريمها مع ارتكابها، المسوفين التوبة منها، عصاة فساق، وأن ذلك لا يسلبهم اسم الإيمان كما لم يسلبهم إسم الإسلام.^(١)

وأنهم يستحقون العقاب على معاصيهم، والثواب على معرفتهم بالله تعالى، ورسوله، والأئمة من بعده (ص).

وما بعد ذلك من طاعتهم، وأمرهم مردود إلى خالقهم، وإن عفا عنهم فبفضله ورحمته، وإن عاقبهم فبعدله وحكمته، قال الله سبحانه:

(وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم). التوبة: ١٠٦
وأن عقوبة هؤلاء العصاة إذا شاءها الله تعالى، لا تكون مؤبدة، ولها آخر، يكون بعده دخولهم الجنة، وليسوا من جملة من توجه إليهم الوعيد بالتخليد. والعفو من الله تعالى يرجى للعصاة المؤمنين.

وقد غلطت المعتزلة فسمت من يرجو العفو مرجئاً، وإنما يجب أن يسمى راجياً.

ولا طريق إلى القطع على العفو، وإنما هو الرجاء والتجوير فقط. ويعتقد أن لرسول الله (ص) والأئمة من بعده (ع) شفاعة مقبولة يوم القيامة، ترجى للمؤمنين من مرتكبي الآثام.

ولا يجوز أن يقطع الإنسان على أنه مشفوع فيه على كل حال، ولا سبيل له إلى العلم بحقيقة هذه الحال، وإنما يجب أن يكون المؤمن واقعاً بين الخوف والرجاء.

ويعتقد أن المؤمنين الذين مضوا من الدنيا وهم غير عاصين، يؤمر بهم يوم القيامة إلى الجنة بغير حساب.

(١) صرح بهذا المفيد أستاذ المؤلف في كتابه أوائل المقالات ص ٤٨ ونسبه إلى اتفاق الإمامية أما الخوارج فتسمي مرتكب الكبيرة مشركاً وكافراً، والحسن البصري أستاذ واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، فيسمهم منافقين، وأما واصل بن عطاء فوضعهم في منزلة بين منزلتين، وقال أنهم فساق ليسوا بمؤمنين، ولا كفار، ولا منافقين. أنظر هشام بن الحكم للمعلق ص ٢٧.

وأن جميع الكفار والمشركين ، ومن لم تصح له الأصول من المؤمنين يؤمر بهم يوم القيامة إلى الجحيم بغير حساب ، وإنما يحاسب من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهم العارفون العصاة .

وأن أنبياء الله تعالى وحججه (ع) هم في القيامة المسؤولون للحساب بإذن الله تعالى ، وأن حجة أهل كل زمان يتولى أمر رعيته الذين كانوا في وقته .
وأن سيدنا رسول الله (ص) والأئمة الإثنا عشر من بعده (ع) ، هم أصحاب الأعراف الذين لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه ، ولا يدخل النار من أنكرهم وأنكروه .

وأن رسول الله (ص) يحاسب أهل وقته وعصره ، وكذلك كل إمام بعده .
وأن المهدي (ع) هو المواقف لأهل زمانه ، والمسائل للذين في وقته .
وأن الموازين [التي] توضع في القيامة ، هي إقامة العدل في الحساب ، والأنصاف في الحكم والمجازاة ، وليست في الحقيقة موازين بكفات وخيوط كما يظن العوام .

وأن الصراط المستقيم في الدنيا دين محمد وآل محمد عليه وعليهم السلام ، وهو في الآخرة طريق الجنان .

وأن الأطفال والمجانين والبله من الناس ، يتفضل عليهم في القيامة ، بأن تكمل عقولهم ، ويدخلون الجنان .^(١)

(١) وهو المعروف من رأي الإمامية ، وأول من صرح به منهم هشام بن الحكم على ما يظهر ، وتدل عليه بالإضافة إلى حكم العقل بعض النصوص عن أهل البيت (ع) وخالف الأشاعرة عدا أبا الحسن الأشعري الذين قالوا بأن الله تعالى يأمرهم بدخول نار يؤججها يوم القيامة فمن أطاع أدخل الجنة ومن عصى أدخل النار ، وجوز أبو الحسن الأشعري تعذيب الأطفال في القيامة لغيظ آبائهم ، وذهب الخوارج إلى أن حكمهم حكم آبائهم في الدنيا والآخرة من الحكم بكفرهم أو إيمانهم ، ومن نعيمهم أو عذابهم . أنظر هشام بن الحكم للمعلق ص ١٨٧ - ١٩٠ .

وأن نعيم أهل الجنة متصل أبداً بغير نفاذ، وأن عذاب المشركين والكفار متصل في النار بغير نفاذ.

ويجب أن تؤخذ معالم الدين في الغيبة من أدلة العقل، وكتاب الله عز وجل، والأخبار المتواترة عن رسول الله (ص) وعن الأئمة (ع)،^(١) وما أجمعت عليه الطائفة الإمامية، وإجماعها حجة.

فأما عند ظهور الإمام (ع) فإنه المفرع عند المشكلات، وهو المنبه على العقليات، والمُعَرِّف بالسمعيات، كما كان النبي (ص).

ولا يجوز استخراج الأحكام في السمعيات بقياس ولا إجتهد.^(٢)

فأما العقليات فيدخلها القياس والاجتهاد، ويجب على العاقل مع هذا كله ألا يقنع بالتقليد في الاعتقاد، وأن يسلك طريق التأمل والاعتبار، ولا يكون نظره لنفسه في دينه أقل من نظره لنفسه في دنياه، فإنه في أمور الدنيا يحتاج ويحترز، ويفكر ويتأمل، ويعتبر بذهنه، ويستدل بعقله، فيجب أن يكون في أمر دينه على أضعاف هذه الحال، فالغرر في أمر الدين أعظم من الغرر في أمر الدنيا.

فيجب أن لا يعتقد في العقليات إلا ما صح عنده حقه، ولا يُسَلَّم في السمعيات إلا لمن ثبت له صدقه.

(١) ما ذكره المؤلف هو رأي جماعة من علماء الإمامية، كالشريف المرتضى، وابن زهرة، وابن البراج، والطبرسي، وابن إدريس وغيرهم، فقد ذهب هؤلاء إلى عدم اعتبار الخبر الواحد إذا لم يكن مقطوع الصدور عن المعصوم، وخصوا اعتباره بما إذا كان قطعي الصدور، سواء أكان محتفياً بقرينة عقلية أو نقلية أخرى، فالهم لدى هؤلاء في اعتبار الخبر أن يفضي إلى العلم، ولو كان ذلك لإجماع أو شاهد عقلي، بل صرح المفيد في أوائل المقالات بأنه لا يجب العمل بخبر الواحد.

أما المشهور بين الإمامية بل المجمع عليه بين المتأخرين منهم فاعتبار الخبر الواحد لقياس الدليل على حجته، ولكل من الفريقين أدلة على دعواه مذكورة في كتب الأصول.

(٢) المراد بالاجتهاد هنا ليس هو استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، وإنما المراد به الاعتماد على الرأي والإستحسان والقياس، من دون الرجوع إلى القواعد والأصول التي ثبتت حجتها شرعاً

نسأل الله حسن التوفيق برحمته، وألا يجرمنا ثواب المجتهدين في طاعته .
قد أثبت لك يا أخي - أيدك الله - ما سألت، واقتصرت وما أطلت .
والذي ذكرت أصل لما تركت، والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله
وسلم .

فصل : في ذكر مولد أمير المؤمنين (ص)

روى المحدثون، وسطر المصنفون أن أبا طالب بن عبد المطلب بن هاشم،
وأمرأته فاطمة بنت أسد بن هاشم رضوان الله عليهما، لما كفلا رسول الله (ص)
استبشرا بغرقه، واستبعدا بطلعته، واتخذاه ولداً، لأنهما لم يكونا رزقا من الولد
أحدا .

ثم نشأ (ع) أشرف نشوء وأحسنه، وأفضله وأمينه، فرأى فاطمة ورغبتها في
طلب الولد، وقربانها وقتاً بعد وقت، فقال لها: يا أمه اجعلي قربانك لوجه
الله تعالى خالصاً، ولا تشركي معه أحداً، فإنه يرضاه منك ويتقبله ويعطيك
طلبتك، ويعجله .

فامتثلت فاطمة أمره، وقبلت قوله، وقربت قرباناً مضاعفاً، وجعلته لله
تعالى خالصاً، وسألته أن يرزقها ولداً صالحاً ذكراً .

فأجاب الله عز وجل دعاها، وبلغها منهاها، ورزقها من الأولاد خمسة:
عقيلاً، ثم طالباً، ثم جعفرأً، ثم علياً، ثم اختهم فاختة المعروفة بأم هاني .

فما جاء في حديثها^(١) قبل أن ترزق أولادها، أنها كانت جلست يوماً
تتحدث مع عجائز العرب والفواطم من قریش، منهن فاطمة ابنة عمرو بن
عائد بن عمران بن مخزوم جدة رسول الله (ص) لأبيه، وفاطمة ابنة زائدة بن
الأصم، وهي أم خديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة عبد الله رزام، وفاطمة

(١) تجد هذا الحديث في كتاب إثبات الوصية للمسعودي ص ١١٤، وفي بحار الأنوار ج ٣٥ ص
٤٠ نقله عن الكراجكي في الكنز .

ابنة الحارث بن عكرمة، وتام الفواطم التي انتمى إليهن رسول الله (ص)،
فاطمة أم قصي، وهي ابنة نضر.

فإنهن جلوس إذ أقبل رسول الله بنوره الباهر، وسعده الظاهر، وقد تبعه
بعض الكهان، ينظر إليه، ويطيل فراسته فيه، إلى أن أتى إليهن، فسألن
عنه، فقلن: هذا محمد ذو الشرف الباذخ، والفضل الشامخ، فأخبرهن الكاهن
بما يعلمه من رفيع قدره، وبشرهن بما سيكون من مستقبل أمره، وأنه سيبعث
نبياً، وينال منالاً عالياً، وقال: إن التي تكفله منكن في صغره، سيكفل لها
ولداً، يكون عنصره من عنصره، يختصه بسرّه وبصحبتّه، ويجبوه بمصادقته
وإخوته.

فقالت له فاطمة ابنة أسد رضوان الله عليها:

أنا التي كفلتها، وأنا زوج عمه الذي يرجوه ويؤمله.

فقال: إن كنت صادقة، فستلدين غلاماً علماً، مطواعاً لربه هماماً، اسمه
على ثلاثة أحرف، يلي هذا النبي في جميع أموره، وينصره في قليله وكثيره،
حتى يكون سيفه على أعدائه، وبابه لأوليائه، يفرج عن وجهه الكربات، ويجلو
عنه حندس الظلمات، تهاب صولته أطفال المهادر، وترتعد من خيفته من^(١)
الجلال، له فضائل شريفة، ومناقب معروفة، وصلة منيعة، ومنزلة رفيعة يهاجر
إلى النبي في طاعته، ويجاهد بنفسه في نصرته، وهو وصيه الدافن له في
حجرتّه.

قالت له أم علي (ع): جعلت أفكر في قول الكاهن، فلما كان الليل رأيت
في منامي كأن جبال الشام قد أقبلت تدب، وعليها جلابيب الحديد، وهي
تصيح من صدورهما بصوت مهول، فأسرعت نحوها جبال مكة، وأجابتها بمثل
صياحها وأهول، وهي كالشرد^(٢) المحمر، وأبو قبيس ينتفض كالفرس،

(١) في النسخة (عن)، وفي اثبات الوصية ص ١١٦: وترعد من خيفته الفرائض ويوم الجلال.

(٢) هي الناقة التي تعسرت ولادتها فلا يخرج حتى تموت، كذا في هامش النسخة، وفي اثبات
الوصية ص ١١٧: وهي كالشرر المحمر. والشرد جمع شارد وهو البعير النافر والمحمر على وزن
مكرم الناقة يلتوي في بطنها ولدها.

ونصال تسقط عن يمينه وشماله، والناس يلتقطون ذلك، فلقطت معهم أربعة
أسياف وبيضة حديد مذهبة. فأول ما دخلت مكة سقط (١) منها سيف في ماء
فغمر، وطار الثاني في الجو واستمر (٢)، وسقط الثالث إلى الأرض فانكسر،
وبقي الرابع في يدي مسلواً، فبينما أنا به أصول إذ صار السيف شبلًا، فتبينته
فصار ليثاً مهولاً (٣)، فخرج عن يدي، ومر نحو الجبال يجوب بلاطحها (٤)، ويخرق
صلادحها (٥) والناس منه مشفقون، ومن خوفه حذرون، إذ أتى محمد (ص)
فقبض على رقبته، فانقاد له كالطبية الألوف، فانتبعت وقد راعني الزمع (٦)،
والفرع، فالتمست المفسرين، فطلبت القائنين (ع) والمخبرين، فوجد كاهناً زجر
لي بجالي، وأخبرني منامي، وقال لي: أنت تلدين أربعة أولاد وبنات بعدهم، وإن
أحد البنين يغرق، والآخر يقتل في الحرب، والآخر يموت، ويبقى له عقب،
والرابع يكون إماماً للخلق، صاحب سيفٍ وحق، ذا فضلٍ وبراعة، يطيع
النبي المبعوث أحسن طاعة.

فقالت فاطمة: فلم أزل مفكرة في ذلك، ورزقت بني الثلاثة: عقيلًا،
وطالبًا، وجعفرًا.

ثم حملت بعلي (ع) في عشر ذي الحجة، فلما كان الشهر الذي ولدت فيه،
وكان شهر رمضان، رأيت في منامي، كأن عمود حديد قد انتزع من أم
رأسي، ثم سطع في الهواء حتى بلغ السماء، ثم رُدَّ إليّ، فقلت: ما هذا « فقيل
لي: هذا قاتل أهل الكفر، وصاحب ميثاق النصر، بأسه شديد، يفرع من
خيفته، وهو معونة الله لنبيه، وتأيينه على عدوه.

قالت: فولدت علياً (ع).

وجاء في الحديث:

(١) في البحار: سقطت منها سيف في ماء فقير.

(٢) في إثبات الوصية: فانتثر، ولعله تصحيف (فانتثر).

(٣) في إثبات الوصية: مستأسداً.

(٤) جمع بلطح وهو المكان الواسع.

(٥) في البحار: صلاطحها وهو بمعنى بلاطم.

(٦) الرمع بالتحريك شبه الرعدة تأخذ الانسان.

أنها دخلت الكعبة على ما جرت به عادتها، فصادف دخولها وقت ولادتها، فولدت أمير المؤمنين (ص)، داخلها، وكان ذلك في النصف من شهر رمضان^(١)، ولرسول الله (ص) ثلاثون سنة على الكمال، فتضاعف ابتهاجه به، وقام مسرته، وأمرها أن تجعل مهده جانب فراشه.

وكان يلي أكثر تربيته، ويراعيه في نومه ويقظته، ويحمله على صدره وكتفه، ويحبوه بالطفاه وتحفه، ويقول: هذا أخي وسيفي وناصري ووصيي^(٢). فلما تزوج النبي (ص) خديجة (ع) أخبرها بوجده بعلي ومحبتة، فكانت تستزيره، فتزينه، وتحليه، وتلبسه، وترسله مع ولأئدها، ويحمله خدمها، فيقول الناس: هذا أخو محمد، وأحب الخلق إليه، وقرة عين خديجة، ومن اشتملت السعادة عليه.

وكانت ألطف^(٣) خديجة تطرق منزل أبي طالب ليلاً ونهاراً، وصباحاً ومساءً.

ثم إن قريشاً أصابتها أزمة مهلكة، وسنة مجدية منهكة، وكان أبو طالب رضي الله عنه ذا مال يسير، وعيال كثير، فأصابه ما أصاب قريشاً من العدم والإضاقة، والجهد والفاقة.

فعند ذلك دعا رسول الله (ص) عمه العباس، فقال له: يا أبا الفضل إن أخاك أبا طالب كثير العيال، مختل الحال، ضعيف النهضة والغرمة، وقد ناله ما نزل بالناس من هذه الأزمة، وذوو الأرحام أحق بالرفد، وأولى من حمل الكل^(٤)، في ساعة الجهد، فانطلق بنا إليه، لنعينه على ما هو عليه، فلنجمل عنه بعض أثقاله، ونخفف عنه من عياله، يأخذ كل واحدٍ منا واحداً من بنيهِ، يسهل عليه بذلك بعض ما هو فيه.

(١) أنظر إثبات الوصية للمسعودي ص ١١٤.

(٢) المصدر ص ١١٧.

(٣) أي هدايا تیره بها.

(٤) الكل: الثقل.

فقال له العباس: نعم ما رأيته، والصواب فيما أتيت، هذا والله الفضل الكريم، والوصل الرحيم.

فلقيا أبا طالب، فصبراه، ولفضل آبائه ذكراه، وقالوا له: إنا نريد أن نحمل عنك بعض العيال، فادفع إلينا من أولادك من يخف عنك به الأثقال.

قال أبو طالب: إذا تركنا لي عقيلاً وطالباً فافعل ما شئت.

فأخذ العباس جعفرأ، وأخذ رسول الله (ص) علياً (ع)^(١) فانتجبه لنفسه، واصطفاه لهم أمره، وعول عليه في سره وجهره، وهو مسارع لمرضاته، موفق السداد في جميع حالاته.^(٢)

وكان رسول الله (ص) في ابتداء طروق الوحي إليه، كلما هتف به هاتف، أو سمع من حوله رجفة راجف، أو رأى رؤيا، أو سمع كلاماً، يخبر بذلك خديجة وعلياً (ع) ويستسرهما هذه الحال.

فكانت خديجة تثبته وتصبره، وكان علي يهنيه ويشره، ويقول له: والله يا ابن عم، ما كذب عبد المطلب فيك، ولقد صدقت الكهان فيما نسبته إليك، ولم يزل كذلك إلى أن أمر (ص) بالتبليغ. فكان أول من آمن به من النساء خديجة، ومن الذكور أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعمره يومئذ عشر سنين.^(٣)

(١) في مقاتل الطالبين ص ١٧ أن رسول الله (ص) أخذ علياً، وحمزة أخذ جعفرأ، والعباس أخذ طالباً.

(٢) تجد قصة ولادة أمير المؤمنين (ع) في اثبات الوصية ص ١١٥ - ١٢٠ مع اختلاف وزيادة.

(٣) وقال الأصبهاني: وكانت سنة يوم أسلم إحدى عشرة على أصح ما ورد من الأخبار في إسلامه (مقاتل الطالبين ص ١٧) وتنوزع في سنة يوم أسلم، فقال فرقة كانت سنة يومئذ خمس عشرة سنة، وقال آخرون ثلاث عشرة، وقيل إحدى عشر، وقيل تسع، وقيل ثمان، وقيل سبع، وقيل ست وقيل: خمس (التنبيه والإشراف ص ١٩٨).

ومما عملته لبعض الإخوان كتاب الإعلام بحقيقة إسلام
أمير المؤمنين عليه السلام وبه نستعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الجود والإكرام، الهادي إلى شريعة الإسلام، وصلاته على
خيرته من جميع الأنام، سيدنا محمد رسوله وأهل بيته المطهرة من الأثام، وسلام
الله على أول السابقين إسلاماً وإيماناً، وأخلص المصدقين إقراراً وإذعاناً،
وأنصح الناصرين سرّاً وإعلاناً، وأوضح العالمين حجة وبرهاناً، الذي كان
سبقه إلى الدخول في الإسلام، وكونه بعد الرسول الحجة على الأنام، مشاهراً
لخلق آدم (ص) في وجود الخليفة قبل المستخلف عليه، أمير المؤمنين علي بن أبي
طالب (ع)، ذي الفضائل والمناقب، ولعنة الله على باغضيه ومنكري فضله
وحاسديه .

هذا مختصر جمعت لإخواني فيه من الكلام في إسلام أمير المؤمنين (ص) ما
يجب الإتياء إليه، والإعتداد في المسألة عليه .

فصل: يجب أن يقدم القول بأن أمير المؤمنين (ص) أسلم

اعلموا - أيدكم الله - أن المخالفين لشدة عداوتهم لأمير المؤمنين ألقوا شبهةً
مَوْهُوا بها على المستضعفين، وجعلوا لها طريقاً، يسلكها من يروم نفي الإسلام
عن أمير المؤمنين (ص) .

وذلك أنهم قالوا: إنما يصح الإسلام من كان كافراً، فأما من لم يك قط ذا
كفر ولا ضلال، فلا يجوز أن يقال أنه أسلم، وإذا كان علي بن أبي طالب (ع) لم
يكفر قط، فلا يصح القول بأنه أسلم .

وهذا ملعنة من النصاب لا تخفي على أولي الألباب، يتشبهون بها إلى
القدح في أمير المؤمنين (ع)، والراحة من أن يسمعو القول بأنه أسلم قبل سائر
الناس .

وقد تعدتهم هذه الشبهة، فصارت في مستضعفي الشيعة، ومن لا خبرة له

بالنظر والأدلة، حتى إني رأيت جماعة منهم يقولون هذه المقالة، ويستعظمون القول بأن أمير المؤمنين (ع) أسلم أتم استعظام.

وقد نهتهم على أن هذه الشبهة مدسوسة عليهم، وأن أعداءهم ألقوها بينهم، فمنهم من قبل ما أقول، ومنهم من أصر على ما يقول.

وقد كنت اجتمعت بأحد الناصرين لهذه الشبهة من الشيعة، فقلت له: أتقول إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) مسلم؟

فقال: لا يسعني غير ذلك.

فقلت له: أفتقول أنه يكون مسلماً من لم يسلم؟ فقال: إن قلت بأنه أسلم، لزمي الإقرار بأنه قبل إسلامه لم يكن مسلماً.

ولكني أقول: إنه ولد مسلماً مؤمناً، فقلت: هذا كقولك إنه ولد حياً قادراً، وهو يؤدبك إلى أن الله تعالى خلق فيه الإسلام والإيمان، كما خلق فيه القدرة والحياة، ويدخل بك في مذهب أهل الجبر، ويبطل عليك القول بفضيلة أمير المؤمنين (ع) في الإسلام، وما يستحق عليه من الأجر.

فأختر لنفسك: أما القول بأن إسلامه وإيمانه فعل الله سبحانه، وأنه ولد مسلماً ومؤمناً، وإن ساقك إلى ما ذكرناه.^(١)

وإما القول بأن الله تعالى أوجده حياً قادراً ثم آتاه عقلاً، وكلفه بعد هذا، فأطاع، وفعل ما أمر به مما يستحق جزيل الأجر على فعله، فإسلامه وإيمانه من أفعاله الواقعة بحسب قصده وإيثاره، وإن أذاك في وجوده قبل فعله إلى ما وصفناه.

فحيره هذا الكلام، ولم يجد فيه حيلة من جواب.

ومما يجب أن يكلم به في هذه المسألة أهل الخلاف، أن يقال لهم:

لما زعمتم أنه لم يسلم إلا من كان كافراً؟

(١) وهو عدم استحقاقه (ع) الأجر على إسلامه لأنه مجبور عليه من فعل الله.

فإن قالوا: لأن من صح منه وقوع الإسلام فهو قبله عارٍ منه ، وإذا عري منه كان على ضده ، وضده الكفر .^(١)

قيل لهم: لمَ زعمتم أنه إذا عري منه كان على ضده؟ وما أنكرتم من أن يخلو منها ، فلا يكون على أحدهما؟

فإن قالوا: إن ترك الدخول في الإسلام هو ضده ، لأنه لا يصح اجتماع الترك والدخول ، فمضى كان تاركاً كان كافراً ، لأن معه الضد .

قيل لهم: إنما يلزم ما ذكرتم ، متى وجدت شريعة الإسلام ، ولزم العمل بها ، وعلم العبد وجوبها عليه بعد وجودها .

فأما إذا لم يكن نزل به الوحي ، ولا لزم المكلف منها أمر ولا نهي ، فالزامكم الكفر جهل وغي .

فإن قالوا: قد سمعناكم تقولون: إن الوحي لما نزل على النبي (ص) بتبليغ الإسلام دعا إليه أمير المؤمنين (ع) فلم يجبه عند الدعاء ، وقال له: أجلي الليلة ، وتعتدون هذا له فضيلة ، وفيه أنه قد ترك الدخول في الإسلام بعد وجوده .

قلنا: هو كذلك ، لكنه قبل علمه بوجوبه ، وهذه المدة التي سأل فيها الإنظار هي زمان مهلة النظر ، التي أباحها الله تعالى للمستدل ، ولو مات قبل اعتقاد الحق لم يكن على غلط ، وهكذا رأيناكم تفسرون قول إبراهيم (ع) لما رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين (الإنعام: ٧٦) إلى تمام قصته (ع) .

(١) هذه الدعوى مبنية على القول بأن التقابل بين الإيمان والكفر تقابل تقيضين أو السلب والإيجاب ، أو تقابل ضدين لا ثالث لهما .

أما إذا كان التقابل بينهما تقابل عدم وملكة ، أو تقابل ضدين لهما ثالث فلا تصح هذه الدعوى . ويبدو أن طبيعة الجواب مبنية على أن التقابل بينهما تقابل ضدين لهما ثالث ، الذي لا يلزم من نفي أحدهما إثبات الآخر .

وقوله: (إنني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين). الأنعام: ٧٨ - ٧٩ .

وتقولون: إن هذا منه كان استدلالاً، وهي في زمان مهلة النظر التي وقع عقيبها العلم بالحق.

فإن قالوا: فما تقولون في أمير المؤمنين (ع) قبل الإسلام؟، وهل كان على شيء من الاعتقادات؟

قيل لهم: الذي نقول فيه أنه كان في صغره عاقلاً مميزاً، وكان في الاعتقاد على مثل ما كان عليه رسول الله (ص) قبل الإسلام، من استعماله عقله، والمعرفة بالله تعالى وحده، وإن ذلك حصل من تنبيه الرسول (ص)، وتحريك خاطره إليه، وحصل للرسول من ألطاف الله تعالى، التي حركت خواطره إلى الإسلام والاعتبار، ولم يكن منها من سجد لوثن، ولا دان بشرع متقدم.

فأما الأمور الشرعية فلم تكن حاصلةً لهما، فلما بُعث رسول الله (ص) لزم أمير المؤمنين (ع) الإقرار به، والتصديق له، وأخذ الشرع منه.

وإنما قال له: أجلني الليلة ليعتبر فيقع له العلم واليقين مع اعتقاد التصديق لرسول رب العالمين، فلما ثبت له ذلك أَقَرَّ بالشهادتين، مجدداً للإقرار بالله سبحانه، وشاهداً ببعثة رسول الله (ص).

فإن قالوا: فأنتم إذا تقولون إن رسول الله (ص) أسلم؟ وهذا أعظم من الأولى.

قيل لهم: إن العظيم في العقول هو الإنصراف من هذا القول، فإن لم تفهموا فيه حجة العقل فما تصنعون في دليل السمع، وقد قال الله عز وجل لنبيه (ع):

(قل إنني أمرت أن أكون أول من أسلم، ولا تكونون من المشركين) الأنعام: ١٤ .

وقوله سبحانه:

(قل إن هدى هو الهدى، وأمرنا لنسلم لرب العالمين). الانعام: ٧١

وقوله: (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني، وقل للذين أوتوا الكتاب والأمة أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) آل عمران: ٢٠

ونظير ذلك كثير في القرآن، فكيف يصح هذا الإسلام من الرسول ولم يكن قط كافراً، وهل بعد هذا البيان شك يعترض عاقلاً؟؟

ثم يقال لهم: إذا كان لا يسلم إلا من كان كافراً، فما تقولون في إسلام إبراهيم الخليل (ص)، ولم يكن قط كافراً، ولا عبد وثناً، حيث قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب، يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. البقرة: ١٣٠ - ١٣١

فقد تبين لكم - أيها الإخوان ثبتكم الله على الإيمان - ما تضمنه هذا الفصل من البيان عن صحة إسلام أمير المؤمنين (ع).

وأنا أتكلم بعد هذا على الذين قالوا إنه (ص) قد أسلم، ولكن لم يكن السابق الأول، وزعمهم أن المتقدم على جميع الناس أبو بكر.

فصل: من البيان عن أن أمير المؤمنين (ع) أول بشر سبق إلى الإسلام بعد خديجة عليها السلام.

أعلموا أن أهل النصب والخلاف قد حملتهم العصبية والعناد على أن ادعوا تقدم إسلام أبي بكر على سائر الناس، وإذا هم عرجوا عن طريق المكابرة، واطلعوا في السير الظاهرة، والأخبار المتواترة، والآثار المتظافرة، والأشعار السائرة وأقوال أمير المؤمنين (ع) الظاهرة، وجدوا جميع ذلك ناطقاً بخلاف ما يزعمون، شاهداً بكذبهم فيما يدعون، قاضياً بأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) أول ذكر آمن برسول الله (ص)، وسبق إلى الإسلام، وأنه لم يتقدمه بشر من الأمة بأسرها غير خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

وقد روي: أن رسول الله (ص) بُعث يوم الاثنين، وفيه أسلمت خديجة، وإن أمير المؤمنين (ع) أسلم يوم الثلاثاء.

وعن أبي ذر وسلمان جميعاً قالاً:

أخذ رسول الله (ص) بيد علي (ع) فقال:

ألا إن هذا أول من آمن بي، وهذا أول من يضافحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر، وهذا فارون هذه الأمة، يفرق بين الحق والباطل، وهذا يعسوب الدين، والمال يعسوب الظالمين.^(١)

وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله (ص) لفاطمة (ع):
أما ترضين يا فاطمة أني زوجتك أقدمهم سلماً، وأكثرهم علماً، وأفضلهم
حليماً.^(٢)

وفي رواية أخرى:

زوجتك أقدم المسلمين سلماً، وأكثرهم علماً، وأفضلهم حليماً.^(٣)

وعن عكرمة عن ابن عباس قال:

كان لعلي بن أبي طالب أربع مناقب، لم يسبقه إليها عربي.

كان أول من صلى مع رسول الله (ص).

وكان صاحب رأيته في كل زحف، وانهزم الناس يوم المهراس وثبت.

وغسله وأدخله قبره.^(٤) والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

فأما المحفوظ من كلام أمير المؤمنين (ع) في ذلك واحتجاجه به في جملة ما له
من المناقب.

فمنه، ما حدثني به القاضي أبو الحسن أسد بن إبراهيم السلمي الحرائي
رحمه الله قال: حدثني الخطيب العتكي أبو حفص عمر بن علي، قال: أخبرنا

(١) روي في الإصابة ج ٧ قسم ١ ص ١٤٧، وفي فيض القدير ج ٤ ص ٣٥٨ أنظر: فضائل الحمسة ج ١ ص ١٨٩.

(٢) رواه الإسكافي في نقض العثمانية ص ١٩ من رسائل الجاحظ.

(٣) المصدر نفسه

(٤) أنظر: الإرشاد ص ١٧.

أبو بكر محمد بن إبراهيم البغدادي، ويعرف ذوران، قال: حدثنا الخضرمي ويعرف بطنّي، قال: حدثنا سعد بن وحب بن شيبان وعبد الرحمن بن جبلة، قالوا: حدثنا نوح بن قيس الطلاح، عن سليمان بن غالب، عن معادة بنت عبد الرحمن العدوية، قالت: سمعت علياً (ع) على منبر البصرة وهو يقول: أنا الصديق الأكبر، وأنا الفاروق بين الحق والباطل، أسلمت قبل أن يسلم أبو بكر، وآمنت قبل أن يؤمن. (١)
وجاء عنه (ع) أنه قال:

« اللهم، لا أعرف أحداً من هذه الأمة عبدك قبلي غير نبيها »
وجرى بينه وبين عثمان كلام، فقال له عثمان: وعمر خير منك، فقال له: كذبت، بل أنا خير منك ومنهما، عبدت الله قبلهما وبعدهما.
وقد تضمن ذكر تقدم إيمانه كثير من أشعاره الواردة في أخباره.
حدثني القاضي السلمي، قال أخبرني الخطيب العتكي، قال حدثني أبو العباس أحمد بن يحيى الفتات، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن يعقوب الدينوري، قال: حدثنا محمد بن عبد البلوي الأنصاري، قال: حدثنا عمارة بن زيد، قال: حدثنا بكير بن حارثة عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب، عن مالك، عن جابر بن عبد الله، قال: سمعت علياً (ع) ينشد ورسول الله (ص) يسمع:

أنا أخو المصطفى لا شك في نسي
معه ربيت وسبطاه هما ولدي
جدي وجد رسول الله منفرد
وفاطم زوجتي لا قول ذي فند
صدقته وجميع الناس في بهم
من الضلالة والإشراك ذي النكد
فالحمد لله حمداً لا شريك له
البر بالعبد والباقي بلا أمد

(١) المصدر ص ٢٠ باختلاف بالزيادة والنقصان.

قال: وتبسم رسول الله (ص) وقال: صدقت يا علي .
ومنه احتجاجه (ع) على معاوية في جواب كتابه من الشام إليه ، وقد رام
معاوية لإقتخار فيه ، فقال أمير المؤمنين (ع): يفتخر ابن أكلة الأكباد:

ثم قال عبيد الله بن أبي رافع^(١): أكتب:

محمد النبي أخي وصهري وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يضحى ويمسي يطير مع الملائك ابن أمي
وبنت محمد سلمي وعرسي مناط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ابناي منها فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طراً غلاماً ما بلغت أوان حلمي
وأوجب لي الولاء معاً عليكم خليلي يوم دوح غدير خم^(٢)

فكان (ص) يحتج بتقدم إسلامه على الكافة ، ويفتخر به في جملة مناقبه
على الأمة ، ويذكره بحضرة رسول الله (ص) ، دفعةً بعد دفعة ، وبعد رسول الله
(ص) بين الصحابة ، فما أنكر ذلك قط عليه الرسول (ص) ، وكيف ينكره عليه
وهو الشاهد له بذلك ، ولا قال له أحد من الناس لا نحتج بهذا الكلام ، فإن أبا
بكر هو الذي أسلم قبل جميع الأنام ، بل يذعن لقوله (ع) الناس ، ويعلمون
صدقه من غير اختلاف ، ويقولون فيه كما قد قال (ع) .

فمن ذلك قول سفيان بن الحرث بن عبد المطلب:

-
- (١) هو من خواص علي (ع) وكتابه ، له كتاب قضايا أمير المؤمنين (ع) وكتاب تسمية من شهد
معه (ع) الجمل وصفين والنهروان من الصحابة ، وأورده ابن حجر في التقریب وقال: كاتب
علي (ع) وهو ثقة من الثالثة أي أنه مات بعد المائة .
- (٢) روى هذه الأبيات المفيد في الفصول المختارة ج ٢ ص ٧٠ وزاد بيتاً في آخرها وهو:
فويصل ثم ويصل ثم ويصل لمن يلقي الآله غداً بظلمي

ما كنت أحسب أن الأمر منتقل
عن هاشم ثم منها عن أبي حسن
أليس أول من صَلَّى لقبلتهم
وأعرف الناس بالآثار والسنن
من فيه ما فيهم من كل صالحة
وليس في القوم ما فيه من الحسن^(١)

وجريز بن عبدالله البجلي يقول فيه مثل ذلك أيضاً، وقيس بن
سعد بن عباد له فيه أقوال كثيرة، وغيرهم ممن شهد رسول الله (ص) وسمع منه
الأخبار بتقديم إسلامه، والحال أشهر عند أهل العلم من أن يستتر، وأظهر بين
أهل النقل من أن يكتم.

غير أن الناصبة قد غلبها الهوى على التقوى، فأثرت الضلال على الهدى.
وقد احتج النصاب في تقديم إسلام أبي بكر بقول حسان:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة
فأذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية اتقاها وأعد لها
بعد النبي وأوفاهما بما حملا
الصاحب التالي الحمد مشهده
وأول الناس منهم صدق الرسلا^(٢)

(١) تجد هذه الأبيات في كتاب سليم بن قيس ص ١٦ منسوبة للعباس وتجدها في كتاب الجمل
للمفيد ص ٤٣ منسوبة لعبدالله بن أبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب مع زيادة بيتين، وفي
تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٠٣ ط النجف منسوبة لعتبة بن أبي لهب.

(٢) تجد البيت الأول والثالث في كتاب العثانية ص ٢ من رسائل الجاحظ.

واحتجاجهم بقول حسان يدل على عمى القلوب وصدأ الأبواب^(١)، أو على
تعمد التلبيس على ضعفاء الناس، وإلا فلو اعتمدوا الأنصاف علموا أن
حسان بن ثابت هو الذي تضمن شعره الإقرار لأمير المؤمنين (ع) بالأمامة
والرئاسة على الأنام لما مدحه بذلك يوم الغدير بحضرة رسول الله (ص) على
رؤوس الأشهاد بعد أن استأذن الرسول (ص) فأذن له فقال:

يناديهم يوم الغدير نبيهم
نجم واسمع بالرسول منادياً
يقول فمن مولاكم ونبيكم^(٢)
فقالوا ولم يبدو وهناك التعاميا
آهلك مولانا وأنت نبينا
ولن تجدن منا لك اليوم عاصيا
فقال له: قم يا علي فإنني
رضيتك من بعدي إماماً وهادياً

فمن كنت مولاه فهذا وليه
فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم وال وليه
وكن للذي عادى علياً معادياً^(٣)
فصوبه النبي (ص) في هذا المقال، وقال له: لا تزال يا حسان مؤيداً ما
نصرتنا بلسانك)

فكيف سمعت الناصبة تلك الأبيات التي رويت لها من قول حسان؟ ولم
تسمع عنه هذه الأبيات التي قد سارت بها الركبان بل كيف تثبت لها بما ذكرته

(١) في النسخة صدى.

(٢) في المسترشد للطبري ص ٩٦ (ووليكم) بدل نبيكم.

(٣) ذكر الأبيات الأربعة الأولى منها الطبري في المسترشد ص ٩٦. وانظر: أعلام الورى ص ١٤٠
فقد ذكر الأبيات كلها.

من شعره أن أبا بكر سبق الناس إلى الإسلام؟ ولم تثبت بما ذكرناه من شعره أيضاً أن أمير المؤمنين (ع) لجميع الناس إمام؟ وكيف احتجت ببعض قوله؟ وصدقه فيه؟ ولم تر الاحتجاج ببعض الآخر وكذبه فيه؟

أوليس إذا قالت أنه كذب فيما قاله في علي (ع) في هذه الآيات؟ أمكن أن يقال: لها بل كذب فيما حكيتموه عنه من تلك الآيات.

وإن قالت إن حسناً شاعر النبي (ص) ولسنا نكذبه، لكن نقول إنه كذب عليه في الشعر الذي رويتموه.

قل لها: فإن قال لكم قائل مثل هذا الكلام، وأنه كذب عليه في الشعر الذي ذكرتموه ما يكون الانفصال؟

وأعلم أنا لم نقل ذلك إلا لنعلمهم، لأنه لا حجة في أيديهم، وانه لا فرق بين قولهم وقول من قلبه عليهم.

ولسنا ننفي عن حسان الكذب، ولا رأينا فيه بحسن، وذلك أنه فارق الإيمان، وانحاز إلى جملة أعداء أمير المؤمنين (ع) وحصل من عصبية عثمان، فهو عندنا من أهل الضلال.

فإن قال قائل: كيف تجيزون ذلك عليه بعدما مدحه به الرسول (ص) في يوم غدیر خم وأثنى عليه؟

قلنا: إن مدحه وثناؤه عليه كان مشروطاً ولم يكن مطلقاً.

وذلك أنه قال: ما تزال مؤيداً ما نصرتنا بلسانك، وهذا يدل على أنه متى انصرف عن النصر، زال عنه التأييد واستحقاق المدحة. وقد انصرف عنها بطعونه على أمير المؤمنين (ع)، وانصبابه في شعب عدوه، وعوده في جملة من قعد عن نصرته في حرب البصرة.

ويشبه ما قال فيه النبي (ع) قول الله تعالى في ذكر أزواج نبيه ونسائه:

(يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن) الأحزاب: ٣٢

فعلق ذلك بشرط وجود التقوى، فإذا عدت كن كمن سواهن، بل كن أسوأ حالاً من غيرهن.

وأعلم - أيدك الله تعالى - أنه قد روى الخالفون عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: لما أسلم أبي جاء إلى منزله، فما قام حتى أسلمنا وأسلمت عائشة وهي صغيرة.

وروايتهم هذه دليل على تأخر إسلامه، وذلك أن مولد عائشة معروف، وزمانها معلوم، ولدت بعد البعثة بخمس سنين، وكان لها وقت الهجرة ثماني سنين، وتزوجها رسول الله (ص) بعد الهجرة بسنة، ولها يومئذ تسع سنين، وأقامت معه تسعاً، وكان لها يوم قبض (ع) ثماني عشرة سنة.

فإذا كانت يوم إسلام أبيها صغيرة، فأقل ما يكون عمرها في ذلك الوقت سنتان وهذا يدل على أن أباهما أسلم بعد البعثة بسبع سنين، فهو مقدار الزمان الذي أتت الأخبار بأن أمير المؤمنين (ع) كان يصلي فيه مع رسول الله (ص)، والناس في بهم الضلال.

وسنذكر طرفاً مما ورد في ذلك من الأخبار، فإذا كان الناس سوى أمير المؤمنين إنما أجابوا إلى الإسلام بعد سبع سنين من مبعث النبي، فليس يستحيل أن يكون أبو بكر أحد المستجيبين في هذه السنة، وليس ذلك بموجب أن يكون أولهم، لأنه قد تناصرت الأخبار بتقديم إسلام جعفر بن أبي طالب عليه، بل على غيره من الناس سوى أمير المؤمنين (ع).

حدثني القاضي أبو الحسن محمد بن علي بن محمد بن صخر الأزدي قال حدثنا عمر بن محمد بن سيف بالبصرة سنة سبع وخسين وثلاثمائة، قال حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان، قال حدثنا محمد بن صفر بن صلصال بن الدهمس بن جهل بن جندل، قال حدثني أبو ضو بن صلصال بن الدهمي قال: كنت أنصر النبي (ص) مع أبي طالب قبل إسلامي، فإني يوماً لجالس بالقرب من منزل أبي طالب في شدة القيظ، إذ خرج أبو طالب إلي شبيهاً بالملهوف، فقال لي: يا أبا الغنصقر، هل رأيت هذين الغلامين يعني النبي (ص) وعلياً (ع)، فقلت ما

رأيتها مذ جلست، فقال: قم بنا في الطلب، فلست آمن قريشاً أن تكون اغتالتها.

قال فمضينا حتى خرجنا من أبيات مكة، ثم صرنا إلى جبلٍ من جبالها، فاسترخينا إلى قلة، فإذا النبي (ص) وعلي (ع) عن يمينه، وهما قائمان بأزا، عين الشمس يركعان ويسجدان، قال: فقال أبو طالب لجعفر ابنه: صل جناح ابن عمك، فقال إلى جنب علي، فأحس بها النبي (ص)، فتقدمها وأقبلوا على أمرهم حتى فرغوا مما كانوا فيه، ثم أقبلوا نحونا، فرأيت السرور يتردد في وجه أبي طالب ثم انبعث يقول:

إن علياً وجعفرأ ثقتي عند مهم الأمور والكرب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما أخي لأمي من بينهم وأبي
والله لا يخذل النبي ولا يخذله من بني ذو حسب^(١)

وقد أتت الأخبار بأن زيد بن حارثة تقدم أبا بكر في الإسلام.

بل روي أن أبا بكر لم يسلم حتى أسلم قبله جماعة من الناس.

وروى سالم بن أبي الجعد عن محمد بن سعد بن أبي وقاص: انه قال لأبيه: كان أبو بكر أولكم إسلاماً؟ قال: لا قد أسلم قبله أكثر من خمسين رجلاً.

وأما الأخبار الواردة بأن أمير المؤمنين (ع) صلى مع رسول الله (ص) سبع سنين، والناس كلهم كانوا ضالين.

فمنها ما أخبرني به شيخنا المفيد أبو عبدالله (رض) قال: أخبرني أبو حفص عمر بن محمد الصيرفي قال: حدثنا محمد بن أبي التلج، عن أحمد بن القاسم البرقي، عن أبي صالح سهل بن صالح - وكان قد جاوز مائة سنة - قال سمعت أبا المعمر عباد بن عبد الصمد، قال سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله (ص): صلت الملائكة عليّ وعلى علي (ع) سبع سنين، وذلك أنه لم يرفع إلى السماء شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (ص) الا مني ومن علي (ع).

(١) أنظر: العذير ج ٧ ص ٣٥٦ نقله عن ديوان أبي طالب ص ٣٦ وعن كتاب الأوائل للعسكري.

ومنه ما روي عن أبي أيوب أنه قال: إن رسول الله (ص) قال: لقد صلت الملائكة عليّ وعليّ عليّ سبع سنين، لأننا كنا نصلي ليس معنا أحد غيرنا. وما رواه أبو هريرة قال قال رسول الله (ص): ان الملائكة صلت عليّ وعليّ عليّ سبع سنين قبل أن يسلم بشر.

وما رواه عباد بن يزيد قال سمعت علياً (ع) يقول:

لقد صليت مع رسول الله (ص) سبع حجج ما يصلي معه غيري إلا خديجة بنت خويلد، ولقد رأيتني أدخل معه الوادي، فلا نمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله، وأنا أسمعه.

وما روى (ع) من قوله:

أنا عبد الله، وأنا أخو رسول الله (ص) وأنا الصديق الأكبر، لا يقو لها بعدي الا كذاب مفترٍ صليت قبلهم سبع سنين.

وما رواه أبو رافع قال قال (ص) بعثت أول يوم الاثنين، وصلت خديجة آخر يوم الاثنين، وصلى علي يوم الثلاثاء من الغداة مستخفياً قبل أن يصلي مع النبي (ص) أحد سبع سنين.

(فصل في أن إسلامه (ع) كان عن بصيرة وإستدلال)

اعلم أنه لما توجهت الحجة على المخالفين بتقدم إسلام أمير المؤمنين (ع) على سائر المكلفين، قالوا: وما الفضيلة في إسلام طفل لم يلحق بدرجة العقلاء البالغين؟ وأي تكليف يتعين عليه يستحق بفعله الأجر من رب العالمين؟ وهل كان إلقاء الإسلام إليه إلا على سبيل التوقيف والتلقين الذي يفعله أحدنا مع ولده لينشأ عليه، ويصير له من الآلفين؟

وخطأ هؤلاء القوم لا يخفى للمتأملين، وضلالهم عن الحق واضح للمنصفين. وذلك أن الحال التي كان عليها رسول الله (ص) في إبتداء أمره من كتمان ما هو عليه وستره، وصلاته مختفياً في شعاب مكة، للمخافة التي كان فيه

والتقية، منتظراً لأذن الله تعالى في الاعلان والاظهار، فيبدي حينئذ أمره على تدريج، يأمن معه المضار، يقضي إلى أن يلقي ذلك إلى الأطفال والصبيان الذين لا عقول لهم، يصح معها الكتمان، والذين من عادتهم الاخبار بما علموه والاعلان.

فإذا علمنا وهذه صورة الحال، أن النبي (ص) قد خص في ابتدائها بالوقوف على سر أحد الأطفال، تحققنا أن ذلك الطفل مميز، بصحة الفعل والكمال.

وليس يستحيل حصول العقل والتمييز لابن عشر سنين، ولا تجويزه ذلك في الأمور المستبعدة عند العارفين.

والمنكر لذلك إنما يعول على الغالب في المشاهدات. والعقل لا يمنع من وجود ما ذكرناه في نادر الأوقات، بل لا يمنع من أن يجعل الله تعالى ذلك آية يخرق بها العادات.

وقد أخبر الله سبحانه عن نبيين من أنبيائه (ع) بما هو أعجب من هذا، وهما عيسى ويحيى.

فقال حاكياً كلام عيسى (ع) للناس في المهد:

(إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً)

وقال في يحيى:

(يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً)

فإن قال الخصوم: (إن هذين نبيان يصح أن يكون لهما الآيات المعجزات).

قلنا: فما المانع من يكمل الله تعالى عقل طفل في زمن نبينا (ع) ويمنحه صحة التمييز والاستدلال، ويخصه بالتكليف دون جميع الأطفال، ويكون ذلك آيةً لنبيه (ص)، وكرامة له في أخص الناس به.

ولوجه آخر من الصلاح يختص بعلمه، وليكون مع هذا كله إبانةً لوليه الذي هو حجته ووصي نبيه (ص). فما المحيل لما ذكرناه، والمانع من كونه كذلك؟

أوليس قد روي أن الشاهد الذي شهد من أهلها في قميص يوسف (ع) كان طفلاً في المهد، له سنتان، وليس بني،

وبعد فقد أوجدكم^(١) الله تعالى عياناً من أحد أئمتنا (ع) ما هو أكثر مما أنكرتموه من هذه الحال.

وهو أبو جعفر محمد بن علي بن موسى (ع)^(٢) وشهادة المأمون لما عزم على تقريبه ومصاهرته، وهو ابن تسع سنين، بالعقل والعلم والكمال^(٣)، واتفاقهم معه على أن يعتقدوا له مجلساً للامتحان، وسؤالهم يحيى بن أكثم القاضي في أن يتولى لهم ذلك، وبذلهم له الأموال، وما جرى له من عجيب الكمال في السؤال والجواب، حتى عجز يحيى، ووقف في^(٤) يديه، وأذن بالاستفادة منه، والرجوع إليه فيما لا يعلمه.

وهذا أمر قد شاركتُمونا في نقله، واتفق أصحاب الحديث^(٥) على حمله.

ولسنا نشك في أن هذا العلم والفضل لم يحصل لأبي جعفر (ع) إلا من أحد وجهين^(٦).

إما الإلهام، فهو إذاً معجز بان^(٧) به من الأنام.

(١) المرجح ان ضمير الجماعة المخاطبة وهو (كم) زائد .

(٢) هو الإمام التاسع أبو جعفر محمد بن علي الملقب بالجواد ولد سنة ١٩٥هـ وتوفي سنة ٢٢٠هـ

(٣) في النسخة أيضاً الكلام.

(٤) هكذا ورد في النسخة ولعل الصواب (بين).

(٥) في النسخة الحديثين.

(٦) في النسخة (لاحد) أيضاً.

(٧) بان أي انفصل وغاير.

وإما عن تلقين وتعليم، وكان عمره وقت تلقينه ذلك، وهو في وقت
لِلناظرة ابن تسع سنين، وقيل ثمان سنين.

أو ليس هذا أعجوبة قد نقلتموها وأقررتُم بها، وسألتموها؟

فأخبرونا كيف أقررتُم لولد أمير المؤمنين (ع) في زمن المأمون بكمال العقل
والعلم وحسن المعرفة والفهم، وهو ابن تسع سنين؟ وأنكرتُم أن يصح لأمر
المؤمنين صلوات الله عليه في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله كمال العقل
والتكليف وله عشر سنين؟

فإن قالوا: نحن لا نعترف لأبي جعفر (ع) بهذا، كانت السير قاضية بيننا
وبينهم، شاهدة للمحق^(١) منا.

ثم يقال لهم: إن لم يكن الأمر كما ذكرناه من كمال عقل أمير المؤمنين (ع)
وقت دعاء النبي (ص) له إلى الإسلام، وهو في حال سرٍ وكتمان وخوف من
الشرك والضلال، أليس يكون قد غرر بنفسه فيما ألقاه إليه، وفعل ما يشهد
العقل بقبحه، وخطأ المقدم عليه حاشا الرسول (ص) مما ينسبونه إليه.

والذي ذكرناه في أمير المؤمنين (ع) أوضح من أن يشتبه الأمر فيه.

أليس هو القائل لرسول الله (ص): انني لم أزل البارحة مفكراً فيما قلت لي،
فعرفت الحق والصدق في قولك، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له، وأنت رسول الله.

فوقع منه الإقرار بالشهادة بعد فكر ليلة كاملة.

فكيف تصح من طفل - كما زعمتم - غير عاقل أن يفكر في صحة النبوة
ليلة كاملة، حتى حصل له العلم بصدق الخبر بها بعد طول الروية؟

وهل بعد هذا لبسٌ يعترض عاقلًا هجر العصبية.

وقد روي أعجب منه عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال إن النبي (ص)

(١) في النسخة للحق أيضاً.

عرض علي علي (ع) الإسلام ، فقال له علي (ع): أنظرني الليلة ، فقال له النبي (ص): هي أمانة في عنقك ، لا تخبر بها أحداً .

فليُنظر الغافلون إلى هذا الكلام الواقع منها عليهما السلام ، وسؤال أمير المؤمنين (ع) له في التأجيل والإنظار .

هذا وهو الذي كفله ورباه ، ولم يزل طائعاً له في جميع ما يأمره ويراه . فلما أتاه الأمر رأى أن الإقدام على الإقرار به من غير علم ويقين قبيح ، سألته التأجيل .

ثم قول النبي (ص) له . إنها أمانة في عنقك لا تخبر بها أحداً ، مما تشهد العقول بأسرها أنه لا يقال إلا لمميز يكون عقله كاملاً .

ويزيد هذه الحال أيضاً بياناً ، أنه لما أسلم (ع) كان يخرج مع رسول الله (ص) إلى شعاب مكة ، فمرة يصلي معه ، ومرة أخرى يرصد له .

حتى روي أن كل واحدٍ منهما كان إذا صلى صاحبه ، حرسه ووقف يرصد له .

فهل يصح أن يختص بهذا الأمر من لا عقل له ؟ لا : ولكن قد يخفى صحته عمن لا عقل له .

والعجب أن مخالفينا يدفعون أن يكون إسلام أمير المؤمنين (ع) وهو ابن عشر سنين ، له فضيلة . ورسول الله (ص) لم يدفع ذلك ، بل كان يعده له من أول الفضائل ، ويخبر به إذا مدحه وأثنى عليه في المحافل .

والعجب أنهم ينكرون علينا الإحتجاج بتقدم إسلامه ، وهو (ص) كان يحتج بذلك بين الصحابة ، ولا ينكره أحد عليه ، ولا يقول له : وما في ذلك من الفضل ؟ وإنما أسلمت وأنت طفل لا عقل لك .

فصل في البلوغ

وأما ما ظن الخصوم من أن البلوغ إلى درجة التكليف، هو الإحتلام، وقولهم: إن أمير المؤمنين (ع) لم يكن بلغ وقت إسلامه مبلغ المحتملين، فلا يكون من المكلفين.

فظل غير صحيح. ولو كان الأمر كما زعموه لكان كل من بلغ الحلم مكلفاً، ونحن نعلم فساد ذلك، لوجود بالغين من البله والمجانين غير مكلفين.

والواجب الذي ليس عنه محيد أن يقال إن وجود العقل في الإنسان وصحة التمييز منه والإدراك، شرط في وجوب تكليف العقلية، من النظر والإستدلال ومعرفة ما لا يسع جهله من الأمد والواجبات واعتقاد الحق بأسره وإدراك الصواب.

وشرط أيضاً في صحة تعلق [تكليف] ^(١) العبادات السمعية، وإن كان أكثرها يسقط عن من لم يبلغ الإحتلام، ولا ^(٢) يعلم سقوطه إلا من جهة السمع الوارد دون ما سواه.

ولم يكن المشروع ^(٣) كله حاصلًا في ابتداء البعثة، ولا أتى الوحي وقت إسلام أمير المؤمنين (ع) لجميع العبادات السمعية، فيعلم ما هو لازم لمن لم يبلغ مما هو غير لازم.

فأما التكليف الواجب في العقول فلا يجوز أن يسقط عن من له عقل وتحصيل.. ^(٤) إذ هو بلوغ حد التكليف.

وقد بينا أن أمير المؤمنين (ع) كان كامل العقل وهو ابن عشر سنين

(١) النسخة خالية من كلمة تكليف واضفناها تصحيحاً للمعنى.

(٢) في النسخة: وإن يعلم ووضعنا مكانها كلمة (ولا يعلم) تصحيحاً للمعنى.

(٣) في النسخة للمشروع.

(٤) هنا كلمتان غير واضحين المراد.

فلزمته^(١) المعرفة بالله تعالى والرسول وجميع ما يوجب معرفة العقول^(٢)، ولزمه من التعبد المسموع ما قارن وجهاً من المصلحة له^(٣) وهذا كاف لذوي التحصيل.

وقد أوردت في هذا الكتاب من القول في إسلام أمير المؤمنين (ع) ما فيه منفعة للمؤمنين، وحجة على المخالفين، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين [وآله]^(٤) الطيبين الطاهرين.

فصل: من كلام أمير المؤمنين (ع) وحكمه.

قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه:
لا شرف أعلا من الإسلام، ولا كرم أعز من التقوى، ولا معقل أحرز من الورع، ولا شفيح أنجح من التوبة.
من ضاق صدره لم يصبر على أداء حق. من كسل لم يؤد حق الله.
من عظم أوامر الله أجاب سؤاله.
من تنزه عن حرمان الله سارع إليه عفو الله.
من تواضع قلبه لله لم يسأم بدنه طاعة الله.
الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر.
ليس مع قطيعة الرحم ناء. ولا مع الفجور غنى.
عند تصحيح الضائر تغفر الكبائر.
تصفية العمل خير من العمل.
عند الخوف يحسن العمل.

(١) في النسخة فلزمه أيضاً.

(٢) في النسخة معرفة العقول أيضاً.

(٣) هنا كلمتان غير واضحتين

(٤) النسخة خالية من كلمة وآله.

رأس الدين صحة اليقين .
أفضل ما لقيت الله به نصيحة من قلب ، وتوبة من ذنب .
إياكم والجدل فإنه يورث الشك في دين الله .
بضاعة الآخرة كاسدة فاستكثر منها في أوان كسادها .
اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .
ودخول الجنة رخيص ، ودخول النار غالٍ
التقى سائق إلى كل خير .
من غرس أشجار التقى جنى ثمار الهدى .
الكريم من أكرم عن ذل النار وجهه .
ضاحك معترف بذنبه أفضل من باكٍ مدلٍ على ربه .
من عرف عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره .
من نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره .
ومن نظر في عيوب الناس ورضاها لنفسه فذلك الأحمق بعينه .
كفاك أدبك لنفسك ما كرهته لغيرك .
اتعظ بغيرك ولا تكن متعظاً بك .
لا خير في لذة تعقب ندامة .
تمام الإخلاص تجنب المعاصي .
من أحب المكارم اجتنب المحارم .
جهل المرء بعيوبه من أعظم ذنوبه .
من أحبك نهاك ، ومن أبغضك أغراك .
ومن أساء استوحش .
من عاب عيب .
ومن شتم أجيب .
أدوا الأمانة ولو إلى قاتل الأنبياء .
الرجبة مفتاح العطب .
والتعب مطية النصب .

الشر داع إلى التقحُّم في الذنوب.
من تورط في الأمور غير ناظر في العواقب، فقد تعرض لدرجات
النوائب.
من أتى ذمياً وتواضع له ليصيب من دنياه شيئاً ذهب ثلثاً دينه.
من لزم الاستقامة لزمته السلامة.

حدثنا الشيخ المفيد أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان
القمي رضي الله عنه بمكة في المسجد الحرام، قال: حدثني أبو الفرج المعافى بن
زكريا قال حدثنا محمد بن أحمد بن أبي الثلج قال: حدثنا الحسن بن محمد بن بهرام
قال: حدثنا يوسف بن موسى الطالقاني، قال: حدثنا جرير عن ليث عن مجاهد
عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص):

لو أن الغياض أقلام، والبحر مداد، والجن حُساب، والأنس كتاب، ما
أحصوا فضائل علي بن أبي طالب.
وأُشدت^(١) لابن وكيع الشاعر^(٢) في أمير المؤمنين صلوات الله عليه هذه
الآبيات:

قالوا: علي لماذا لست تمدحه	فقلت أصبحت في ذا الفعل معذورا
صرفت مدحي إلى من نور مدحته	يعده الناس إسرافاً وتبذيراً
ولم أطق مدح من فانت فضائله	قدر المدائح منظوماً ومنشوراً
ومن جواد قريضي أن بعثت به	في مدحه من علاه عاد محسوراً

(١) في النسخة وأُشدت بيتين، وهو زيادة من الناسخ.

(٢) هو أبو محمد الحسن بن علي بن أحمد بن محمد خلف البغدادي أحد الشعراء البارعين توفي بمدينة
تنيس من ديار مصر بالقرب من دمياط سنة ٣٩٣هـ. له ديوان شعر ومن شعره:

لقد قنعت همتي بالحمول وجدت عن الرتب العالية
وما جهلت طعم طيب العلا ولكنها تؤثر العافية

ووكيع لقب جده أبي محمد بن خلف وكان فاضلاً عالماً بالقرآن والفقه والنحو والسير وله
مصنفات توفي سنة ٣٠٦هـ.

أأزعم الغيث يجي الأرض وإبله
ما زلت ذاك وذا بالوصف منهية
مقى صرفت إليه الشعر أمدحه
وظلت أتعب فيمن ليس يرفعه
سارت مآثره بالفضل ظاهرة
وأصبح الوصف منه لاستفاضته
يعد جهدي تقصيراً بمدحته
وأظنه بنى على قول المتنبي:

وتركت مدحي للوصي تعمداً
وإذا استقل^(٢) الشيء قام بنفسه
وفي هذا المعنى لأبي نؤاس في الرضا عليه السلام:

قيل لي لم تركت مدح ابن موسى
قلت لا اهتدي لمدح إمام
ولبعضهم:

لا يبلغن مدح النبي وآله
رجل يقول إذا تكلم قال لي
ومن مليح ما وجدته لابن الرومي:

لي أحمدان لديني وآخرتي
من خاتم الملك في الدنيا بخنصره
تعلقت راحتي منهم بأربعة
منهم باثنين ما استسمحت يسمح لي
فللشفاعة حسبي أحمد وعلي
ولي عليان فانظر من أعدت ولي
ومن علي كنفه خاتم الرسل
إن عشت أو مت للتأمل والأمل
كما باثنين ما استشفعت يشفع لي
وللمعيشة حسبي أحمد وعلي

(١) في ديوان المتنبي والمحفوظ هكذا: إذ كان نوراً مستطيراً شاملاً).

(٢) في الديوان والمحفوظ: وإذا استطال الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً.

فصل في فضل اقتناء الكتب

قال بعض الحكماء الكتب أصداف الحكم، تنشق [عنها] جواهر الشيم.
وقيل لآخر: ما بلغ من شهوتك للكتب ورغبتك في قراءتها؟ فقال: إذا
نشطت فهي لذتي، وإذا اغتممت فهي سلوتي.
وقال آخر: ما ورثت الأسلاف للإخلاف كنوزاً أفضل من الكتب، ولا
حلّت الآباء الأبناء حلياً أجمل من الأدب.
وليم آخر على إنفاذ المال في الكتب وترك الولد بغير عقل، فقال: إني
اعتقد لهم كتب علوم تخلّص أرواحهم، لأعق أموال تنعم أشباحهم.
وقيل لآخر: فلان مات وما خلف لولده إلا كتباً. فقال: لقد خلف لهم
مآثر لا تغفوها الأيام، وترك لهم موارث لا تنفدها الأعوام.
وقال بعض المصنفين في فضل الكتب واقتنائها:
أعلم أن الكتاب قيّد على الناس علم الدين، وأخبار الأولين، مع خفة
محمّله، وصغر جثته، صامت ما أسكته، بليغ ما استنطقته، ومن بمسامر لا
يبتدئك في حال شغلك، ولا يدعك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى
التجمل له، والتذمّم منه.
ومن لك بزائر إن شئت جعل زيارته غباً، ووروده حباً^(١) وإن شئت
لزمك لزوم ظلك، فكان منك مكان بعضك.
والكتاب هو الذي إذا نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك،
وبسط لسانك، وجوّد بيانك، وفخم ألفاظك، وعمر صدرك، ومنحك صداقه
الملوك، وتعظيم العوام، وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في
دهر.

(١) في النسخة: حباً.

قال: والكتاب هو الذي يطيعك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر، لا يقصر عنك بنوم، ولا يعتريه ملال، وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عدلت عنه لم يدع طاعتك، وإن هب ريح أعدائك لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلقاً بسببٍ ومعتصماً بحبلٍ لم [تضطرك] معه وحشة الإفراد إلى الجليس السوء.

ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق في فضول النظر، وملابسة صغار الناس وحضور ألفاظهم الساقطة، وأخلاقهم الردية، لكان في ذلك السلامة يوم القيامة، ونعم الجليس.

وقال في هذا المعنى:

والكتاب نعم الذخر والقعدة، ونعم الجليس والعقدة، ونعم السيرة والنزهة، ونعم الشغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربية، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والزميل. والكتاب وعاء مليء علماً، وظرف حشي ظرفاً، وإناء شحن مزاحاً وجداً. إن شئت كان أبين من سحبان وائل^(١)، وإن شئت كان أعني من باقل^(٢)، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فوائده، وإن شئت ألهتك نوادره، وإن شئت أشحتك مواعظه.

وبعد فمتى رأيت بستاناً يخمل في ردن، وروضة تنقلب في حجر، ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء.

ومن لك بمؤنس لا ينطق إلا بما تهوى، آمن من في الأرض، وأكتم للسر من صاحب السر.

(١) هو من ألسنة الجاهليين وخطباء الإسلام ويضرب فيه المثل في الفصاحة والبيان توفي سنة

(٥٥٤هـ) - (٦٧٣م) وفي النسخة (من تيجان وائل).

(٢) هو باقل بن عمرو بن ثعلبة الأبادي يضرب فيه المثل في العي والفهاة.

وقال: لا أعلم جاراً أبر، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، وأقل جناية، ولا أقل ملالاً، وإبراماً وخلفاً وجزافاً، ولا أقل غيبة، ولا أبعد من مرأى، ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدل، ولا أكف عن قتال من كتاب.

ولا أعلم قريباً، ولا أحسن موافاة، ولا أعجل مكافاة، ولا أحضر معرفة، ولا أخف مؤنة، ولا شجراً أطول عمراً، ولا أطيب ثمراً، ولا أقرب مجتنى، ولا أسرع إدراكاً، ولا أوجد في كل أوان من كتاب^(١)

وأنشد بعضهم:

وإذا الهموم تضيقتك ولم تجد
أحداً وملّ فؤادك الأصحابا
فاعمد إلى الكتب التي قد ضمنت
أوراقها الأشعارا والآدابا
فهي التي تنفي الهموم ولم تجد
أحداً له أدب يملُّ كتاباً

فصل:

حكى شيخنا المفيد رضي الله عنه في بعض كتبه^(٢):

قال: قد ألزم الفضل بن شاذان رحمه الله، فقهاء العامة^(٣). قولهم في الميراث، أن يكون نصيب بني العم أكثر من نصيب الولد، واضطروهم إلى الإعتراف بذلك، فقال:

-
- (١) أحسب أن هذا الفصل في وصف الكتاب هو من إنشاء المؤلف، لأنه بأسلوبه أشبه.
(٢) وهو كتاب الفصول المختارة ج ١ ص ١٢٣ - ١٢٤.
(٣) في النسخة: الناحية والتصحيح مطابق لما في الفصول المختارة. والفضل بن شاذان النيسابوري الأزدي المتوفى عام (٢٦٠هـ) وهو من شيوخ الفقه والكلام والآثار الشيعية، وله مؤلفات كثيرة أنبأها مترجموه إلى مائة وثمانين كتاباً.

خبروني عن رجل توفي وخلف ثلاثين ألف درهم، وخلف ثمانين بنتاً وابناً واحداً، كيف تقتسمون الميراث؟

فقالوا: نعطي الولد الذكر ألفي درهم، ونعطي كل بنت ألف درهم، فيكون للبنات ثمانية وعشرون ألف درهم على عددهم، ويحصل الذكر ألفا درهم، فيكون له ما قسمه الله عز وجل وأوجهه في كتابه من قوله: وللذكر مثل حظ الأنثيين.

قال لهم: فما تقولون؟ لو كان موضع الإبن ابن عم، كيف تقسم الفريضة؟ فقالوا: نعطي ابن العم عشرة آلاف درهم، ونعطي البنات كلهن عشرين ألف درهم.

فقال لهم الفضل بن شاذان رحمه الله: فقد صار ابن العم أوفر حظاً من الإبن للصلب، والإبن مسمى في التزويل، متقرباً بنفسه، وبنو العم لا تسمية لهم، وإنما يتقربون بأبيهم، وأبوهم يتقرب بجده، والجد يتقرب بأبيه، وهذا نقض للشرعة.

قال شيخنا المفيد رضي الله عنه:

وإنما لزمّت هذه الشناعة فقهاء العامة خاصة، لقولهم بأن من عدا الزوج والزوجة والأبوين، يرثون مع الولد، على خلاف مسطور الكتاب والسنة، وإنما أعطوا ابن العم عشرة آلاف درهم في هذه الفريضة، من حيث تعلقوا بقوله تعالى: (فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك). فلما بقي الثلث أعطوه لابن العم، فلحققتهم هذه الشناعة المخرجة لهم من الدين، ونجت الشيعة من ذلك والحمد لله. (١)

ووجدت في أمالي (٢) شيخنا المفيد رضي الله عنه:

(١) أنظر: الفصول المختارة ج ١ ص ١٢٢.

(٢) هذا موجود في الفصول المختارة ج ١ ص ٤٤.

أن أبا الحسن علي بن ميثم^(١) رضي الله عنه، دخل على الحسن بن سهل، وإلى جانبه ملحد قد عظمه^(٢)، والناس حوله، فقال له:

قد رأيت عجباً. قال: وما هو؟ قال: رأيت سفينة تعبّر الناس من جانب إلى جانب بغير ملّاح ولا ماصر.

قال فقال الملحد: إن هذا أصلحك الله لمجنون.

قال: وكيف؟

قال: لأنه يذكر عن خشب جماد لا حيلة له ولا قوة، ولا حياة فيه ولا عقل، أنه يعبّر الناس، ويفعل فعل الإنسان، كيف يصح هذا؟

فقال له أبو الحسن: فأيا أعجب هذا أو هذا الماء الذي يجري على وجه الأرض يمنة ويسرة بلا روح ولا حيلة ولا قوى، وهذا النبات الذي يخرج من الأرض، والمطر الذي ينزل من السماء، كيف يصح ما تزعمه من أن لا مدبر له كله؟ وأنت تنكر أن تكون سفينة تتحرك بلا مدبر وتعبّر الناس بلاح.

قال: فبهت الملحد.

فصل أجبت به بعض الإخوان عن ثلاث آيات من القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الموفق للسداد، وصلواته على حججه في العباد، مولانا محمد خاتم النبیین وآله الطاهرين.

هذه ثلاث آيات من القرآن، سألت عنها بعض أهل الإيمان، أوضحت معانيها وما يتعلق به المخالفون منها، وأجبت عن ذلك بما اقتضاه الصواب على سبيل الاختصار دون الإطناب.

(١) هو علي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم الثمار الكوفي صاحب أمير المؤمنين علي (ع) وتوفي سنة

(١٧٩هـ)، وهو من متكلمي الشيعة البارزين في عصر الرشيد. وله عدة مؤلفات.

(٢) في النسخة: قد أعظم الناس حوله وصوبناه اعتقاداً على النص الوارد في الفصول المختارة.

الآية الأولى قول الله عز وجل:

«واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت لأهلكتهم من قبل وإياي ، أفتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين .»
الأعراف: ١٥٥

المواضع المسؤول عنها من هذه الآية التي يتعلق بها المخالفون منها ثلاث مواضع:

أحدها: قول موسى عليه السلام: أفتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، فيقولون: كيف خفي على نبي الله أنه لا يجوز في العدل والحكمة أخذ العبد بجرم غيره .
الثاني: قوله: (إن هي إلا فتنتك) فزعمت المجبرة أن في هذا دلالة على أن الله تعالى يفتن العباد الفتنة التي هي الإضلال.

الثالث قوله: تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ، قالوا: وهذا بيان أنه سبحانه يفعل في طائفة من عبادة الضلال ، ويحرمهم الإيمان ، ويخص الأخرى بالهدى ويجنبها الضلال .

الجواب:

أما قول موسى (ع) (أفتهلكنا بما فعل السفهاء منا) ففيه وجهان:
أحدهما: أن الهلاك هنا هو الموت ، قال الله تعالى: (إن أمرؤ هلك ليس له ولد) (١) يعني مات ، فكأن موسى عليه السلام قال على سبيل السؤال: أتميتنا مع هؤلاء السفهاء ، وليس الموت الذي سأل عنه عقوبة ، بل على ما جوزه من اتفاق حضور الميتة ، كما اتفق هلاك العالمين في طوفان نوح عليه السلام إلا من حملت السفينة ، فكان هلاك الكفار منهم عقوبة لهم ، وهلاك الأطفال والبهائم ومن لا تكليف عليه معهم ، لحضور آجالهم .

(١) سورة النساء ١٧٦

وقامت الباء في قوله تعالى: (بما فعل السفهاء) مقام (مع)، لأنها جميعاً من حروف الحذف.

والوجه الثاني: أن يكون قوله: أفتهلكنا بما فعل السفهاء منا، خرج منه على وجه الاستبعاد لذلك والنفي والإنكار، كما يقول أحدنا للحاكم: أترك تظلمي في فعلك، أو تجور عليّ في حكمك، وهو لا يريد سؤاله بل يقصد نفي الظلم والجور عنه، واستبعاد وقوعها منه. قال جرير:

أعبدأ حل في شعبي غريباً ألؤماً لا أبأ لك واغتراباً
يريد أن لا يجتمع هذان.

وأما قوله: إن هي إلا فتنتك [فإن] ^(١) الفتنة على ضروب في الكلام، وهي في هذا المكان بمعنى الحنة والاختبار، قال الله تعالى:

(وفتناك فتوناً) ^(٢) يعني اختبارناك اختباراً، وكأنه قال: إن هي إلا فتنتك التي امتحنت بها خلقك و[اختبرتهم] ^(٣) في التكليف، لتثبت من اهتدى بها، وتعاقب من ضل [عنها] ^(٤).

وأما قوله: (تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) فإنه ذكر في هذه الآية وفي نظائرها، أنه يضل قوماً ويهدي آخرين مجملًا للقول في ذلك من غير تفسير. وكشف في آيات أخر عن يشاء أن يضلهم، ومن يريد أن يهديهم، وميزهم وصف بعضهم من بعض وبينهم، فقال في الضلال:

(ويضل الله الظالمين)

وقال: (وما يضل به القوم الفاسقين).

فأخبر أنه لا يشاء أن يضل إلا من سبقت منه الجناية، واقترب الإساءة.

(١) في النسخة (تكن).

(٢) طه: ٤٠.

(٣) في النسخة: وأخبرتهم.

(٤) في النسخة: عندها.

وقال في الهدى:

(وقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) المائدة: ١٦

وقال: (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) التغابن: ١١

فأوضح بهذه الآيات المفسرة عما ذكره في تلك الآيات المحملة.
فأما هذا الضلال منه والهدى فهو يحتمل وجوهاً: منها أن يكون الاضلال العقاب، والهدى الثواب. وجاز ذلك في الكلام، لأن الجزاء عندهم على الشيء يسمى بإسم ذلك الشيء على طريق الإيتساع، وله نظائر في القرآن.
ومنها أن يضل العَصاة عن الألفاف في الدنيا التي وعد بها أهل الإيمان.
ومنها للتسمية، فقد يقال: أكذبني فلان، إذا سمانى كاذباً، وأضلني، إذا سمانى ضاللاً. قال الشاعر^(١):

وطائفة قد أكفروني بحكم وطائفة قالوا مسيء ومجرم^(٢)

الآية الثانية

قوله سبحانه:

(وأكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، إنا هدنا إليك، قال عذابي أصيب به من أشاء، ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون). الأعراف: ١٥٦
(المواضع المسؤول عنها من هذه الآية).
الذي يسأل عنه من معانيها:

-
- (١) هو الكميت بن زيد الأسدي من ألمع شعراء الدولة الأموية وكان عالماً بلغات العرب وأيامهم خص أكثر شعره في مدح أهل البيت (ع) وأفضله الهاشميات المشهورة توفي سنة ١٢٦هـ.
(٢) هو مذهب لا مجرم، وهو من قصيدته البائية التي أولها:
طربت وما شوقاً إلى البيت أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

قوله: (إنا هدنا إليك) وما في معناه في اللغة.
وقوله: (عذابي أُصيب به من أشاء) فهو مما ينتسب به المجبرة.
وقوله: (ورحمتي وسعت كل شيء) فقد قال بعض الملحدة: إذا كانت رحمته وسعت كل شيء، فكيف لم تسع الكافر الذي لم يرحمه؟
الجواب.

أما قوله: (هدنا إليك) فمعناه تبنا إليك.
وأما قوله: (عذابي أُصيب به من أشاء) فالكلام فيه كالكلام في الضلال والهدى، وقد تقدم من الكلام في ذلك ما يستدل به على أنه تعالى لا يشاء أن يعذب إلا من عصى.

وأما قوله: (ورحمتي وسعت كل شيء) ففيه وجهان.
أحدهما: أن نعمة سبحانه في الدنيا قد شملت الخلائق ووسعت العباد، وسيكتبها في الآخرة للذين يتقون ويكونون على ما نعتهم من الصفات.
والوجه الآخر إنه أراد يقول وسعت كل شيء، أن رحمته تسع الخلائق لو دخلوها، ولا تقصر عنهم لو عملوا لها، غير أنه لا يكتبها إلا لمن اتقى وفعل الحسنى.

الآية الثالثة

قوله الله تعالى:

(الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون)
الأعراف: ١٥٧

المواضع المسؤول عنها من هذه الآية
منها قوله تعالى: (النبي الأمي) فقد ظن قوم أنه أراد بذلك عدم علمه بالخط.

ومنها قوله تعالى: (ويضع عنهم إصرهم) ما هذا الإصر والإغلال التي كانت عليهم؟

ومنها قوله: (الذين آمنوا به وعزروه ونصروه) فقد تأول قوم ذلك في أبي بكر وعمر وعثمان.

ومنها: النور الذي كان معه (ع) ما هو؟ ليقع العلم به.

الجواب:

أما قوله سبحانه (الأمي) فإنما نسبه إلى أم القرى وهي مكة، قال الله تعالى: (لتنذر أم القرى ومن حولها).

وأهلها هم الأميون، قال الله تعالى:

(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) الجمعة: ٢

وهذا كافٍ في إبطال ما ظنوه.

وأما الإصر ههنا [فـ] هو الثقل، والإثقال التي كانت عليهم، والأغلال يحتمل أن تكون الذنوب التي اقترفوها في حال الكفر والضلال، فأخبر الله سبحانه أنه يضعها عنهم إذا آمنوا به وبرسوله عليه وعلى آله السلام.

وأما قوله: (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون).

فهو مدح لمن كان على هذه الصفات، وليس فيه تسمية لأحد يزول معها الأشكال، ولا على ما ادعاه المخالفون في ذلك دليل إجماع.

ومن سبر الأخبار واطلع في صحيح السير والآثار، علم أن أبا بكر وعمر وعثمان معروون من هذه الصفات.

وهذا باب يتسع فيه الكلام، والواجب مطالبة من إدعى أن هذه الآية فيهم، بدليل على دعواه يصح بمثله الاحتجاج. فأما الآية نفسها فلا تدل على ذلك.

وأولى الأشياء أن يكون المدح فيها للذين حصل الاتفاق على استحقاقهم ما

تضمنته من الصفات، من لا ريب في صحيح إيمانهم، وعالي نصرتهم وجهادهم. من أهل البيت عليهم السلام، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب، ومن الصحابة الأخبار والنجباء الأطهار، زيد بن حارثة، وخباب، وعمار بن ياسر، وسعد بن معاذ، والمقداد، وسلمان، وأبو ذر، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو الهيثم ابن التهيان، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وإبنا سهل وعثمان، ومن في طبقتهم من أهل الإيمان، رحمة الله عليهم أجمعين.

وأما النور الذي أنزل معه فهو القرآن، ولم يسم بذلك لأن فيه أجساماً من الضياء، لكن لما يتضمنه من الحجج والبيان الذي يستنار به في شريعة الإسلام.

وقد سماه الله تعالى نوراً في موضع آخر فقال:

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » المائدة: ١٥
وقال أيضاً:

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » المائدة: ٤٦

ولم يرد أن فيها أجساماً من الضياء، وإنما أراد ما ذكرنا.

فهذا مختصر من الكلام في معاني هذه الآيات، والحمد لله الموفق للصواب وصلى الله على خيرته من خلقه محمد رسوله وآله.

ووجدت في بعض الأناجيل مكتوباً:

« إن المسيح (ع) قال: وحقاً أقول، لست الشارب مما لفظته الكروم حتى أشرب ذلك غداً في الملكوت ».

وفي هذا على النصارى حجتان:

إحدهما إن المسيح (ع) كان لا يشرب الخمر، وهو خلاف ما رواه عنه من قوله في لحم الخنزير والخمر:

« هذا لحمي فكلوه، وهذا دمي فاشربوه ».

والحجة الأخرى أن في الجنة شرباً، وإذا كان فيها شرب كان فيها أكل،
وليست تذهب النصارى إلى هذا.

فأما روايتهم عنه (ع) [أنه] قال:

« هذا لحمي فكلوه، وهذا دمي فاشربوه » فإنه يحتمل وجهاً من التأويل،
ويكون معناه التهديد، وإن كان بلفظ الأمر، كما يقول أحدنا لمن يتهدده:
أعمل ما شئت، وهو لا يريد أمره

ويقوي هذا التأويل ما تضمنه الخبر عن قوله:

هذا لحمي وهذا دمي. ونحن نعلم أن لحمه ودمه محرمان، فيصح بما ذكرناه
من أن المراد بالخبر التهديد. (١)

وأعلم أنا لم نتأول هذا الخبر توقفاً عن رده، وإنما لنعلم أنهم متهمون فيما
يروون. وإنما تأولناه تصرفاً في النظر وإقامة الحجة على الخصم. فأما ما في
القرآن من التهديد الذي هو بلفظ الأمر فواضح. أحدها قول الله سبحانه
لأبليس:

« إجلس عليهم بخيلك ورحلك وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم وما
يعدهم الشيطان إلا غروراً » الإسراء: ٦٤

وقوله تعالى:

« أعملوا ما شئتم أنه بما تعملون بصير، فصلت: ٤٠

مسألة:

إن سأل سائل عن قول الله تعالى في موضع من ذكر موسى (ع):

« وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولي مدبراً ولم يعقب » النمل: ١٠.

وعن قوله في موضع آخر:

﴿

(١) وبعبارة أوضح أن المراد به هو الزجر عنها، على معنى إن ساغ لكم أكل لحمي فكلوا اللحم
الخنزير، وإن ساغ لكم شرب دمي فاشربوا الخمر.

« فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين » الشعراء: ٣٢

وقال: ما معنى هذا الاختلاف في وصف العصا، وقد أخبر في إحدى الآيتين، أنها كانت كالجان والجان الحية الصغيرة، وذكر في الآية الأخرى أنها ثعبان مبين، والثعبان الحية العظيمة. فكيف تكون في خبر واحد بهاتين الصفتين المتباينتين؟

جواب: قلنا قد أُجيب عن هذا السؤال بأن موسى (ع) لما ألقى العصا جعلها الله تعالى على صفة الجان في سرعة حركتها وقوتها وكثرة نشاطها، وعلى صفة الثعبان في عظم خلقها وهول منظرها وكبر جسمها، فاجتمع فيه الوصفان لها، فليس تشبيهها لها بالجان في إحدى الآيتين بموجب أن يكون لشبهه في جميع صفاته، ولا تشبيهه لها بالثعبان في الآية الأخرى بدليل على أنها تماثله في سائر حالاته. وعلى هذا الجواب لا تباين في الآيتين بحمد الله ومنه.

ووجه آخر

وقد أُجيب عن ذلك بجواب آخر، وهو أن الآيتين ليستا خبراً عن حالة واحدة، بل لكل واحدة منها حال منفردة. فالحال التي كانت العصا فيها كأنها جان كانت في ابتداء النبوة، وقبل مصير موسى (ع) إلى فرعون مؤدياً للرسالة. والحال التي صارت العصا فيها ثعباناً كانت عند لقائه وإبلاغه الرسالة. وعلى هذا تدل التلاوة. ولم يبق في المسألة شبهة. والمنة لله.

فصل:

وروي في الحديث أن فضال بن الحسن بن فضال الكوفي مر بأبي حنيفة وهو في جمع كثير يملئ عليهم شيئاً من فقه حديثه، فقال فضال لصاحبه كان معه! والله لا أبرح حتى أُحجل أبا حنيفة.

فقال صاحبه: إن أبا حنيفة من قد علمت حاله وظهرت حجته.

فقال فضال: هل علت حجة على المؤمن؟

ثم دنا منه فسلم عليه وقال: يا أبا حنيفة يرحمك الله إن لي أخاً يقول: إن خير الناس بعد رسول الله (ص) علي بن أبي طالب، وأنا أقول: أبو بكر وبعده عمر، فما تقول أنت يرحمك الله؟

فأطرق أبو حنيفة ملياً ثم رفع رأسه فقال:

كفى بمكانهما من رسول الله (ص) كرماً وفخراً، أما علمت أنهما ضجيعاه، فأبي حجة أوضح لك من هذا؟

فقال له فضال: إني قد قلت لأخي هذا فقال: والله لأن كان الموضع لرسول الله (ص) دونهما فقد ظلما بدفنهما في موضع ليس لهما، وإن كان لهما فوهبا لرسول الله (ص) لقد أساءا وما أحسنا في ارتجاعهما هبتها ونكثهما عهدهما.

فأطرق أبو حنيفة ساعة ثم قال: لم يكن لهما خاصة، ولكنها نظرا في حق عائشة وحفصة، فاستحقا الدفن في ذلك الموضع بحق ابنتيهما.

فقال فضال: قد قلت له ذلك فقال: أنت تعلم أن النبي (ص) مات عن تسع، فنظرنا فإذا لكل واحدة منهن تسع الثمن، ثم نظرنا في تسع الثمن فإذا هو شبر في شبر، فكيف يستحق الرجلان أكثر من ذلك، وبعد فما بال عائشة وحفصة ترثان رسول الله (ص)، وفاطمة ابنته تمنع الميراث.

فصاح أبو حنيفة: يا قوم نحوه عني فإنه رافضي^(١)

فصل:

حدثني الحسين بن محمد بن علي الصيرفي قال حدثني القاضي أبو بكر محمد بن عمر المعروف بالجعافي قال حدثنا أبو عبدالله محمد بن سليمان بن محبوب قال: حدثنا أحمد بن عيسى الحرابي قال: حدثنا إسماعيل بن يحيى عن ابن جريح عن

(١) هذا مذكور في الفصول المختارة ج ١ ص ٤٢-٤٣. وتجدده أيضاً في احتجاج الطبرسي ص ٢٠٧. أنظر البحار ج ٤٧ ص ٤٠٠ هامش.

عطا عن ابن عباس قال كان النبي (ص) ليلة بدر قائماً يصلي ويبكي ويستعبر ويخشع ويخضع كاستطعام المسكين ويقول:

اللهم أنجز لي ما وعدتني وجز ساجداً ويخشع في سجوده ويكثر التضرع، فأوحى الله تعالى إليه: قد أنجزنا وعدك، وأيدناك بآبنا عمك علي، ومصارعهم على يديه، وكفيناك المستهزئين به. فعلينا فتوكل، وعليه فاعتمد، فأنا خير من توكلت عليه، وهو أفضل من اعتمد عليه.

وحدثني القاضي أبو الحسن أسد بن ابراهيم السلمي الحراني نزيل بغداد قال: أخبرني أبو حفص عمر بن علي العتكي الخطيب، قال: قرأت على الحسن بن أحمد البالسي [حدثكم] (١) أبو أمية محمد بن ابراهيم قال: حدثنا أبو عاصم النبيل عن أبي الجراح عن جابر بن صبيح عن أم سرحيل عن أم عطية إن رسول الله (ص)، بعث علياً عليه السلام في سرية [قالت] فرأيت رافعاً يده يقول: اللهم لا تمتني حتى تربني علياً .

وبإسناده عن العتكي قال: حدثني سعيد بن محمد قال: أخبرنا محمد بن عبد الحضري قال: حدثنا عباد بن يعقوب قال: حدثنا علي بن عباس عن الحارث بن حميرة عن القاسم بن جندب قال: سمعت رجلاً من خثعم يقول:

سمعت أسماء بنت عيسى قالت: رأيت رسول الله (ص) بشير وهو يقول: أشرق ثبير، اللهم إني أسألك بما سألك به أخي موسى أن تشرح لي صدري وأن تيسر لي من أمري، وأن تحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي، وأن تجعل لي وزيراً من أهلي، علياً أخي، أشدد به أزري وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً.

وبإسناده أيضاً عن العتكي قال أخبرني محمد بن صفوة قال: حدثني الحسن ابن علي العلوي قال: حدثني أحمد بن العلاء قال: حدثنا صباح بن يحيى المري

(١) هكذا في النسخة.

قال: حدثني خالد بن يزيد عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه عن الحسين بن علي عن أبيه عليهم السلام، قال: قال رسول الله (ص) يوم الأحزاب:

«اللهم إنك اخذت مني عبيدة بن الحرث يوم بدر وحمزة بن عبد المطلب يوم أحد، وهذا أخي علي بن أبي طالب، رب لا تدرني فرداً وأنت خير الوارثين»^(١)

فصل:

روى في الحديث أنه لما أتت الأحزاب وحاصرت المدينة وأقامت عليها بضعاً وعشرين ليلة، طاف المشركون بالخندق فلم يكن منهم من يقدم عليه غير عمرو بن عبدود، فإنه ضرب فرسه فعبه به عرضه وحصل في حيز المدينة فأخذ يزجر في ممره ومجيئه على رسول الله (ص)، وينادي بالبراز ولا يجيبه أحد، فقال رسول الله (ص) لأصحابه وهم مطيفون به: أيكم برز إلى عمرو أضمن له على الله الجنة، فلم يجبه منهم أحد، هيبة لعمرو واستعظماً لأمره. فقام علي بن أبي طالب (ع) فقال له إجلس، ونادى أصحابه دفعة أخرى فلم يقم منهم أحد، والقوم ناكسوا رؤوسهم، فقام علي بن أبي طالب (ع) فأمره بالجلوس، ونادى الثالثة، فلما لم يجبه أحد سواه، استدناه وعممه بيده وأمره بالبروز إلى عدوه، فتقدم إليه، ورسول الله (ص) يقول: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»

وكان عمرو حينئذٍ يرتجز ويقول:

ولقد مجحت من النداء	بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جن الشجاع	موقف الخصم المناجز
إني كذلك لم أزل	متسرعاً نحو الهزاهز
إن الشجاعة في الفتى	والجود من كرم الغرائز

فتقدم إليه أمير المؤمنين صلى الله عليه وهو يقول:

(١) روي بعضه في منتخب الكنز ص ٣٥ أنظر حياة أمير المؤمنين ص ٢٤٥

لا تعجلن فقد أتاك محيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجى كل فائر
إني لأرجو أن تقوم عليك نائحة الجنائز
من طعنة نجلاء يبقى ذكرها بين الهزاهز^(١)
ثم جادله فما كان بأسرع من أن صرعه أمير المؤمنين وجلس على صدره،
فلما هم أن يذبحه، وهو يكبر الله ويحمده قال له عمرو:

يا علي، قد جلست مني مجلساً عظيماً، فإذا قتلتي فلا تسبني حليتي. فقال
له أمير المؤمنين (ص): هي أهون علي من ذلك، وذبحه وأتى برأسه، وهو
يتبختر في مشيته، فقال عمر: ألا ترى يا رسول الله إلى علي، كيف يتيه في
مشيته، فقال رسول الله (ص): إنها مشية لا يمتقها الله في هذا المقام.

ثم نهض رسول الله (ص) إلى أمير المؤمنين (ع) فتلقاه ومسح الغبار عن
عينيه، فرمى الرأس بين يديه، فقال رسول الله (ص) ما منعك من سلبه؟ قال:
يا رسول الله خفت أن يلقياني بعورته، فقال النبي (ص): إبشر يا علي، فلو وزن
اليوم عملك بعمل جميع أمة محمد لرجح عملك على عملهم. وذلك أنه لم يبق
بيت من المشركين إلا وقد دخله ذل من قتل عمرو، ولم يبق بيت من المسلمين
إلا وقد دخله عز بقتل عمرو، فأنشأ أمير المؤمنين يقول:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه
ونصرت رب محمد بصواب
فضربته وتركته متجداً
كالنسر فوق دكادك ورواي
وعففت عن أثوابه ولو أنسي
كنت المقطر بزني أثوابي

(١) روي ذلك أبو جعفر الإسكافي في نقضه العثمانية للجاحظ أنظر: رسائل الجاحظ ص ٦٤ - ٦٥
وأنظر: فضائل الخمسة ج ٢ ص ٣٢٠ - ٣٢٣ فقد روى شيئاً منه عن مستدرک الصحيحين
وغيره.

لا تحسبن الله خادال دينه
ونبيهه يا معشر الأحزاب^(١)
ولما قتل علي (ص) عمراً سمع منادياً ينادي لا يرى شخصه:
قتل علي عمراً، قصم علي ظهراً، أبرم علي أمراً.
ووقعت الجفلة بالمشركون فأنهزموا أجمعين، وتفرقت الأحزاب خائفين
مرعوبين.

فروي عن جابر رحمه الله أنه قال: ما شبهت قتل علي عمراً إلا بما قصه الله
تعالى في أمر داود وجالوت، حيث يقول «فهزموهم بإذن الله وقتل داود
جالوت». «^(٢)

فصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وحكمه

العفاف زينة الفقر، الشكر زينة الغني، الصبر زينة البلاء، التواضع زينة
الحسب، الفصاحة زينة الكلام، العدل زينة الأمانة، السكينة زينة العبادة،
الحفظ زينة الرواية، خفض الجناح زينة العلم، حسن الأدب زينة العقل، بسط
الوجه زينة الحلم، الايثار زينة الزهد، بذل المجهود زينة المعروف، الخشوع
زينة الصلاة، ترك ما لا يعني زينة الورع.

جاء في الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن
أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:
أعبد الناس من أقام الفرائض.

وأزهد الناس من اجتنب المحارم. وأسخى الناس من أدّى زكاة ما له
وأتقى الناس من قال الحق فيما له وعليه.

(١) روى هذه الأبيات الطبرسي في إعلام الوري ص ١٠٠ - ١٠١ وأنظر: الإرشاد للمفيد ص ٤٥
و ٤٧.

(٢) أنظر: المصدر ص ١٩٦ والإرشاد ص ٤٧.

وأعدل الناس من رضي للناس ما يرضى لنفسه ، وكره لهم ما يكره لنفسه .
وأكيس الناس من كان أشد ذكراً للموت .
وأعبط الناس من كان في التراب في أمنٍ من العقاب يرجو الثواب .
وأغفل الناس من لم يتعظ بتغير الدنيا من حال إلى حال .
وأعظم الناس خطراً من لم يجعل للدنيا عنده خطراً .
وأعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه .
وأشجع الناس من غلب هواه .
وأكثر الناس قيمةً أكثرهم علماً .
وأقل الناس قيمةً أقلهم علماً .
وأقل الناس لذة الحسود .
وأقل الناس راحة البخل .
وأبخل الناس من بخل بما افترض الله عز وجل عليه .
وأولى الناس بالحق أعلمهم به .
وأقل الناس حرمةً الفاسق .
وأقل الناس وفاءً الملوك .
وأفقر الناس الطمع .
وأغنى الناس من لم يكن للحرص أسيراً .
وأكرم الناس أتقاهم .
وأعظم الناس قدراً من ترك المرء وإن كان محقاً .
وأقل الناس مروءةً من كان كاذباً .
وأمقت الناس المتكبر .
وأشد الناس اجتهاداً من ترك الذنوب .
وأسعد الناس من خالط كرام الناس .
وأعقل الناس من أشدهم تهمةً للناس .
وأولى الناس بالتهمة من جالس أهل التهمة .
وأبغى الناس من قتل غير قاتله ، أو ضرب غير ضاربه .

وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة .
وأحق الناس بالذنب المغتاب .
وأذل الناس من أهان الناس .
وأحزم الناس أكظمهم للغيظ .
وأصلح الناس أصلحهم للناس .
وخير الناس من انتفع به الناس .^(١)

وروى أن هذه الأبيات لأمير المؤمنين عليه السلام :

تخذتكم درعاً حصيناً لتدفعوا سهام العدى عني فكنتم نصالها
فإن أنتم لم تحفظوا لمودتي ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها
قفوا موقف المعدور عني بجانب وخلوا نبالي للعدى ونبالها

وأنشدني الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن أحمد الموسوي :

كنا نعظم بالآمال بعضكم ثم انقضت فتساوى عندنا الناس
لم تفضلونا بشيء غير واحدة هي الرجاء فسوى بيننا الياس
وأنشد لإبراهيم بن العباس كتبه إلى محمد بن عبد الملك .^(٢)

أخي بيني وبين الدهر صاحب أيننا غلبا
صديقي استقام فإن نبا دهر علي نبا
وثبت على الزمان به فعاد به وقد وثبا
ولو عاد الزمان لنا لطار به أخاً حديبا

(١) شطر من هذه الكلمات تجده في نهج البلاغة باب الحكم والأمثال وغيرها وقد رواها الصدوق في الأمالي ص ١٨ - ١٩

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول توفي سنة (٢٤٢ هـ) شاعر مجيد وأديب كبير من شخصيات الشيعة وله مدائح عدة في الإمام الرضا وأهل البيت واضطر - تقيّة - لأن يحرق كل شعره بهم ، وديوان شعره نشره عبد العزيز الميمني ضمن مجموعة الطرائف سنة ١٩٣٧ م وتجده بعض اخباره في عيون أخبار الرضا ، ص ١٤٨

وله أيضاً فيه:

كنت أخي بإخاء الزمان فلما
جفا بنا صرت حرباً عوانا
كنت أذم إليك الزمان فأصد
بحت فيك أذم الزمانا
فكنت أعدك لنا نبات
فأصبحت أطلب منك الأمانا

وله أيضاً فيه:

قدرت فلم تضرر عدواً بقدرة
وسمت به إخوانك الذل والرغا
وكنت ملياً بالقي قد يعافها
من الناس من يأبى الدنية [والذما]^(١)

مسألة:

إمرأة جامعها ستة نفر في يوم واحد، فوجب على أحدهم القتل، وعلى
الثاني الرجم، وعلى الثالث الجلد، وعلى الرابع نصف الجلد، وعلى الخامس
التعزير، ولم يجب على السادس شيء.

الجواب:

كان أحدهم ذمياً، فوجب عليه القتل، وكان الآخر محصناً مسلماً فوجب
عليه الرجم، وكان الآخر بكراً فوجب عليه الجلد، وكان الآخر عبداً فعليه
نصف الجلد، وكان الآخر صبيّاً، فعليه التعزير، وكان الآخر زوجاً فليس
عليه شيء.

(١) في النسخة والوفا.

مسألة أخرى:

رجل له جارية يملك جميعها ليس لأحد معه نصيب، لا يجزى له جماعها حتى يجامعها غيره.

جواب:

هذا رجل كان زوجاً لهذه الجارية ثم ابتاعها من سيدها، وقد كان طلقها تطليقين فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره^(١).

مسألة أخرى:

إمرأة ولدت على فراش بعلها ببغداد، فلحق نسبه برجل ببصرة، فلزمه دون صاحب الفراش، من غير أن يكون شاهد المرأة أو عرفها، أو عقد عليها، أو وطأها حلالاً أو حراماً؟.

جواب:

هذه امرأة بكر وقعت عليها ثيب في حالٍ قد قامت فيها من جماع زوجها، فحولت نطفة الرجل إلى فرجها فحملت منه، ومضى على ذلك تسعة أشهر، فتزوجت البكر في آخر التاسع برجلٍ ودخلت عليه في ليلة العقد، فولدت على فراشه ولداً تاماً، فأنكر الزوج ذلك وقررها على ضمها فاعترفت بما ذكرناه، وأقرت الفاعلة أيضاً، فلحق الولد بصاحب النطفة على ما حكم به الحسن بن علي عليها السلام، في أثرٍ مذكور^(٢).

(١) هذا وارد على رأي الإمامية القائلين بالتحريم بطليقتين للأمة حتى تنكح زوجاً غيره وأن المدار في التحريم هو حال المطلقة الزوجة فإن كانت حرة فلا تحرم إلا بثلاث طلاقات وإن كان الزوج عبداً مملوكاً، وإن كانت أمةً فإنها تحرم على طليقتين وإن كان زوجها المطلق حراً، ويدل عليه صراحةٌ صحيحةٌ الحلبي عن الصادق (ع) قال: طلاق الحرة إذا كانت تحت العبد ثلاث طليقات، وطلاق الأمة إذا كانت تحت الحر طليقتان وبمضمونها صحيحة محمد بن مسلم عن الباقر (ع) وغيرهما. ويرى بعض السنة أن الاعتبار بحال الزوج إن كان حراً فلا تحرم إلا بالثلاث وإن كانت أمة وتحرم باثنتين إذا كانت حرة وهو عيب.

(٢) تجده ذلك في مناقب أبي طالب ج ٣ ص ١٧٧.

فصل في الوعظ والزهد:

قيل لبعضهم: كيف حالك؟
قال: كيف حال من يغنى ببقائه، ويسقم بسلامته، ويؤتى من مأمنه^(١).
وقيل لبعض حكماء العرب:
من أنعم الناس عيشاً؟
فقال: من تحلى بالعفاف، ورضي بالكفاف، وتجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف.

قيل: فمن أعلمهم؟
فقال: من صمت فادّكر، ونظر فاعتبر، ووعظ فازدجر.
وروي: ان الله تعالى يقول:
يا ابن آدم، في كل يوم يؤتى رزقك وأنت تحزن، وينقص عمرك وأنت لا تحزن، تطلب ما يطغيك، وعندك ما يكفيك.
وقيل: أغبط الناس من اقتصد فقنع، ومن قنع فك رقبته من عبودية الدنيا وذل المطامع.

وقيل: الفقير من طمع، والغني من قنع.
وقيل: من كان له من نفسه واعظ، كان عليه من الله حافظ.
وقيل: لا يزال العبد بخير ما دام له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همه.

ووعظ رجل فقال:
عباد الله، الحذر الحذر، فوالله لقد ستر، حتى كأنه قد غفر، ولقد أمهل حتى كأنه قد أهمل^(٢).

(١) هذه الكلمة للإمام علي (ع) وهي مذكورة في النهج في القسم الثالث رقم ١١٥.
(٢) هذه الكلمة لأمر المؤمنين علي عليه السلام وهي مذكورة في النهج في الباب الثالث رقم ٢٩.

وقيل: العجب لمن يغفل وهو يعلم أنه لا يُغفل عنه، وأن يهنئه عيشه وهو لا يعلم إلى ماذا يصير أمره.

وقيل: إن للباقي بالفاني معتبر، أو للآخر بالأول مزدجر، فالسعيد لا يركن إلى الخُدَع، ولا يغتر بالطمع.

قال آخر: كيف اذخر عملي ولست أدري متى يحل أجلي؟ أم كيف تشتد حاجتي إلى الدنيا، وليست بداري؟ أم كيف أجمع وفي غيرها قراري، أم كيف لا أمهد لرجعتي قبل انصراف مُدَّتِي؟

وقال عمر بن الخطاب لأبي ذر الغفاري: عظمي. قال له: ارض بالقوت، وخف الفوت، وأجعل صومك الدنيا، وفطرك الموت.

وقال آخر: عجباً لمن تكتحل عينه برقاد، والموت ضجيعها على وساد.
وقال آخر: نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب الله.

وقال آخر: عجي لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء، ولا يحتمي من الذنوب مخافة النار.

وقيل: كيف يصفو عيش من هو عما عليه، مأخوذ بما لديه، محاسب على ما وصل إليه.

وقال آخر: عجباً لمن يقصر عن الواضحة، وهو يعمل بالفاضحة.
وقيل: إذا زلت فارجع، وإذا أذنبت فاقلع، وإذا أسأت فاندم، وإذا ائتمنت فاكتم.

وقال المسيح عليه السلام:

تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل.

وقال عليه السلام: إذا عملت الحسنة فאלه عنها، فإنها عند من لا يضيعها، وإذا عملت السيئة فاجعلها نصب عينيك.

وقيل لحكيم: لِمَ تدمن إمساك العصا، ولست بكبير ولا مريض؟ قال لِأَعْلَمَ أَنِّي مسافر.

وقيل: من أحسن عبادة الله في [شبيته] ^(١) لَقَّاه الله الحكمة في بلوغه أشده، وذلك قوله سبحانه:

«ولما بلغ أشده أثنياه حكماً وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين». سورة يوسف: ٢٢

ولا بأس أن يعذل المقصر المقصر، قال بعضهم: لا ينعكم معاشر السامعين سوء ما تعلمون منا، أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا.

قال الخليل بن أحمد: اعبل بعلمي، ولا يضرك تقصيري. نعوذ بالله أن يكون ما علمنا حجةً علينا لا لنا.

أنظر يا أخي لنفسك، ولا تكن ممن: جمع علم العلماء، وطرائف الحكماء، وجرى في العمل مجرى السفهاء.

حدثني الحسين بن محمد بن علي الصيرفي، قال حدثني أبو بكر محمد بن علي الجعابي، قال حدثنا أبو محمد القاسم بن محمد بن جعفر العلوي، قال حدثني أبي عن أبيه، عن آبائه عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله (ص):

«للمسلم على أخيه ثلاثون حقاً، لا براءة له إلا الأداء أو العفو: يغفر زلته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقلل عثرته، ويقبل معذرتة، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويعود مرضته، ويشهد ميته، ويحيب دعوته، ويقلل هديته، ويكافيء صلتة، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألتة، ويسمت عطستة، ويرشد ضالته، ويرد سلامه، ويطيب كلامه، ويبر انعامه، ويصدق أقسامه، ويوالي وليه، ويعادي عدوه، وينصره ظالماً ومظلوماً، فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقه، ولا يسلمه، ولا يخلده، ويجب له من الخير ما يجب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه».

(١) في النسخة مشيته.

ثم قال عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن أحدم ليدع من حقوق أخيه شيئاً، يطالبه به يوم القيامة، فيقضي له وعليه... (١).

وحدثني القاضي أبو الحسن محمد بن علي بن محمد بن صخر الأزدي، قال: حدثنا أبو زيد عمرو بن أحمد العسكري بالبصرة، قال: حدثنا أبو أيوب، قال: حدثنا أحمد بن الحجاج، قال: حدثنا ثوبان بن إبراهيم عن مالك بن مسلم عن أبي مريم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله (ص) قال: «تُعرض أعمال الناس في كل جمعة مرتين: يوم الاثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد مؤمن إلا من كانت بينه وبين أخيه شحاء، فيقال: اتركوا هذين حتى يصطلحا...»

مسألة فقهية لأبي النجا:

أُتُعرف من قد باع من مهر أمه
أباه فوقاًها بحق صداقها
وكانت قديماً أشهدت كل من رأت
بأن أباه قد أبت طلاقها

الجواب:

إذا أنت عقدت المسائل ملغزاً
أنتك جوابات تحل وثاقها
تزوج عبد حرة أنجبت فتى
وصادفه قول أبان فراقها
فأنكحها مولاه من بعد رغبة
لما قد رأى منها وأسنى صداقها

(١) رواه الشهد الثاني زين الدين العاملي الجبلي في آخر رسالته في الغيبة المطبوعة مع كشف الفوائد وحقائق الإيمان وأسرار الصلاة ص ٢٦٠ - ٢٦١ - بسنده عن الكراجكي المؤلف.

فوكلت ابن العبد في قبض مهرها
وأفلس مولاه وأبدي عتاقها
فباع الوكيل العبد بالحكم إذ رأى
هوى أمه في بيعها وارتفاقها

تفسير الجواب:

هذه امرأة حرة، فتزوجت عبداً، فولدت منه ابناً، ثم طلقها العبد،
فأنكحها مولاه بصدّاق مسمى، فوكلت ابنها من العبد بقبض مهرها، وفلس
المولى، فقضي لها العبد في واجبها، فوكلت ابنها في بيعه لاستيفاء صداقها.

فصل في ذكر مجلس جرى لي ببليس^(١):

حضرت في سنة ثمان عشرة وأربعماية مجلساً، فيه جماعة من يجب استماع
الكلام، ومطلع نفسه فيه إلى السؤال، فسألني أحدهم، فقال: كيف يصح لكم
القول بالعدل^(٢) والإعتقاد بأن الله تعالى لا يجوز عليه الظلم؟ مع قولكم أنه
سبحانه يعذب الكافر في يوم القيامة بنار الأبد، عذاباً متصلاً غير منقطع، وما
وجه الحكمة والعدل في ذلك؟

وقد علمنا أن هذا الكافر وقع منه كفر في مدة متناهية، وأوقات
محصورة، وهي مائة سنة في المثل، وأقل وأكثر، فكيف جاز في العدل عذابه
أكثر من زمان كفره؟

والأزعم أن عذابه متناه كعمره، ليستمر القول بالعدل، وتزول
مناقضتكم لما تنفون عن الله تعالى من الظلم.

(١) بليس بكسر الباءين وسكون اللام وياء وسين مهملة مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة
فراسخ على طريق الشام، كان يسكنها عبس بن بغيض، فتحت سنة ١٩/١٨ هـ على يد عمرو
بن العاص، وقال:

جزى عرباً ببليس رهياً بمعاتها تقرر بذاك عيونها
كراكر من قيس بن عيلان ساهراً جفون ظباها للعلى وجفونها

كذا ذكره ياقوت في العجم م اس ٤٧٩
(٢) في النسخة بالقول

الجواب:

فقلت له: سألت فافهم الجواب.

اعلم أن الحكمة لما اقتضت الخلق والتكليف، وجب أن يرغب العبد فيما أمره به من الإيمان بغاية الترغيب، ويزجره عما نهى عنه في الكفر بغاية التخويف والترهيب، ليكون ذلك أدعى له إلى فعل المأمور به، وأزجر له عن ارتكاب المنهي عنه.

وليس غاية الترغيب إلا الوعد بالنعيم الدائم المقيم، ولا يكون غاية التخويف والترهيب، إلا التوعيد بالعذاب الخالد الأليم.

وخلف الخبر كذب، والكذب لا يجوز على الحكيم. فبان بهذا الوجه، أن تخليد الكافر في العذاب الدائم، ليس بخارج عن الحكمة، والقول به مناقض للأدلة.

فقال صاحب المجلس:

قد أتيت في جوابك بالصحيح الواضح، غير أنا نظن بقيةً في السؤال، تطلع نفوسنا إلى أن نسمع عنها الجواب، وهي:

أن الحال أفضت إلى ما ينفر^(١) منه العقل، وهو أن عذاب أوقات غير محصورة، يكون مستحقاً على ذنوب مدة متناهية محصورة.

فقلت له: أجل، إن الحال قد أفضت إلى أن الهالك على كفره، يعذب بعذاب تقدير زمانه أضعاف زمان عمره، وهذا هو السؤال بعينه. وفي مراعاة ما أجبت به عنه بيان أن العقل لا يشهد به، ولا ينفر منه. على أنني آتي بزيادة في الجواب مقنعة في هذا الباب.

فأقول: إن المعاصي تتعاضد في نفوسنا على قدر نعم المعصي بها. ولذلك عظم عقوق الولد لوالده لعظم إحسان الوالد عليه، وجلت جناياه العبد على سيده، لجليل إنعام السيد عليه. فلما كانت نعم الله تعالى أعظم قدراً، وأجل أثراً من أن توفى بشكر، أو تحصى تحصر، وهي الغاية في الإنعام، الموافق

(١) في النسخة: ينفر.

لمصالح الأنفس والأجسام، كان المستحق على الكفر به، وحجده إحسانه ونعمه، هو غاية الآلام، وغايتها هو الخلود في النار.

فقال رجل ينتمي إلى الفقه كان حاضراً:

قد أجاب صاحبنا الشافعي عن هذه المسألة بجوابين، هما أجلى وأبين مما ذكرت.

قال له السائل: وما هما؟

قال: أما أحدهما فهو أن الله سبحانه، كما ينعم في القيامة [على] من وقعت منه الطاعة في مدة متناهية بنعيم لا آخر له ولا غاية، وجب قياساً على ذلك أن يعذب من وقعت منه المعصية في زمانٍ محصور متناهٍ، بعذاب دائم غير منقضى ولا متناهٍ.

قال: والجواب الآخر، أنه خلد الكفار في النار لعلمه أنهم لو بقوا أبداً لكانوا كفاراً.

فاستحسن السائل هذين الجوابين منه استحساناً مفرطاً، إما لمغايظتي بذلك، أو لمطابقتها ركالة فهمه.

فقال صاحب المجلس: ما تقول في هذين الجوابين؟

فقلت: اعفني من الكلام، فقد مضى في هذه المسألة ما فيه كفاية.

فأقسم علي وناشدني.

فقلت: إن المعهود من الشافعي والمحفوظ منه كلامه في الفقه وقياسه في الشرع.

أما أصول العبادات والكلام في العقليات فلم تكن من صناعته.

ولو كانت له في ذلك بضاعة لاشتهرت، إذ لم يكن خامل الذكر.

فمن نسب إليه الكلام فيما لا يعلمه على طريق القياس والجواب، فقد سبه، من [حيث] أن فساد هذين الجوابين لا يكاد يخفى عمن له أدنى تحصيل.

أما الأول منها وهو مماثلته بين إدامة الثواب والعقاب، فإنه خطأ في العقل والقياس، وذلك أن مبتدئ النعم المتصلة في تقدير زمانٍ أكثر من زمان

الطاعة، إن لم يكن ما يفعله مستحقاً، كان تفضلاً، ولا يقال للمتفضل المحسن: لم تفضلت وأحسن، ولا للجواد النعم، لم جُدت وأنعمت.

وليس كذلك المعذب على المعصية في تقدير زمان زائد على زمانها، لأن ذلك إن لم يكن مستحقاً كان ظلماً، تعالى الله عن الظلم. فالمطالبة بعله المماثلة بين الموضعين لازمة، والمسألة مع هذا الجواب عما يوجب التخليد قائمة. والعقلاء مجمعون على أن من أعطى زيداً على فعله أكثر من مقدار أجره، فليس له - قياساً على ذلك - أن يعاقب عمراً على ذنبه بأضعاف ما يجب في جرمه.

وأما جوابه الثاني فهو وإن كان ذكره بعض الناس، لاحقاً بالأول في السقوط، لأنه لو كان تعذيب الله عز وجل للكافر بعذاب الأبد، إنما هو لأنه علم منه أنه لو بقي أبداً كافراً، لكان إنما عذابه على تقدير كفر لم يفعله. وهذا هو الظلم في الحقيقة، الذي يجب تنزيه الله تعالى عنه، لأن العبد [لم] ^(١) يفعل الكفر إلا مدة محصورة.

وقد اقتضى هذا الجواب أن تعذيبه الزائد على مدة كفره هو عذاب على ما لم يفعله.

ولو جاز ذلك لجاز أن يبتدىء خلقاً، ثم يعذبه من غير أن يبقيه ويقدره، ويكلفه، إذا علم منه أنه إذا أبقاء، وأقدره، وكلفه، كان كافراً جاحداً لأنعمه.

وقد أجمع أهل العدل على أن ذلك لا يجوز منه سبحانه، وهو كالأول بعينه في العذاب، للعلم بالكفر قبل وجوده، لا على ما فعله وأحدثه.

وقبحها يشهد العقل به ويدل عليه. تعالى الله عن إضافة القبيح إليه. فعلم أنه لا يعتبر في الجواب عن هذا السؤال بما أورده هذا الحاكي عن الشافعي، وأن المصير إلى ما قدمناه من الجواب عنه أولى، والحمد لله.

(١) في النسخة لا يفعل فأثرنا موضعها لم يفعل لأنه الصحيح في المعنى.

فلما سمع المتفقه طعني فيما أورده، وقولي إن الشافعي ليس من أهل العلم بهذه الصناعة، ولا له فيها بضاعة، ظهرت إمارات الغضب في وجهه، وتعذر عليه نصره ما جاء به، كما تَعَذَّرَ عليه وعلى غيره ممن حضر، القدح فيما كنت أجبت به، فتعمد لقطع ما كنا فيه بمحدث ابتداه، لا يليق بالجلس ولا يقتضيه.

فبينما نحن كذلك إذ حضر رجل، كانوا يصفونه بالمعرفة، وينسبونه إلى الأصلاح بالفلسفة، فلما استقر به المجلس، حكوا له السؤال، وبعض ما جرى فيه من الكلام.

فقال الرجل: هذا سؤال يلزم الكلام فيه، ويجب على من أقر بالشرعية، طلب جواب صحيح عنه، يعتمد عليه.

ثم سألوني الرجوع إلى الكلام والاعادة لما سلف لي من الجواب، ليسمع ذلك الرجل الحاضر.

فقلت له: ألا سألت الفقيه إعادة ما كان أورده لعله أن يرضى هذا الشيخ إذا سمعه، وعنيت بالفقيه، الحاكي عن الشافعي؟

قالوا: قد تبين لنا فساد ما أجاب به، ولا حاجة بنا إلى إشغال الزمان بإعادته.

قلت: فأنا مجيبكم إلى الكلام، وسالك غير الطريقة الأولى في الجواب، لعل ذلك أن يكون أسرع لزوال اللبس، وأقرب إلى سكون النفس، إن وجدت منكم مع الإستماع حسن إنصاف.

قالوا: نحن مستمعون لك غير جاحدين لحق يظهر في كلامك.

فقلت: كان السؤال عن وجه العدل والحكمة في تعذيب الله عز وجل لمن مات وهو كافر بالعذاب الدائم، الذي تقدير زمانه لا ينحصر، وقد وقع من العبد كفره في مبلغ عمره المتناهي.

والجواب عن ذلك:

أن العذاب المجازى به على المعصية، كائنةً ما كانت، لا كلام بيننا في استحقاقه، وإنما الكلام في اتصاله وانقطاعه.

فلا يخلو المعتبر في ذلك أن يكون هو الزمان الذي وقعت المعصية فيه ومقداره وتناهيه، [أو] المعصية في نفسها وعظمتها من صغرها.

فلو كانت مدة هي المعتبرة، وكان يجب تناهي العذاب لأجل تناهيها في نفسها، لوجب أن يكون تقدير زمان العقاب عليها نجسها وقدرها، حتى لا يتجاوزها ولا يزيد عليها.

وهذا حكم يقضي الشاهد بخلافه، ويجمع العقلاء على فسادِه. فكم قد رأينا فيما بيننا معصية وقعت في مدة قصيرة، كان المستحق من العقاب عليها يحتاج إلى أضعاف تلك المدة، ورأينا معصيتين، تماثل في القدر زمانها، واختلف زمان العقاب المستحق عليهما، كعبد شتم سيده، فاستحق من الأدب على ذلك أضعاف ما يستحقه إذا شتم عبداً مثله، وإن كان زمان الشتمين متماثلاً.

فالمستحق عليهما من الأدب والعقاب يقع في زمان غير متماثل، ولو لم يكن في هذا حجة إلا ما نشاهده من هجران الوالد أياماً كثيرة لولده على فعل، وقع في ساعة واحدة منه، مع تصويب كافة العقلاء للوالد في فعله، بل لو لم يكن فيه إلا جواز حبس السيد فيما بيننا لعبده زماناً طويلاً على خطيئته.

وكذلك الأمام العادل لمن يرى من رعيته، لكان فيه كفاية في وضوح الدلالة، وليس يدفع الشاهد إلا مكابر معاند.

فَعُلِمَ مما ذكرناه أنه لا يعتبر فيما يستحق على المعصية بقدر زمانها، ولا يجب أن يماثل وقت الجزاء عليها لوقتها.

ووجب أن يكون المرجع إليها نفسها، فبعظمتها يعظم المستحق عليها، سواء [أ] طال الزمان أو قصر، اتصل أم انقطع، وجد فكان محققاً، أو عُدِمَ فكان مقدراً، والحمد لله.

فلما سمع القوم مني هذا الكلام، وتأملوا ما تضمنه من الإفصاح والبيان، وتمثلي بالمتعارف من الشاهد والعيان، لم يسعهم غير الإقرار للحق والإذعان

والتسليم في جواب السؤال لما أوجبه الدليل والبرهان .
والحمد لله الموفق للصواب ، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله
الطاهرين .

زيادة في المسألة:

وقد احتج من نصر الجواب الثاني المنسوب إلى الشافعي بقول الله تعالى :
« ولو ردوا لعادوا نهوا عنه » الأنعام: ٢٨ .

وجعل ذلك دلالة على أنه عذابهم بعذاب الأبد ، لعلمه بذلك من حالهم .
وليس في هذه الآية دلالة على ما ظن ، وإنما هي مبنية على باطن أمرهم ،
ومكذبة لهم فيما يكون في القيامة من قولهم . وما قبل الآية تتضمن وصف ذلك
من حالهم ، وهو قوله تعالى سبحانه :

« إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ، ونكون
من المؤمنين » الأنعام: ٢٧ .
فقال الله سبحانه :

« بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم
لكاذبون » . الأنعام: ٢٨

هذا : لما تمنوا الرجوع إلى دار التكليف . وليس فيه إخبار بأنه عذبهم لما
علمه منهم أن لو أعادهم . حسبنا الله ونعم الوكيل .

فصل :

روي أن امرأة العزيز وقفت على الطريق فمرت بها الموابك حتى مرَّ
يوسف (ع) ، فقال :

الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته ، والحمد لله الذي جعل الملوك
عبيداً بمعصيته .

وذكروا أن التمناة ابنة النعمان بن المنذر دخلت على بعض ملوك الوقت ،
فقالت : إنا كنا ملوك هذا البلد ، يجي إلينا خراجها ، ويطيعنا أهلها ، فصاح

بنا صائح الدهر ، فشق عصانا وفرق ملأنا ، وقد أتيتك في هذا اليوم أسألك ما
أستعين به على صعوبة الوقت .

فبكى الملك وأمر لها بجائزة حسنة ، فلما أخذتها أقبلت بوجهها عليه
فقالت : إني محييتك بتحية كنا نحى بها ، فأصغى إليها فقالت :

شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب
الله بمعروفك مواضعه ، وقلدك المن في أعناق الرجال ، ولا أزال الله عن عبد
نعمة إلا جعلك السبب لردها ، والسلام .

فقال : اكتبوها في ديوان الحكمة .

وروى أن أمير المؤمنين (ع) مرَّ على المدائن فلما رأى آثار كسرى وقرب
خرابها ، قال رجل من معه :

جرت الرياح على رسوم ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد .
فقال أمير المؤمنين (ع) :

أفلا قلت : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا
فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض
وما كانوا منظرين » الدخان : ٢٦ - ٢٩ (١)

فصل من المقدمات في صناعة الكلام :

إعلم أن المعدوم عندنا ليس بشيء ، ولا يكون الشيء إلا موجوداً .
فإن قال لك قائل : ما الشيء ؟ فقل هو الموجود .
فإن قال : ما الموجود ؟ فقل : هو الثابت العين في الوجود .
فإن قال : ما المعدوم ؟ فقل : هو ما خرج بانتقائه عن كونه شيئاً .

٤

(١) رواه نصر بن مزاحم في كتاب صفين ح ١ ص ١٤٣ ، وقال (ع) بعد الآيات : إن هؤلاء لم
يشكروا النعمة ، فسلبوا دنياهم بالمعصية ، إياكم وكفر المنعم ، لا يحل بكم النقم .

فإن قالوا: ما القديم؟ فقل: ما ليس لوجوده أول.
 فإن قال: ما المحدث؟ فقل: هو الذي لوجوده، أول.
 فإن قال ما الجسم؟ فقل: هو ذوا الطول والعرض والعمق.
 فإن قال ما الجوهر؟ فقل: هو أصغر ما تألفت منه الأجسام.
 فإن قال ما العرض؟ فقل: هو العارض في المحل بغير بقاء.
 واعلم أن الأعراض عندنا لا تبقى وإنما تتجدد حالاً بعد حال، ولا يوجد العرض عندنا إلا وقتاً واحداً، والموجود وقتاً واحداً ليس بباقي، ولا يوجد شيء من الأعراض إلا في محل.
 فإن قال: ما الباقي؟ فقل هو المستمر الوجود، فإن أحببت فقل: هو ما وجد وقتين فما زاد.
 فإن قال: ما الفاني؟ فقل: هو ما انعدمت عينه بعد وجوده، وقد كان يجوز أن لا ينعدم.
 فإن قال: ما الاجتماع؟ فقل: هو محاسن جواهر الأجسام.
 فإن قال: ما الإفتراق؟ فقل: هو مبانيتها.
 فإن قال: ما الحركة؟ فقل هي ما فرغ بالتحرك مكاناً وشغل مكاناً.
 فإن قال: ما السكون؟ فقل: هو لبث الجوهر في مكانٍ وقتين فما زاد.
 واعلم أن الجوهر إذا لم يكن في مكان فهو ليس بمتحرك ولا ساكن.
 فإن قال لك: ما المكان؟ فقل: هو ما أحاط بالمتمكن، فمكان الجوهر ستة أمثاله تحيط به من جميع جهاته، وصفحة العالم العليا هي مكان للعالم، ولا مكان لها. ولا يقال في الحقيقة انها متحركة ولا ساكنة، وكذلك المستفتح^(١) الوجود من الجواهر عندنا وعند أكثر أهل النظر أنه ليس بمتحرك ولا ساكن.

(١) العبارة غير واضحة وقد يراد به ما كان في ابتداء وجوده

فإن قال لك: ما الحي؟ فقل: من صح كونه قادراً.
فإن قال: ما القادر؟ فقل هو من صح منه الفعل.
فإن قال: ما العالم؟ فقل هو من كان فعله محكماً منتظماً.
فإن قال: ما المريد؟ فقل هو عند التحقيق من قطع على أحد الأمرين
المعترضين.

فإن قال: أتقولون إن الله مريد؟ فقل: أما على الحقيقة فلا يجوز ذلك
عليه، وأما على المجاز فقد يوصف به اتساعاً في الألفاظ، وقد وصف نفسه
سبحانه بأنه مريد كما وصف نفسه بأنه غضبان، وراض، ومحب، وكاره. وهذه
كلها صفات مجازات.

فإن قال: فما الفائدة في قولكم إن الله تعالى مريد؟ فقل: هو حصول العلم
للسامع بأنه سبحانه في أفعاله وأوامره منزّه عن صفة الساهي والعاث.
فإن قال: فما إرادته؟ فقل: الجواب عن هذا السؤال على قسمين: أحدهما:
إرادته لما يفعله، وهي الفعل المراد نفسه. والآخر: إرادته لما يفعله غيره، وهي
أمره بذلك الفعل.

فإن قال: فما غضبه؟ فقل: وجود عقابه.
فإن قال: فما رضاه؟ فقل: وجود ثوابه.
فإن قال: فما محبته؟ فقل: هي على قسمين: أحدهما أن يحب المؤمن، بمعنى
يحسن إليه ويثيبه، والآخر: أنه يحب الطاعة، بمعنى يأمر بها.

فإن قال: فما كراهته؟ فقل: هي بالضد من ذلك.
فإن قال: ما المتكلم؟ فقل: هو من فعل كلاماً.
فإن قال: ما الكلام؟ فقل: هو الأصوات المنتظمة إنتظاماً يدل على معانٍ.
فإن قال: ما الخبر؟ فقل: هو ما أمكن فيه الصدق والكذب.
فإن قال: ما الصدق؟ فقل: هو الاخبار عن الشيء بما هو عليه.
فإن قال: ما الكذب؟ فقل: هو الأئخبار عن الشيء بخلاف ما هو به.
فإن قال: ما الحق؟ فقل: هو ما عضد^(١) معتقده البرهان.

(١) في النسخة ما عقد.

فإن قال ما الباطل؟ فقل: هو ما خذل معتقده البيان .
فإن قال: ما الصحيح؟ فقل: هو الحق بعينه .
فإن قال: ما الفاسد؟ فقل: هو الباطل بعينه .
فإن قال: ما العقل؟ فقل: هو عرض يحل الحي ، يفرق بين الحسن والقبح ،
ويصح بوجوده عليه التكليف .

فإن قال: ما الحسن؟ فقل: هو ما كان للعقول ملائماً .
فإن قال: ما القبح؟ فقل: هو ما كان لها منافراً .
فإن قال: ما العلم؟ فقل: هو اعتقاد الشيء على ما هو به مع سكون النفس
إلى المعتقد .

فإن قال: ما الجهل؟ فقل: هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه .
فإن قال: ما المعرفة؟ فقل: هي العلم بعينه .
فإن قال: ما النظر؟ فقل: هو استعمال العقل في الوصول إلى معرفة
الغائب باعتبار دلالة الحاضر .

فإن قال: ما الدليل؟ فقل: هو المعتبر في إدراك ما طلبت النفس إدراكه .
فإن قال: ما الحجة؟ فقل: هي الدليل بعينه .
فإن قال: ما الشبهة؟ فقل: هي ما عرض للنفس عند انصرافها عن طريق
الحق من باطل تخيلته حقاً .

فصل: من كلام أمير المؤمنين صلى الله عليه في ذكر العلم

قال أمير المؤمنين عليه السلام:
قيمة كل امرئ ما يحسن .
والناس أبناء ما يحسنون .
العلم وراثته مستفادة .
رأس العلم الرفق ، وآفته الخرق .
الجاهل صغير وإن كان شيخاً
والعالم كبير وإن كان حدثاً

الأدب يغني من الحسب
من عُرِف بالحكمة لحظته العيون بالوقار
العلم في الصغر كالنقش في الحجر .
زلة العالم كانكسار السفينة تغرق وتُغرق .
الآداب تلقيح الأفهام ونتائج الأذهان .
إذا استوضحت فاعزم .
لو سكت من لا يعلم سقط الاختلاف .
من جالس العلماء وقر ، ومن خالط الأندال حقر .
لا تحقرن عبداً آتاه الله علماً ، فإن الله تعالى لم يحقره حين آتاه إياه .
المودة أشبك الأنساب ، والعلم أشرف الاحساب ..
لا كنز أنفع من العلم ، ولا قرين سوء شر من الجهل .
العلم خير من المال ، لأن العلم يجرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزكو على
الانفاق ، والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم ، والمال محكوم عليه .
عليكم بطلب العلم ، فإن طلبه فريضة ، وهو صلة بين الإخوان ، ودال على
المروءة ، وتحفة في المجالس ، وصاحب في السفر ، وأنس في الغربة . ومن عرف
الحكم لم يصبر على الأزدیاد منها .
الشریف من شرفه علمه .

فصل من كلامه عليه السلام في ذكر الحلم وحسن الخلق :

قال (ع) :
الحلم سجية فاضلة .
أول عوض الحلم من حلمه أن الناس أنصاره على الجاهل .
من حلم عن عدوه ظفر به .
شدة الغضب تغير المنطق ، وتقطع مادة الحجّة ، وتفرق الفهم .
لا نسب أنفع من الحلم ، ولا حسب أنفع من الأدب ، ولا نصّب أوجع من
الغضب .

حسن الخلق يبلغ درجة الصائم القائم .
حسن الخلق خير رفيق .
رب عزيز أذله خلقه ، وذليل أعزه خلقه .
من لانت كلمة وجبت محينه .
التواضع يكسبك السلامة .
زينة الشريف التواضع .
حسن الأدب ينوب عن الحسب .
تأويل آية :

إن سأل سائل عن قوله سبحانه :
« حتى إذا جاء أمرنا ونار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين
وأهلك ، إلا من سبق عليه القول منهم ، ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل »
هود : ٤٠ (١)

الجواب :

أما التنور فقد ذكر في معناه وجوه :
أحدها : أن يكون المراد به أن النور برز والضوء ظهر ، وأتت إمارات
دخول النهار ، وتقضي الليل .

وهذا التأويل يروي عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه .
وثانيها : أن يكون معنى ذلك ، واشتد غضب الله عليهم ، وحل وقوع نقمته
بهم ، فذكر التنور مثلاً ، لحصول العذاب ، كما تقول العرب : قد حمي الوطيس ،
إذا اشتدت الحرب ، وعظم الخطب ، وقد قارب [١] (٢) القوم ، إذا اشتدت
حربهم .

وثالثها : أن يكون أراد بالتنور وجه الأرض ، وأن الماء نبع وظهر على
وجهها ، وقد روي هذا عن أبي عباس ، قال : والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً .

(١) أنظر الكلام على هذه الآية في أمالي المرتضى م ٢ ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٢) هنا كلمة مطبوعة غير واضحة .

ورابعها: أن يكون هو التنور المعهود للخبز، وكان في دار نوح عليه السلام، فجعل فوران الماء منه علماً له عليه السلام على نزول العذاب. فأما قوله: من كل زوجين اثنين، فقد قيل: من كل ذكر وأنثى اثنين، وكل واحدٍ من الذكر والأنثى زوج. وقال آخرون: من كل ضربين اثنين. وقيل أيضاً: من كل لونين اثنين. ومعنى من سبق عليه القول، أي من أخبر الله تعالى بعذابه وحلول الهلاك به. والله أعلم بمراحه.

فصل:

من التوراة في ذكر الفلك:

قال الله تعالى لنوح (ع): فاصطنع أنت فلكاً من خشب الصنوبر، واصنع الفلك أدواراً، وأطله من داخل وخارج بقارٍ، واجعل طول الفلك ثلاثمائة ذراع، وعرضه خمسين ذراعاً، وارتفاعه ثلاثين ذراعاً، واصطنع في الفلك كوى، واصطنع بابه من جنبه، واجعل الفلك أثلاثاً: الأسفل والأوسط والأعلى، وسأرسل الطوفان على الأرض، ليفسد كل شيء فيه روح من تحت السماء، وكل ما في الأرض، وأوثقك بميثاقي، وأدخل الفلك أنت وامراتك وبنوك، ونساء بنيك معك، ومن كل شيء من اللجم فأدخل اثنين اثنين معك.

رسالة كتبته إلى بعض الإخوان تتضمن كلاماً في وجوب الإمامة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الفضل والإحسان، الهادي إلى الحق بواضح البرهان، وصلواته على سيدنا محمد نبيه المبعوث للبيان، وعلى آله الطاهرين أئمة الأزمان.

قد وقفت ايها الأخ الفاضل أدام الله لك التأييد، وأوصلك بالتوفيق والتسديد، من رغبتك في الاستدلال، وحرصك على دفع شبه أهل الضلال، على ما أوجب عليّ حسن مساعدتك، وإجابتك عما تلتسمه عند مسائلتك، لما بيننا لما من الإيمان، وما يتعين من ذلك على الإخوان.

قال رسول الله (ص):

«المؤمنون إخوة، تتكافؤ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم»^(١).

وقد فهمت السؤال الذي أرسلت، وأنا أُجيب عنه بما يحضرنى حسبها طلبت إن شاء الله تعالى، وبه أستعين.

- السؤال:- ذكرت- أيدك الله- أن أخذ المخالفين قال: إذا كان الله تعالى قد قال:

«ما فرطنا في الكتاب من شيء» الانعام: ٣٨.

وكانت الأمة مجتمعة [على] أن النبي (ص) قد بلغ الرسالة إلى الكافة، وأدّى فيها الأمانة، وبَيَّن لجميع الأمة، فما الحاجة بعد ذلك إلى إمام.

- الجواب-

فأقول والله الموفق للصواب:

إن الكتاب، وإن كان الله تعالى لم يفرط فيه من شيء، فإن الأمة لم تستغن به عن تفسير رسول الله (ص) لمعانيه، وتنبيهه لمراد الله تعالى فيه، ولا علمت- بسماع تلاوته- جميع أحكام الله تعالى في شرائعه، بل مفتقرة إلى النبي صلى الله عليه وآله في الإيضاح والبيان، معتمدة عليه في السؤال عن معاني القرآن، وهو نبيها مؤيد معصوم، كامل العلوم، يرشد ضالتها، ويعلم جاهلها، ويجيب سائلها، وينبه غافلها، ويزيل الاختلاف من بينها، ويفقهها^(٢) على معالم

(١) أنظر: تحف العقول ص ٣٠ رواه ما عدا فقرة: (ويجبر عليهم أقصاهم)

(٢) هكذا وردت في النسخة، والأولى: ويوقفها على معالم دينها.

دينها، بقول متفق وأمر متسق، وقد علم أن الآتين من أمته بعده مكلفون من شرعه نظيرنا، كأنه من كان في وقته.

فوجب في العدل والحكمة إزاحة علل أهل كل زمان لمن يقوم فيه ذلك المقام، يفرع إليه في النازلات، ويُعَوَّل عليه عند المشكلات، تكون النفس ساكنة إلى طهارته وعصمته، واثقة بكمال علمه ووفادته.

وليس ما تضمنه السؤال من أن النبي عليه وآله السلام قد بلغ الكافة، وبيّن للأمة بقادح في هذا الاستدلال، لأنه عليه السلام بيّن لهم شرعه على الحد الذي أمر به، فعين لهم على بعضه بالمشافهة، ودلّهم منه على الجملة الباقية بالإشارة إلى من خصه الله بعلمها، واستحفظه إياها، وجعله الخليفة على الأمة بعده في تبليغها حسبما تقتضيه مصالحها في تكليفها، في أخبارٍ تواترت على ألسنتها، منها قوله:

« أنا مدينة العلم وعلي بابها »

فكان ما خصه به من تفصيل ما أجمل لهم، بحسب ما كلفه من التبليغ دونهم. على أنه لو ماثلهم في جميع التكليف لم يلزم اشتراكهم في الإبانة على التفصيل، وإنما الواجب عموم المكلفين بالتمليك من الأدلة، التي بها تثبت الحجة، وتدرك الحجة.

والإمام عندنا أحد الدليلين على الحق من الشريعة، فإذا أودعه الذي استخلفه عليهم تفصيل كثير مما أجمل لهم، ونص على عينه، ومكّن منه فقد أراح عللهم، ولم يخرج ذلك عن القول بأنه بلغهم وبيّن لهم، ولا دَفَع ما قدمناه من وجوب الحاجة إلى إمام يرجعون إليه فيما كلفهم.

ووجه آخر:

لو فرضنا أن النبي (ص) قد شمل جميع الأمة بالإبانة على سبيل التفصيل والجملة، ولم يخص أحداً منهم، ولا أخفى شيئاً عنهم، لم تسقط مع ذلك الإمامة، ولا جاز خلو زمان من حجة - لأن النبي (ص) علّم أهل عصره، وبيّن

لمن كان في وقته ودهره، وكانت أحوالهم مختلفة، وأسباب إختلافها معهودة معروفة.

فمنهم الذكي الرشيد، والبطيء البليد، والمحِب للعلم مع شغله بديناه، والمنقطع إلى العمل والزهد دون ما سواه، والمتوفر على العلم المواظب عليه، والمتضرع منه الزاهد فيه، والمجتهد في الحفظ مع كثرة نسيانه، والمعتمد يعتبر ما [يسعه] (١) إيمانه.

هذا مع عدم العصمة عنهم، وجواز الغلط منهم. ولذلك حصل الإختلاف بينهم، وتضادت رواياتهم، ووقع في الحيرة العظمى من عَوَّل في دينه عليهم.

ولم يكن الله سبحانه ليلجئ عباده بعد نبيه (ص) إلى غير حفظة لما استودعوه، ولا منفقين فيما رَوَوْه ونقلوه.

ولسنا نجد علماً على يد بعضهم، يستدل به على أمانتهم وصدقهم، ولا عصمة لهم يؤمن معها من تحريفهم أو غلطهم.

هذا مع ما نعلم من عدمهم (٢) أكثر النصوص في الأحكام، والتجائهم بعدمها إلى الإجتهد والقياس، والأخذ في الدين بالظن والرأي، الموقع بينهم الإختلاف، والمانع من الإتفاق والإئتلاف.

فعلمنا أن الله سبحانه قد أزاح علل المكلفين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله الطاهرين، بالأئمة الراشدين، الهداة المعصومين، الذين أمر الله تعالى بالرد إليهم، والتعويل عليهم فقال عز من قائل:

« ولوردوه إلى رسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »

النساء: ٨٣

وقال النبي (ص):

(١) في النسخة يسمعه.

(٢) يريد بقوله (من عدمهم) عدم إحاطتهم بأكثر النصوص.

«إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي» (١).

ووجه آخر:

ولو قدرنا أن الأمة قد سمعت جميع علوم الشريعة، فوعت وأحاطت بتفاصيل أحكامها، وحفظت واتفقت فيما روت ونقلت، وسقطت معرفة الاختلاف عنها، واستقر الإتيان منها. لم يغن ذلك عن الأمة، ولا جاز عدمهم، على ما يقتضيه العدل والحكمة، لأن الأمة على كل حال يجوز عليها الشك والنسيان، ويمكن منها الجحد والكتان.

وعلى ذلك حجج يجدها من أنعم الاستدلال، لولا الغرض في ترك الإطالة، لأوردنا طرفاً منها في هذا الجواب.

وللمسؤول أن يبني جوابه على أصله المستقر عنده على قوله، إلى أن ينقل الكلام إليه، فتكون المنازعة فيه.

وإذا جاز على الأمة ما ذكرناه، لم يكن حفظها واتفاقها الذي قدرناه، بمؤمن من وقوع ما هو جائز عليها، وحصول ما هو متوهم منها.

وفي جواز ذلك مع عدم الأمة جواز سقوط الحجة عن الأمة، إذ لا معقل يدرك منه الصواب، [يكون] (٢) حافظاً للشرع والكتاب.

وفي هذا أوضح البيان عن وجوب الحاجة إلى الإمام في كل زمان.

وجه آخر:

ولو أضفنا إلى ما فرضناه وقدرناه، وجوده، وتوهمناه من سماع الأمة لجميع تفاصيل الأحكام، وإيرادها على إتيان ونظام، نفي (٣) جواز الشك

(١) هو مروي على اختلاف في بعض ألفاظ في صحيح الترمذي ومسلم ومستدرک الصحيحين

ومسند أحمد وغيرهم الكثيرين أنظر: فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٤٣ - ٥٢.

(٢) في النسخة يكن. ولا موجب لجزمها.

(٣) في العبارة قلق واضطراب.

والنسيان عنها، وإحالة الجحد والكتان منها، لم يغن ذلك عن إمام في كل زمان، حسبما يشهد به الدليل العقلي والبرهان.

وذلك أنا وجدنا اختلاف طبائع الناس وشهواتهم، وتباين همهم وإرادتهم، وميل جميعهم في الجملة إلى الرياسة، ومحبتهم لنفوذ الأمر، ووجوب الطاعة، ورغبتهم في حرز الأموال، وتطلعهم إلى نيل الآمال، وارتكاب أكثرهم للمقبحات، وتسرعهم إلى ما يقدرون عليه من الشهوات، مع وكيد تحاسدهم، وشديد تظالمهم الذي لا ينكره إلا من دفع الضرورات، وأنكر المشاهدات. يقضي ذلك في العقول عند ذوي التحصيل، بأن صلاح أحوالهم، وانتظام أمورهم، وحراسة أنفسهم وأموالهم، لا يتم إلا بوجود رئيس لهم، ومتقدم عليهم، يكون مسدداً فيما يمضيه من تدبيرهم، موفقاً للصواب فيما يراه لهم وعليهم، يقيم بهيبته عوجهم، ويرد بيده أودهم، ويجمع برأيه متشتتهم، ويقهر بتمكنه معاندتهم، وينع القوي من الضعيف، ويسوسهم بالسوط والسيف.

وفي عدم الرئيس - وهم على ما ذكرناه - فساد أحوالهم، وانقطاع نظامهم، وحصول الهرج منهم، ووجود الحيرة والفتنة بينهم، التي هي سبب تلافهم، وهلاك أنفسهم.

وهذا أمر يعلم العقلاء صحته ممن أقر بالشرع، وجحده، قال الأفوه الأودي وكان جاهلياً: (١)

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وإذا كان الله تعالى إنما خلق خلقه لنفعهم، وأحيائهم لصلاحهم ومرادهم، فإنه في عدله وحكمته، ورأفته ورحمته، لم يخلهم في كل زمان من رئيس يكون لهم، وإمام في الدين والدنيا عليهم.

(١) هو صلاة بن عمرو بن مالك الأودي من بني أود، والأفوه لقب كان له، وهو من سادات العرب في الجاهلية المعروفين بالرأي والحزم، ومن الشعراء المشاهير، وكان فارساً مغواراً توفي سنة (٥٧٠م) وفي شعره فكر وحياة.

ووجه آخر:

ولو رفعنا الدليل العقلي الذي أوردناه، مع تسليم ما ذكرناه وقدمناه، لم يدفع ذلك وجوب الحاجة إلى الإمام، ولا جاز معه أن تعدمه الأنام. لأن الأمة مجمعة على أن في الشريعة أحكاماً تفتقر إلى من ينفذها، وحدوداً على الجناة تحتاج إلى من يتولاها.

وهي مقرة بأن الله تعالى ما جعل ذلك لها، وأنه لا يسع ولا يجوز إهمالها وتركها. فوجب أن يكون للناس إمام في كل زمان، ينفذ الأحكام، ويقيم حدود شريعة الإسلام، حافظاً للبيضة من الكفار، دافعاً عن المسلمين أسباب الأذى والمضار، يسير فيهم بالهدى والصواب، لا يتعدى ما يوجبه العقل والكتاب. والحمد لله قد أوردت لك أيها الأخ الفاضل أدام الله توفيقك ما حضرني من وجوه الأجوبة عن هذا السؤال، وفي بعضه كفاية وبيان لمن أراد الاستدلال. والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد رسوله وآله وسلامه وحسبي الله ونعم الوكيل.

فصل من الحديث:

حدثنا الشيخ أبو الحسن بن أحمد بن علي بن شاذان القمي، قال حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الدين عباس، قال: حدثنا محمد بن عمر، قال حدثنا الحسن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن العباس الرازي، قال: حدثني علي بن موسى الرضا عن أبيه موسى عن أبيه جعفر عن أبيه محمد عن أبيه علي عن أبيه الحسين عن أبيه أمير المؤمنين عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص):

« من مات وليس له إمام من ولدي مات ميتة جاهلية، يؤخذ بما عمل في

الجاهلية والإسلام ».(١)

(١) روى هذا الحديث الصدوق القمي في كتاب عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٥٨. وروى البرقي في

كتاب المحاسن ص ١١٦ - ١١٧ عدة أحاديث بهذا المعنى وصرح الشهيد الثاني في حقائق الايمان ١٦١ بأنه من مشاهير الأحاديث بين السنة والشيعة، وأن السنة أوردوه في كتب أصولهم وفروعهم، وصرح الشيخ المفيد في كتاب بالأفصاح ص ٣ بأنه هذا الحديث متواتر، وعن الحميدي أنه أخرجه في الجمع بين الصحيحين، وعن الحاكم النيسابوري أنه أخرج عن ابن عمر أنظر: منتخب الأثر ص ١٥ هامش.

وقال حدثني أبو المرجا محمد بن علي بن طالب البلدي، قال: حدثنا أبو القاسم عبد الواحد بن عبد الله بن يونس الموصلي عن أبي علي محمد بن همام بن سهل عن عبد الله بن جعفر الحميري عن الحسن بن علي بن فضال عن محمد بن أبي عمير عن أبي علي الخراساني عن عبد الكريم بن عبد الله عن مسلمة بن عطا عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام، قال خرج الحسين بن علي صوات الله عليه ذات يوم على أصحابه فقال بعد الحمد لله جل وعز والصلاة على محمد رسوله صلى الله عليه وآله:

«يا أيها الناس ان الله - والله - ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته من سواه».

فقال له رجل: بأي أنت وأمي يا ابن رسول الله، ما معرفة الله.

قال: معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته «
اعلم انه لما كانت معرفة الله وطاعته لا ينفعان من لا يعرف الإمام، ومعرفة الإمام وطاعته لا ينفعان إلا بعد معرفة الله، صح أن يقال إن معرفة الله هي معرفة الإمام وطاعته.

ولما كانت أيضاً المعارف الدينية العقلية والسمعية تحصل من جهة الإمام، وكان الإمام أمراً بذلك، وداعياً إليه صح القول: إن معرفة الإمام وطاعته هي معرفة الله سبحانه. كما نقول في المعرفة بالرسول صلى الله عليه وآله وطاعته إنها معرفة بالله سبحانه، قال الله عز وجل:

(من يطع الرسول فقد أطاع الله).

وما تضمنه قول الحسين عليه السلام من تقدم المعرفة على العبادة، غاية في البيان والتنبيه.

وجاء في الحديث عن طريق العامة عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول الله (ص) قال:

«من مات وليس في عنقه بيعة الإمام أو ليس في عنقه عهد الإمام مات ميتة جاهلية».

وروى كثير منهم أنه عليه السلام قال:

« من مات وهو لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » .

وهذان الخبران يطابقان المعنى في قول الله تعالى:

« يوم ندعو كل أناس بإمامهم، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلًا ». الإسراء: ٧١

وقال الخصوم: إن الإمام ههنا هو الكتاب

قيل لهم: هذا انصراف عن ظاهر القرآن بغير حجة توجب ذلك ولا برهان، لأن ظاهر التلاوة يفيد أن الإمام في الحقيقة هو المقدم في الفعل، المطاع في الأمر والنهي، وليس يوصف بهذا الكتاب، إلا على سبيل الإلتصاف والمجاز. والمصير إلى الظاهر من حقيقة الكلام أولى، إلا أن يدعو إلى الانصراف عنه الاضطرار.

وأيضاً فإن أحد الخبرين يتضمن ذكر البيعة والعهد للإمام. ونحن نعلم أنه لا بيعة للكتاب في أعناق الناس، ولا معنى لأن يكون له عهد في الرقاب، نعلم أن قولكم في الإمام أنه الكتاب غير صواب.

فإن قالوا: ما تنكرون أن يكون الإمام المذكور في الآية هو الرسول عليه السلام؟

قيل لهم: إن الرسول عليه السلام قد فارق الأمة بالوفاة، وفي أحد الخبرين أنه إمام الزمان. وهذا يقتضي أنه حي ناطق موجود في الزمان. فأما من مضى بالوفاة فليس يقال أنه إمام إلا على معنى وصفنا للكتاب بأنه إمام.

ولو أن الأمر كما ذكرنا لكان إبراهيم الخليل عليه السلام إمام زماننا، لأننا عاملون بشرعه، متعبدون بدينه، وهذا فاسد إلا على الإستعارة والمجاز.

وظاهر قول النبي (ص): من مات وهو لا يعرف إمام زمانه، يدل على أن لكل زمان إماماً في الحقيقة، يصح أن يتوجه منه الأمر، ويلزم له الإلتباع. وهذا واضح لمن طلب الصواب.

ومن ذلك ما أجمع عليه أهل الإسلام من قول النبي عليه الصلاة والسلام:

«إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»^(١).

فأخبر أنه ترك في الناس من عترته من لا يفارق الكتاب وجوده وحكمه، وأنه لا يزال وجودهم مقروناً بوجوده.

وفي هذا دليل على أن الزمان لا يخلو من إمام.

ومنه ما اشتهر بين الرواة من قوله:

«في كل خلفٍ من أمتي عدل من أهل بيتي، ينفي عن الدين تحريف الغالين وإنتحال المبطلين، وإن أمتكم وفودكم إلى الله فانظروا من توفدون في دينكم».

فصل: حديث عن الإمام الرضا:

حدثنا الشيخ الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان القمي، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن صالح، قال: حدثنا سعد بن عبد الله^(٢)، قال: حدثنا أيوب بن نوح، قال: قال الرضا عليه السلام:

«سبعة أشياء بغير سبعة أشياء من الإستهزاء:

من استغفر بلسانه ولم يندم فقد استهزأ بنفسه.

ومن سأل الله التوفيق ولم يجتهد فقد استهزأ بنفسه.

ومن (استحزم)^(٣) (استجاب) ولم يحذر فقد استهزأ بنفسه.

ومن سأل الله الجنة ولم يصبر على الشدائد فقد استهزأ بنفسه.

ومن تعوذ بالله من النار ولم يترك الشهوات فقد استهزأ بنفسه.

ومن ذكر الله ولم يستبق إلى لقاءه فقد استهزأ بنفسه.

(١) قد تقدم ذكر بعض مصادره.

(٢) هو أبو القاسم سعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي من شيوخ الطائفة وفقهائها له مؤلفات كثيرة ذكرها الطوسي في الفهرست ص ١٠١، عده الطوسي في رجاله من أصحاب الإمام الحسن بن علي العسكري توفي سنة ٣٠١/٢٩٩ وعن الخلاصة أنه توفي سنة ٣٠٠ هـ.

(٣) هنا كلمة غير واضحة.

مسائل فقهية:

مسألة: امرأة لها بعل صحيح البعولة، أمكنت نفسها من رجل كامل العقل، رضي الدين، فوطأها من غير حرج في ذلك عليها، والبعل المتقدم ذكره كاره لهذا الأمر كراهة الطباع، راضٍ به من جهة التسليم للشرعية رضا الاختيار.

(جواب): هذه امرأة نعي إليها زوجها، فاعتدت وتزوجت رجلاً مسلماً، فوطأها بالنكاح الشرعي حيث لا حرج عليها في ذلك، لعدم علمها ببقاء زوجها، ثم بلغ زوجها الأول ما فعلته، فكرهه من جهة الطباع، ورضي به من جهة التسليم لشرع الإسلام، فهي حلال للثاني، وإن كانت في عقد الأول إلى أن يحصل لها وللعاقدها علم ببقاء زوجها الذي نعي إليها. وهذا الجواب ليس فيه بين الأمة اختلاف.

- مسألة أخرى -

رجلان كانا يمشيان في فسقط على أحدهما جدار فقتله، فحرمت على الآخر في هذه الحال زوجته.

(جواب): هذا رجل زوج عبده ابنته وخرجا يمشيان فسقط على المولى الجدار، فصار العبد بذلك ميراثاً للبنت، فحرمت عليه في الحال، للملكها له، وعلى هذا الاتفاق.

- مسألة أخرى -

رجل غاب عن زوجته ثلاثة أيام فكتبت إليه الزوجة: أن قد تزوجت بعدك، وأنا محتاجة إلى نفقة، فأنفذ إلي ما أنفقته على نفسي وعلى زوجي، فوجب لها ذلك عليه، ولم يكن له منه مخرج.

(جواب): هذه مسألة في معنى التي قبلها، وهي امرأة زوجها أبوها عبداً له، وأعطاه مالاً وأذن له في السفر والتجارة بالمال، فخرج العبد قبل أن يدخل بالجارية، فلما صار على يومين من بلده مات سيده فصار ميراثاً لابنته التي زوجها بها مولاه، فحرمت بذلك عليه وحلت للأزواج في الحال، إذ كان لا

عدة عليها ، فتزوجت رجلاً ورضيت به ، وأنفذت إلى عبدها بأن يحمل إليها من تركة أبيها التي في يده ما تصرفه فيما تشاء ، فوجب ذلك عليه ، وليس في هذا أيضاً اختلاف .

- أحاديث -

حدثني الشريف أبو الحسن طاهر بن موسى بن جعفر الحسين بمصر في شوال سنة سبع وأربعماية ، قال : أخبرنا أبو القاسم عبد الوهاب بن أحمد بن حسن الخلال إجازةً ، قال : حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد العراقي إجازةً ، قال : حدثنا الطهراني أبو الحسن وحدثني محمد بن عبيد ، قال : حدثني أبو عبد الله الحسين بن أبي بكر ، قال : حدثنا أبو الفضل ، قال : حدثنا أبو علي ابن الحسن الثار ، قال : حدثنا أبو سعيد كلاهما عن أبي سعيد ، واللفظ لمحمد قال : حدثنا الطهراني ، قال : حدثنا عبد الرزاق قال حدثني معمر ، قال : حدثني الزهري قال :

« أشخصني هشام بن عبد الملك من أرض الحجاز إلى الشام زائراً له ، فسرت فلما أتينا أرض البلقاء ، رأيت حبلاً أسود ، وعليه مكتوب أحرفاً لم أعلم ما هي ، فعجبت من ذلك ، ثم دخلت (عمان) قصبة البلقاء ، فسألت عن رجل يقرأ ما على القبور والجبال ، فأرشدت إلى شيخ كبير ، فعرفته ما رأيت ، فقال : أطلب شيئاً أركبه ، فحملته معي على راحلتي وخرجنا إلى الجبل ، ومعني محبرة وبياض ، فلما قرأه قال لي : ما أعجب ما عليه بالعبرانية ، فنقلته إلى العربية فإذا هو :

« باسمك اللهم جاء الحق من ربك بلسان عربي مبين . لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلي ولي الله صلى الله عليها ، وكتب موسى بن عمران بيده . »

وحدثني الحسين بن محمد بن علي الصيرفي البغدادي ، وكان مشتهراً بالعناد لآل محمد عليهم السلام ، والمخالفة لهم قال : حدثنا القاضي أبو بكر محمد بن عمر ابن محمد التميمي المعروف بالجعابي سنة ثلاثماية وخمسين ، قال حدثنا محمد بن محمد ابن سليمان بن الحارث ، قال : حدثنا أحمد بن يزيد بن سليمان ، قال : حدثنا إسماعيل بن أبان ، قال حدثنا أبو مريم عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) :

« الله ربي ولا إمارة لي معه ، وأنا رسول ربي ولا إمارة معي ، وعلي ولي من كنت وليه ولا إمارة معه » .

وسمعت من هذا الراوي المخالف عدة فضائل لآل محمد عليهم السلام ، سخره الله لنقلها فرواها راغماً ، حجةً عليه بها ، قد ذكرت في هذا الكتاب طرفاً منها .

وحدثني أبو الحسن علي بن أحمد اللغوي المعروف بابن زكار بميافاقين في سنة تسع وتسعين وثلاثمائة قال: دخلت على أبي الحسن علي بن السلماي رحمه الله في مرضته التي توفي فيها ، فسألته عن حاله ، فقال الحقتني غشية أغمى علي فيها ، فرأيت مولاي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه قد أخذ بيدي وأنشأ يقول:

طوفان آل محمد في الأرض غرق جهلها
وسفينهم حمل السذي طلب النجاة وأهلها
فاقبض بكفك عروة لا تحش منها فصلها

وحدثني الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين بن طاهر الحسيني قال حدثني أبي عن أبي الحسن أحمد بن محبوب ، قال: أبا جعفر الطبري يقول: حدثنا هناد بن السري ، قال رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلى الله عليه وآله ، في المنام ، فقال لي: يا هناد قلت: لبيك يا أمير المؤمنين ، قال: أنشدني قول الكميث:

ويوم الدوح دوح غدير خم أبان لنا الولاية لو أطيعا
ولكن الرجال تبايعوها فلم أر مثلهما أمراً شيعا
قال: فأنشدته ، فقال لي: يا هناد خذ إليك ، فقلت: هات يا سيدي ، فقال عليه السلام:

ولم أر مثل ذاك اليوم يوماً ولم أر مثله حقاً أضيعا
وكثيراً ما أذكر قول شاعر آل محمد (ع): رحمة الله عليه:

جعلوك رابعهم أباً حسن ظلموك حق السبق والصهر
وإلى الخلافة سابقوك وما سبقوك في أحد ولا بدر

- القرآن يدل على إمامة علي (ع) -

دليل من القرآن على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.
قال الله عز وجل:
«إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» المائدة: ٥٥
فقوله سبحانه (وليكم) المراد به الأولى بكم والأحق بتدبيركم، والقيم بأموركم، ومن تجب طاعته عليكم.
وهذا هو معنى الإمام بقوله تعالى: (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون).
المراد به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، لأنه كان قد تصدق بخاتمته وهو راع في الصلاة.
فتقدير الآية: إنما المدبر لكم والمتولي لأموالكم والذي تجب طاعته عليكم، الله ورسوله وعلي بن أبي طالب.
وهذا نص من القرآن على إمامة أمير المؤمنين (ص).
فإن قال لنا المخالفون: دلّوا أولاً على أن قوله (وليكم) المراد به ما ذكرتم.
قلنا: أما كون لفظه ولي مفيدة لما ذكرناه فظاهر ليس فيه إشكال. ألا ترون الناس يقولون: هذا ولي المرأة، يريدون أنه المالك لتدبير أمرها في إنكاحها، والعقد عليها.
ويصفون عصابة المقتول بأنهم أولياء الدم، من حيث كانوا مستحقي المطالبة بالدم.
ويقولون: إن السلطان ولي أمر الرعية أجمعين، وفي من رشحه بخلافته عليهم، إنه ولي عهد المسلمين.
ومن حيث كان إلى الولي النظر والتدبير قال الكميّ:
ونعم ولي الأمر بعد وليه ومنتجع التقوى ونعم المؤدب

وفي الجملة، إن كان من كان والياً الأمر ومتحققاً بتدبيره فهو وليه وأولى به.

هذا هو المعروف في اللغة والشرع معاً، فيثبت به ما ذكرناه.
فإن قال المخالفون: قد سلمنا لكم أن لفظه (وليكم) تحتل ما ذكرتم، ولكنها قد تحتل أيضاً سواء، ويجوز أن يكون المراد بها الموالاة في الدين كقوله سبحانه.

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض». التوبة: ٧١

قلنا لهم: إن هذه الآية التي ذكرتموها عامة في سائر المؤمنين. والآية التي احتجنا بها لا يصح أن يكون مراد الله تعالى فيها: (والذين آمنوا) إلا البعض دون الجميع.

وذلك أنه ميز فيها من أراد من المؤمنين بصفة الزكاة في حال الركوع، وجعله ولياً للجميع، وأنتم لا تخالفون في أن هذه الصفة خاصة في بعض المؤمنين، فوجب أن يكون قوله (والذين آمنوا) خاصاً كذلك، لأنها صفة لهم بظاهر التنزيل. ولو أراد بقوله (والذين آمنوا) العموم بجميع المؤمنين لكان الإنسان ولياً لنفسه، وهذا لا معنى له.

وقوله في الآية (إنما) شاهد بصحة التخصيص ونفي الميثاق عن من سوى المذكورين. وهي كقول القائل: إنما صديقك من نصحك، فقد نفى (إنما) صحة الصداقة عمن لم ينصح.

وثبت ما ذكرناه من التخصيص في قوله (والذين آمنوا) يعلم أن المراد بالولي هو المدبر للكافة والإمام القدوة.

ولو كان المراد مجرد الموالاة في الدين لبطل هذا التخصيص.

ووجه آخر: في الجواب عما ذكروه وهو أن الله تعالى ذكر في الآية التي احتجنا بها أمراً، بدأ فيه بنفسه، ثم ثنى برسوله (ص) ثم ثلث بمن ذكره من المؤمنين، فوجب أن لا يصرف قوله (وليكم) إلا إلى ما هو مستحق لله ولرسوله (ص) وإذا كان كذلك فالذي آمنوا المذكورون في الآية يستحقون نظير ذلك

بعينه . وفي هذا دليل على أن المراد تولي التدبير ولزوم الطاعة والأمر والنهي في الجماعة .

فإن قال الخصوم: فإذا ثبت لكم أن مراده سبحانه في الآية التي احتججتم بها من قوله: (والذين آمنوا) هو بعض الأمة دون جميعها، وسلم لكم أيضاً أن معنى قوله (وليكم) فيها هو معنى الإمامة على الصفة التي تذكرونها، فما الدليل على أن أمير المؤمنين (ع) هو المراد في الآية والمقصود فيها؟

قلنا: الدليل على ذلك نقل أصحاب الحديث من الفريقين أنها نزلت في أمير المؤمنين (ع)، وأنه الذي تصدق بجائته على السائل، وهو راع .

ولم يخالف في ذلك إلا من نشأ من متكلمي ذي المتكلمين، وليس الإنكار يقوم مقام الإقرار، ولا مجرد النفي بقادح في الإثبات، وإذا اتفق على رواية شيء جميع أهل النقل كان ذلك حجة على من له تمييز وعقل .

فإن قالوا: كيف يصح في ذلك الاتفاق، وقد روي أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام ؟

قلنا: يصح لنا ذلك من حيث أن هذه رواية واحد، وأخبار الآحاد لا تزيل الاتفاق إلى الحاصل من جملة الأخبار . والقول الشاذ لا يقدر في الإجماع .

على أن الذي روى أنها نزلت في عبد الله بن سلام، قد تصفحت عليه الحال، واشبهت القصة بشهادة نقاد الأخبار .

وذلك أنه لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه، قالت اليهود: والله لاجالسناك، ولا كلمناك، ولنقطعن ولايتنا منك ومن أصحابك، ولا نصرناك . فشكا ذلك إلى رسول الله (ص)، فأنزل الله تعالى:

«إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» .

المائدة: ٥٥-٥٦ .

فخرج النبي (ص) إلى المسجد ، فقال : هل سأل سائل فأعطاه أحد شيئاً ؟ قالوا : نعم ، يا رسول الله ، رجل كان في المسجد يسأل فأعطاه علي (ع) خاتمه وهو راعع . فقال النبي (ص) : الله أكبر ، إن الله تعالى قد أنزل فيه قرآناً ، وتلا عليهم الآيتين ، ثم دعا عبد الله بن سلام وأصحابه ، فقال لهم : قد عوضكم الله من اليهود أولياء ، وتلا عليهم الآيتين . فظن بعضهم من أهل الغفلة أنها من أجل ذلك نزلت في عبد الله بن سلام .

ومن رجع إلى كتب التفسير ونقل أصحاب الحديث ، علم أن الأمر على ما وصفناه . والكاف والميم في قوله سبحانه (وليك) خطاب لجميع الأمة حاضرهم وغائبهم وموجودهم ومن سيوجد منهم ، وهو كقوله كتب عليكم الصيام . وإنما حضر رسول الله (ص) عبد الله بن سلام وأصحابه وتلا عليهم الآيتين ليبشرهم بدخولهم في جملة من يكون وليهم الله ورسوله وأمير المؤمنين .

فإن قالوا : إن الآية تضمنت ذكر الجميع بقوله : (والذين آمنوا) فكيف يصح لكم إنها في واحد ؟

قلنا لهم : قد يعبر بلفظ الجمع تعظيماً لشأنه ، ولا ينكر ذلك في اللغة ، بل يستعمله أهلها . وقد قال الله عز وجل : (إنا أرسلنا إلى قومهم) . وقال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له الحافظون) : الحجر : ٩ .

وقد علمنا أن الله أرسل نوحاً وحده ، وأنه نزل الذكر وحافظه [وحده] ونظير ذلك كثير .

فإن قالوا : ما أنكرتم أن يكون المراد بقوله (والذين آمنوا) الجميع ، ويكون المعنى فيه أنهم المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم في إتيانها خاشعون متواضعون ، لا يمتنون ولا يتكبرون . ويكون هذا معنى قوله (راكعون) دون ما ذهبتم إليه من أن يؤتي الزكاة في حال ركوعه ؟

قلنا : هذا غير صحيح ، لأن الركوع لا يفهم في اللغة والشرع معاً إلا أنه التطأطؤ المخصوص دون التواضع والخضوع ، وإنما يوصف الخاضع بأنه راعع

على سبيل المجاز والتشبيه ، قال الخليل بن أحمد^(١) صاحب كتاب العين : كل من ينكب لوجهه فمس ركبته الأرض أولاً تمسّها راعع ، وأنشد للبيد :

أخبر أخبار القرون التي مضت
أدب كأي كلما قمت راعع

فإن قالوا: فما تنكرون أن يكون قوله: (ويؤتون الزكاة) وصفاً لهم بإتيانهم، وقوله (وهم راععون) ليس المراد أنهم أعطوها في حال ركعهم، وإنما معناه أن الركوع من شأنهم وعادتهم، فوصفهم به وإن كانوا يفعلونه في غير وقت إعطاء الزكاة؟

قلنا: أنكرنا ذلك من حيث هو خروج عن ظاهر الكلام المفيد أن الزكاة كان في حال ركوع الصلاة ولا طريق إلى الانصراف عن الظاهر مع الاختيار. ومثل ذلك قولهم: فلان (يغشى إخوانه وهو راعب) وظاهر هذا يدل على أنه راعب في حال غشيانه إخوانه، وأن الزمان في الأمرين واحد.

وشيء آخر وهو أنا متى قلنا إن الزكاة لم تكن في حال الركوع، أدّى الكلام إلى التكرار، لأن وصفهم بإقام الصلاة، فإذا وصفهم بعد ذلك بأنهم راععون، وهو يريد يصلون، تكرر الوصف بالصلاة، لأن الركوع داخل في قوله: (يقيمون الصلاة).

فإن قالوا: فأميز المؤمنين علي (ع) لم يكن يلزمه عندكم زكاة، لأنه لم يكن من ذوي اليسار.

قلنا: لسنا نقطع على أن الزكاة لم تجب عليه قط، وربما ملك أدنى مقادير

(١) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي ولد في البصرة سنة ١٠٠ وتوفي سنة ١٧٠ هـ من أئمة اللغة والنحو والأدب والعروض وأخبار العرب، وهو الذي اخترع علم العروض ووضع قواعده وأحكم أساسه، وأول من صنف في علم اللغة، ووضع كتابه (العين) ولم يتمه، وله مؤلفات منها: كتاب النعم، وكتاب العروض، وكتاب الشواهد، وكتاب النقط والشكل، وكتاب فائدة العين، وكتاب الإيقاع. وكان من الزهاد المنقطعين إلى العلم. وتجد الكلام على كتابه العين في فهرست ابن النديم ص ٦٤.

النصاب ، وأتى وقت الزكاة وهو في يديه ، وليس يقال لمن ملك مأتي درهم أنه موسر ، لا سيما إذا اتفق له وجوب الزكاة منها وقتاً واحداً .

وقد يجوز أيضاً أن تكون هذه الزكاة نافلة ، لم تكن عليه واجبة ، ولا مانع أن يُسمَّى النفل من الصدقة زكاةً ، لأنه متناول للفرض منها ، في كونه إعطاءً يستحق عليه النمو في الحسنات والزيادة والمشوبات ، فإن كان لفظ الزكاة عندكم مشتركاً في النافلة من الصدقة والفريضة فقد توجه على الظاهر جوابنا . وإن كان عندكم أن المستفاد من ظاهر لفظ الزكاة إنما هو المفترض منها دون ما سواه ، كنا ممن صرفنا عن الظاهر ورود الأخبار المجمع عليها بأن الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام . مع أنه لم تلزمه قط فريضة الزكاة ، فلا بد من حمل ذلك على زكاة النافلة ، وإلا خصصنا الأخبار .

فإن قالوا : فكيف ساغ لأمر المؤمنين (ع) الصدقة في حال الصلاة ؟ أوليس ذلك إبطالاً لها وإشتغالاً بغيرها ؟

قلنا : أقرب ما في هذا أنا غير عالين أن جميع الأفعال المنهي عنها اليوم في الصلاة كانت محظورة ، كلها في تلك الحال . فيجوز أن يكون هذا قبل ورود حظر هذه الأسباب .

وقد قيل أن الكلام قد كان مباحاً في الصلاة ونهي عنه بعد ذلك . ولو لم يكن الأمر كذلك لم يلزم ما ذكرتموه في السؤال ، لأن الذي فعله أمير المؤمنين (ع) لم يكن شاغلاً عن القيام بمحدود الصلاة ، بل جاز أن يكون أشار إلى السائل إشارة خفية لا يقطع بمثلها الصلاة ، فهم منها مراده ، وأخذ الخاتم من يده .

فكيف تنكرون هذا ، وأنتم ترون اتفاق الفقهاء على أن يسير العمل في الصلاة لا يقطعها على حال .

والذي يدل على أنه (ع) لم يشتغل بالإعطاء عن استيفاء شرائط الصلاة نزول المدح له في القرآن ، والإضافة إلى المدح تقديمه ولياً للأمام .

فإن قالوا : فإذا ثبت أنه بهذه الآية أمام للخلق ، فما تنكرون أن يكون المراد استحقاقه لذلك بعد عثمان ؟

قلنا: أنكرنا ذلك من قبل أن كل من ثبت له الإمامة بها يوجبها بعد رسول الله (ص) في كل حال، ولا يخص بذلك حالاً دون حال.

وأنكرنا ذلك من قبل أن الله تعالى ولينا ورسوله (ص) في كل حال، وقد عطف ذكر أمير المؤمنين على اسم رسول الله عليهما السلام، فوجب أن يستحق ذلك أيضاً في كل حال، كما استحقه الرسول عليه السلام من غير انفصال.

ولولا قيام الدلالة على أنه ليس في وقت رسول الله (ص) قدوة للخلق سواه ولا إمام، لكان أمير المؤمنين صلوات الله عليه، يستحق هذا المقام منذ نزلت الآية وما اتصل من غير فاصلة بولاية ولا أهال.

والحمد لله الهادي إلى الحق بواضح البرهان.

فصل من مستطرفات مسائل الفقه في الإنسان

مسألة: إثنان تزوج كل واحد منهما أم الآخر فرزقا منها ولدين، ما قرابة بين الولدين؟

جواب: كل منهما واحد منها عم الآخر، لأنه أخو أبيه من أمه.

مسألة: إثنان تزوج كل واحد منهما بنت الآخر فرزقا ولدين، ما قرابة الولدين؟

جواب: إن كل واحد منها خال الآخر، لأنه أخو أمه، وهو أيضاً ابن أخته.

مسألة: إثنان تزوج كل واحد منهما أخت الآخر ورزقا منها ولدين، ما قرابة بين الولدين؟

جواب: إن كل واحد منها ابن عمه الآخر وابن خاله.

مسألة: رجلان تزوج كل واحد منهما جدة الآخر لأبيه، فرزقا منها ولدين، ما قرابة ما بين الولدين وبين الرجلين وما قرابة ما بين الولدين؟

جواب: إن كل واحد من الولدين عم الرجل المتزوج أم أبيه، لأن الرجل

ابن جدته لأبيه، والولد أخو أبيه وكل واحد من الولدين ابن أخي صاحبه وعم أبيه.

مسألة: رجلان تزوج كل واحد منهما جدة الآخر لأمه فرزقا منهما ولدين، ما قرابة ما بين الولدين والرجلين، وما قرابة ما بين الولدين؟

جواب: إن كل واحد من الولدين خال الرجل المتزوج أم أمه، لأن الرجل ابن جدته لأمه، والولد أخو أمه من أمها، وكل واحد من الولدين ابن أخت صاحبه وخال أبيه.

أنشدنا الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي رحمه الله:

قد آن أن ييلفك الصوت	أنائم قلبك أم ميت
يا باني البيت على غيره	أمامك المنزل والبيت
وإنما الدنيا على طولها	ثيثة مطلعها الموت
وله أيضاً:	

إذا مضى يوم على هدنة	وأنت في شك من النائبات
فعاجل الفرصة قبل الردى	وبادر الليلة قبل البيات
واسبق وفي حبلك أنشودة	ضغط الليالي بيد الحادثات
لغيره:	

أشح على ملكي وأحياه دائماً	وسوف برغم الأنف أخرج عن ملكي
فما لي لا أبكي لنفسي وهلكها	إذا كنت قد وطنت نفسي على الهلك
فإن كنت لا أدري متى أنا ميت	فلست من الموت المنغص في شك
وموضع قبري أن أكن قد جهلته	فلي خبرة بالعرض والطول والسلك
كأنني أرى نفسي وحولي جماعة	يكفني بعض وبعضهم يبكي

وذكروا أن أحد الأئمة صلوات الله عليهم، استدعاه السلطان في ذلك الزمان، وأظن أن الإمام كان محمد بن علي الرضا عليهم السلام^(١)، وإن المستدعي كان

(١) كان الإمام الذي وقعت معه هذه القصة هو الإمام علي بن محمد الهادي (ع) كما في تذكرة الخواص ص ٣٦١ وفي مروج الذهب ج ٤ ص ٩٤.

المتوكل، قالوا: فلما دخل إليه وجدته في قبة مزينة في وسط بستان، ويده
كأس فيها خمر، فقربه وهم أن يناوله الكأس فامتنع الإمام عليه السلام، فقال:
إنا أهل بيت ما خامرت لحومنا ودماءنا ساعة قط، قال: فقال أنشدني شعراً
فأنشده الإمام عليه السلام:

باتوا على قُلل الأجيال تحرسهم
غلب الرجال فلم تنفعهم القُلل
واستنزلوا بعد عزٍ من معاقلهم
فأسكنوا جفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا
أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت محجبةً
من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم
تلك الوجوه عليها الدود تنتقل
قد طال ما أكلوا دهرًا وما شربوا
فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
قال: فضرب المتوكل بالكأس من الأرض وتنغص عيشه في ذلك اليوم. (١)
لحمود بن الحسن الوراق: (٢)

مضى أمسك الماضي شهيداً مُدلاً
وأعقبه يوم عليك شهيد
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءةً
افتن باحسانٍ وأنت حميد

(١) أنظر: مروج الذهب ج ٤ ص ٩٣ - ٩٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان وتذكرة الخواص ص ٣٦١.

(٢) من شعراء الدولة العباسية، أكثر شعره في المواعظ والحكم روى عنه ابن أبي الدنيا، وتوفي الوراق في خلافة المعتصم العباسي في حدود سنة ٢٣٠ هـ.

فيومك إن أعقبته عاد نفعه
عليك وماضي الأمل ليس يعود
ولا تُرج فعل الخير يوماً إلى غدٍ
لعل غداً يأتي وأنت فقيد
وله أيضاً:

أعارك ماله لتقوم فيه
بطاعته وتعرف فضل حقه
فلم تشكره نعمته ولكن
قويت على معاصيه برزقه
تبارزه بها أبداً وعوداً
وتستخفي بها عن كل خلقه
وله أيضاً:

يا ناظراً يرنو بعيني راقداً ومشاهدٍ للأمر غير مشاهد
ميت نفسك ضلة وأجتها طرق الرجاء وهن غير قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درك الجنان وفوز ما للعابد
ونسيت أن الله أخرج آدمماً منها إلى الدنيا بذنب واحد
ولأبي العتاهية اسماعيل الجرار^(١):

قنَّع النفس بالكفاف وإلا طلبت منك فوق ما يكفيها
ليس فيما مضى ولا في الذي لم يأت من لذة لمستحليها
إنما أنت طول عمرك ما عمرت والساعة التي أنت فيها
وله أيضاً في الدنيا:

يا خاطب الدنيا إلى نفسها تنح عن خطبتها تسلم
إن التي تخطب غرارة قريبة العرس من المأتم

(١) هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني من مشاهير الشعراء في طبقة بشار وأبي نؤاس وأكثر شعره في المواعظ والزهديات ولد سنة ١٣٠ هـ بعين الثمر وهي بليدة بالحجاز قرب المدينة المنورة ونشأ بالكوفة وسكن بغداد، وكان يبيع الجرار وتوفي سنة ٢١١ هـ في بغداد.

المسيح يخاطب الدنيا

قال الشيخ أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي (رض): حدثني القاضي أبو الحسن محمد بن علي بن محمد بن صخر الأزدي البصري عن النجري بإسناده رفعه إلى أبي شهاب قال:

بلغني أن عيسى بن مريم عليه السلام قال للدنيا: يا امرأة كم لك من زوج؟ قالت كثير، قال: فكلهم طلقك؟ فقالت: لا، بل كلهم قتلت، قال: أهؤلاء الباقون لا يعتبرون باخوانهم الماضين، كيف تورد بينهم المهالك واحداً واحداً، فيكونوا منك على حذر؟ قالت: لا.

وأُشدد: لبعضهم في الدنيا:

مزمومة بالهم مخطومة سم زعاق در أخلافها
ولم تزل تقتل ألافها أفٍ لقتالـة ألافها

فصل من كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله في الدنيا

قال عليه السلام:

أنا زعيم بثلاث لمن أكب على الدنيا! بفقر لا غناء له، وبشغل لا فراغ له، وبهم وحزن لا انقطاع له.

وقال عليه السلام:

«كونوا في الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجد بيوتاً، وعودوا [قلوبكم]^(١) الرقة، وأكثروا التفكير والبكاء، ولا تحتلض بكم الأهواء. تبون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون.»

(١) في النسخة بيوتكم.

فصل من كلام أمير المؤمنين صلوات الله عليه في هذا المعنى :

« من أصبح حزيناً على الدنيا ، فقد أصبح سaxonاً على ربه تعالى ، ومن كانت الدنيا أكبر همه طال شقاؤه وغمه . الدنيا لمن تركها ، والآخرة لمن طلبها . الزاهد في الدنيا كلما ازدادت له تحلياً ازداد عنها تحلياً . إذا طلبت شيئاً من الدنيا فزوي عنك فاذكر ما خصك الله به من دينك ، وصرفه عن غيرك ، فإن ذلك أحرى أن تستحق نفسك بما فاتك .

ومن بديع كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي حفظ عنه .

إن رجلاً قطع عليه خطبته وقال له : صف لنا الدنيا . فقال :

أولها عناء ، وآخرها بلاء ، [في] حلالها حساب ، و[في] حرامها عقاب . من صح فيها أمن ، ومن مرض فيها ندم ، ومن استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن سعى لها ^(١) فأتته ، ومن قعد عنها واتته ، ومن نظر إليها ألهته ، ومن تهاون بها نصرته .

ثم عاد إلى مكانه من خطبته صلى الله عليه وآله .

وهذه أعلى الرتب درجة في حضور الخاطب .

فصل :

من الكلام في تشييت أمانة صاحب الزمان المهدي بن الحسن وامامة آباءه عليه وعليهم السلام .

أعلم - أيدك الله - إن الدليل على صحة امامته (ص) وإثبات غيبته ظاهر لمن نظره ، قاطع لعذر من اعتبره ، بين لمن تأمله ، قريب لمن تناوله .

وهو مبني على أصلين ، يشهد العقل بها ويدل عليها . أحدهما وجوب الامام في كل زمان ، والآخر كونه معصوماً من السهو والخطأ والنسيان .

(١) في النسخة : (ساعاها) .

فإذا علم المتأمل صحة هذين الأصلين وثبتا عنده بواضح الدليل ثبت له عقيبهما صحة الإمامة والغيبة لمن ذكرنا (ص)، ولم يحتاج إلى تكرار رواية ولا تطويل، وذلك للظاهر المعلوم الذي لا لبس فيه، من حال من يُدَّعى لهم الإمامة اليوم، سوى من أشرنا إليه، وتعريضهم أجمعين عن استحقاق العصمة، ومماثلتهم في جواز الخطأ عليهم لسائر الأمة.

فعلم بذلك صحة إمامة صاحبنا صلوات الله عليه، وثبت لعدم ظهور غيبته حسبما ذهبنا إليه.

ولولا أنه الامام دون العالمين لبطل ما شهد به العقل من صحة الأصلين، وبطلانها يستحيل مع قيام الدليل.

وهذه حجة بعيدة عن المعارضات، سالمة من دخول الشبهات، [سهلة] (١) المرام، قريبة من الأفهام، وبها يستمر لك الاستدلال على نظام، في تثبيت إمامة. جميع ساداتنا عليهم السلام، لأن وجوب الإمامة وثبوت العصمة لرئيس الأمة مع ما علمناه من تعري الكافة من هذه الخصلة سائق إلى الإقرار بإمامة الأثني عشر صلوات الله عليهم، ومانع للعاقل من الإنصراف عنهم، والشك فيهم، ولم يبق بعدها أكثر من إيراد الدليل على صحة ما ذكرناه من الأصلين، وقد وجب المحسام مادة الخلاف من له عقل وانصاف.

دليل على وجوب الإمامة

أما الدليل أنه لا بد للناس من إمام في كل زمان فمختصره أنا نعلم علماً ليس للشك فيه مجال أن وجود الرئيس في الرعية، المطاع ذي الهيبة مقدماً ومثقفاً ومذكراً. وموقفاً، (٢) أردع لها من القبيح، وأدعى إلى فعل الجميل،

(١) في النسخة (سهل).

(٢) كذا في النسخة. ولعله: معروفاً

وأكف لأيدي الظالمين، وأحرس لأنفس [المردوعين] (١) ووجود الهرج بينهم ووقع الفتن منهم.

والعلم بما ذكرناه في ذلك مبني على الضرورات، والتنبيه عليه مع ظهوره يغني عن الإطالة والزيادات. وقد أتقن الكلام في هذه المسألة مشايخنا رضي الله عنهم، ولم يدعوا للخصوم شبهة تستغرب منهم.

دليل على وجوب العصمة

وأما الدليل على وجوب عصمة الإمام فهو ان علة الحاجة إليه أن يكون لطفاً للرعية في الصلاح ليصدها عن ارتكاب القبائح والفساد، ويردها إلى فعل الواجب والسداد، حسبما تقدم به الذكر في وجوب الحاجة إليه في كل عصر. وهذا يقتضي أن لا تكون علة الحاجة إليه موجودة فيه، فإنه متى جاز منه القبيح وفعل غير الجميل كان فقيراً محتاجاً إلى إمام متقدم عليه، ويمنعه مما هو جائز منه، ويأخذ على يديه. ويكون الكلام في إمامته كالكلام فيه، حتى يؤدي ذلك إلى المحال من وجود أئمة لا يتناهون، أو إلى الواجب من وجود إمام معصوم. فعلم أن علة الحاجة إليه غير موجودة فيه والحمد لله.

دليل آخر على ثبوت عصمة الإمام

وما يعلم به ثبوت العصمة للأئمة أن الإمام قدوة في الدنيا والدين، واتباعه مفترض من رب العالمين، فوجب أن لا يجوز الخطأ والزلل عليه، وإلا كان الله تعالى قد أمر باتباع من يعصيه، ولولا استحقاقه العصمة لكان إذا ارتكب المعصية [يتضاد مع] التكليف على الأمة، وتصير الطاعة منها معصية، والمعصية طاعة، وذلك أنها مأمورة باتباعه والاقتداء به، فمتى اتبعته في المعصية امتثالاً للأمور من الاقتداء لكانت من حيث الطاعة عاصية لله سبحانه، ومتى خالفته ولم تقف به طلباً لطاعة الله تعالى لكانت أيضاً عاصية لمخالفتها لمن أمرت بالإقتداء به واتباعه. وفي استحالة جميع ذلك دلالة على عصمته.

(١) في النسخة الرادعين.

وليس لأحد أن يقول إن الاقتداء بالإمام واجب على الرعية فيما علمت صوابه فيه. لأن هذا القول يخرجها من أن تكون مقتديه به، إذ كانت إنما عرفت الصواب بغيره لا بقوله وبفعله. فهي إذا عملت^(١) بما عمل لمعرفة بصوابه فيه إنما وافقته في الحقيقة ولم تقتد به وتتبعه.

ولو جاز أن يكون إماماً لها في شيء عرفت صوابه بغيره لكانت اليهود أئمة للأمة في الإقرار بموسى عليه السلام، لموافقتها لهم في العلم بصحة نبوته.

وهذا يدل العاقل على أن القدوة المتبع هو من عرف الحق به وبقوله وفعله. فقد بان واتضح ثبوت الأصلين من وجوب الإمامة والعصمة، وبثبوتها قد انتظم لنا ما قدمناه من الدليل. وفي ذلك كفاية وغنى عن التطويل، والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد رسوله وآله الطاهرين.

حدثني القاضي أبو الحسن أسد بن إبراهيم السلمي الحراي قال أخبرني أبو جعفر عمر بن علي العتكي قال أخبرني أحمد بن محمد بن صفوة قال حدثني الحسن بن علي بن محمد العلوي قال حدثني الحسن بن حمزة النوفلي قال أخبرني عمي عن أبيه عن جده قال أخبرني الحسن بن علي قال أخبرني فاطمة ابنة رسول الله (ص) عنه (ص) قال أخبرني عن كاتي علي أنها لم يكتبها على علي ذنباً مذ صحباه.

وحدثني السلمي عن العتكي قال حدثني سعيد بن محمد الحضرمي قال حدثنا الحسن بن محمد بن عبد الرحمن الصديقي قال حدثني محمد بن عبد الرحمن قال حدثنا أحمد بن إبراهيم العوفي عن أحمد بن أبي الحكم البراجي عن شريك بن عبد الله عن أبي الوفا عن محمد بن ياسر بن عمار بن ياسر عن أبيه عمار قال سمعت النبي (ص) يقول: أن حافظي علي يفتخران على سائر الحفظة بكونها مع علي (ع). ذلك أنها لم يصعدا إلى الله عز وجل بشيء منه فيسخطه.

(١) في النسخة علمت.

فصل من كلام أمير المؤمنين (ع) وحكمه

قال علي (ع):

لم يمت من ترك أفعالاً يقتدي بها من الخير.

من نشر حكمة ذكر بها.

موت الأبرار راحة لأنفسهم، وموت الفجار راحة للعالم.

من كتم علماً فكأنه جاهل.

الجواد من بذل ما يرضى بمثله.

من كرم أصله حسن فعله.

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق (ع) أنه تكلم أمير المؤمنين صلوات الله

عليه بأربع وعشرين كلمة، قيمة كل كلمة وزن السموات والأرض، قال:

رحم الله امرءاً سمع فوعى ودُعي إلى رشاد فدنا. وأخذ بحجزة هادٍ

فنجاً، راقب ربه، وخاف ذنبه، قدّم خالصاً، وعمل صالحاً، اكتسب مذكوراً،

واجتنب محظوراً، رمى غرضاً، وأخذ عوضاً، كابر هواه، وكذب مناه، حذر

أَمْلاً، ورتب عملاً، جعل الصبر رغبة حياته، والتقى عدة وفاته، يظهر دون ما

يكتُم، ويكتفي بأقل مما يعلم، لزم الطريقة الغراء، والمحجة البيضاء، اغتنم المهل

وبادر الأجل، وتزود من العمل. »

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام:

أزرى بنفسه من استشعر الطمع.

من أهوى إلى متفاوت الأمور خذلتها الرغبة.

أشرف الغنى ترك المني.

من ترك الشهوات كان حراً.

الحرص مفتاح التعب، وداع إلى التقحم في الذنوب، والشره جامع

لمساوىء العيوب. الحرص علامة الفقر.

من أطلق طرفه كثر أسفه.

قلما تصدقك الأمنية. رب طمع كاذب، وأمل خائب.
من لجأ إلى الرجاء سقطت كرامته.
همة الزاهد مخالقة الهوى، والسُّلُو عن الشهوات.
ما هدم الدين مثل البدع، ولا أفسد الرجال مثل الطمع. إياك والأمانى
فإنها بضائع النوكى.
لن يكمل العبد حقيقة الإيمان حتى يؤثر دينه على شهوته، ولن يهلك حتى
يؤثر شهوته على دينه.
من تيقن أن الله سبحانه يراه وهو يعمل بمعاصيه فقد جعله أهون
الناظرين.

مواعظ

وجاء في الحديث، أن رسول الله (ص) قال:
« ما آمن بالقرآن من استحل محارمه ».
أخبرني شيخنا المفيد رضي الله عنه ونقلت من خطه قال حدثني أبو حفص
بن عمر بن محمد بن علي المعروف بابن الزيات، قال حدثنا علي بن مهنويه
القزويني، قال حدثنا داود بن سليمان الغازي، قال حدثنا الرضا علي بن موسى،
قال حدثني أبي موسى بن جعفر، قال حدثني أبي جعفر بن محمد الصادق، قال
حدثني أبي محمد بن علي الباقر، قال حدثني أبي علي بن الحسين زين العابدين،
قال حدثني أبي الحسين بن علي الشهيد، قال حدثني أبي أمير المؤمنين، قال
حدثني رسول الله (ص) قال:
« يقول الله عز وجل يا ابن آدم، ما أنصفتني، أتحب إليك بالنعم، وتبغض
إلي بالمعاصي، خيرى إليك نازل، وشرك إلي صاعد، وفي كل يوم يأتيني عنك
ملك كريم بعمل غير صالح.
يا ابن آدم: لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تدري من الموصوف
لسارعت إلى مقتته..

وأخبرني شيخنا المفيد رضي الله عنه قال حدثني جعفر بن محمد بن قولويه ،
قال: حدثنا أبي وأخي علي ، قالا حدثنا سعد بن عبدالله عن يعقوب عن يزيد
عن محمد بن زياد ، عن جعفر بن قرظ ، عن أبي عبدالله (ع) قال:
« من وعظه الله بخير ، فقبل بالبشرى فله البشرى ، ومن له يقبل فالنار له
أخرى » .

وأخبرني شيخنا أيضاً عن جعفر بن محمد بن قولويه ، قال حدثني جعفر بن
محمد بن مسعود ، عن أبيه ، عن الحسين بن خالد ، عن النوفلي ، عن السكوني ، عن
أبي عبدالله (ع) قال حدثني أبي عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام قال:
« من أيقن أنه يفارق الأحباب ، ويسكن التراب ، ويواجه الحساب ،
ويستغني عما خلف ، ويفتقر إلى ما قدم كان حرياً بقصر الأمل وطول العمل » .

فصل: من كلام رسول الله (ص):

جاء في الحديث عن الرسول عليه وآله السلام أنه قال:
« من أراد أن يكون أعز الناس فليثق الله عز وجل » .
وقال:

« من خاف الله سخت نفسه عن الدنيا ، ومن رضي من الدنيا بما يكفيه كان
أيسر ما فيها يكفيه » .
وقال:

« الدنيا خضرة حلوة ، والله مستعملكم فيها ، فانظروا كيف تعملون » .
وقال:

« من ترك معصية الله مخافة من الله أرضاه يوم القيامة ، ومن مشى مع ظالم
ليعينه وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج من الإيمان » .
وقال:

« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإنك لن تجد فقد شيء تركته الله عز
وجل » .

وقال:

«باب التوبة مفتوح لمن أرادها، فتوبوا إلى الله توبة نصوحا».

وقال:

«بادروا بعمل الخير قبل أن تشتغلوا عنه، واحذروا الذنوب، فإن العبد يذنب الذنب فيحبس عنه الرزق».

حدثني الشيخ أبو المرجا محمد بن علي بن أبي طالب البلدي بالقاهرة، قال حدثنا استاذي أبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن جعفر النعماني رحمه الله، عن أبي العباس أحمد بن محمد بن سعيد بن عقدة الكوفي عن شيوخه الأربعين، عن الحسن بن محبوب، عن محمد بن النعمان الأحول، عن سلام بن المستنير، عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال: قال جدي رسول الله (ص):

«أيها الناس: حلالي حلال إلى يوم القيامة، وحرامي حرام إلى يوم القيامة. ألا، وقد بينها الله عز وجل في الكتاب، وبينتها لكم في سیرتي وسنتي. وبينها شبهات من الشيطان وبدع بعدي، من تركها صلح له أمر دينه، وصلحت له مروءته وعرضه.

ومن تلبس بها ووقع فيها واتبعها، كان كمن رعى غنماً قرب الحمى، ومن رعى ماشيته قرب لحمى نازعته إلى أن يرعاها في الحمى.

ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وأن حمى الله عز وجل محارمه، فتوقوا حمى الله ومحارمه.

ألا وأن أذى المؤمن من أعظم سبب سلب الإيمان.

ألا ومن أحب في الله جل وعز، وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء المؤمنين عند الله تبارك وتعالى.

إلا وأن المؤمنين إذا تحابا في الله جل وعز، وتصافيا في الله، كانا كالجسد الواحد، إذا اشتكى [أحد]هما من جسده موضعاً، وجد الآخر ألم ذلك الموضع».

[قصة وقعت للمؤلف]

ومن عجيب ما رأيت واتفق لي، أنني توجهت يوماً لبعض أشغالي . وذلك بالقاهرة في شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين وأربعمائة، فصحبني في الطريق رجل كنت أعرفه بطلب العلم وكتب الحديث، فمررنا في بعض الأسواق بغلام حدث، فنظر إليه صاحبي نظراً استربت منه، ثم انقطع مني ومال إليه وحادثه، فالتفت انتظاراً له، فرأيتَه يضاحكه، فلما لحق بي عدلته على ذلك، وقلت له: لا يليق هذا بك، فما كان بأسرع من أن وجدنا بين أرجلنا في الأرض ورقة مرمية، فرفعتها لئلا يكون فيها اسم الله تعالى، فوجدتها قديمة، فيها خط رقيق، قد اندرس بعضه، وكأنها مقطوعة من كتاب، فتأملتها فإذا فيها حديث ذهب أوله وهذا نسخته:

قال أني أخوك في الإسلام، ووزيرك في الإيمان، وقد رأيتك على أمرٍ لم يسعني أن أسكت فيه عنك، ولست أقبل فيه العذر فيك، قال وما هو حتى أرجع عنه وأتوب إلى الله تعالى منه، قال رأيتك تضاحك حدثاً غراً جاهلاً بأمور الله وما يجب من حدود الله، وأنت رجل قد رفع الله قدرك بما تطلب من العلم، وإنما أنت بمنزلة رجل من الصديقين، لأنك تقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله (ص) عن جبرئيل عن الله تعالى، فيسمعه الناس منك فيكتبوه عنك، ويتخذونه ديناً يعولون عليه، وحكماً ينتهون إليه، وإنما أنهاك أن تعود لمثل الذي كنت عليه، فأني أخاف عليك غضب من يأخذ العارفين قبل الجاهلين، ويعذب فساق حملة القرآن قبل الكافرين.

فما رأيت حالاً أعجب من حالنا، ولا عظةً أبلغ مما اتفق لنا. ولما وقف عليه صاحبي اضطرب لها اضطراباً بان فيها أثر لطف الله تعالى لنا. وحدثني بعد ذلك أنه أنزجر عن تفريطات كانت تقع منه في الدين والدنيا، والحمد لله.

سؤال عن آية

«وإن أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً» الإسراء: ١٦

فقال: أخبروني ما معنى هذا الإهلاك الذي يريده الله تعالى ، وكيف قدم اهلاكهم على أمره لهم؟ ومتى يستمر مع القول بالعدل أن يريد إهلاك قوم قبل أن يأمرهم فيعصوا؟ وما معنى قوله (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها؟) ففي هذا على من لم يفهم معناه شبهة والله لا يأمر إلا بالعدل.

الجواب:

قيل له في هذه الآية وجوه:

أحدها أن من الإهلاك ما يكون حسناً ، وهو أن يكون مستحقاً أو إمتحاناً ، وإنما يكون قبيحاً إذا كان ظلماً أو عبثاً.

وقد ثبت لنا بالدليل الواضح عدل الله تعالى وحكمته ، وأنه لا يريد الظلم ، ولا يقع منه العبث^(١) فعلمنا أنه لا يريد إلا الإهلاك الحسن .

وأما قوله (أمرنا مترفيها) فالمأمور به هنا محذوف ، وهو الطاعة . وتقدير الكلام: أمرنا مترفيها بالطاعة ففسقوا وخالفوا ، ويجري هذا مجرى قول القائل: أمرتك فعصيتني ، فحذف ذكر ما أمره به ، لفهم السامع له . وهذا معروف من كلام العرب ، والأمثلة فيه كثيرة .

وأما مترفوها فهم الذين يعملون في الدنيا في غير طاعة الله تبارك وتعالى .

(١) في الأصل البعث وهو غلط من الناسخ .

وأما تقدم إرادة الإهلاك على الأمر، فيتحمل أن يكون ذلك بعد أمرٍ متقدم لم يذكر، استحق المأمورون بمخالفتهم له العذاب، فلما أراد الله تعالى إهلاكهم أعذر إليهم بأمر ثانٍ على وجه التكرير والتأكيد في إقامة الحجة على العاصين، قبل وقوع الإهلاك المستحق المذكور، ويوافق هذا التأويل قوله تعالى:

«وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً» الإسراء: ١٥

الوجه الثاني: أن يكون الإرادة في الآية مجازاً وتنبيهاً، على المعلوم من حال القوم وعاقبتهم، وأنهم متى أمروا ففسقوا فأهلكوا، ويجري ذلك مجرى قولهم: إذا أراد التاجر أن يفتقر أتته النوائب من كل جانب، وتوجه نحوه الخسران من كل مكان، وإذا أراد العليل أن يموت خلط في أكله. ومعلوم أن ليس منها من يريد ذلك. وإنما حسن الكلام لما علم من عاقبة أمرها.

وهذا من أحد أقسام الفصاحة في كلام العرب، وهو جواب صحيح في الآية.

الوجه الثالث: أن يحمل الكلام في الآية على التقديم والتأخير، ويكون تلخيصه: إذا أمرنا مترفي قرية بالطاعة فعصوا واستحقوا العقاب، أردنا إهلاكهم.

والتقديم والتأخير أيضاً مستعمل في كلام العرب، وهو وجه حسن، ويشهد به من القرآن قول الله تعالى:

«يا أيها الذين إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم». المائدة: ٦

ونحن نعلم أن الطهارة للصلاة إنما تجب قبل القيام إلى الصلاة. فأما من قرء

(أمرنا) بالتشديد فإنما لإغناء به عن أجوبتنا. (١)

فصل :

من أمالي شيخنا المفيد رحمه الله :

روي أنه لما سار المؤمن إلى خراسان كان معه الإمام الرضا علي بن موسى عليها السلام، فبينما هما يتسايران، إذ قال له المؤمن: يا أبا الحسن، إني فكرت في شيء، فسنح لي الفكر الصواب فيه. إني فكرت في أمرنا وأمركم، ونسبنا ونسبكم، فوجدت القضية فيه واحدة، ورأيت اختلاف شيعتنا في ذلك محمولاً على الهوى والعصبية.

فقال له أبو الحسن الرضا (ع): إن لهذا الكلام جواباً، إن شئت ذكرته لك وإن شئت أمسكت.

فقال له المؤمن: لم أقله إلا لأعلم ما عندك فيه.

قال الرضا (ع): أنشدك الله يا أمير المؤمنين، لو أن الله تعالى بعث محمداً (ص) فخرج علينا من وراء أكمة من هذه الآكام، فخطب إليك ابنتك لكنت مزوّجه إياها؟

فقال: يا سبحان الله، وهل أحد يرغب عن رسول الله (ص)؟

فقال له الرضا (ع): أفتراه كان يحل له أن يخطب ابنتي؟

فسكت المؤمن هنيئة ثم قال: أنتم والله أُمسُ برسول الله (ص) رحماً.

وروي أنه لما حج الرشيد ونزل في المدينة، اجتمع إليه بنو هاشم وبقايا المهاجرين والأنصار ووجوه الناس، وكان في الناس، الإمام أبو الحسن موسى

(١) ما ذكره المؤلف هنا من الأجوبة هو ملخص ما ذكره الشريف المرتضى في الأمالي انظر ج ٢ ص ١-٥.

ابن جعفر (ع)، فقال لهم الرشيد قوموا بنا إلى زيارة رسول الله (ص)، ثم نهض معتمداً على يد أبي الحسن موسى بن جعفر (ص)، حتى انتهى إلى قبر رسول الله (ص)، فوقف عليه فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا ابن عم افتخاراً بذلك على قبائل العرب الذين حضروا معه، واستطالةً عليهم بالنسب. قال فنزع أبو الحسن موسى (ع) يده من يده، وقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبه. قال فتغير وجه الرشيد، ثم قال: يا أبا الحسن، إن هذا لهُو الفخر. (١)

حدثني القاضي السلمي أسد بن ابراهيم، قال: أخبرني العتكي عمر بن علي، قال: حدثني محمد بن إسحاق البغدادي، قال: حدثنا الكديي، قال: حدثنا بشر بن مهديان، قال: حدثنا شريك بن شبيب، عن عروة، عن المستطيل ابن حصين، قال:

«خطب عمر بن الخطاب إلى علي بن أبي طالب (ع) ابنته، فاعتل عليه بصغرها، وقال: إني [أعددتها] لابن أخي جعفر، فقال عمر: إني سمعت رسول الله (ص) يقول:

كل حسب ونسب فمقطع يوم القيامة ما خلا حسبي ونسي، وكل بني أنثى، عصبهم لأبيهم ما خلا بني فاطمة، فإني أنا أبوهم، وأنا عصبهم». (٢)

خبر يحيى بن يعمر مع الحجاج

قال الشعبي: كنت بواسط، (٣) وكان يوم أضحي، فحضرت صلاة العيد مع

(١) ذكر هذا الحديث السبط في التذكرة ص ٣٥٠ ناقلًا له عن المدائني مختصراً. ورواه المفيد في الفصول المختارة ج (١) ص ١٥. ورواه أيضاً في الإرشاد ص ٢٧٢ مختصراً أيضاً.

(٢) ذكر أصل خطبة عمر بن الخطاب لأُم كلثوم بنت علي (ع) السبط في التذكرة ص ٣٢١ دون ما سمعه عمر عن النبي (ص) وأنظر: الصواعق المحرقة ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) مدينة بناها الحجاج في العراق عام ٨٣/٨٤ هـ وسميت واسطاً لتوسطها بين البصرة والكوفة والأهواز وبغداد، فإن بينها وبين كل واحدة من هذه المدن مقداراً واحداً وهو خمسون فرسخاً (التنبيه والإشراف) ص ٣١١.

الحجاج، فخطب خطبةً بليغة، فلما انصرف جائي رسوله فأتيته، فوجدته جالساً مستوفزاً، قال: يا شعبي هذا يوم أضحي، وقد أردت أن أضحي برجل من أهل العراق، وأحببت أن تسمع قوله، فتعلم أنني قد أصبت الرأي فيما أفعل به.

فقلت: أيها الأمير، لو ترى أن تستن بسنة رسول الله (ص)، وتضحى بما أمر أن يضحى به، وتفعل مثل فعله، وتدع ما أردت أن تفعله به في هذا اليوم العظيم إلى غيره.

فقال يا شعبي، إنك إذا سمعت ما يقول صوبت رأيي فيه، لكذبه على الله وعلى رسوله، وإدخاله الشبهة في الإسلام.

قلت: أفيرى الأمير أن يعفني من ذلك؟ قال: لا بد منه.

ثم أمر بنطع فبسط، وبالسيف فأحضر، وقال: احضروا الشيخ، فأتوه به، فإذا هو يحيى بن يعمر، فاعممت غماً شديداً، فقلت في نفسي: وأي شيء يقوله يحيى مما يوجب قتله؟

فقال له الحجاج: أنت تزعم أنك زعيم أهل العراق؟

قال يحيى: أنا فقيه من فقهاء أهل العراق.

قال: فمن أي فقهك زعمت أن الحسن والحسين (ع) من ذرية رسول الله (ص)؟

قال: ما أنا زاعم ذلك، بل قائل بحق.

قال: وبأي حق قلت؟

قال: بكتاب الله عز وجل.

فنظر إلي الحجاج، وقال: اسمع ما يقول، فإن هذا مما لم أكن سمعته عنه، أتعرف أنت في كتاب الله عز وجل أن الحسن والحسين من ذرية محمد رسول الله (ص)؟ فجعلت أفكر في ذلك، فلم أجد في القرآن شيئاً يدل على ذلك.

وفكر الحجاج ملياً ثم قال ليحيى: لعلك تريد قول الله عز وجل.

«فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا

وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين « آل عمران: ٦١ .

وأن رسول الله (ص) خرج للمباهلة ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين (ع). قال الشعبي: فكأننا أهدى لقلبي سروراً، وقلت في نفسي: قد خلص يحيى . وكان الحجاج حافظاً للقرآن .

فقال له يحيى: والله، إنها لحجة في ذلك بليغة، ولكن ليس منها أحتج لما قلت، فأصفر وجه الحجاج، وأطرق ملياً ثم رفع رأسه إلى يحيى وقال: إن جئت من كتاب الله بغيرها في ذلك، فلك عشرة آلاف درهم، وإن لم تأت بها فأنا في حلٍ من دمك .

قال: نعم

قال الشعبي: فغمني قوله فقلت: أما كان في الذي نزع به الحجاج ما يحتج به يحيى ويرضيه بأنه قد عرفه وسبقه إليه، ويتخلص منه حتى رد عليه وأفحمه، فإن جاءه بعد هذا بشيء لم آمن أن يدخل عليه فيه من القول ما يبطل حجته لئلا يدعي أنه قد علم ما جهله هو .

فقال يحيى للحجاج: قول الله عز وجل:

«ومن ذريته داود وسليمان» الأنعام: ٨٤ .

من عنى بذلك؟

قال الحجاج: ابراهيم

قال: فداود وسليمان من ذريته؟

قال: نعم .

قال يحيى: ومن نص الله عليه بعد هذا أنه من ذريته؟

فقرأ الحجاج: «وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين» .

قال يحيى: ومن؟

قال: «وزكريا ويحيى وعيسى» .

قال يحيى: ومن أين كان عيسى من ذرية ابراهيم، ولا أب له؟

قال: من قبل أمه مريم.
قال يحيى: فمن أقرب، مريم من إبراهيم أم فاطمة من محمد (ص)، وعيسى
من إبراهيم (ع) أم الحسن والحسين (ع) من رسول الله (ص)؟؟
قال الشعبي: فكأنما ألقمه حجراً.

فقال أطلقوه، قبحه الله، وإدفعوا إليه عشرة آلاف درهم، لا بارك الله له
فيها.

ثم أقبل علي فقال: قد كان رأيك صواباً، ولكننا أبيناه، ودعا مجزور
فنحروه، وقام فدعا بالطعام فأكل وأكلنا معه، وما تكلم بكلمة حتى انصرفنا،
ولم يزل مما احتج به يحيى بن يعمر واجماً.

فصل من القول في القضاء والقدر

(سؤال) إن قال قائل ما قولكم فيها، وما معناها عندكم وحقيقتها، وهل
أفعال العباد عندكم بقضاء الله وقدره أم لا، وما معنى الخبر المروي عن رسول
الله (ص) إنه قال حاكياً عن ربه جل وعز:

«من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليتخذ رباً سوائى»^(١).
وما روي عنه عليه السلام من أنه أوجب الإيمان بالقدر خيره وشره،
وأخبر أن الإيمان لا يتم إلا به.^(٢)

وما معنى قول المسلمين: إن الواجب الرضا بما قضاه الله وقدره؟؟؟
أبينوا لنا عن حقيقة ذلك ليحصل لنا العلم به.

الجواب

قلنا الواجب من هذه المسألة أولاً أن نذكر معاني القضاء والقدر ثم نبين ما

(١) رواه الصدوق في التوحيد ص ٣٧٩ على تغيير في بعض ألفاظه.

(٢) هو مضمون الحديث عن رسول الله (ص) لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه
ومره رواه في التوحيد ص ٣٨٨.

يصح أن يتعلق بأفعال العباد من ذلك وما لا يتعلق، ونجيب عن الخبر المروي عن رسول الله (ص) في ذلك بما يلاءم الحق.

أما القضاء فعلى أقسام:

منها ما يكون بمعنى الإعلام كقول الله تعالى:

«وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين» الحجر: ٦٦ أي أعلمناه، وقوله سبحانه:

«وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنَّ في الأرض مرتين» الإسراء: ٤.

أي أعلمناهم بذلك. ويكون القضاء أيضاً بمعنى الحكم والإلزام كقوله جل اسمه:

«وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» الإسراء: ٢٣.

أي حكم بذلك في التكليف على خلقه وألزمهم به.

فأما القدر فيكون بمعنى الكتاب والإخبار كما قال جل وعلا:

«إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين» الحجر: ٦٠.

يعني كتبنا وأخبرنا، ويكون القدر أيضاً بمعنى التبيين لمقادير الأشياء وتفاصيلها والإعلام باختلاف أحوالها.

ويكون القدر ترك الأشياء في التدبير على نظام ووضعها في الحكمة مواضعها من غير زيادة ولا نقصان، كما قال تعالى:

«وقدرَ فيها أقواتها» فصلت: ١٠.

فأما أفعال العباد فيصح أن نقول فيها، إن الله تعالى قضى بالطاعة منها، على معنى أنه حكم بها وألزمها عباده وأوجبها. وهذا إلزام أمر، وليس بإلجاء ولا جبر.

ونقول أيضاً: إنه سبحانه قدر أفعال العباد، بمعنى بيّن لهم مقاديرها من حسنها وقبحها، ومباحها وحظرها وفرضها ونفلها.

فأما القول بأنه قضاها على معنى أنه خلقها فغير صحيح، لأنه لو خلق الطاعة والمعصية لسقط اللوم [عن] العاصي، بموجب العدل ولم يكن معنى لإثابة الطائع في حجة ولا عقل.

ويقول في أفعال الله إنها كلها بقدره يريد أنها لا تفاوت فيها ولا خلل، وأنها بموجب الحكمة ملتئمة وعلى نسق الصواب منتظمة.

فأما الخبر المروي عن النبي (ص) من قوله حكاية عن الله سبحانه: «من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليتخذ رباً سوائى»^(١).

فهو واضح المعنى للعاقل. وهذا القضاء من الله تعالى، هو مما يبتلي به العبد، من إعلاله وأسقامه، وعوارضه وآلامه، وفقره بعد الغنى، وما [يبتحنه] من فقد الأعزاء والأقرباء. كل ذلك من قضاء الله الذي يجب الرضا به والصبر عليه، وهو مما يفعله الله سبحانه بعبد له للحكمة التي تقتضيه وما يعلمه الله عز وجل من الصلاح الذي لعبده فيه.

وكيف يقضي الله على العبد بالمعصية، وهي من الباطل الذي يعاقب عليه وقد قال الله عز من قائل: «والله يقضي بالحق». غافر: ٢٠.

وكذلك أقول في الخبر المروي عن النبي (ص) من إيجابه الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره. فالخير من القضاء والقدر هو ما مالت إليه الطباع [والتذت به] الحواس. والشر بالضد من ذلك، على ما تقدم به البيان.

وسمي أيضاً شراً، لما على النفس في تحمله من المشاق، وهو مما أجمع المسلمون عليه من الرضا بقضاء الله والتسليم لقدره.

ولو كان الظلم والغضب والكفر بالله عز وجل من قضاء الله وقدره، لوجب الرضا به وترك إنكاره. فلما رأينا العقلاء ينكرونه ولا يرضونه، ويعيبون على من رضي به ويذمون، علمنا أنه ليس من قضاء الله سبحانه.

(١) رواه الصدوق في كتاب التوحيد ص ٣٧٩ على تغيير في بعض ألفاظه.

أخبرني شيخنا المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان رضي الله عنه إجازةً، قال: حدثنا محمد بن عمر الحافظ إملاءً، قال: حدثنا أبو القاسم إسحاق بن جعفر العلوي، قال: حدثني أبي جعفر بن محمد بن علي عن سليمان بن محمد القرشي، عن إسماعيل بن أبي زياد، عن جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه عن جده عليهم السلام قال:

« دخل رجل من أهل العراق على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، فقال:

أخبرنا عن خروجنا إلى أهل الشام أبقضاء الله وقدره؟ فقال له أمير المؤمنين (ع):

يا شيخ، فوالله ما علوتم تلعةً ولا هبطتم وادياً إلا بقضاء من الله وقدره.

فقال الشيخ: عند الله أحسب عنائي يا أمير المؤمنين. فقال: مهلاً يا شيخ، لعلك تظن قضاءً حتماً وقدرًا لازماً؟

لو كان ذلك به، لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي والزجر، وسقط معنى الوعيد، ولم يكن على مسيءٍ لأئمة، ولا لحسنٍ محمّدة، ولكان الحسن أولى باللائمة من المذنب، والمذنب أولى بالإحسان من الحسن. تلك مقالة عبدة الأوثان وخصماء الرحمن، وقدرية هذه الأمة ومجوسها.

يا شيخ: إن الله كلف تخييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى بالقليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً. «ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار» ص: ٢٧

وجاء في الحديث رواية أخرى، أن الرجل قال له: فما القضاء والقدر الذي ذكرته يا أمير المؤمنين؟

فقال (ع): الأمر بالطاعة والنهي عن المعصية، والتمكين من فعل الحسنة وترك السيئة، والمعونة على القربة إلى الله، والخذلان لمن عصاه، والوعيد، والوعيد، والترغيب والترهيب. كل ذلك قضاء الله في أفعالنا وقدره لأعمالنا. فأما غير ذلك فلا تظنه، فإن الظن محبط للأعمال.

فقال الرجل: فَرَّجْتَ عني يا أمير المؤمنين وأنشأ يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم النجاة من الرحمن غفرانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك عنا فيه إحسانا
فليس معذرة في فعل فاحشة قد كنت راكبها فسقاً وعصيانا
لا لا ولا قائلاً ناهيه أوقعه فيها عبدت إذاً يا قوم شيطانا
ولا أحب ولا شاء الفسوق ولا قتل الولي له ظلماً وعدواناً^(١)

الحجاج يسأل عن القضاء والقدر

وذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي كتب إلى الحسن البصري^(٢)، وإلى واصل بن عطاء^(٣)، وعمرو بن عبيد^(٤) وعامر الشعبي^(٥)، فقال لهم: أخبروني بقولكم في القضاء والقدر، فكتب إليه الحسن البصري:

ما أعرف فيه إلا ما قاله علي بن أبي طالب (ع)، فإنه قال:
«يا ابن آدم، أزعمت أن الذي نهاك دهاك، وإنما دهاك أسفلك وأعلاك،
وربك بريء من ذاك».

وكتب إليه واصل بن عطاء:

- (١) تجد هذا الحديث مروياً في توحيد الصدوق ص ٣٨٨ - ٣٨٩ وأنظر: أمالي المرتضى ج ١ ص ١٥١، والفصول المختارة ج ١ ص ٤٠ - ٤٢ بزيادة أربعة أبيات.
- (٢) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار مولى زيد بن ثابت، وأمه خيرة مولاة أم المؤمنين أم سلمة زوج النبي (ص)، كان معدوداً في الزهاد، ومتهماً بالإنحراف عن علي (ع)، وكان كاتباً لوالي خراسان ربيعة بن زياد في زمن معاوية، وولي القضاء على البصرة في زمن عمر بن عبد العزيز، ثم استقال من تلك الوظائف، مجدداً نفسه لخدمة الأمويين، حتى لقبوه بسيد التابعين، نظراً لسعة معلومات، وتظاهرة بالتقشف والورع، ولكونه من محاسيب السلطة الأموية. عاش ٨٩ سنة ومات سنة ١١٠هـ، وعلى هذا تكون ولادته سنة ٢١هـ.
- (٣) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال (٨٠ - ١٣١هـ) من شيوخ المعتزلة وأعلامها البارزين، بل هو المؤسس لمذهب الإعتزال، وله آراء معروفة مذكورة في كتب الفرق.
- (٤) أبو عثمان عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤هـ) من أئمة الإعتزال ودعاتهم، وافق واصل بن عطاء في كثير من أصول المعتزلة.
- (٥) أبو عمرو عامر بن شراحيل الكوفي ينسب إلى شعب، بطن من همدان، من التابعين، كان فقيهاً شاعراً، وكان قاضياً على الكوفة، مات بالكوفة (سنة ١٠٤هـ).

ما أعرف فيه إلا ما قاله علي بن أبي طالب (ع) فإنه قال:
« ما تحمد الله عليه فإنه منه ، وما تستغفر الله عنه فهو منك » .
وكتب إليه عمرو بن عبيد:

ما أعرف فيه إلا ما قاله علي بن أبي طالب ، فإنه قال:
« إن كان الرزق في الأصل محتوماً ، فالوازر في القصاص مظلوم »
وكتب إليه عامر الشعبي:

ما أعرف فيه إلا ما قاله علي بن أبي طالب (ع)
« من وسع عليك الطريق لم يأخذ عليك المضيق »

فلما قرأ الحجاج أجوبتهم قال: قاتلهم الله ، لقد أخذوها من غير صافية .^(١)
وجاء في الحديث أن الحسن بن أبي الحسن البصري كتب إلى الحسن بن
علي بن أبي طالب (ع):
« من الحسن البصري إلى الحسن ابن رسول الله (ص) .

أما بعد فإنكم معاشر بني هاشم الفلك الجارية في اللجج الغامرة ، ومصاييح
الدجي وأعلام الهدى ، والأئمة القادة ، الذين من اتبعهم نجا ، والسفينة التي
يؤول إليها المؤمنون ، وينجو فيها المتمسكون ، قد كثر - يا ابن رسول الله -
عندنا الكلام في القدر ، وإختلافنا في الإستطاعة ، فتعلمنا ما نرى عليه رأيك
ورأى آبائك ، فإنكم ذرية بعضها من بعض ، من علم الله علمتم ، وهو الشاهد
عليكم ، وأنتم شهداء على الناس والسلام » .

فأجابه الحسن بن علي صلوات الله عليهما:

« من الحسن بن علي إلى الحسن البصري .

أما بعد فقد انتهى إلى كتابك عند حيرتك وحيرة من زعمت من أمتنا ،
وكيف ترجعون إلينا ، وأنتم بالقول دون العمل .

(١) من البعيد أن يكون الحجاج هو الذي وجه السؤال إلى مثل عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ،
اللذين ولدا عام ٨٠ هـ ، مع العلم أن الحجاج قُتِلَ سنة ٩٥ هـ ، حتى لو فرض أن سؤال الحجاج
لها كان في نفس السنة التي مات فيها ، حين يكون عمر كل من عمرو بن عبيد وواصل بن
عطاء خمسة عشر عاماً ، وبخاصة أنها لم يبرزوا بعد وهما في هذه السن المبكرة في المجال الفكري
والعلمي ، ومن هنا فالرجح أن يكون السائل شخصية أخرى غير الحجاج .

وأعلم أنه لولا ما تناهى إلي من حيرتك وحيرة الأمة قبلك لأمسكت عن الجواب، ولكني الناصح وابن الناصح الأمين.

والذي أنا عليه أنه من لم يؤمن بالقدر خيره وشره، فقد كفر، ومن حمل المعاصي على الله عز وجل فقد فجر. إن الله لا يطاع بإكراه، ولا يعصى بغلبة، [ولم يهمل العباد سدى من المملكة]، ولكنه عز وجل المالك لما ملكهم، والقادر على ما عليه أقدركم، فإن ائتمروا بالطاعة لم يكن الله عز وجل لهم صاداً، ولا عنها مانعاً، وإن ائتمروا بالمعصية فشاء سبحانه أن يَمَنَّ عليهم فيحول بينهم وبينها فَعَلَ، وإن لم يفعل فليس هو [الذي] حملهم عليها إجباراً، ولا ألزمهم بها إكراهاً، بل احتجاجه - جل ذكره - عليهم أن عَرَفَهم، وجعل لهم السبيل إلى فعل ما دعاهم إليه، وترك ما نهاهم عنه، والله الحجة البالغة والسلام». (١)

أبو حنيفة مع الإمام موسى بن جعفر

وروى محمد بن سنان عن داود بن كثير الرقي، أن أبا حنيفة قال لابن أبي ليلى مَرَّبْنَا إلى موسى بن جعفر (ع) لنسأله عن أفاعيل العباد - وذلك في حياة جعفر الصادق (ع) وموسى يومئذٍ غلام - فلما صار إليه سلما عليه، ثم قال له: أخبرنا عن أفاعيل العباد، من هي؟

فقال لها: إن كانت أفاعيل العباد من الله دون خلقه، فالله أعلا وأعز وأعدل من أن يعذب عبده على فعل نفسه، وإن كانت من خلقه فالله أعلا وأعز من أن يعذب عبده على فعل قد شاركهم فيه. وإن كانت أفاعيل العباد من العباد، فإن عذب فبعده، وإن غفر فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، ثم أنشأ يقول:

لم تخل أفعالنا اللاتي نذمُّ بها	إحدى ثلاث معان حين نأتيها
إما تفرد بارينا بصنعتها	فيسقط الذم عنا حين ننشئها
أو كان يشركنا فيها فيلحقه	ما سوف يلحقنا من لائمٍ فيها
أو لم يكن لإلهي في جنانيها	ذنب فما الذنب إلا ذنب جانيها (١)

(١) تجد هذه المراسلة في تحف العقول للحراي ص ١٦٢ مع بعض الاختلاف والزيادة.

(٢) روى ذلك الحراي في كتاب تحف العقول ص ٣٠٨ مختلفاً عن رواية المؤلف ودون ذكر =

كلام الصادق لزرارة

ومما حفظ عن الصادق (ع) في ذلك قوله لزرادة بن أعين:
« يا زرارة إني أعطيك جملةً في القضاء والقدر ، قال له زرارة: نعم ، جعلت فداك . قال :

« إذا كان يوم القيامة ، وجع الله الخلائق ، سألهم عما عهد إليهم ، ولم يسألهم عما قضى عليهم » .^(١)

فصل من كلام أمير المؤمنين وآدابه وحكمه (ع)^(٢)

لا رأي لمن انفرد برأيه ، ما عطب من استشار من شاور ذوي الألباب دُلَّ على الصواب .

النصح لمن قبله
رأي الشيخ أحب إلي من حيلة الشاب .
رب واثق خجل
للجاجة تسلب الرأي .
الطمأنينة قبل الحزم .
التدبير قبل العمل يؤمنك الندم .
من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ
من تحرى القصد خفت عليه المون
من كابد الأمور عطب
لولا التجارب عميت المذاهب
في التجارب علم مستأنف
في الثواني والعجز أنتجت الهلكة

= الأبيات . ورواه الشريف المرتضى في الأمالي ١٤٢ ص ١٥٢ وذكر أن مضمون الخبر قد نظمه بعضهم .

(١) هذا الحديث رواه الصدوق في التوحيد ص ٣٧٤ .

(٢) أكثر هذه الحكم موجودة في نهج البلاغة .

وهكذا أيضاً يجري الأمر في الجواب إن توجه إلينا السؤال عن سبب قعود أمير المؤمنين (ع) عن محاربة أبي بكر وعمر وعثمان، ولم يقعد عن محاربة من بعدهم من الفرق الثلاث^(١). والأصل في هذا كله واحد، وما ذكرناه فيه كافٍ للمستترشد.

فإن قال السائل لنا: جميع ما ذكرته من أفعال الله عز وجل فلا شبهة في أنه أعرف بالمصالح فيها، وأن الخلق لا يعلمون جميع منافعهم، ولا يهتدون إليها. وأما النبي (ع) وما جرى من أمره عام الحديبية فإنه علم المصلحة في ذلك بالوحي من الله سبحانه.

فمن أين لإمامكم علم المصلحة في ذلك وهو لا يوحى إليه؟ قيل له: إن كان إمامنا (ع) [إماماً] فهو معهود إليه، قد نُصَّ له على جميع ما يجب [تعويله] عليه، وأخذ ذلك وأمثاله عن آبائه عن رسول الله (ص). ولنا مذهب في الإمام، وعندنا أن الإمام (ع) يصح أن يلهم من المصالح والأحكام ما يكون هو المخصوص به دون الأنام.

ثم نتبرع بعدما ذكرناه بذكر السبب الذي تقدم فيه السؤال، وإن كان غير لازم لنا في الجواب.

فنقول: إن السبب في غيبة الإمام (ع) إخافة الظالمين له، وطلبهم بسفك دمه، وإعلام الله أنه متى أبدى شخصه لهم قتلوه، ومتى قدروا عليه أهلكوه، فحصل ممنوعاً من التصرف فيما جعل إليه من شرع الإسلام، وهذه الأمور التي هي مردودة إليه ومعول في تدبيرها عليه، فإنما يلزمه القيام بها بشرط [وجود] التمكن والقدرة وعدم المنع والحيلولة وإزالة المخافة على النفس والمهجة، فمتى لم يكن ذلك فالتقية واجبة، والغيبة عند الأسباب الملجئة إليها لازمة، لأن التحرز من المضار واجب عقلاً وسمعاً. وقد استتر النبي (ص) في غار حراء، ولم يكن لذلك سبب غير المخافة من الأعداء.

(١) وهم الناكثون من أهل البصرة والقاسطون معاوية وأصحابه، والمارقون هم أصحاب النهروان أي الخوارج.

فإن قال السائل: إن استتار النبي (ع) كان مقداراً يسيراً لم يمتد به الزمان، وغيبة صاحبكم قد تطاولت بها الأعوام.

قيل له: ليس القصر والطول في الزمان يفرق في هذا المكان، لأن الغيبين جميعاً سببهما واحد، وهي المخافة من الأعداء، فهما في الحكم سواء، وإنما قصر زمان إحداها القصر مدة المخافة فيها، وطول زمان الأخرى لطول زمان المخافة. ولو ضادت إحداها الحكمة وأبطلت الاحتجاج لكانت كذلك الأخرى.

فإن قال: فالأظهر إبداء شخصه، وإقام الحجة على مخالفه وإن أدى إلى قتله.

قيل لهم: إن الحجة في تثبيت إمامته قائمة في الأمة، والدلالة على إمامته موجودة ممكنة، والنصوص من رسول الله (ص) ومن الأئمة على غيبة مأثورة متصلة، فلم يبق بعد ذلك أكثر من مطالبة الخصم لنا بظهوره ليقتل. فهذا غير جائز، وقد قال الله سبحانه: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» البقرة: ١٦٥

وقال موسى عليه السلام: «ففررت منكم لما خفتكم» الشعراء: ٢١

فإن قال السائل: إن في ظهوره تأكيداً لإقامة الحجة، وكشفاً لما يعترض أكثر الناس في أمره من الشبهة، فالأوجب ظهوره، وإن قتل لهذه العلة.

قيل له: قد قلنا في النهي عن التفرير بالنفس ما فيه كفاية، ونحن نأتي بعد ذلك بزيادة، فنقول: إنه ليس كلما نرى فيه تأكيداً لإقامة الحجة فإن فعله واجب، ما لم يكن فيه لطف ومصلحة. ألا ترى إن قائلاً قال: لِمَ [لم] يعاجل الله تعالى العصاة بالعقاب والنقمة، ويظهر آياته للناس في كل يوم وليلة، حتى يكون ذلك أكد في إقامته عليهم الحجة، أليس كان جوابنا له مثل ما أجبنا في ظهور صاحب الغيبة، من أن ذلك لا يلزم ما لم [يفارق] وجهاً معلوماً من المصلحة.

وعندنا أن الله سبحانه لم يمنعه من الظهور وإن قتل إلا وقد علم أن مصلحة المكلفين مقصورة على كونه إماماً لهم بعينه، وأن لا يقوم غيره فيها

مقامه، فكَذلك أمره بالإستتار [في] المدة التي علم أنه متى ظهر فيها قتله الفجار.

فإن قال الخصم: هلا أظهره الله تعالى، وأرسل معه ملائكة تبيد كل من أراد به سوء، وتهلك من قصده بمكروه؟

قيل له: قد سألت الملحدة عن مثل هذا السؤال في إرسال الأنبياء (ع)، فقالوا لم لم يبعث الله تعالى معهم من الأملاك من يصد عنهم كل سوء يقصدهم به العباد؟ فكان الجواب لهم أن المصالح ليست واقعة بحسب تقدير الخلائق...^(١)، وإنما هي بحسب المعلوم عند الله عز وجل. وبعد فإن اصطلام^(٢) الله تعالى للعاصين ومعالجته بإهلاك سائر الظالمين، قاطع لنظام التكليف، وربما اقتضى ذلك عموم الجماعة بالهلاك. كما كان في الأمم السابقة في الزمان.

وهو أيضاً مانع للقادرين من النظر في زمان الغيبة المؤدي إلى المعرفة والإجابة، فقد يصح أن يكون فيهم ومنهم في هذه المدة من ينظر فيعرف الحق ويعتقده، أو يكون فيهم معاندون مُقرون، قد علم الله سبحانه أنهم إن بقوا كان من نسلهم ذرية صالحة، فلا يجوز أن يجرمها الوجود بإعدامهم في مقتضى الحكمة، وليس العاصون في كل زمان، هذا حكمهم، وربما علم ضد ذلك منهم، فاقترضت الحكمة إهلاكهم، كما كان في زمن نوح (ع)، حيث قال: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً» نوح: ٢٦ - ٢٧

فإن قال السائل: إن آباءه (ع) قد كانوا أيضاً في زمان مخافة وأوقات صعبة، فلم لم يستتروا؟ وما الفرق بينهم وبينه في هذا الأمر؟

قيل له: إن خوف إمامنا (ع) أعظم من خوف آبائه وأكثر. والسبب في ذلك، أنه لم يرو عن أحد من آبائه (ع) أنه يقوم بالسيف ويكسر تيجان

(١) هناك عدة كلمات غير واضحة المعنى.

(٢) الإصطلام الإهلاك.

الملك، ولا يبقى لأحد دولة سواه، ويجعل الدين كله لله. فكان الخوف المتوجه إليه بحسب ما يعتقد من ذلك فيه، وتطلعت نفوس الأعداء إليه، وتتبعته الملك أخباره الدالة عليه، ولم ينسب إلى أحد من آبائه شيء من هذه الأحوال. فهذا فرق واضح بين المخافتين.

ثم نقول بعد ذلك: إن من اطلع في الأخبار وسبر السير والآثار، علم أن مخافة صاحبنا (ع) كانت منذ وقت مخافة أبيه (ص)، بل كان الخوف عليه قبل ذلك في حال حمله وولادته. ومن ذا الذي خفي عليه من أهل العلم ما فعله سلطان ذلك الزمان مع أبيه وتبعه لأخباره، وطرحه العيون عليه، انتظاراً لما يكون من أمره، وخوفاً مما روت الشيعة أنه يكون من نسله، إلى أن أخفى الله تعالى الحمل بالإمام (ع)، وستر أبوه (ص) ولادته إلا عن اختصه من الناس، ثم كان بعد موت أبيه، وخروجه للصلاة ومضي عمه جعفر^(١) ساعياً إلى المعتمد^(٢) ما كان، حتى هجم على داره، وأخذ ما كان بها من أثاثه ورحله، واعتقل جميع نسائه وأهله، وسأل أمه عنه فلم تعترف به، وأودعها عند قاضي الوقت المعروف بابن أبي الشوارب^(٣)، ولم يزل الميراث معزولاً سنتين، ثم ما كان بعد ذلك من الأمور المشهورة التي يعرفها من إطلع في الأخبار المأثورة. وهذه كلها من أسباب المخاوف التي نشأت [بنشوء] [الرجل] الخائف، ثم بترادف الزمان لعظم ذكره على لسان المؤالف والمخالف.

ومع ذلك فإن النصوص قد نطقت بذكر مخافته، كما تضمنت نعت استتاره وغيبته، منها ما هو مجمل، ومنها ما هو مفصل.

فروي عن أمير المؤمنين (ع) إنه ذكر المهدي (ص) فقال:

(١) هو جعفر بن الإمام علي الهادي المعروف عند الشيعة بجعفر الكذاب ادعى الإمامة ثم بطل أمره.

(٢) هو الخليفة المعتمد على الله من ملوك بني العباس.

(٣) هو أحمد بن محمد بن عبد الله الأموي قاضي بغداد من عهد المتوكل إلى زمن المقتدر توفي سنة ٣٠٧ هـ.

«صاحب الأمر هو الشريد الطريد الفريد الوحيد»^(١)

وقال (ص):

اللهم إنك لا تخلي الأرض من حجة لك على خلقك، ظاهراً موجوداً، أو خائفاً مغموراً، كي لا تبطل حججك وبيّناتك.^(٢)

ومن ذلك قول الإمام الصادق (ع) وقد ذكر عنده المهدي (ص) فقال:

«إن للغلام غيبة قبل أن يقوم، فقال له زرارة: ولم؟ قال: يخاف على

نفسه»^(٣)

وقول أبيه الباقر (ع):

في صاحب هذا الأمر أربع سنين من أربعة أنبياء، سنة من موسى (ع)، وسنة من عيسى، وسنة من يوسف، وسنة من محمد صلى الله عليه وآله وعلى جميع الأنبياء. فأما موسى فخائف، وأما عيسى فيقال مات ويقال لم يمت، وأما يوسف فالغيبه عن أهله بحيث لا يعرفهم ولا يعرفونه، وأما محمد (ص) فالسيف»^(٤) وفيما أوردناه مقنع والحمد لله.

فصل من مسائل الفقه المستطرفة

مسألة: إمراة طلقها زوجها، ومضت في عدتها حتى قاربت النصف، فلما انتهت إلى ذلك وجب عليها استئناف العدة من أولها من غير أن تكون أخلّت فيما مضى بشيء من حدودها.

(١) رواه الصدوق في إكمال الدين ص ٢٩٨ يسنده عن حنان بن السدير عن علي بن الحرد وعن الأصابع عن علي ص ٢٤١.

(٢) تجد هذا الحديث مروياً في إكمال الدين للصدوق من أكثر من عشرة طرق أنظر ص ٢٨٤ - ٢٨٨.

(٣) رواه الصدوق في إكمال الدين ص ٣٣٢ بسنده عن عبد الدين بكر عن رزادة، وذكر القائم بدل القلام.

(٤) رواه الصدوق في الكتاب المذكور ص ٣١٧. يسنده عن أبي بصير وكذلك في ص ٣٢٠ بسنده عن أبي بصير أيضاً باختلاف في بعض ألفاظه.

الجواب: هذه جارية لم تبلغ الحيض ومثلها في السن من تحيض، طلقها زوجها، فوجبت العدة بالشهور عليها، فلما مضت في عدتها قريب الشهر ونصف حاضت، فوجب عليها الغاء ما مضى واستئناف العدة بالحيض.

وفي هذه من العامة خلاف ووافق.

مسألة: إمراة طلقها زوجها فوجبت عليها العدة أياماً معلومة، فعمد إنسان إلى طاعة الله تعالى ففعلها، فوجب على المرأة عند فعل الطاعة من العدة في الأيام مثل ما كان لزمها.

الجواب: هذه إمراة طلقها زوج كان لها، فحاضت حيضين في شهر واحد، فلما كان قبل تقضي الشهر بيوم أو يومين قبل أن تطهر من الحيضة الثانية، أعتقها مولاهما، فوجب عليها عدة الحرة ثلاثة قروء، فلم تستوف ذلك حتى كملت ثلاثة أشهر.

وفي هذا الجواب خلاف من بعض العامة أيضاً.

مسألة أخرى: رجل تزوج إمراة على مهر غير موزون ولا مكيل، ولا مسح، ولا هو جسم، ولا جوهر ولا شيء من الأموال والعروض، فتم نكاحه بذلك وكان مصيباً.

جواب: هذا العاقد على سورة أو آية من كتاب الله تعالى. والشيعه مجمعة على هذا، وبعض العامة يوافق عليه.

مسألة: إمراة أجنبية من رجل، قالت قولاً حل له به فرجها من غير مهر ولا أجر ولا عقد أكثر مما تقدم منها من القول.

جواب: هذه المرأة التي وهبت نفسها للنبي (ص)، فنزل القرآن بقصتها وتحليلها له، وتحريم ذلك على غيره، وجعلها الله سبحانه خالصة له من دون المؤمنين. (١)

(١) مصدره من الآية ٥٠ من سورة الأحزاب، وهو قوله سبحانه: «وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين...»

وليس في هذا الجواب خلاف بين المسلمين.

مسألة: إمراة، عدتها ساعة من الزمان.

جواب: هذه امراة حامل، فولدت بعد ساعة من الطلاق. والقول في ذلك أيضاً إجماع.

مسألة: تزوج رجل إمراة على ألف درهم، ثم طلقها فوجب له عليها ألف وخمماية درهم.

جواب: هذه المرأة قبضت من زوجها جميع مهرها وهو ألف درهم، ثم أشهدت على نفسها بعد قبضها له أنه صدقة عليه، فلما عرف الرجل ذلك طلقها قبل أن يدخل بها، فوجب عليها الألف درهم بالصدقة، وخمماية درهم نصف ما فرضه لها من الصداق، وهذا أيضاً جواب عليه الإتفاق.

فصل من كلام أمير المؤمنين (ص) في ذكر النساء

إياك ومشاورة النساء إلا من جربت بكمال عقلها، فإن رأين يجر إلى الألفن^(١) وعزمهن إلى وهن. وقصر عليهن أجنحتهن فهو خير لهن. وليس خروجهن بأشد عليك من دخول من لا يوثق به عليهن. وإن استطعت أن لا يعرفن غيرك وأفعل.

لا تملك المرأة أمرها ما يجاوز نفسها فإن ذلك أنعم لبالها وبالك. وإنما المرأة رجحانة وليست بقهرمانة، ولا تطعها أن تشفع لغيرها، ولا تطيلن الخلوة مع النساء فيملنك وتملن، واستبق من نفسك بقية.

وإياك والتغاير في غير موضع غيرة، فإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم، وإن رأيت منهن زينة فعجل النكير وأقل الغضب عليهن إلا في عيب أو ذنب. وقال:

(١) الألفن ضعف العقل.

لا تطيعوا النساء على حال، ولا تأمنوهن على مال، ولا تثقوا بهن في
الفعال، فإنهن لا عهد لهن عند عامدهن ولا ورع عند حاجتهن، ولا دين لهن عند
شهوتهن، يحفظن الشر وينسين الخير. فالطفوا لهن على كل حال لعلهن يُحسنَّ
الفعال. (١)

فصل مما روى عن المتقدمين في ذكر النساء

قيل لسقراط ما تقول في النساء؟

فقال: ما استرعين شيئاً قط إلا ضاع، ولا قدرن على شيء وكففن عنه
وقيل له: كيف يجوز أن تذم النساء، ولولا لهن لم تكن أنت ولا أمثالك من
الحكماء؟

فقال: إنما مثل المرأة كمثل النخلة ذات السلا، (٢) إن دخل يد الإنسان فيه
عقره، وحملها الرطب الجني.

وقيل له: كيف تصير عن النساء وطيبهن؟

فقال: هن كالعسل أديف فيه سم قاتل، فمن أكله استلذ به ساعة أكله،
وفيه هلاكه إلا الأبد.

ونظر بعض الحكماء إلى امرأة معلقة في شجرة، فوقف تحتها يبكي، فقال
له بعض تلامذته: أيها الحكيم، تبكي لهذه البائسة؟

فقال: والله ما بكائي رحمةً مني لها

قيل له: فمم بكائك؟

قال: أسفاً مني، كيف لا أرى كل الشجر يحمل من هذا الثمر.

وقال ديوجانس لبعض تلامذته، وقد نظر إلى امرأة حسناء متبرجة في
طريقه: تنحوا عن هذا الفخ الذي قد نصب نفسه لهلاك الخلق.

(١) هذا من وصايا الإمام (ع) لولده الحسن (ع) وهو مذكور في نهج البلاغة.

(٢) هو شوك النخل.

وقيل لسقراط: لم لا تتزوج؟

فقال: إن كان ولا بد فعلى الصفة التي أصفها لكم.

قالوا: صف، فلم يترك شيئاً من السجاجة والقباحة إلا وصفه.

ف قيل له: أيها الحكيم: لقد ناقضت أولى الألباب في صفتك.

فقال: أَلستم تعلمون أنه شر، فشر صغير خير من شر كبير.

ونظر آخر إلى امرأةٍ تحمل ناراً، فقال: الحامل شر من الحمل.

ونظر إلى امرأة تعلم الكتابة، فقال: أفعى يزداد سماً.

وبنى رجل داراً وكتب على بابها: لا يدخل شيء من الشر، فقيل له: فامراتك من أين تدخل.

ونظر بعض الحكماء إلى تلميذٍ له ينظر إلى امرأةٍ حسناء، فقال له:

احذر أن تقيدك بشركها فتهلك.

فقال التلميذ: إنما أنظر إلى آثار حكمة الصانع فيها.

فقال له: أنظر إلى آثار حكم الصانع فيما لا تشتهيهِ نفسك، أسلم لك.

فصل من ذكر المرضى والعبادة

قال رسول الله (ص):

الحمى تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد.

وقال الصادق (ع):

ساعات الآلام يذهبن بساعات الخطايا.

وقال (ع):

إن العبد إذا مرض أوحى الله تعالى إلى كاتب الشمال:

«لا تكتب على عبدي خطيئةً ما دام في حبسي ووثاقي إلى أن أطلقه،

وأوحى إلى كاتب اليمين: أن اجعل أنين عبدي حسنات.»

وروي أن نبياً من الأنبياء مر برجلٍ قد جهده البلاء ، فقال :
يا رب ، أما ترحم هذا مما به ، فأوحى الله إليه :
« كيف أرحمه مما به أرحمه » .

وروي أنه لما نزلت هذه الآية :
« ليس بأمانيكُم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به » سورة
النساء : ١٢٣

فقال رجل لرسول الله (ص) : يا رسول الله ، جاءت قاصمة الظهر .
فقال (ع) : كلا ، أما تحزن ، أما تمرض ، أما تصيبك اللأواء^(١) والهموم؟؟
قال : بلى ، قال : فذلك مما يجزي به .

وروى جابر بن عبد الله الأنصاري : أن رسول الله (ص) قال :
« عايد المريض بخوص في البركة ، فإذا جلس انغمس فيها »
وقال عليه السلام :

« إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل ، فإن ذلك لا يرد شيئاً ، وهو
يطبب النفس »
أنشد لبعضهم

حق العبادة يوم بين يومين وجلسة لك مثل الطرف بالعين
لا تبرمن مريضاً في مسائلية يكفيك [تسأله من ذا] بحرفين^(٢)

فصل من خطبة لرسول الله (ص) في ذكر الموت والوعظ
« يا أيها الناس : كأن الموت على غيركم كتب ، وكأن الحق على غيركم وجب ،
وكان الذي نشيع من الأموات سَفَرٌ عما قليل إلينا راجعون ، نبؤهم أجداثهم ،
ونأكل تراثهم ، كأنا مخلصون بعدهم ، قد نسينا كل واعظة ، وأمنّا كل جائحة .
طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب غيره ، يؤأفق ما اكتسب في غير معصية ،

(١) الشدة وضيق المعيشة ، ويطلق ويراد به القحط .

(٢) في النسخة : هكذا يكفيك من ذاك تسأله بحرفين ، وهو لا يستقيم وزناً وهو خطأ من الناسخ .

ورحم أهل الضعف والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة، طويى لمن أذل نفسه، وحسنت خليقته وصلحت سريرته، وعزل عن غيره شره، وانفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنة، ولم يدعها إلى البدعة»^(١).

فصل مما روي في القبور والدفائن

وجد على قبر مكتوباً:

قهرنا الأعداء، وبنينا الحصون والدفائن، واقتصرنا على ما ترون.

ووجد على آخر مكتوباً:

الدنيا فانية، والآخرة باقية، والناظر إلينا لاحق بنا.

ذكروا أنهم رأوا على قبر أبي نؤاس هذه الأبيات، وهن لأبي العتاهية:

وعظمتك أجدات صُمت ونعتك أزمنة خُفت
وتكلمت عن أعين تبلى وعن صُورٍ سُبُت
وأرتك قبرك في القبور وأنت حي لم تمت
وروى أنس بن مالك، قال: إن رسول الله (ص) قال: «كان تحت الجدار الذي ذكره الله تعالى في كتابه:

«وكان تحته كنز لهما» الكهف: ٨٢.

لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجباً لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، وعجباً لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن قلبه إليها، لا إله إلا الله»^(٢)

وروى عن ابن عباس رحمه الله في حديث، ذكر فيه إتيان رجل جهنمي إلى رسول الله (ص)، وإسلامه على يده، وأنهم تحدثوا يوماً في ذكر القبور، والجهنمي حاضر، فحدثهم أن جهينة بن القوصان أخبره عن أشياخه، أن سنة^(٣)

(١) تجده هذه الخطبة في تحف العقول، وفي أعلام النبوة للهاوردي مختصراً.

(٢) رواه الطبرسي في مشكاة الأنوار ص ٢٧٣ عن الإمام الرضا (ع).

(٣) أي سنة مجدية

نزلت بهم، أكلوا فيها ذخائرهم، فخرجوا من شدة الأزل^(١). وهم جماعة في طلب النبات، فجنهم الليل، فأووا إلى مغار، وكانت البلاد مسبعة، وهم لا يعلمون، قال رجل منهم يقال له مالك، قال: رأينا في الغار أشبالاً، فخرجنا هاربين، حتى دخلنا وهدة من وهاد الأرض، بعدما تباعدنا من ذلك الموضع، فأصبنا على باب الوهدة حجراً مطبقاً، فتعاوننا عليه حتى قلبناه، فإذا رجل قاعد، عليه جبة صوف، وفي يده خاتم عليه مكتوب:

«أنا حنظلة بن صفوان رسول الله».

وعند رأسه كتاب في صحيفة نحاس، فيه: بعثني الله إلى حير وهمدان والعزير من أهل اليمن بشيراً ونذيراً، فكذبوني وقتلوني، فأعادوا الصخرة إلى ما كانت عليه في موضعها.

وروى الأصمغ بن نباتة في حديث رجل من حضرموت، أتى أمير المؤمنين (ع) أيام أبي بكر فأسلم على يده، قال: فسأله أمير المؤمنين (ع) يوماً ونحن مجتمعون للحديث، فقال له:

أعالم أنت بحضرموت؟

فقال: الرجل: إن جهلتها لم أعلم شيئاً.

قال: أفتعرف موضع الأحقاف؟

قال: كأنك تسأل عن قبر هود النبي (ع)؟

قال: لله درك، ما أخطأت.

قال: نعم. خرجت في عنفوان شيبني في غلمة من الحي، ونحن نريد قبره، لبعصوته فينا، وكثرة من يذكره، فسرنا في بلاد الأحقاف أياماً، وفينا رجل قد عرف الموضع، حتى انتهى بنا ذلك الرجل إلى كهف، فدخلنا وأمعنا فيه طويلاً، فانتهينا إلى حجرين قد أُطبق أحدهما فوق الآخر، وبينهما خلل، يدخل الرجل النحيف، فتحارفت فدخلت، فرأيت رجلاً على سرير، شديد الأدمة، طويل الوجه، كث اللحية، قد تيس، فإذا مسست شيئاً من جسده

(١) الأزل: الشدة

أصبته صلباً لم يتغير، ورأيت عند رأسه كتاباً بالعبرانية فيه مكتوب:
«أنا هود النبي آمنت بالله، وأشفقت على عاد بكفرها، وما كان لأمر الله
من مرد».

فقال لنا أمير المؤمنين (ع): وكذلك سمعت من أبي القاسم (ص).
وروى عبد الرحمن بن زياد الإفريقي قال:

خرجت بأفريقة مع عم لي إلى مزروع لنا، قال: فحفرنا موضعاً فأصبنا
تراباً هشاً، فطمعنا فيه، فحفرنا عامة يومنا حتى انتهينا إلى بيت كهينة
الأزج، فإذا فيه شيخ مسجى، وإذا عند رأسه كتابه، فقرأتها، فإذا هي:

أنا حسان بن سنان الأوزاعي رسول شعيب النبي (ص) إلى أهل هذه
البلاد، دعوتهم إلى الإيمان بالله، فكذبوني وحسبوني في هذا الحفير، إلى أن
يبعثني الله فأخاصمهم إليه يوم القيامة.
سالم الأعرج مولى بني زريق قال:

حفرنا بئراً في دور بني زريق، فرأينا أثر حفرة قديم، فعلمنا إنه حفر قديم
مستأثر، فحفرنا فأفضينا إلى صخرة عظيمة، فقلبناها، فإذا تحتها رجل قاعد
كأنه يتكلم، فإذا هو لا يشبه الأموات، فأصبنا فوق رأسه كتاباً، فيها:

أنا قادم بن اسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، هربت بدين الحق من
(أيتملك) الكافر، وأنا أشهد أن الله حق ووعدته حق، لا أشرك به شيئاً، ولا
أأخذ من دونه ولياً.

وعبد الله بن موهب قال:

أصاب بعض عمال معاوية محفراً بمصر، احتفروه بعض أهلها لحاجتهم،
فأفضى بهم ذلك إلى مخضب عظيم مطبق، فظنوه مالاً، فبعث العامل إليه
أمناء ليحضروا ما فيه، فلما فتحوا أصابوا شاباً، عليه جبة صوف، وكساء
صوف، وخف إلى نصف ساقه، وأصابوا عند رأسه كتاباً بالعبرانية، فيه:

أنا حبيب بن نوبا جر صاحب رسول الله موسى بن عمران (ع). من أحب أن يأخذ بالناموس الأكبر، فليخالف بني إسرائيل، فإنهم قد تواكلوا الحكم، وعملوا بالهوى، وباعوا الرضا وتركوا المنهاج الذي أخذ عليه ميثاقهم.

عبدالله بن موهب عن بعض أشياخه:

إن مسجد الرملة لما حفر أساسه في دار معاوية بن أبي سفيان، انتهى بهم الحفر إلى صخرة، فقلعوها فإذا تحتها شاب دهن الرأس موفر الشعر قائم مستقبل القبلة، فكلموه فلم يكلمهم، فكتب بذلك إلى معاوية، قال فخرجنا بالكتاب في خمسة، فأتينا معاوية، فأخبرناه بذلك ودفعنا إليه الكتاب، فأمر أن ترد الصخرة إلى حالها، وأن يعيدوه على حاله كما كان.

وحدثهم غير واحد:

أنه لما أجرى معاوية بن أبي سفيان القناة التي في (أحد)، أمر بقبور الشهداء فنبشت، فضرب رجل بمعوله فأصاب إبهام حمزة رضي الله عنه، فأنحبس الدم في إبهامه، فأخرج رطباً يتثنى، وأخرج عبدالله بن عمرو بن الجموح، وكانا قتلا يوم (أحد) وهما [رطباً..] بعد أربعين سنة، فدفنا في قبر واحد. وكان عمرو بن الجموح أعرج، فقال أبو سعيد الخدري^(١): إنه لشيء لا أمر بعده بمعروف ولا أنهى عن منكر.

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك احتاج إلى رصاص أيام بنى مسجد دمشق، ف قيل له إن في الأردن منارة فيها رصاص فابعث إليها، فبعث إليها، فلما أخذوا في حفرها ضرب رجل بمعوله فأصاب رجلاً في سبط^(١)، وناول المعول، فسأل دمه، فسأل عنه فقيل: هذا طالوت الملك، فتركه ولم يخرج به.

وذكروا: إن سليمان بن عبد الملك، مر بوادي القرى، فأمر بحفر يحفر فيه ففعلوا فأنتهى فيه إلى حجرة فاستخرجت، فإذا تحتها رجل عليه قميصان

(١) كذا في النسخة.

واضح يده على رأسه، فجذبت يده فمخ مكانها دم، ثم تركت فرجعت إلى مكانها فرقا الدم، وإذا معه كتاب فيه:

أنا الحرث بن شعيب الغساني رسول شعيب إلى أهل مدين فكذبوني وقتلوني.

مسألة من عويص الفقه لأبي النجا محمد بن المظفر

ذكروا أن أبا النجا سئل عن معن هذين البيتين:

أتعرف خالاً أحرز المال كله ففاز به من دون عمٍ وما غصب
وما الخال عم الميت حين نعته ولكنه أدنى وأولى إذا نسب
فأجاب:

تفهم جواباً تستفد بافتهامه غرائب علم طارفٍ حين يكتسب
هو ابن أخيه من أبيه وخاله لأم فخذ قولاً يفهم ذا الأدب
وذلك لما زوجت أم أمه أخاه يقيناً من أبيه إذا انتسب
فجاءته بابتن فهو لا شك خاله لأم وسنخ القوم وابتن أخ لأب
فأحرز إرث العم من دون عمه كذلك يقضي ذو التفقه والأدب

تفسير الجواب

هذا رجل تزوج أخوه لأبيه، جدته أم أمه، فجاءت بابتن، فهو خاله لأمه، وهو ابن أخيه لأبيه، فلما مات عن عمه - وهذا الحال - كان أولى بالميراث من العم، لأنه ابن أخ.

وفيه وجه آخر فيقال: رجل تزوج امرأة، وزوج ابنته من أمها، فجاءت كل واحدة منهما بابتن، فابتن الكبرى هو خال ابن الصغرى، وهو ابن أخيه لأبيه.

وقد روي أن مثل هذا اتفق في أيام عبد الملك بن مروان، وأنه دخل إليه رجل من أهل الشام، فقال له: يا أمير المؤمنين، إني تزوجت امرأة، وزوجت ابني أمها، ولا غنى بنا عن رفدك، فقال له عبد الملك: إن أخبرتني ما قرابة ما بين أولادكما إذا ولدتما فعلت؟

قال: يا أمير المؤمنين، هذا حميد بن مجدل، قد قلدته سيفك، ووليته ما وراء بابك فأسأله عنها، فإن أصاب لزمني الحرمان، وإن أخطأ اتسع لي العذر. فدعابالمجدلي، فسأله عنها، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك ما قدمتي على العلم بالأنساب، ولكن على الطعن بالرماح، ثم قيل له الجواب، وهو أن أحدهما عم الآخر والآخر خاله.

مسألة: تزوج زيد امرأة، وزوج ابنه عمراً ابنتها، فرزقا منها ولدين، ما قرابة ما بين الولدين؟

الجواب: إن ولد زيد من المرأة هو عم ولد عمرو من بنتها، وخاله أيضاً، لأنه أخو أبيه من أبيه، وأخو أمه من أمه، والآخر ابن أخيه وابن أخته.

مسألة أخرى: تزوج زيد امرأة وزوج ابنه عمراً أختها، فرزقا منها ولدين. فما قرابة ما بين الولدين.

جواب: إن ابن زيد عم ابن عمرو وابن خالته، وابن عمرو ابن أخيه^(١) وابن خالته.

فصل

حدثني أبو سعيد أحمد بن محمد بن أحمد الماليني الهروي بالرملة في شوال سنة ست عشرة وأربعماية، قال: أخبرنا أبو عمرو إسماعيل بن مجيد إملاءً، قال: حدثنا علي بن الحسن بن الجنييد الرازي، قال: حدثنا المعافا بن سليمان، قال: حدثنا زهير بن معاوية، قال: حدثنا محمود بن حجارة، إن أبان حدثه قال: حدثني أنس بن مالك، قال: كان رسول الله (ص) يدعو في أثر الصلاة فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع. اللهم إني أعوذ من هؤلاء الأربع».

٢٠

(١) في النسخة ابن خالة وهو خطأ من الناسخ.

وأخبرني شيخني أبو عبدالله الحسين بن عبيد الله بن علي الواسطي^(١) رضي الله عنه ، قال: أخبرني أبو محمد هارون بن موسى التلعكبري^(٢) ، قال: أخبرني أبو علي محمد بن همام^(٣) بن سهل ، قال: حدثنا جعفر بن مالك ، قال: حدثنا محمد بن الحسن الزيات ، قال حدثنا حسن بن محبوب ، عن علي بن أبي حمزة ، عن أبي بصير ، قال: قال أبو جعفر (ع) ، كان من دعاء أمير المؤمنين صلوات الله عليه :

« إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً ، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً ، إلهي أنت لي كما أحب ، وفقني لما تحب »^(٤).

تم الجزء الاول من كتاب كنز الفوائد

-
- (١) هو العالم المعروف بابن الواسطي كما حكاه فخار بن معد في كتابه (حجة الذاهب) عن تلميذه الكراجكي ، وهو صاحب كتاب (من أظهر الخلاف لأهل البيت) الذي ينقل عنه ابن طاووس في رسالته (غياث سلطان الوري) في الموسعة (طبقات ج ٢ ص ٦٤).
 - (٢) الشيباني من وجوه الأصحاب وثقاتهم مات سنة ٣٨٥ هـ وهو من تل عكبرى بلدة من نواحي دجيل بينها وبين بغداد عشرة فراسخ .
 - (٣) هو أبو علي محمد بن أبي بكر همام بن سهيل الكاتب الأسكافي من شيوخ الشيعة ومتقدميهم له منزلة عظيمة ، كثير الحديث ولد يوم الإثنين لست خلون من ذي الحجة سنة ٢٥٠ هـ وتوفي يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ٣٣٦ هـ عن رجال النجاشي .
 - (٤) رواه الشيخ المفيد من كتاب الخصال ج (١) ص: ١٨٦ .

صدر للمعلق

- (١) سياسة الخلفاء الراشدين في الموازين النفسية.
- (٢) الأدب في ظل التشيع ، طبعة ثانية.
- (٣) هشام بن الحكم ، طبعة ثانية.
- (٤) فلاسفة الشيعة.
- (٥) مصادر نهج البلاغة.
- (٦) عقيدتنا ، طبعة ثانية.
- (٧) دليل القضاء الجعفري.

وسيصدر قريباً إن شاء الله تعالى:

- (٨) روح التشيع.
- (٩) الأدلة الجلية في شرح الفصول النصيرية.
- (١٠) ملحق أمل الآمل في تراجم علماء جبل عامل.
- (١١) الغيب وأنباء المستقبل في الإسلام.

❦

مراجع الكتاب

- | | |
|--|--|
| <p> اكمال الدين { للصديق القمي
 الآمال
 البيان والتبيين { للجاحظ
 رسائل الجاحظ
 الغيبة للطوسي
 لسان الميزان
 ديوان ابن الرومي
 ديوان الشريف الرضي
 الأربعين للمجلسي
 الأربعين للبهائي
 كشف الفوائد للعلامة الحلي
 عيون الأخبار لابن قتيبة
 مجمع البحرين
 صحيح البخاري
 فضائل الخمسة من الصحاح الستة
 معاهد التنصيص
 معجم رجال الحديث للسيد الخوئي
 وقعة صفين لابن مزاحم المنقري
 النجوم لابن طاووس
 فلاسفة الشيعة { للمعلق
 مصادر نهج البلاغة
 تثبيت دلائل النبوة للهمداني
 مقتضب الأثر لابن عياش
 مناقب المغازلي </p> | <p> طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي
 الأغاني للأصبهاني
 بحار الأنوار للمجلسي
 مناقب ابن شهر آشوب
 كشف الغمة
 شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
 سيرة ابن هشام
 حماسة أبي تمام
 إعلام الوري للطبرسي
 شرح التجريد للعلامة الحلي
 أمالي الشريف المرتضى {
 الفصول المختارة
 الكنى والألقاب للقمي
 مروج الذهب {
 التنبية والإشراف { للمسعودي
 اثبات الوصية
 طبقات الشعراء لابن قتيبة
 المحاسن والمساوي للبيهقي
 الخرايج والجرايج للراوندي
 الإفصاح
 الأمالي {
 الإرشاد
 الاختصاص
 فهرست ابن النديم
 التوحيد </p> |
|--|--|

فهرس الجزء الأول من الكتاب

٦٧	تأويل آية: وإذا المؤمنة سئلت	٧	مقدمة
٦٩	فصل في معرفة الاسم والصفة	١١	مؤلف الكتاب
٧١	أسماء الله وحقيقتها	١٦	شيوخ المؤلف وأساتذته
٧٣	فصل في تمييز صفات الله	١٨	تلاميذ المؤلف
٧٦	بيان صفات الأفعال	١٩	مؤلفاته
٧٧	فصل في فروق صفة الذات وصفة الفعل	٢٧	هذا الكتاب
٨٤	القول في الغضب والرضا	٣٣	مختصر من الكلام في أن للحوادث أولاً
٨٤	القول في الحب والبغض	٣٦	دليل آخر على تناهي ما مضى
٨٥	القول في سميع وبصير	٣٩	مسألة على الملحدة
٨٥	القول في الخالق	٤٠	مسألة أخرى عليهم
٨٦	فصل في صفة أهل الإيمان	٤٢	الشبهة
٨٩	خطبة أمير المؤمنين في وصف المتقين	٤٣	الجواب
٩٣	فصل من كلامه (ع)	٤٦	جواب آخر عنها
٩٤	فصل مما جاء نظماً في الأخوان	٤٩	مسألة في تأويل خير: لا تسبوا الدهر
٩٨	فصل في ذكر الأخوة والأخوان	٥٠	قصيدة ابن دريد
١٠٢	مسألة فقهية	٥٥	أحاديث عن رسول الله وعن الأئمة
١٠٣	شبهة المجبرة	٥٧	فصل مما ورد في القرآن
	فصل في الفرق بين مذهبا ومذهب	٦٠	مسألة من عويص النسب
١٠٦	المجبرة	٦١	فصل في ذكر الدنيا
١٠٨	قيح تكليف مالا يطاق	٦٢	فصل في ذكر الأمل
١٠٩	فصل من الكلام في القدرة	٦٣	فصل في ذكر الموت
١١٢	أفعال الإنسان	٦٦	فصل في الموت والقتل

مسألة على مبطل النظر وحجج العقل . ١٩٧	فصل في أن الله لا يريد من خلقه إلا الطاعة ١١٣
ما جاء في الحديث في العقل ١٩٨	أيراد على أهل الجبر ١١٤
كلام أمير المؤمنين في العقل ١٩٩	حكاية للمؤلف في مجلس بعض الرؤساء . ١١٥
من الاستدلال على صحة نبوة	جناية المجبرة على الإسلام ١١٦
رسول الله (ص) ٢٠٠	التجوز في التعبير بالإستطاعة عن
فصل مما جاء في التوراة يتضمن البشارة	الفعل وينفيها عن نفيه ١١٧
بنينا (ص) ٢٠٤	شبهة للمجبرة ١٢٠
فصل في الإنجيل ٢٠٥	من هم القدريّة ١٢٣
من أخبار الوافدين على رسول الله (ص)	تهمة المعتزلة للشيعة بالإرجاء ١٢٤
وما رأوه قبل قدومهم عليه.....	أغلاط المعتزلة ١٢٤
خبر اهبان بن أنس الأسلمي ٢٠٦	نظرية الأصلح ١٢٧
خبر ذباب ٢٠٧	نقوض على هذه النظرية مع دفعها ١٢٩
خبر زمل العدوي ٢٠٨	رأي الجبائي في الترك ١٣٢
خبر عمرو بن مرة الجهني ٢٠٩	مواعظ وكلمات في النهي عن الظلم ١٣٤
خبر ركانة ٢١١	كلمات لأمر المؤمنين وغيره في ذم الحسد ١٣٦
خبر أبي تيممة الهجيمي ٢١١	أقوال في الصبر ١٣٩
خبر أهيب بن سماع ٢١٢	قصة ذريب بن ثلثا ١٤١
فصل من كلام سيدنا رسول الله (ص) . ٢١٦	شرح قوله: ولعن آخر أمتكم أولها ١٤٤
فصل من البيان والسؤال ٢١٧	أحاديث ١٤٦
فصل من كلام جعفر بن محمد الصادق (ع) ٢١٩	رسالة للمؤلف اسمها: القول المبين عن
فصل آخر في السؤال والبيان ٢٢٠	وجوب مسح الرجلين ١٥١
شبهة للبراهمة في النبوة ٢٢٤	فصل في مولد رسول الله ١٦٤
مختصر من الكلام على اليهود في	فصل في ذكر شيء من معجزاته (ص) . ١٦٩
انكارهم جواز النسخ في الشرع ٢٢٥	فصل من البيان في إعجاز القرآن ١٧٤
فصل في ذكر البداء ٢٢٦	دليل على حدوث العالم ١٧٧
حكاية مجلس في البداء ٢٢٦	الأشعار المأثورة عن أبي طالب التي يستدل
فصل في منام لعبد المطلب ٢٣٣	بها على إيمانه ١٧٩
بيان عن قول النصارى ومسألة عليهم	أحاديث بصحة إيمانه ١٨٢
لا جواب لهم عنها ٢٣٥	فصل من أخبار عبد المطلب (رض) ١٨٤
فصل من الألفاظ التي يقرون أن	وفادة عبد المطلب على ابن ذي يزن ١٨٧
المسيح قالها ٢٣٨	خبر رؤيا ربيعة بن نصر اللخمي ملك
رسالة البيان عن جل اعتقاد أهل الإيمان . ٢٤٠	اليمن التي تأولها سطيح وشق ١٩٣
فصل في ذكر مولد أمير المؤمنين (ص) . ٢٥٢	دليل في تثبيت الصانع ١٩٥
كتاب الأعلام بحقيقة إسلام	مسألة على نفاة الحقائق ١٩٦

فصل من مستطربات مسائل الفقه.....	٣٤٠
أشعار وكلمات في الدنيا والزهد.....	٣٤١
فصل في تثبيت إمامة صاحب الزمان.....	٣٤٥
دليل على وجوب العصمة.....	٣٤٧
فصل من كلام الإمام علي (ع) وحديثه.....	٣٤٩
فصل من كلام سيدنا رسول الله (ص).....	٣٥٠
قصة وقعت للمؤلف بالقاهرة.....	٣٥٣
سؤال وجواب حول قوله تعالى: وإذ أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها.....	٣٥٤
سؤال المأمون للرضا (ع).....	٣٥٦
خبر يحيى بن معمر مع الحجاج.....	٣٥٧
فصل من القول في القضاء والقدر.....	٣٦٠
سؤال الحجاج عن القضاء والقدر.....	٣٦٤
أبو حنيفة مع الإمام موسى بن جعفر.....	٣٦٦
فصل من كلام أمير المؤمنين وآدابه	
وحكمه.....	٣٦٧
فصل من الكلام في غيبة الإمام (ع).....	٣٦٨
فصل من مسائل الفقه المستطرفة.....	٣٧٤
فصل من كلام أمير المؤمنين (ع) في ذكر النساء.....	٣٧٦
فصل مما روي عن المتقدمين في النساء.....	٣٧٧
فصل في ذكر المرضى والعيادة.....	٣٧٨
فصل من خطبة رسول الله (ص) في ذكر الموت.....	٣٧٩
فصل مما روي في القبور والدفائن.....	٣٨٠
مسألة من عويص الفقه لأبي النجا محمد ابن المظفر.....	٣٨٤
فصل من دعاء رسول الله (ص)	
وأمير المؤمنين (ع).....	٣٨٥

أمير المؤمنين (ع).....	٢٥٧
فصل من البيان عن أن المؤمنين (ع) أول بشر سبق إلى الإسلام بعد خديجة (ع).....	٢٦١
فصل في أن إسلامه كان عن بصيرة واستدلال.....	٢٧٢
فصل في البلوغ.....	٢٧٧
فصل من كلام أمير المؤمنين (ع) وحكمه.....	٢٧٨
فصل في فضل اقتناء الكتب.....	٢٨٢
فصل فيما حكاه المفيد في بعض كتبه.....	٢٨٤
فصل في الجواب عن ثلاث آيات.....	٢٨٦
ما وجده مكتوباً في الإنجيل.....	٢٩٢
قصة فضال بن الحسن بن فضال مع أبي حنيفة.....	٢٩٤
أحاديث حول فضل علي (ع).....	٢٩٥
فصل في واقعة الأحزاب.....	٢٩٧
فصل من كلام أمير المؤمنين (ع) وحكمه.....	٢٩٩
مسائل فقهية.....	٣٠٢
فصل في الوعظ والزهد.....	٣٠٤
مسألة فقهية لأبي النجا.....	٣٠٧
مجلس للمؤلف في ببليس.....	٣٠٨
فصل من المقدمات في صناعة الكلام.....	٣١٥
فصل من كلام أمير المؤمنين (ع).....	٣١٨
تأويل آية: حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور.....	٣١٩
فصل من التوراة في ذكر الفلك.....	٣٢١
رسالة للمؤلف في وجوب الإمامة.....	٣٢١
فصل من الحديث.....	٣٢٧
مسائل فقهية.....	٣٣١
حديث عن الزهري.....	٣٣٢
دليل من القرآن على إمامة أمير المؤمنين (ع).....	٣٣٤

منشورات دار الإفتاء ببيروت - لبنان

اسم الكتاب	المؤلف	اسم الكتاب	المؤلف
جوامع الجامع في تفسير القرآن	عبد الطهرسي	ضياء الصالحين	الجوهري
مصادر وأسانيد نهج البلاغة	عبد الزهراء الخطيب	عمار بن ياسر صدر الدين شرف الدين	الإسلام وأسس التشريع
شرائع الاسلام ١-٤	العلامة الحلي	عبد الحسن فضل الله	مقتل الحسين
جامع الرواة	الأردبيلي	عبد الله السبيتي	حجر بن عدي
معالم التوحيد	العلامة الشيخ جعفر سبحاني	عبد الله السبيتي	سلمان الفارسي
معالم الحكومة الاسلامية	جعفر سبحاني	عمار بن ياسر	مذهب أهل البيت
معالم النبوة	جعفر سبحاني	محمد الحيدري	كيف تكسب الأصدقاء
مفاتيح الجنان	عباس القمي	جعفر النقيدي	النكت الاعتقادية
الباقيات الصالحات	عباس القمي	محمد علي عابدين	علي الأكبر
الأنوار البهية	عباس القمي	محمد جواد مغنية	من ذا وذاك
فرق الشيعة	النوختي	محمد جواد مغنية	شبهات الملحدون
حق اليقين	العلامة عبد الله شير	جعفر سبحاني	مصدر الوجود
تذكرة الخواص	سبط بن الجوزي	بسام مرتضى	فلسفات إسلامية
ثواب الأعمال وعقابها	علي دجيل	محمد الخليلي	طب الإمام الصادق
مناقب الإمام علي	ابن المغازلي الشافعي	محمد أمين زين الدين	الأخلاق عند الإمام الصادق
أدعية وأعمال شهر رمضان	إعداد الدار	الحياة الجنسية في الإسلام	صباح السعدي
١٠٠ شاهد وشاهد	عبد الزهراء الخطيب	كشف الغمة في معرفة الأئمة	الأربلي
الاستنصار	الكراجكي	سعد السعود	ابن طاووس
الوصية الخالدة	عباس الموسوي	مناقب آل أبي طالب	ابن شهر آشوب
تلخيص المحصل	نصير الدين الطوسي	الفصول المختارة	الشيخ المفيد
معالم العلماء	ابن شهر آشوب	الانتصار	الشريف المرتضى
		مبادئ الوصول إلى علم الأصول	العلامة الحلي